كتاب الرّوضتين

في

أخبار الدّولتين

النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي

المعروف بأبي شامة

(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حقّقه وعلّق عليه

إبراهيم الزّيبق

الجزء الثّاني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الرّوضتين

في

أخبار الدّولتين

النُّوريّة و الصّلاحيّة

٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب: ١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت ـ لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112 - 319039 - 603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

ثم[1] دخلت سنة إحدى وستين [وخمس مئة][2]

ففيها توفي فتح الدين بن أسد الدين شِيركُوه؛ أخو ناصر الدين، وقبره بالمقبرة النجميَّة* إلى جانب قبر ابن عمه شاهِنْشاه بن أيوب[3] في قُبَّةٍ فيها أربعة قبور، هما الأوسطان منها.

وفي هذه الأخوين، ناصر الدين وفتح الدين، يقول العرقلة حَسَّان:

لله شِبْـــلا أَسَـــدٍ خـــادِرٍ[4] ... مـــا فيهمـــا جُبْـــنٌ ولا شُـــحُّ

مـــا أقبـــلا إلا وقـــال الـــورى ... قـد «جَـاءَ نَصْـرُ اللَّـهِ وَالْفَتْـحُ»[5]

وفيها سار نور الدين أيضاً إلى حصن المُنَيْطرة[6]، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، إنما سار إليه على غِرَّة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهز الفُرْصَة، وسار إلى المُنَيْطرة وحصرها، وجَدَّ في قتالها، وأخذها عَنْوَةً وقهراً، وقتل من بها، وسبى،

---

(١) في هامش (م): آخر الجزء الأول، قلت: كأن تجزئة هذه النسخة توافق تجزئتنا للكتاب، انظر ص١٠ من مقدمة الجزء الأول.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) انظر ص ١٩٧ ــ ١٩٨ من الجزء الأول.

(٤) أسد خادر: مقيم في عرينه. «اللسان» (خدر).

(٥) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٢٠. و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٩٣ ــ ١٩٤.

(٦) قرب طرابلس. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٢١٧.

وغنم غنيمة [كثيرة][1] لأَمْن مَنْ به[2]، فأخذتهم خيلُ الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لِدَفْعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا، وإنما ظنُّوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرَّقوا وأيسوا منه.

هذا قول ابن الأثير[3]، وذكر[4] القاضي ابن شداد[4] أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين كما سيأتي[5]، والله أعلم.

وفيها توفي الجليسُ بن الجَبَّاب[6] بمصر. قال العماد في «الخريدة»: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجَبَّاب الأغلبي السَّعْدي التَّميمي؛ جليس صاحب مصر، فضله مشهور، وشِعْرُه مأثور، وكان أوحد عصره في مِصْره نظماً ونثراً، ترسُّلاً وشعراً، ومات بها في سنة إحدى وستين، وقد أناف على السبعين. أنشدني له الأمير نجم الدين بن مَصَال[7] من قصيدةٍ [يقول فيها]:

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م) بها.
(٣) «الباهر»: ١٣١.
(٤) ما بينهما ساقط من (ل).
(٥) «النوادر السلطانية»: ٣٨، وانظر ص ١٦ من هذا الجزء.
(٦) في «خريدة القصر» الحباب ــ بالحاء المهملة ــ وفي (م) الجبار، والمثبت من الأصل و (ل)، وهو ضبط ابن خلكان أيضا. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٢٣، و «فوات الوفيات»: ٢/ ٣٣٢، وانظر ص ٢١١ من هذا الجزء.
(٧) سيرد التعريف به ص ٣٨٦ من هذا الجزء، وقد توفي سنة (٥٧٤ هـ) انظر ج ٣/ ١٥ من هذا الكتاب، وعن أبيه انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٢٦، وص ٢٥٨ من الجزء الأول.

ومن عَجَبٍ أَنَّ السيوفَ لديهمُ   تحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذكورُ
وأَعْجَبُ مِنْ ذا أَنَّها في أَكُفِّهِمْ   تأجَّجُ ناراً والأكُفُّ بُحُورُ[1]

قال: وأنشدني له الشَّريف إدريس الإدريسي[2] قصيدةً سيَّرها إلى الصَّالح بن رُزِّيك[3] قَبْلَ وزارته، يحرِّضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتَلَه وقتل أخويه يوسف وجبريل[4]، يقول فيها:

أصادِقُهُمْ قولاً وغيباً ومَشْهَداً   نَحَوْهم على عمدٍ بفعل أعادي[5]
فأين بنو رُزِّيك عنها ونصرُهُمْ   وما لهُمُ من مَنْعَةٍ وذِيادِ
تدارَكْ من الإيمان قَبْلَ دُثورِهِ   حُشَاشَةَ نَفْسٍ آذنَتْ بنفادِ
فلو عايَنَتْ عيناكَ بالقَصْرِ يومهمْ   ومَصْرَعَهُمْ لم تَكْتَحِلْ بِرُقَادِ

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٨٩ ـ ١٩٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) هو أبو الحسن، إدريس بن الحسن بن علي بن عيسىٰ، الإدريسي، الحسني، الإسكندراني ـ وفي نسبه نزاع ـ ولد في مصر سنة (٥٤٥ هـ)، ودخل حلب مراراً، أولها سنة (٥٥٩ هـ)، ثم سكن بها إلى حين وفاته سنة (٦١٠ هـ)، وقيل سنة (٦١١ هـ)، وكان فاضلاً أديباً، شاعراً مجيداً، عالماً بأيام العرب، قيماً بالتاريخ والأخبار، راوية للدواوين والأشعار، له مصنفات في الأنساب والتواريخ لم تصلنا بعد، سمع من الحافظ ابن عساكر وابنه القاسم، ومن القاضي الفاضل، وروى عنه العماد الكاتب والقاضي ابن الخشاب، والشريف أبو المحاسن عبد الله بن محمد الهاشمي، وابن أبي طي. وقد طعن في نسبه الشريف النسابة محمد بن أسعد المعروف بابن الجواني في قصة طويلة ذكرها ابن العديم. انظر ترجمته في «بغية الطلب» ٣/ ١٣٢٤ ـ ١٣٣٣، وانظر ص ٩٦، ٩٩ من هذا الجزء.

(٣) سلفت ترجمته ص ٣٩٠ من الجزء الأول.

(٤) انظر عن مقتل الظافر ص ٣٠٩ وما بعدها من الجزء الأول.

(٥) هذا البيت ليس في «الخريدة».

فَمَـزِّقْ جمـوعَ المـارِقيـنَ فـإنَّهـا بقـايـا زُرُوعٍ آذَنَـتْ بحصـادِ[1]

وله [فيه][2] من أخرى في هذه الحادثة:

ولمـا تَـرَامـى البَـرْبَـرِيُّ بجهلـه إلـى فَتْكَـةٍ مـا رامَهـا قَـطُّ رائِـمُ
رَكِبْـتَ إليـه مَتْـنَ عَـزْمَتِـكَ التـي بـأمثـالهـا تُلْقَـى الخطـوبُ العظـائـمُ
أَعَـدْتَ إليهـم مُلْكَهُـمْ بعـد مـا لـوى بـه غـاصِـبٌ حَـقَّ الإمـامـة ظـالـمُ[3]

وأنفذ إليه في المعنى:

أَعَدْتَ إلـى جِسْمِ الوِزَارة رُوْحَهَا وما كان يُرْجى بَعْثُها وَنُشورُها
أَقـامَـتْ زَمـانـاً عنـد غَيْـرك طـامثـاً فهذا الأوان[4] قَرْؤُها وطُهورُها[5]
مـن العَـدْلِ أن يجتـابهـا[6] مُسْتَحِقُّهـا ويخلَعَهـا مـردودةً مُسْتَعِيـرُهـا
إذا مَلَكَ الحسناءَ مَنْ لَيْسَ كُفْأها[7] أشـارَ عليـه بـالطَّـلاق مشيـرُهـا[8]

وله يشكو طبيباً:

وأَصْـلُ بَلِيَّتـي مَـنْ قـد غَـزَانـي مـن السُّقْـمِ المُلِـحِّ بِعَسْكَـرَيْـنِ
طبيـبٌ طِبُّـهُ كغُـرابِ بَيْـنٍ يُفَـرِّقُ بيـنَ عـافيتـي وبينـي

١/١٤٢

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٠.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٠ ــ ١٩١.
(٤) في هامش الأصل: خ الزمان؛ أي في نسخة أخرى، ومثله في «ديوان صردر»: ٦١.
(٥) في (م): فهذا أوانٌ قرَّ فيها طهورها.
(٦) أي يلبسها، وفي «خريدة القصر»: يحيا بها، وفي «ديوان صردر» من الحق أن يُحبى بها، وكلاهما تصحيف.
(٧) في (م) و «الخريدة» إذا خطب، وفي «الخريدة»: أهلها.
(٨) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٣.

أتى الحُمَّى وقد شاخت وباخَتْ | فَرَدَّ لها الشبابَ بِنُسْخَتَيْنِ
ودَبَّرَها بِتَدْبيرٍ لطيفٍ | حكاه عن سِنانٍ[1] أو حُنينٍ[2]
وكانتْ نوبةً في كلِّ يومٍ | فَصَيَّرها بحِذْقٍ نَوْبَتَيْنِ[3]

قلت: الأبيات الرَّائية تمثل بها الجليسُ، وهي لِصُرَّدُرّ[4]، قرأتها في «ديوانه»، وهي من قصيدةٍ مدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جَهير[5]، ويهنئه بعوده إلى الوزارة، وأول القصيدة:

لجاجةُ قَلْبٍ ما يُفيق غُرورُها | وحاجةُ نَفْسٍ ليس يُقضى يَسِيْرُها

وهي طويلة يقول فيها متغزلا[6]:

وقَفْنا صُفُوفاً في الدِّيارِ كأَنَّها | صحائفُ ملقاةٌ ونحن سُطُورُها
يقولُ خليلي والظِّباء سوانحٌ | أهذي التي تهوى؟ فقلتُ نَظِيْرُها
وقد قُلْتما لي ليس في الأرضِ جَنَّةٌ | أما هذه فوقَ الرَّكائبِ حُورُها؟

---

(١) هو سنان بن ثابت بن قرة، طبيب مشهور، توفي سنة (٣٣١ هـ). انظر ترجمته في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: ٣٠٠ ــ ٣٠٤.

(٢) هو حنين بن إسحاق، طبيب مشهور، توفي سنة (٢٦٤ هـ). انظر ترجمته في «عيون الأنباء»: ٢٥٧ ــ ٢٧٤، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٢١٧ ــ ٢١٨، وفيه أنه توفي سنة (٢٦٠ هـ).

(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٢ ــ ١٩٣.

(٤) هو علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي، أحد نجباء شعراء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى، وإنما قيل له صردر لأن أباه كان يلقب «صربعر» لشحه، فلما نبغ ولده المذكور وأجاد في شعره قيل له: صردر، توفي سنة (٤٦٥ هـ)، له ترجمة في «المنتظم»: ٨/ ٢٨٠ ــ ٢٨٢، و «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٨٥ ــ ٣٨٦، و «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤.

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٩٤ من الجزء الأول.

(٦) في (ل) في غزلها.

أراكَ الحِمى قُلْ لي بأيٍّ وسيلةٍ وَصَلْتَ إلى أَنْ صادَقَتْكَ ثُغُورُها!
وما لي بها عِلْمٌ فهل أنت عالِمٌ أَأَفْواهُها أَوْلَى بها أم نُحورُها
على رِسْلِكُمْ في الهَجْر[1] إنَّا عصابةٌ إذا ظَفِرَتْ في الحُبِّ عَفَّ ضَميرُها

ويقول في مديحها:

فقل للَّيالي كيفَ شِئْتِ تَقَلَّبي ففي يد عَبْلِ السَّاعِدَيْنِ أمورُها
أمانيُّ في نَفْسِ الوِزَارَةِ بُلِّغَتْ به كُنْهَها حتى استحقَّتْ نذورُها
لوَتْ وَجْهَها عن كلِّ طالبِ مُتْعةٍ إلى خاطبٍ حِلٍّ عليه سُفُورُها
إذا مَثَلَ الأقوام دون عَرينه تساوى به ذو طَيْشِها ووقورُها
تكاد لِما قد أُلبِستْ مِنْ سكينةٍ تَرِفُّ على تلك الرؤوس طيورُها[2]

ثم دخلت سنة اثنتين وستين [وخمس مئة][3]

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزالُ يحدِّث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدُّخول إليها، يتحدَّث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يهيِّجه على العود زيادة حقده على شاوَر وما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهَّز وسار إليها، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وفي ذلك يقول العرقلة:

أقول والأتراكُ قد أَزْمَعَتْ مِصْرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ

---

(١) في «الديوان»: الحب.
(٢) القصيدة بتمامها في «ديوان صردر»: ٥٦ ــ ٦٢، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٣ هـ ــ ١٩٣٤ م، وتعليق أبي شامة كله ساقط من (م).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

رَبِّ كما ملَّكْتها يوسف الصِّـ ـــدِّيقَ مِن أولادِ يعقوبِ
مَلِّكَها[1] في عَصْرِنا يوسفَ الصَّـ ـادِقَ مِن أولادِ أيوبِ
مَن لم يَزَلْ ضرَّابَ هامِ العِدَى حقًّا وضرَّابَ العَرَاقِيْبِ[2]

ثم إن أسد الدين جَدَّ في السير على البرّ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية وقصد إطْفِيْح*، وعبر النِّيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة[3] مقابل مصر، وتصرَّف في البلاد الغربية، وأقام بها نَيِّفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصَّعْب والذَّلُول، فتارةً يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدِّ والتشمير، وتارةً يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النُّوري على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم. فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي. وكان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرفُ بالبابَيْن، وسارت العساكر المصرية والفرنج وراءهم، فأدركوهم[4] به في الخامس والعشرين من جُمادى الأولى. وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدِّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم[5]، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم. إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن

١٤٣/١

---

(١) في (م): يملكها وقد حُرِّك آخر فعل الأمر لضرورة الشعر.
(٢) «ديوان عرقلة الكلبي»: ١٢ ــ ١٣.
(٣) في الأصل: الجزيرة، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر ص ١٨ من هذا الجزء.
(٤) في (م) فأدركهم، وفي «الباهر»: ١٣٢ فأدركوه.
(٥) في الأصل و(ل): قتالهم ولقائهم، والمثبت من (م) و «الباهر».

الثَّبات في هذا المقام الخطر[1] الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة؛ لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم، فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعُبُور النِّيل إلى الجانب الشَّرْقي والعَوْد إلى الشَّام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا ــ وهو الذي لا شك فيه ــ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟! وحُقَّ[2] لعسكرٍ عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارِهم ونأىٰ[3] ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم[4]. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزْغُش[5] ــ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور[6] ــ وقال: من يخاف القتل والجراح والأَسْر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلَبَةٍ وبلاءٍ تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموالَ المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرَّف فيها الكُفَّار؟! قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاحُ الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد

(١) في (ل) و (م): الخطير.
(٢) في (م) ويحق.
(٣) في الأصل و(ل) وقلَّ، والمثبت من (م) والباهر. .
(٤) في الأصل: عدوهم، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) استشهد بعد على الكرك سنة (٥٧٩ هـ) كما سيأتي ٣/ ١٩٦، وكان ممن أرسله نور الدين مع أسد الدين لفتح مصر سنة (٥٦٤ هـ)، انظر ص ٥٠ من هذا الجزء. وقد استأنسنا في ضبط اسمه بـ «تبصير المنتبه»: ٤/ ١٤٨٩.
(٦) في الأصل و(ل): وكان بالشجاعة من المكان المشهور، وفي (م) وكان بالشجاعة بالمكان المشهور. والمثبت من طبعة وادي النيل، و «الباهر»: ١٣٣.

جعل الأثقال في القلب يتكثَّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكانٍ آخر فينهبها أهل البلاد.

ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون[1] جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم. واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة. فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم. فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلَّف من الفرنج الذين حملوا على القلب ــ من المسلمين والفرنج ــ فهزمهم[2]، ووضعَ السَّيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[3].

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في طريقها من القرايا والسَّواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدِّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه، وجبى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان.

(١) في الأصل: فيجعلون، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل و(ل): فحينئذٍ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم. والمثبت من (م).
(٣) انظر «الباهر»: ١٣٢ ــ ١٣٣.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم، وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية ــ وبها صلاح الدين ــ في عسكرٍ يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدَّ الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك.

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلْح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلَّمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين. فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوّال.

وأما الفرنج فإنهم استقرَّ بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شِحْنة*، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكرٍ إليهم، ويكون للفرنج من دَخْلِ مصر كل سنة مئة ألف دينار. هذا كله يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولا يعلمُ بشيء من ذلك؛ قد حكم عليه شاور وحجَبَهُ. وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعةً من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة.

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي ــ وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف ــ ينهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجَمْعِ

الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الإسلام، وبَذَل مالاً يحمله كل سنة. فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالاً جزيلاً. فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربعٍ وستين[١].

قال القاضي أبو المحاسن: ذِكْر عَوْدِ أسد الدين إلى مصر في المرة[٢] الثانية، وهي المعروفة بوقعة البابَيْن. لم يزل أسد الدين يتحدَّث بذلك بين الناس حتى بلغ شاور ذلك، وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لا بُدَّ له من قَصْدِها. فكاتب الفرنج، وقرَّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً، ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها. وبلغ ذلك نورَ الدين وأسد الدين، فاشتدَّ خوفهما على مصر أن يملكها الكُفَّار فيستولوا على البلاد كلها. فتجهَّز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهيةٍ منه لذلك، وذلك في أثناء ربيع الأول. وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين، والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروبٌ كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية، وانفصل أسد الدين.

١٤٤/١

وكان سببُ عود الفرنج أن نور الدين، قَدَّس الله روحه، جَرَّد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المُنَيْطِرة[٣]، وعلم الفرنج ذلك، فخافوا على بلادهم وعادوا. وكان سبب عود أسد الدين ضعفَ عسكره بسبب مواقعة الفرنج

---

(١) انظر «الباهر»: ١٣٣ ـ ١٣٤، وص ٤٦ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) في (م) الدفعة.

(٣) انظر ص ٥ من هذا الجزء.

والمصريين، وما عانوه من الشَّدائد وعاينوه من الأهوال. وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلُّهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السَّنة، وقد انضمَّ إلى قوة الطمع في البلاد شِدَّةُ الخوف عليها من الفرنج، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها، وعرفوها من الوجه الذي عرفها. فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجرُّه إلى شيء قد قُدِّرَ لغيره وهو لا يشعر بذلك[1].

قال: وفي أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المُنَيْطرة بعد مسير أسد الدين في رجب[2]، وخرَّب قلعة أكاف بالبرية.

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحماة للغَزَاة، وساروا إلى بلاد الفرنج، فخرَّبوا هُونِين* في شوال منها.

وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين من مصر.

وفيه مات قرا أرسلان[3] بديار بكر[4].

فصـــل

وفي شعبان من هذه السنة قَدِمَ دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأَصْفَهاني، مصنِّف كتابي الفَتْح والبرق[5]، فأنزله قاضي

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٧ ــ ٣٨.
(٢) انظر ص ٥ من هذا الجزء.
(٣) ولي حصن كيفا وديار بكر سنة (٥٣٩ هـ)، انظر «الكامل»: ١١/٣٢٩ ــ ٣٣٠، و «ومعجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٤.
(٤) «النوادر السلطانية»: ٣٨.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٦ و١ ص ٢٩، ٣٠ من الجزء الأول.

القضاة كمال الدين أبو الفَضْل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوْرِي بالمدرسة النُّورية الشَّافعية عند حمام القُصَير[1] بباب الفرَج*، المنسوبة الآن إلى العماد[2]. وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله تعالى ولاه إياها[3] في رجب سنة سبع وستين بعد الشَّيخ الفقيه ابن عبد[4].

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شِيركُوه ابني شاذي من تكْريت*؛ بسبب أن عمَّه العزيز أحمد بن حامد[5] اعتقله السُّلْطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه بقلعة تكْرِيت، ونجم الدين أيوب إذ ذاك واليها، فانتسجت المودَّة بينهم من هناك. فلما سمع نجم الدين بوصوله، بكَّر إلى منزله لتبجيله، وكان شِيركُوه وصلاح الدين حينئذٍ بمصر، فمدح العمادُ نجمَ الدين أيوب بقصيدةٍ منها، أولها:

يومُ النَّوى ليس من عُمْري بمحسوبِ ... ولا الفِـراقُ إلـى عَيْشِـي بمنسـوبِ

(١) في (ل) القصر، وهو تصحيف. انظر «تاريخ ابن عساكر»: ٢/ ٧٦. وانظر ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩، ٤٣٩ من هذا الجزء.

(٢) المدرسة العمادية، انظرها في كشاف الأماكن.

(٣) في الأصل و (ل) ولاها إياه، والمثبت من (م).

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٣ من الجزء الأول.

(٥) ولد سنة (٤٧٢ هـ) بأصفهان، وكان رئيساً كبير القدر، ولي مناصب رفيعة في الدولة السلجوقية، وكان في آخر أمره متولي الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وسبب القبض عليه أن السلطان سنجر طالب السلطان محموداً بأنواع التحف والغرائب التي أخرجها مع جهاز ابنته، وذلك بعد وفاتها، فخاف السلطان محمود من أحمد بن حامد أن يشهد بما وصل في صحبتها ـ وكان مطلعاً عليه ـ فقبض عليه ببغداد، وسيره إلى تكريت، فحبس في قلعتها، ثم قتل سنة (٥٢٧ هـ)، وكان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه قد دافعا عنه وتشفعا فيه، فلم يستجب لهما. انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ١٨٩، وانظر تفصيل الخبر في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٥٦ ـ ٥٧، و «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٤٢ ـ ١٤٣، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥ ـ ١٥٦.

مـا اخـتـرتُ بُعْـدَكَ لكـنَّ الـزَّمـان أتـى ... كَرْهاً بما ليسَ يا محبوبُ محبوبي

أرجو إيابي إليكم ظافراً[1] عَجِلاً ... فقـد ظَفِـرْتُ بنجـم الـدِّيـن أيـوبِ

مـوفَّـقُ الـرأي مـاضـي العَـزْم مُـرْتَفِـعٌ ... علـى الأعـاجـم مَجْـداً والأعـاريـبِ

أحبَّـك الله إذ لازَمْـتَ نَجْـدَتَـه[2] ... على جبينٍ بتاجِ الملك مَعْصُوبِ[3]

أخوك وابنكَ صِدْقاً منهما اعتصما ... بـالله والنَّصْـرُ وَعْـدٌ غيـرُ مَكْـذُوبِ

هما همامانِ في يَوْمَيْ وغًى وقِرًى ... تعـوَّدا ضَـرْبَ هـامٍ أو عَـرَاقيـبِ

غـداً يَشُبَّـان فـي الكُفَّـارِ نـار وَغًـى ... بِلَفْحِهـا يُصْبِـحُ الشُّبَّـان كـالشِّيـبِ

بمُلْـك مِصْـرَ ونَصْـرِ المـؤمنيـن غـداً ... تحظَـى النُّفـوسُ بتـأنيـس وتَطْييـبِ

ويستقِـرُّ بمصـرٍ يـوسـفٌ وبـه ... تَقَـرُّ بعـد التَّنـائـي عَيْـنُ يَعْقُـوبِ[4]

ويلتقـي يـوسـفٌ فيهـا بـإخـوتِـه ... والله يجمَعُهُـمْ مِـنْ غَيْـرِ تَثْـرِيـبِ[5]

وكان إنشاده هذه القصيدة في آخر شوَّال سنة اثنتين وستين، وتمَّ ملكهم مصر بعد سنيتن [قال][6]: فنظمتُ ما في الغيبِ تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرَّمْل في النِّصف من ربيع الأول، ووصل في سادس ربيع الآخر إلى إطْفِيح* وعبر منها إلى الجانب الغَرْبي، وأناخ بالجِيزة محاذاة مصر، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً. واستعان شاور بالفرنج ورتَّبوا لهم سوقاً بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد

(١) في هامش الأصل: خ غانماً، وهي رواية (ل) و (م).

(٢) في (م) سجدته، وفي «معجم الأدباء» نصرته.

(٣) تحتها في الأصل: محجوب.

(٤) فوقها في (ل): أيوب.

(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٥٥ ــ ٦٠، وانظر بعض أبيات القصيدة في «معجم الأدباء»: ١٩/١٣.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

١/١٤٥ الشَّرْقية[١] إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم، فالتقوا بموضع يُعرف بالبابَيْن، فكسرهم أسد الدين وأصحابه، وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفاً، وحصل منهم في الإسار سبعون فارساً من بارونيَّتهم. فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها. ثم قال أسد الدين: أنا لا يمكنني أن أحصرَ نفسي. فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصَّعيد فاستولى عليها، وجبى خَراجَها. وأقام صلاح الدين بالإسكندرية، فسار إليه شاوَر والفرنج، فحاصروه أربعة أشهر، وصَدَقَ أهلُ الإسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بِقُوص*، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص. فسمع الفرنجُ أنه جاء يقصدهم، فرحلوا عن الحصار. وكان شاور قد استمال جماعةً من التركمان الذين مع أسد الدين بالذَّهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عِوَضَ ما غَرِمَهُ، فبذلوا له خمسين ألف دينار، فخرجوا من الإسكندرية في النِّصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القَعْدة، وعادوا إلى الخدمة النُّورية.

فاجتمع العمادُ بأسد الدين، وأنشده هذه القصيدة[٢]:

بَلَغْتَ بالجدِّ مالا يبلُغُ البَشَرُ ... ونِلْتَ ما عَجَزَتْ عن نَيْلِهِ القُدَرُ
مَنْ يَهْتَدِي للذي أنتَ اهتديتَ له ... ومَنْ له مِثْلَ ما أَثَّرْتَهُ أَثَرُ
أسرتَ أم بِسُراك الأرضُ قد طُوِيَتْ ... فأنْتَ إسكندرٌ في السَّيْرِ أم خَضِرُ
أَوْرَدْتَ خيلاً بأقصى النِّيلِ صادِرَةً ... عن الفُراتِ يقاضي وِرْدَها الصَّدَرُ
تناقَلَتْ ذِكْرَكَ الدُّنيا فليسَ لها ... إلا حديثُكَ ما بين الوَرَى سَمَرُ

---

(١) في (م) الغربية، وهو تحريف.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٢ ــ ٦٥، وفيه أربعة أبيات من القصيدة.

فأنتَ مَنْ زانَتِ الإسلامَ[1] سِيْرَتُهُ ... وزادَ فوقَ الذي جاءت به السِّيَرُ

لو في زمانِ رسولِ اللهِ كنتَ أَتَتْ ... في هذه السِّيْرَةِ المحمودةِ السُّوَرُ

أَصْبَحْتَ بالعَدْلِ والإِقدامِ مُنْفَرِداً ... فقل لنا: أعليٌّ أنتَ أم عُمَرُ

إسكندرٌ ذكروا أخبارَ حِكْمَتِهِ ... ونحنُ فيكَ رأينا كُلَّ ما ذَكَرُوا

ورُسْتُمٌ خَبَّرُونا عن شجاعَتِهِ ... وصارَ فيكَ عِياناً ذلكَ الخَبَرُ

إِفْخَرْ فإنَّ ملوكَ الأرضِ أذهلَهم ... ما قد فَعَلْتَ فكلٌّ فيك مُفْتكِرُ

سَهِرْتَ إذْ رَقَدُوا بل هِجْتَ إذ[2] سَكَنُوا ... وَصُلْتَ إذ جَبُنُوا بل طُلْتَ إذ قَصُروا

يَسْتَعْظِمونَ الذي أَدْرَكْتَهُ عَجباً ... وذاك في جَنْبِ ما نرجوه مُحْتَقَرُ

قضى القضاءُ بما نرجوه عن كَثَبٍ ... حَتْماً ووافقك التَّوفيقُ والقَدَرُ

شَكَتْ خيولُكَ إدمانَ السُّرى وشكت ... من فَلِّها البيضُ بل من حَطْمها السُّمُرُ[3]

يَسَّرْتَ فَتْحَ بلادٍ كان أَيْسَرُها ... لغيرِ رأيِك قُفْلاً فَتْحُهُ عَسِرُ

قَرَنْتَ بالحَزْمِ منك العَزْمَ فاتَّسَقَتْ ... مآربٌ لك عنها أَسْفَرَ السَّفَرُ

وَمَنْ يكونُ بنورِ الدينِ مُهْتَدِياً ... في أَمْرِهِ كيفَ لا يقوى له المِرَرُ

يرى برأيك ما في المُلْك يُبْرِمُه ... فأنتَ منه بحيث السَّمْعُ والبَصَرُ

لقد بَغَتْ فئةُ الإفرنجِ فانْتَصَفَتْ ... منها بإقدامك الهِنْدِيَّةُ البُتُرُ

غَرَسْتَ في أرض مِصْرٍ من جُسُومِهِمُ ... أشجارَ خَطٍّ[4] لها من هامهم ثَمَرُ

وسالَ بحرُ نجيعٍ[5] في مقام وغًى ... به الحديدُ غَمَامٌ والدَّمُ المَطَرُ

أنهرتَ[6] منهم دماءً بالصَّعيد جَرَى ... منها إلى النِّيلِ في واديهمُ نَهَرُ

---

(١) في طبعة وادي النيل ١/ ١٤٥: الأيام.

(٢) في الأصل: إن، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) البيض: السيوف، والسمر: الرماح.

(٤) الخط: تنسب إليها الرماح الخطية، في نواحي البحرين وعُمان.

(٥) النجيع: الدم. «اللسان» (نجع).

(٦) أي أسلت. «اللسان» (نهر).

رأوا إليكَ عبورَ النِّيل إذ عَدِمُوا نَصْراً فما عَبَرُوا حتى قد اعْتَبرُوا
تحتَ الصَّوارِمِ هامُ المشركين كما تحتَ الصَّوالج يوماً خفَّتِ الأُكَرُ[1]
أَفْنَتْ سيوفُك من لاقَتْ فإنْ[2] تركت قوماً فَهُمْ نَفَرٌ[3] من قبلها نَفَرُوا
لم يَنْجُ إلا الذي عافَتْهُ من خَبَثٍ وَحْشُ الفلا وهو للمَحْذُورِ مُنْتَظِرُ
والسَّاكنونَ القصورَ القاهريةَ قد نادَى القُصُورُ عليهم أنهم قُهِرُوا
وشاورٌ شاوروه في مكايِدِهِمْ فكادَه الكيدُ لما خانَهُ الحَذَرُ
كانوا من الرُّعبِ موتى في جُلُودِهم وحينَ أَمَّنْتَهُمْ من خَوْفِهِمْ نُشِرُوا
وإنَّ من شِيرِكُوه الشِّرْكَ مُنْخَزِلٌ والكُفْرَ مُنْخَذِلٌ والدِّينَ مُنْتَصِرُ
عَوِّل على فئةٍ عند اللِّقاء وَفَتْ وَعَدٍّ عن تركمانٍ قَبْلَه غَدَرُوا
وكيفَ يُخْذَلُ جيشٌ أنتَ مالِكُهُ والقائدانِ له التأييدُ والظَّفَرُ
أجابَ فيك إلٰه الخلق دَعْوَةَ مَنْ يطيبُ باللَّيْلِ من أنفاسِهِ السَّحَرُ

قال العماد: [و][4] اتصلت بيني وبين صلاح الدين ابن أخيه مودَّة، تمت لي بها على الزمان عُدَّة؛ ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميلُ إلى شِعْري. فأول ماخدمتُه به هذه الكلمة[5]:

كيفَ قُلْتُمْ بِمُقْلَتَيْهِ فُتُورُ وأراها بلا فُتُورٍ تَجُورُ

ومنها:

١٤٦/١

---

(١) مفردها أكرة: الكرة، وهي لغة، «اللسان» (أكر) و «معجم متن اللغة»: ١/ ١٩٠، وانظر «الجوكان» في كشاف المصطلحات.
(٢) في (م) وإن.
(٣) في (م) نفروا، وهو تصحيف.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) انظر «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ٣٤ ــ ٤٠ . و«سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٥ ــ ٦٦، وأورد فيه خمسة أبيات من القصيدة.

مستجيزٌ جَوْري وإنِّيَ منه | يا ابنَ أيوبَ يوسفٍ مستجيرُ
فَضْلُهُ في يدِ الزَّمانِ سِوَارٌ | مِثْلَما رَايُهُ على المُلْكِ سُورُ
كرمٌ سابغٌ وجُودٌ عميمٌ | ونَدَى سائغٌ وفَضْلٌ غزيرُ
أنتَ مَنْ لم يَزَلْ يَحِنُّ إليه | وهو في المَهْدِ سَرْجُه والسَّريرُ
من دَم الغادرينَ غادَرْتَ بالأمـ | ـسِ صعيدَ الصَّعيدِ وهْو غديرُ
ولكلٍّ لمَّا[1] تطاولتَ فيهمْ | أملٌ قاصِرٌ وعُمْرٌ قَصيرُ
لاذَ بالنِّيلِ شاوَرٌ مِثْلَ فِرْعَوْ | نَ فذلَّ اللاجي وعَزَّ العَبُورُ
شارَكَ المشركينَ بغياً وقِدْماً | شارَكَتْهَا قُرَيظةٌ والنَّضيرُ
والذي يدَّعي الإمامةَ بالقا | هِرةِ ارتاعَ إنَّهُ مَقْهُورُ
وغدا المَلْكُ خائفاً من سُطاكم | ذا ارتعادٍ كأنَّهُ مَقْرُورُ
وبنو الهنفري[2] هانوا ففرُّوا | ومِنَ الأُسْدِ كلُّ كلْبٍ فَرُورُ
إنّما كان للكلابِ عُواءٌ | حيثُ ما كان للأسودِ زَئِيرُ
وفِلِيْبٌ[3] عند الفِرارِ سليبٌ | فَهْو بالرُّعْبِ مُطْلَقٌ مأسُورُ
لم يبقُّوا سوى الأصاغرِ للسبـ | ـي فودُّوا أن الكبيرَ صغيرُ
وَحَمَيْتَ الإسكندريةَ عَنْهُمْ | ورَحى حَرْبِهِمْ عليهم تَدُورُ
حاصَرُوها وما الذي بانَ من ذَبِّـ (م) | ـكَ عنها وحِفْظُها مَحْصُورُ
كحِصَارِ الأحزاب طَيْبَةَ قِدْماً | ونبيُّ الهُدَى بها مَنْصُورُ
فاشكرِ اللَّهَ حينَ أولاكَ نَصْراً | فهْو نِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصِيْرُ
ولكَمْ أَرْجَفَ الأعادي فَقُلْنا | ما لِما تَذْكُرونَهُ تَأْثِيرُ
وَرَقَبْنا كالعيدِ عَوْدَكَ فاليو | مَ به للأنامِ عِيْدٌ كبيرُ

---

(١) في الأصل: ما، والمثبت من (ل)، و (م).
(٢) سيرد ذكره ص ١٥٠ من هذا الجزء.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٦ من هذا الجزء.

عادَ من مِصْرَ يوسفٌ وإلى يعـ ـقوبَ بالتهنئاتِ جاءَ البَشِيْرُ

فلأيوبَ[1] من إيابِ صلاحِ الدِّ (م) ين يومٌ به توفَّى النُّذُورُ

ولكُمْ عَوْدَةٌ إلى مِصْرَ بالنَّصْـ ـرِ على ذكرها تمرُّ العصورُ

فاسْتَرِدُّوا حَقَّ الإمامةِ ممن خانَ فيها فإنَّه مُسْتَعِيْرُ

وافْتَرعها بِكْراً لها [أَبَدَاً][2] الدَّهْـ ـرِ رَوَاحٌ في مَدْحِكُمْ وبُكُورُ

أنا سَيَّرْتُ طالعَ العَزْم مني وإلى قَصْدِكَ انتهى التَّسْيِيرُ

وأرى خاطري لِمَدْحِكَ إلْفاً إنما يألفُ الخطيرَ الخطيرُ

وهي [و][3] التي قبلها طويلتان جداً. فانتظمت معرفةُ العماد بصلاح الدين، وكان له مساعداً عند نور الدين .

وقرأت في «ديوان العرقلة»: وقال يمدح أسد الدين شِيركُوه، وقد أخذ الشَّقيف، ورحل طالباً حِصْناً يقال له العُراق[4]:

١٤٧/١

رَحَلْتَ من الشَّقيفِ إلى العُراق بعزم كالمهنَّدَةِ الرِّقاقِ

ونَكَّسْتَ الأعادي منه قَهْراً ومَجْدُكَ في ذُرَا الجَوْزَاءِ راقِ[5]

بجأشك لا بِجَيْشِكَ نِلْتَ هذا وبالتَّوفيقِ لا بالاتِّفاقِ

فداؤكَ مَنْ مَضَى بالحِصْنِ قبلي إلى دارِ الخُلُودِ من الرِّفاقِ

وما نخشى على الإسلام بُؤْساً إذا هَلَكَ الجميعُ وأنتَ باقي

أشاوَرُ[6] كَمْ تُشاورُ كلَّ خِبٍّ وتَنْفُقُ عِنْدَ مِثْلِكَ بالنِّفَاقِ

---

(١) في (م) فلا يؤوب، وهو تصحيف.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) الضبط من (ل).

(٥) في الأصل و (ل) باقي، والمثبت من (م).

(٦) في الأصل: شاور كم، والمثبت من (ل) و (م).

أَتَصْبِـــرُ إن أتتــك بحـــارُ خَيْـــلٍ وقِـدْمـاً مـا صَبَـرْتَ على السَّـواقـي
متــى رَفَعَــتْ لــك السُّــودانُ رَأْســاً وقــد خــلاَّهُــمُ مِثْـلَ الــزِّقَــاقِ
وَعَيْشِــكَ مــا لــه مــن مِصْــرَ بُــدٌّ ومِــنْ عنــدي ثــلاثــاً بــالطَّــلاقِ
هــو الأَسَــدُ الــذي مــا زال حتــى بنــى مَجْـداً علـى السَّبْـعِ الطِّبـاقِ[1]

فصـــل

قال ابن الأثير: وفي هذه السَّنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلبُ أن يعبُرَ الفُرَات إليه بعساكره، فتجهَّز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة، فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلادَ الفرنج، واجتاز على حِصْن الأكراد*، فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عِرْقَة*، ونزلوا عليها وحَصَرُوها، وحصروا جَبَلَة* وأخربوها. وتوجَّهَتْ عساكرُ المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العُرَيمة* وصافيثا*. وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان. ثم سار إلى بانياس* وقصد قلعة هُونِين*، وهي للفرنج أيضاً، من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنجُ عنها وأحرقوها، فقصدَها نور الدين فوصلها من الغد، وخرَّب سورَها جميعَهُ، وأراد الدخول إلى بيروت فتجدَّد في العسكر خُلْفٌ أوجب التفرُّق، فعاد. وسار قطب الدين إلى المَوْصل وأقطعه مدينة الرَّقَّة، فأخذها في طريقه[2].

قال: وفي هذه السنة عصى الأميرُ غازي بن حَسَّان المَنْبِجي صاحب مَنْبِج* على نور الدين، وهو كان أقطعَه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً

(١) الأبيات في «ديوان عرقلة الكلبي»: ٦٨ ــ ٦٩، وهي مستدركة فيه من كتابنا هذا.
(٢) انظر «الكامل»: ١١/ ٣٢٧ ــ ٣٢٨، ولم يورده ابن الأثير في «الباهر».

حَصَروه بها، وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وكان عاقلاً خَيِّراً، حَسَن السِّيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتي[1].

وفي هذه السنة توفي القاضي الرَّشيد أحمد بن علي بن الزُّبير صاحب كتاب «الجنان»[2].

قال العماد في «الخريدة»: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاوَر صبراً في سنة اثنتين وستين[3]، ونُسب إليه أنه شارك أسد الدين شِيركُوه في قَصْده[4].

وأخوه المهذب أبو محمد[5] الحسن بن علي بن الزُّبير أشعر منه وتوفي قبله بسنة[6]، ولم يكن في زمانه أشعر منه أحدٌ، وله شِعْرٌ كثير، منه قصيدةٌ غَرَّاء في مدح الصالح بن رُزِّيك، وذكر فيها نور الدين، أولها:

---

(١) «الباهر»: ١٣٤ ــ ١٣٥، و «الكامل»: ١١/ ٣٢٩، وانظر ص ٤٠٥ من هذا الجزء، فقد نقل أبو شامة خبر أخذ صلاح الدين لها في حوادث سنة (٥٧١ هـ).

(٢) هو «جِنان الجَنَان ورياض الأذهان» ذيل به على «يتيمة الدهر»، وذكر فيه جماعة من مشاهير الشعراء، ولم يصلنا بعد، وكان في أربع مجلدات. انظر ترجمته في «معجم الأدباء»: ٤/ ٥١ ــ ٦٦، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٦٠ ــ ١٦٤، و «الطالع السعيد»: ٩٨ ــ ١٠٢.

(٣) في «السيل والذيل» للعماد أنه قتل سنة (٥٦٣ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ١٦١.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٠ ــ ٢٠١.

(٥) في النسخ الخطية: أبو علي، وهو تحريف، والمثبت من مصادر ترجمته: «الخريدة» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٤ ــ ٢٢٥، و«معجم الأدباء»: ٩/ ٤٧ ــ ٧٠، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٦١، و «فوات الوفيات»: ١/ ٣٣٣ ــ ٣٣٤، و «الطالع السعيد»: ١٩٤ ــ ٢٠٣. وانظر ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

(٦) أي سنة (٥٦١ هـ).

أَعَلِمْـتَ حيـنَ تَجَـاوَرَ الحَيَّـان ... أَنَّ القُلُـوبَ مـواقِـدُ النِّيـرانِ

يا كاسِرَ[1] الأصنام قُمْ فانهضْ بنا ... حتـى تصيـرَ مُكَسِّـرَ الصُّلْبـانِ

فـالشَّـامُ مُلْكُـكَ قـد وَرِثْـتَ بـلادَه[2] ... عـن قَـوْمِـكَ المـاضيـنَ مـن غَسَّـانِ

وإذا شَكَكْـتَ بـأنَّهـا أوطـانُهُـمْ ... قِدْماً فَسَلْ عن حارِثِ[3] الجَوْلانِ

أو رُمْـتَ أن تتلـو محـاسـنَ ذِكْـرِهِـمْ ... فـاسْنُـدْ روايتَهـا إلـى حَسَّـانِ[4]

مـا زُلْـزِلَـتْ أرضُ العِـدَى بـل ذاك مـا ... بقلـوبِ أهليهـا مـن الخَفَقَـانِ

وأقـولُ إنَّ حُصُـونَهُـمْ سَجَـدَتْ لمـا ... أُوتيـتَ مـن مُلْـكٍ ومـن سُلْطـانِ

ولقـد بَعَثْـتَ إلـى الفـرنـجِ كتـائبـاً ... كـالأُسْـدِ حيـن تصـول فـي خَفّـان[5]

لَبِسُـوا الـدُّروعَ ولـم نَخَـلْ مِنْ قبلهـم ... أَنَّ البحـارَ تَحُـلُّ فـي غُـدْرانِ

عَجَّلْـتَ فـي تـلِّ العَجُـول قِـرَاهُـمُ ... ـ وهُمُ لك الضِّيفان ـ بالذِّيفان[6]

وَثَلَلْـتَ فـي يـومِ العـريشِ عُـروشَهُـمْ ... بشَبَـا ضِـرابٍ صـادقٍ وطِعَـانِ

أَلْجَـأْتَهُـمْ للبَحْـرِ لمَّـا أنْ جَـرَى ... مِنْـهُ ومِـنْ دَمِهِـمْ معـاً بَحْـرَانِ

ولقـد أتـى الأُسطـولُ حيـنَ غـزا بمـا ... لـم يـأتِ فـي حيـنٍ مـن الأحيـانِ

وأَعَدْتَ رُسْلَ ابنِ القسيمِ[7] إليه في ... شعبـانَ كـي يتـلاءمَ الشَّعْبـانِ

والفالُ يشهدُ في اسمه أنْ سوفَ يَغْـ ... ـدُو الشَّـامُ وهـو عليكمـا قِسْمَـانِ

/١٤٨

وراكَ[8] مـن بعـد الشَّهيـدِ أبـاً لـه ... وجَعَلْتَـهُ مـن أقـربِ الإخـوانِ

---

(١) في (م) يا داثر.

(٢) في «الخريدة»: تراثه.

(٣) في (ل) و (م) و «الخريدة»: حادث، وهو تصحيف. وحارث الجولان: قرية من قرى حوران. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٠٥.

(٤) هو حسان بن ثابت، الصحابي الجليل والشاعر المشهور.

(٥) خفان: مأسدة. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣١٠.

(٦) الذيفان: السم الناقع. «اللسان» (ذيف).

(٧) هو نور الدين، وقسيم الدولة لقب أبيه وجده. انظر ص ٣١ من الجزء الأول.

(٨) في «خريدة القصر»: وأراك.

وهو الذي ما زالَ يفعلُ في العِدَى ... ما لم يكُنْ لِيُعَدَّ في الإمكانِ
قَتَلَ البِرِنْسَ[1] ومَنْ عساه أعانه ... لمَّا عَسَا[2] في البَغْي والعُدْوانِ
وأرى البَرِيَّةَ حين عادَ برأسه ... مُرَّ الجَنَى يبدو على المُرَّانِ[3]
وتعجَّبوا من زُرْقَةٍ في طَرْفِهِ ... وكأنَّ فوقَ الرُّمْحِ نَصْلاً ثاني
عَجَباً لِجُودِ يَدَيْهِ إذْ يبني العُلا ... والسَّيْلُ يَهْدِمُ ثابتَ الأركانِ
قَلَّدْتَ أعناقَ البَرِيَّة كلَّها ... مِنَناً تحمَّل ثِقْلَها الثَّقَلانِ
حتى تَسَاوى النَّاسُ فيكَ وأصبحَ الـ ... ـقاصي بمنزلةِ القَرِيْبِ الدَّاني[4]

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري للسُّلْطان نور الدين رحمه الله تعالى حال العماد الكاتب وعَرَّفه به، وعرضَ عليه قصيدةً له في مدحه، مطلعها[5]:

لو حُفِظَتْ يومَ النَّوى عهودُها ... ما مُطلت بوَصْلِكُمْ وعودُها

ومنها:

وإنَّما يَحْمَدُ عَيْشي[6] بَلْدَةً[7] ... مالكُها بعَدْلِه محمودُها
مُؤَيَّدٌ أموره بِعَزْمَةٍ ... من السَّموات العُلا تأييدُها
آثارُه حميدةٌ وإنما ... للمَرْءِ من آثارِهِ حميدُها
إنَّ الورَى بحبِّه وبُغْضِهِ ... يُعْرَفُ من شَقِيِّها سعيدُها

(١) انظر ص ٢٠٤ وما بعدها من الجزء الأول.
(٢) عسا: بمعنى عتا، انظر «اللسان» (عسا).
(٣) المُرَّان: الرماح الصلبة اللَّدْنة. «اللسان» (مر).
(٤) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٩ ــ ٢١٢.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٦ ــ ٦٧، وقد أورد فيه خمسة أبيات من القصيدة.
(٦) في الأصل: عيش، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) في طبعة وادي النيل ١/ ١٤٨ «محمد يحمد عيش بلدة». قلت: ويعني بمحمدٍ نفسه.

قَدْ جاءكم نورٌ مِنَ الله فَمَنْ ... بِهِ اهتدَى فإنّه رشيدُها

جلا ظلامَ الظُّلْمِ نورُ الدين عن ... أرض الشّآم[1] فله تحميدُها

إنَّ الرَّعايا منه في رعايةٍ ... ونعمةٍ مُسْتَوجَبٌ مزيدُها

لنومِها يَسْهَرُ بل لأمنِها ... يخاف بَل لخِصْبها يجودُها[2]

بالدِّينِ والملك له قيامُه ... وللملوك عنهما قُعُودُها

وَدَأْبُهُ ثَلْمُ ثُغُورِ الكُفْرِ لا ... لَثْمُ ثُغُورٍ ناقعٌ برودُها

قد أَسْبَغَ اللّهُ لنا بِعَدْلِهِ ... ظلالَ أمنٍ وارفٌ مَدِيْدُها

غدا ملوكُ الرُّومِ في دَوْلَتِهِ ... وَهُمْ على رَغْمهمُ عَبِيدُها

لما أَبَتْ هاماتُهم سجودَها ... لله أضحى للظُّبَى سُجُودُها

إنْ فارَقَتْ سيوفُهُ غُمودَها ... فإنَّ هاماتِهمُ غُمُودُها

كم مُغْلَقَاتٍ من حُصُونٍ عَزْمُه ... مِفْتاحُها وسَيْفُهُ إقليدُها

قد وَدَّتِ الفرنجُ لو فرَّتْ نَجَتْ ... منك ولكنْ رَوْعُها مبيدُها

قَهَرْتَها حتى لَوَدَّ حيُّها ... من ذِلَّةٍ لو أنَّه فقيدُها

أماتَها رُعْبُكَ في حُصُونِها ... كأنَّما حُصُونُها لُحُودُها

وإنَّ مِصْراً لك تَعْنُو بعدَما ... لسيفِكَ العَضْبِ عَنَا صَعِيْدُها

والمِلَّةُ الغَرَّاءُ خالٍ بالُها ... عالٍ سَنَاها بكَ حالٍ جِيْدُها

مُفْتَرَّةٌ ثغورُها ممنوعةٌ ... ثُغُورُها محفوظةٌ حدودُها

وإنْ بغى جالوتُها ضلالةً ... فأنتَ في إهلاكِهِ داودُها

يا ابنَ قسيمِ الدولة المَلْك الذي ... خرَّتْ له مِنَ المُلُوكِ صِيْدُها

دَعِ العِدَى بغيظها فإنَّما ... تذيبُ أكبادَ العِدَى حُقُودُها

يا دولةً نوريةً أَمْنُ الورى ... وخِصْبُها وَجودُها وُجودُها

---

(١) تشبع كسرة الميم لاستقامة الوزن.

(٢) في الأصل: من بخصبها يجودها، والمثبت من (ل) و (م).

١٤٩/١

مـا مَثَـلُ الـدُّنيـا لمـن يَجمعُهـا ... بـالحِـرْصِ إلا قَـزَّةٌ ودُودُهـا

أنـتَ الـذي تَـرْفُضُهـا عـن قُـدْرَةٍ ... فـلا يشـوبُ زُهْـدَه زهيـدُهـا

فـابـقَ لنـا يـا ملكـاً بقـاؤه ... فـي كـلِّ عـامٍ للـرَّعـايـا عِيْـدُهـا

فـي نعمـةٍ جـديـدةٍ سُعُـودُهـا[١] ... ودولـةٍ سعيـدةٍ جُـدُودُهـا

وهي طويلة. فرتَّبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين[٢].

قال: ووجدتُ على الأيام منه الإعزاز والتمكين.

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو اليُسْر شا كر بن عبد الله[٣] من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته. كذا ذكر العماد في «الخريدة».

وقال: تولى ديوان الإنشاء بالشَّام سنين كثيرة، وله مقاصد حَسَنة في الكتب، وهو حميد السيرة، جميل السَّريرة[٤].

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السَّمْعاني المَرْوَزِي رحمه الله تعالى[٥].

---

(١) في (م) سعيدها.

(٢) من هنا حتى قوله ص ٣٠: وخمس مئة. ساقط من (م).

(٣) هو من بيت أبي العلاء المعري، الشاعر المشهور، ولد في شيزر سنة (٤٩٦ هـ)، وتولى كتابة الإنشاء لعماد الدين زنكي، ثم من بعده لابنه نور الدين، توفي بدمشق سنة (٥٨١ هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥ ــ ٣٧، و «معجم الأدباء»: ٣/ ١١٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٤٥، و «الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٨٥ ــ ٨٧، و «فوات الوفيات»: ٢/ ٩٦، و «تعريف القدماء بأبي العلاء» (الإنصاف والتحري) لابن العديم: ٥٠٤ ــ ٥٠٥.

(٤) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٧.

(٥) صاحب كتاب «الأنساب»، وهو مطبوع مشهور متداول، ولد بمرو سنة (٥٠٦ هـ)، له مؤلفات كثيرة، وكان إماماً كبيراً في الحديث. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٥٦ ــ ٤٦٥.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين [وخمس مئة][1]

فذكر العماد أنَّ نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حَماة، ثم شتَّى بقلعة حلب ومعه الأسد والصَّلاح. ونزل العماد بمدرسة ابن العَجَمي[2]، وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد عَثَرَ فرسه في المَيْدَان وهو يلعب بالكُرَة[3] مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لا تُنْكِرَنَّ لسابح عَثَرَتْ به ... قَدَمٌ وقد حَمَلَ الخِضَمَّ الزَّاخِرا

ألقى على السُّلْطان طِرْفُك[4] طَرْفَهُ ... فهوى هنالك للسَّلام مُبَادِرا

سَبَقَ الرِّياحَ بجريه وكَفَفْتَهُ ... عنها فليسَ على خِلافِك قادِرا

ضَعُفَتْ قواه إذ تذكَّرَ أنه ... في السَّرْج منك يُقِلُّ ليثاً خادِرا

ومتى تُطيق الرِّيحُ طوداً شامخاً ... أو يستطيعُ البَرْقُ جَوْناً ماطِرا

فاعذرْ سقوطَ البَرْقِ عند مَسيره ... فالبَرْقُ يَسْقُطُ حينَ يَخْطَفُ سائرا

وأَقِلْ جوادَكَ عَثْرَةً نَدَرَتْ له ... إن الجوادَ لَمَن يُقيلُ العاثِرا[5]

وتوقَّ من عينِ الحسودِ وشَرِّها ... لا كان ناظِرُها بسوءٍ ناظرا

واسلمْ لنورِ الدين سُلْطانِ الورى ... في الحادثات مُعَاضِداً ومؤازِرا

وإذا صلاحُ الدين دامَ لأهله ... لم يحذروا للدَّهْرِ صَرْفاً ضائراً

---

(١) ما بين حاصرتين من (م)، وعلى هامش الأصل: بلغ مقابلة بأصله.

(٢) هي المدرسة الزجاجية، انظرها في كشاف الأماكن. وانظر «البرق الشامي»: ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) انظر الجوكان في كشاف المصطلحات.

(٤) الطِّرْف من الخيل: العتيق الكريم. «معجم متن اللغة» ٣/ ٦٠٠.

(٥) هذا البيت ساقط من (م).

وجرت بين العماد[1] وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيا شَرَفَ الدِّين إن الشتا ... بكافاتِه[2] كفَّ آفاتِهِ
وكفُّك من كَرَم كافُها[3] ... لقد كُفِلَتْ لي بكافاتِهِ
وإنك مِنْ عُرْفِه[4] شكرُنا ... غدا عاجزاً عن مكافاته

قال: فكتب إليَّ شرف الدين في جوابها:

إذا ما الشتاءُ وأمطارُه ... عن الخيرِ حابسةٌ رادِعَهْ
فكافاتُهُ الستُّ أُعْطِيتَها ... وحوشيتَ من كافه[5] الرَّابِعَهْ[6]
وكفُّ المهابة والإحتشام ... لكفِّيَ عن بِرِّه مانِعَهْ
وَهِمَّةُ كُلِّ كريم النِّجار ... بميسورِ أحبابه قانِعَهْ
ونفسيَ في بسط عُذْري إليه ... جُعِلْت الفِدَاءَ له طامِعَهْ
وشوقي إلى قُرْبِه زائِدٌ ... ومَعْذرتي إن جفا واسِعَهْ[7]

---

(١) في الأصل: العماد الدين، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) إشارة إلى بيتي الشاعر أبي الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي، وهو شاعر مشهور، معروف بمجونه، توفي سنة (٣٨٥ هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤١٢ ـ ٤١٣. وانظر بعض أشعاره في «يتيمة الدهر»: ٣/ ٣ ـ ٢٥، وانظر المقامة الكرَجية «الخامسة والعشرين» للحريري، فقد بناها على هذين البيتين.
(٣) في (م) وكرمك من كف كافها.
(٤) العُرف: الجود «اللسان» (عرف).
(٥) في (م): كافها.
(٦) في الأصل و (ل): السابعة، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وهي رواية في هامش (ل).
(٧) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

[قال][1]: فكتبتُ إليه في جوابها:

أيا من له هِمَّةٌ في العُلا لِذُرْوتها أبداً فارِعَهْ
ومَنْ كَفُّهُ[2] دِيمةٌ ما تزا لُ بالعُرْفِ هاميةٌ هامِعَهْ
وللفَضْلِ في سوق أفضاله بضائعُ نافِقَةٌ نافِعَهْ
وهل كابنِ عَصْرونَ في عَصْرِنا إمامٌ أدِلَّتُهُ قاطِعَهْ
فَحَبْرٌ[3] فوائِدُه جَمَّةٌ وبحرٌ مواردُه واسِعَهْ
أيا شَرَفَ الدِّينِ شَرَّفْتَني بإهداءِ رائقةٍ رائِعَهْ
أَطَعْتُ أوامرَكَ السَّاميات وما بَرِحَتْ هِمَّتي طائِعَهْ[4]
أرى كلَّ جارحةٍ لي تودُّ (م) لو أنَّها أُذُنٌ سامِعَهْ[5]
وأما الشِّتاءُ وكافاتُهُ وكَفُّكَ عن كافه الرَّابِعَهْ
فنفسي مُنَزَّهَةٌ بالعفا فِ عنها وفي غيرِها طامِعَهْ
وماذا[6] تُطيقُ إذا لم تكن بميسورِ سيدِنا قانِعَهْ

١٥٠/١

وهي أكثر من هذا.

قال: وكان ابن حَسَّان[7] صاحب مَنْبِج* قد ساءت أفعاله، فبعث إليه[8] نور الدين مَنْ حاصره وانتزعها منه، ثم توجَّه نور الدين إليها لتهذيب

---

(١) ما بين حاصرتين من (م)
(٢) في (ل): يفتر.
(٣) في (م): بحبر.
(٤) في (م): سامعة، وكأنها سبق نظر في البيت التالي.
(٥) البيت ساقط من (م).
(٦) في (م): ومَنْ ذا.
(٧) هو الأمير غازي بن حسان، انظر ص ٢٤ من هذا الجزء.
(٨) في (م) إلى، وهو تصحيف.

أحوالها[1]، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها:

بُشْرَى الممالك فَتْحُ قَلْعَةِ مَنْبج ... فلْيَهْنِ هذا النَّصْرُ كلَّ متوَّجِ
أُعطيتَ هذا الفَتْحَ مِفْتاحاً به ... في الملك يَفْتَحُ كلَّ بابٍ مُرْتَجِ
وافى يُبَشِّرُ بالفُتُوحِ وراءه ... فانهضْ إليها بالجيوش وعَرِّجِ
أبشِرْ فبيتُ القُدْسِ يتلو مَنْبجاً ... ولِمَنْبِجٌ لسواه كالأُنْموذَجِ
ما أعجزَتْكَ الشُّهْبُ في أبراجها ... طلباً فكيفَ خوارجٌ في أَبْرُجِ
ولَقَدْرُ مَنْ يعصيك أحقر أن يَرَى ... أَثَرَ العُبُوس بوجهكَ المُتبلِّجِ
لكن تهذِّبُ[2] مَنْ عَصَاكَ سياسةً ... في ضِمْنِها تقويمُ كلِّ مُعَوَّجِ
فانْهَدْ إلى البيتِ المُقَدَّس غازياً[3] ... وعلى طَرَابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ
قد[4] سِرْتَ في الإِسلام أَحْسَنَ سِيْرَةٍ ... مأثورةٍ وسَلَكْتَ أَوْضَحَ مَنْهَجِ
وجميع ما استقريتَ من سُنَنِ الهُدَى ... جدَّدْتَ منه كلَّ رسمٍ مُنْهَجِ[5]

قال العماد: وسار نور الدين من مَنْبج* إلى قلعة نجم[6]، وعَبَرَ الفُرَات إلى الرُّها*، وكان بها يَنَال صاحب مَنْبِج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج، فنقله إليها مُقْطعاً ووالياً[7]. وأقام نور الدين بقلعة الرُّها

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٩.
(٢) في الأصل: يهذب، والمثبت من (م)، وفي (ل) مهملة.
(٣) في الأصل: عازماً، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في الأصل: مذ. والمثبت من (ل) و(م).
(٥) المنهج: خلق، بال. «اللسان» (نهج).
(٦) قلعة حصينة مطلة على الفرات، بين منبج وحران، عندها جسر يعبر عليه، وهي المعروفة بجسر منبج، وكانت القوافل تعبر على هذا الجسر من حران إلى الشام، وبين القلعة ومنبج أربعة فراسخ. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٣٩١.
(٧) ثم أخذها منه السلطان صلاح الدين سنة (٥٧١ هـ) كما سيأتي، انظر ص ٤٠٥ من هذا الجزء.

مُدَّة، فمدحه العماد بقصيدة، وتحجَّب له صلاح الدين في عَرْضها[1]، وهي:

أَدْرَكْتَ من أمر الزَّمان المُشْتَهَى … وَبَلَغْتَ من نَيْلِ الأماني المُنْتَهَى

وبقِيْتَ[2] في كَنَفِ السَّلامة آمِناً … متكرِّماً بالطَّبْعِ لا متكرِّها

لا زِلْتَ نورَ الدين في فَلَكِ الهُدَى … ذا غُرَّةٍ للعالمينَ بها البَهَا

يا محييَ العَدْلِ الذي في ظِلِّه … مِن عَدْله رَعَتِ الأسودُ مع المَهَا

محمودٌ المحمودُ مَنْ أيامُه … لبهائها ضَحِكَ الزَّمانُ وقَهْقَها

مَولى الورى مُولي النَّدَى مُعْلي الهُدَى … مُرْدي العِدَى مُسْدي الجَدَا مُعْطي اللُّها[3]

آراؤه بصوابِها مَقْرونَةٌ … وبمقتضاها دائرٌ فَلَكُ النُّهَى[4]

متلبِّسٌ بحصافَةٍ وحَصَانَةٍ … متقدِّسٌ عن شَوْبِ مكرٍ أو دَهَا

يا مَنْ أطاعَ اللَّهَ في خَلَواته … متأوِّباً مِنْ خَوْفِه مُتَأَوِّهَا

أبداً تقدِّمُ في المعاشِ لوجهه … عملاً يُبَيِّضُ في المَعَادِ الأَوْجُها

كلُّ الأمور وَهَى وأمرُكَ مُبْرَمٌ … مُسْتَحْكِمٌ لا نَقْضَ فيه ولا وها

ما صينَ عنك الصِّينُ لَوْ حاولتها … والمشرقانِ فكيفَ مَنْبِجُ والرُّها

ما للملوكِ لدى ظهورِكَ رَوْنَقٌ … وإذا بدَتْ شَمْسُ الضُّحى خِفِيَ السُّها[5]

إنَّ الملوكَ لَهَوْا وإنك مَنْ غدا … وبماله والمُلْكِ منه ما لَهَا

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦٩، وقد أورد من القصيدة بيتين.

(٢) في (م): وبلغت.

(٣) الجدا واللُّها كلاهما بمعنى العطية، انظر «اللسان» (جدا، لها).

(٤) النُّهى: العقل. «اللسان» (نهي).

(٥) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، يمتحن الناس به أبصارهم. «اللسان» (سها)، وهذا البيت والذي قبله في «سنا البرق الشامي»: ٧٠.

شَرِهَتْ نفوسُهُمُ إلى دنياهمُ ... وأبى لِنَفسِك زُهْدُها أن تَشْرَها

ما نمتَ عن خَيْرٍ ولم يكُ نائماً ... مَنْ لا يزالُ على الجميل مُنبِّها

أَخْمَلْتَ ذِكْرَ الجاهلينَ ولم تَزَلْ ... مَلِكاً بذِكْرِ العالمين مُنَوَّها

ورأيتَ إرعاءَ الرَّعايا واجباً ... تُغني فقيراً أو تجيرُ مُدَلَّها

لرضاهمُ متحفِّظاً ولحالهمْ ... مُتَفَقِّداً ولدينِهِمْ مُتفقِّها

وبما به أَمَرَ الإلهُ أَمَرْتَهُمْ ... من طاعةٍ وَنَهَيْتَهُمْ عمَّا نَهى

عن رحمةٍ لصغيرهم لم تَشْتَغِلْ ... عن رأفةٍ لكبيرِهم لن تُشْدَها[1]

باليأس[2] عندك آملٌ لم يُمتحن ... بالرَّدِّ دونَكَ سائلٌ لن يُجْبَها[3]

أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ كي تنالَ رفاهةً ... مَنْ ليسَ يتعبُ لا يعيش مرفَّها

فُقْتَ الملوكَ سماحةً وحماسةً ... حتى عَدِمْنا فيهمُ لكَ مُشْبها

ولك الفَخَارُ على الجميع فدونَهُمْ ... أصبحتَ عن كلِّ العيوبِ مُنَزَّها

وأراكَ تحلُمُ حينَ تُصْبِحُ ساخِطاً ... ويكادُ غيرُك ساخِطاً[4] أن يَسْفَها

١٥١/١

قلت: رحم الله العماد، فقد نظم أوصافَ نور الدين الجليلة بأحسن لفظٍ وأرقِّه، وهذا البيت الأخير مُؤكِّدٌ لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله تعالى في وصف نور الدين رحمه الله تعالى، إنه لم تُسْمع[5] منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضجره[6]، وقلَّ من الملوك من له حظٌّ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة.

---

(١) أي لن تشغل. انظر «اللسان» (شده).

(٢) في الأصل: بالناس، وهو تصحيف، وفي (ل): مهملة، والمثبت من (م).

(٣) أي لن تردَّ حاجته، وتستقبله بما يكره. «اللسان» (جبه).

(٤) في هامش (ل): لعله راضياً، فتأمل. قلت: هو الأشبه بالصواب.

(٥) في الأصل و(ل): يستمع، والمثبت من (م).

(٦) في الأصل: في رضاه ولا في ضجره كلمة فحش، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر ص ٣٣ من الجزء الأول.

قال العماد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضُرِبَتْ خيمتُه في رأس المَيْدَان الأخضر*.

قال: وكان مولعاً بضرب الكُرة*، وربما دَخَلَ الظَّلامُ فلعب بها بالشُّموع في الليلة المُسْفرة، ويركب صلاح الدين مذكراً[1] كل بُكْرة، وهو عارفٌ بآدابها في الخدمة، وشروطها المعتبَرة. وأقطعه في تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب، والأُخرى من ضياع كفر طاب[2]*.

قال: وكتبتُ إليه في طلب كَنْبُوش[3]:

أَصْبَحَتْ بغلتي تشكَّى[4] من العُرْ ... ي وأَسْـرَاجُهـا بـلا كَنْبُـوشِ
قلتُ: كُفِّي فَخَيْرُ يومَيْكِ[5] عندي ... أنْ تفـوزي بـالتِّبْـنِ أو بـالحشيـشِ
وافـرحـي ليلـة الشَّعيـرِ كمـا يَفْـ ... ـرَحُ قَـوْمٌ بليلـةِ المـاشـوشِ[6]
لـو تبصَّـرْتِ حـالتـي لَتَصَبَّـرْ ... تِ فـإيـاكِ عِنْـدَهـا أن تَطِيْشـي

(١) المُذَكَّر من الخيل: الشديد القوي.
(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٠.
(٣) الكنبوش: وهو ما يُستر به مؤخر ظهر الفرس وكَفَلُه، وهو تارة يكون من الذهب المزركش، وتارة يكون من الفضة الملبسة بالذهب، وبه يركب الملوك والأمراء، وتارة يكون من الصوف المرقوم، وبه يركب القضاة وأهل العلم. انظر «صبح الأعشى»: ٢/ ١٢٩، و «معجم متن اللغة»: ٥/ ١٠٧.
(٤) في الأصل: تشكو، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في الأصل: يومك، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) الماشوش، لفظة دخيلة عراقية، وليلة الماشوش، هي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحد أحداً عن شيء. انظر «مجلة المشرق» الجزء الثالث من السنة السادسة والثلاثين سنة ١٩٣٨ من ص ٣٩٧ ــ ٤٠٠ و «الديارات» للشابشتي: ٦٠ ــ ٦١، و «مجلة لغة العرب»: السنة الثامنة: ٣٦٨ ــ ٣٧٣.

أوَمـا مـات فـي الشِّتـاءِ مـن البَـرْ ... دِ ومـن فَـرْطِ جُـوعـه إكـديشـي[1]

فثقـي واسْكُنـي بجـودِ صـلاحِ الـدِّ (م) ... يـنِ غَـرْسِ الملـوكِ مَلْـكِ الجيـوشِ

فَهْــو يجلــوكِ للعيــونِ بِكَنْبُــو ... شٍ جـديـدٍ مُسْتَحْسَــنٍ مَنْقُــوشِ

كـم عـدوٍّ مـن بـأسـه فـي عِثـارِ ... ووَلــيٍّ بجــودِهِ مَنْعُــوشِ

والمـوالـي علـى الأَسِـرَّةِ والأعـ ... ـداءُ تحـتَ الهـوانِ فَـوْقَ النُّعـوشِ

قال: وأقطع أسدَ الدين حمص وأعمالها، فسار إليها، فسدَّ ثغورها، وضبطَ أمورها، وحمى جُمهورَها. وكان نور الدين قد جَدَّد سُورها وحَصَّن دُورها، وبلي الفرنجُ منه بالمغاور المراوغ، ذي البأس الدامغ. وسأله نورالدين في السُّلُوِّ عن حُبِّ مصر، وقال: قد تعبتَ مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعة، وشفعوا السؤالَ بالشفاعة، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة[2].

قلت: وأنشد العمادُ أسدَ الدين في رجب من هذه السنة:

دُمْـتَ فـي المُلْـكِ آمـراً ذا نفـاذِ ... أسـدَ الـديـن شِيـركُـوه بـنَ شـاذي

يـا كـريمـاً عـن كـلِّ شَـرٍّ بطيئـاً ... وإلــى الخيــرِ دائــمُ الإغــذاذِ

ومـلاذُ الإِسـلام أنـتَ[3] فـلا زلـ ... ـتَ لأهـلِ الإسـلام خَيْـرَ مـلاذِ

---

(١) نوع من الخيل غير العراب، تجلب من بلاد الترك والروم، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي، وهي البراذين، وكانت تعرف من ذلك الزمن بالأكاديش. انظر «صبح الأعشى»: ٢/ ١٧.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٠ ــ ٧١.

(٣) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٥١ «إن كهف الاسلام أنت».

في نُفُوسِ الكُفَّارِ[1] رُعْبُكَ قد حَلَّ (م) بصَــدْعِ الأكبــادِ والأفــلاذِ
لــم تَـدَعْ بـالظُّبـى رؤوسـاً وأصنـا ـمـاً مـن المشـركيـن غَيْـرَ جُـذَاذِ
أنـتَ مَـنْ نـازل الـدَّعيِّيـنَ فـي مِصْـ ـرَ لنصـر الإمـامِ فـي بَغْـذَاذِ
١٥٢/١ وبـلادُ الإسـلام أنقـذْتَهـا أنـ ـتَ مـن الشِّـرْكِ أيمـا إنقـاذِ

فصــل

في وفاة زين الدِّين؛ والد مُظَفَّر الدين[2] صاحب إِرْبِل*

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاثٍ وستين سار زين الدين علي بنُ بُكْتِكِين[3]، نائب أتابك قطب الدين، عن المَوْصل إلى إِرْبِل، وسَلَّم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى قُطْب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زَنْكي رحمه الله تعالى. فمن ذلك سِنْجار* وحرَّان* وقلعة عَقْر الحُمَيدية*، وقلاع الهكَّارية* جميعها. وكان نائبه بِتَكْريت* الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلِّمها، فقال: إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت، ولا بُدَّ له من نائبٍ فيها، وأنا أكون ذلك النائب، فليس له مثلي، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد. وأما شَهْرُزُوْر* فكان بها الأمير بُوزان، فقال مثله أيضاً، فأُقِرَّت بيده، فكانا في طاعة قطب الدين.

---

(١) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٥١ «وبقلب الكفار».
(٢) والد مظفر الدين.. غير موجودة في (ل)، ومظفر الدين، أمير مشهور، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد اسمه ص ٤٠ من هذا الجزء، توفي سنة (٦٣٠ هـ) وسيرد ذكره في «المذيل على الروضتين» في حوادثها.
(٣) الضبط من «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٢١.

وسببُ فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم، وأقام بإربِل إلى أن توفي بها في ذي الحِجَّة من هذه السنة[1]، وكان قد استولى عليه الهَرَمُ وضَعُفَت قوته.

وكان خيِّراً عادلاً حسن السيرة، جواداً، محافظاً على حُسْن العهد وأداءِ الأمانة، قليلَ الغدر بل عديمه. وكان إذا وعد بشيء لا بُدَّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً. وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدلُّ على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدُلُّ على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء. بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذَنَبِ فَرَسٍ ذكر أنه نَفَقَ له، فأمر[2] له بفرس، فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيرُه من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق[2] له دابة، فأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلاً كلهم يأخذ فرساً. فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تَستحيُون مني كما أستحيي منكم؟ قد أحضر هذا عندي اثنا عشر رجلاً[3] وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم، أتظنون أنني لا أعرفه؟ بلى والله، وإنما أردتُ أن يصلكم عطائي بغير مَنٍّ ولا تكدير، فلم تتركوني!

لَيسَ الغَبيُّ بِسَيِّدٍ في قَومِهِ ... لكنَّ سَيِّدَ قَومِهِ المُتَغَابي[4]

---

(١) في «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤ أنه توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة، والمثبت عندنا قول ابن شداد في «النوادر السلطانية»: ٣٩، ولم يعين ابن الأثير شهر وفاته لا في «كامله» ولا في «الباهر».

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في(ل) كلهم، وإخالها مقحمة على النص.

(٤) البيت لأبي تمام وهو في «ديوانه» بشرح الخطيب التبريزي: ١/ ٨٧، وانظر الخبر في «الباهر»: ١٣٥، و «الكامل» ١١/ ٣٣١ ــ ٣٣٢، و «النوادر السلطانية»: ٣٩، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤.

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلِّف شيئاً بل أنفذه جميعه[1] في العطايا والإنعام على النَّاس، وكان يلبس الغليظ، ويشدُّ على وسطه [كلّ][2] ما يحتاج إليه من سكّين ودِرَفش[3] ومطرقة ومسلَّة وخيوط ودسترك[4] وغير ذلك. وكان أشجعَ النَّاس، ميمون النقيبة، لم تنهزم له راية. وكان يقوم المقام الخطير فَيَسْلَمُ منه بحسن نيته، وكان تركياً أسمر اللَّون، خفيف العارضين، قصيراً جداً. وبنى مدارس وربُطاً* بالمَوْصِل وغيرها. وبلغني أنَّه مدحه الحَيْص بَيْص[5]، فلمَّا أراد الإنشاد قال له: أنا لا أدري ما تقول، لكنْ أعلم أنّك تريد شيئاً. وأمر له بخمس مئة دينار، وأعطاه فرساً وخِلَعاً وثياباً، يكون مجموع ذلك ألف دينار. قال: ومكارمه كثيرة[6].

ولما توفي بإرْبِل كان الحاكم بها خادِمَهُ مجاهد الدِّين قايماز[7]، وهو المتولِّي لأمورها[8]. وولي بعد زين الدين ولدُه مظفَّر كُوكُبُوري[9] مُدَّة، ثم

---

(١) في (م): جميعاً.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) سيخ مدبب من الحديد، في أسفله يد خشبية، يستعمل لثقب الجلد لإدخال الإبرة حين حياكة الأحذية، وهي كلمة فارسية. «قاموس الفارسية»: ٢٤٢.

(٤) دستر: كلمة فارسية تعني منشار و(ك) للتصغير. دسترك: منشار صغير. انظر «قاموس الفارسية»: ٢٥٠.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٨ من الجزء الأول.

(٦) «الباهر»: ١٣٥ ــ ١٣٦.

(٧) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٤ هـ)، وسيرد شيء من أخباره ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤ من هذا الجزء.

(٨) ولي أمورها سنة (٥٥٩ هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٨٢.

(٩) في الأصل و (ل): كوكبري، والمثبت من(م)، والضبط من «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٢١، وقال: هو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق.

فارقها لِخُلْفٍ كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجَرَتْ أمورٌ يطول ذكرها[١].

ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخرَ الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذمُّوه ولم تَطُلْ أيّامُه، وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ستٍّ وستين إن شاء الله تعالى[٢].

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمس مئة

ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جَعْبر*، وأخذَها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقَيلي من آل عُقَيْل من بني المسيَّب[٣]، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السُّلطان مَلِكْشاه، وقد تقدَّم ذكر ذلك[٤]. وهي من أمنع الحصون وأحسنها، مطلَّة على الفرات لا يُطْمَعُ فيها بحصار؛ وقد أعجز جماعةً من الملوك أخذُها منه، وقُتِلَ عليها عماد الدين زَنْكي والد نور الدين.

[ثم][٥] اتَّفق أن[٦] خرج صاحبها منها يوماً يتصيَّدُ، فصاده بنو كلب، فأخذوه أسيراً وأوثقُوه، وحملوه إلى نور الدين، فتقَرَّبُوا به إليه، وذلك في

(١) انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤ ــ ١١٥.
(٢) انظر «الباهر»: ١٣٦، وانظر ص ١٦٧ وما بعدها من هذا الجزء.
(٣) انظر عن بني عقيل «معجم الأنساب» لزامباور: ٢٠٥ ــ ٢٠٦، وذكر بعض أخبارهم ابن خلكان في «وفياته»: ٥/ ٢٦٠ ــ ٢٦٩.
(٤) انظر ص ٩٦ من الجزء الأول.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في الأصل: أنه، والمثبت من (ل) و (م).

رجب مِنْ سنة ثلاث وستِّين، فحبسه بحلب وأحسن إليه، ورغَّبه في الإقطاع والمال ليسلِّم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به نور الدين إلى الشِّدَّة والعنف وتهدَّده، فلم يفعل أيضاً، فسيَّر إليها عسكراً مقدَّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزَّعْفَراني[1]، فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدَّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الدَّاية ــ وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله ــ فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذِّراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللِّين، وأشار عليه بأخذ العِوَض من نور الدين، ولم يزل يتوسَّط معه حتى أذعن على أن يُعطى سَرُوج* وأعمالها والملُّوحة[2] التي في عمل حلب، وباب بُزاعة[3] وعشرين ألف دينار معجَّلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرهاً في صورة مختار. قال ابن الأثير: وهذا إقطاعٌ عظيم جداً لكنه لا حِصْنَ [له] فيه[4].

١٥٣/١ وتسلَّم مجد الدين قلعة جعبر، وصَعِدَ إليها منتصف المحرَّم، ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب، فسار إليها، وصعد القلعة في العشرين من

(١) انظر حاشيتنا رقم (٣) ص ٣٥١ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل و (ل): الملاحة، وهي تحريف، والمثبت من (م)، وهي قرية كبيرة من قرى حلب. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ١٩٥، و «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٢، و «زبدة الحلب»: ٢/ ٦٨٩.

(٣) في الأصل و (ل): والباب وبزاعة، وهما بلدتان، الأولى تقع في طرف وادي بطنان من أعمال حلب، وتعرف بباب بزاعة، والثانية تقع في وادي بطنان بين منبج وحلب. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٣٠٣، ٤٠٩. و«بغية الطلب» ١/ ٢٦٩ ــ ٢٧٠ والمثبت من (م)، وهو يوافق ما ورد في «الباهر» و «الكامل» لابن الأثير. وفي «زبدة الحلب»: ٢/ ٦٨٩، و« بزاعا»، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٢.

(٤) «الباهر»: ١٣٧، و «الكامل»: ١١/ ٣٣٥، وما بين حاصرتين من (ل)، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧١ ــ ٧٣.

المحرم، ثم سلَّمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الدَّاية، فولاها أخاه شمس الدين علياً. وكان هذا آخر أمر[1] بني مالك، ولكل أمر آخر[2]، ولكل ولاية نهاية، يُؤْتي الله المُلْكَ من يشاء، وينزِعُهُ ممن يشاء[3].

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيُّما أحبُّ إليك وأحسن مقاماً، أسَرُوج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه[4].

قال العماد: وأنشدتُ نور الدين بقلعة جَعْبر قصيدةً، أولها[5]:

اِسلَمْ لبكْرِ الفُتُوحِ مُفْتَرِعاً[6]	ودُمْ لمُلْك البلادِ مُنْتَزِعا
فإنَّ أَوْلى الورى بها مَلِكٌ	غدا بعبء الخُطُوبِ مُضْطَلِعا
إنْ ضاقَ أمرٌ فغيرُ هِمَّتِه	لِكَشْفِ ضيقِ الأمورِ لن يَسَعا
يا محيي العَدْلِ بعد مِيْتَتِه	ورافعَ الحقِّ بعدما اتضعا
ونورَ دينِ الهُدَى الذي قَمَعَ الشِّـ (م)	ـرك، وعفَّى الضَّلال والبِدَعا
أنتَ سليمانُ في العَفَافِ وفي الـ	ـمُلْكِ وتحكي بِزُهْدِكَ الْيَسَعا
حُزْتَ التُّقى والحياء والكرم الـ	ـمَحْضَ وحُسْنَ اليقينِ والوَرَعا
أَسْقَطْتَ أقساطَ ما وَجَدْتَ من الـ	ـمَكْسِ بعدلٍ والقاسِطُ[7] ارتدعا[8]

(١) في (ل): أمراء.
(٢) في (ل) و (م): أمد.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٣، و «الباهر»: ١٣٧.
(٤) «الباهر»: ١٣٧، و «الكامل»: ١١/ ٣٣٥.
(٥) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٣ أورد أربعة أبيات من القصيدة.
(٦) في الأصل و (م) مقترعاً، والمثبت من (ل).
(٧) القاسط: الجائر، الظالم، أما المقسط فهو العادل. انظر «اللسان» (قسط).
(٨) في (م): ارتعدا، وهو تحريف.

ولـم[1] تَـدَعْ في ابتغـاء مصلحـة الـدِّ(م) يـن لنـا بـاقيـاً ولَـنْ تَـدعـا

وكـلُّ مـا فـي الملـوك مُفْتَـرقٌ من المعـالـي[2] لمُلكـك اجْتَمعـا[3]

هِمَّتُـكَ الـرُّبْـط* والمـدارس تبْـ ـنيهـا ثـوابـاً وتَهْـدِمُ الْبِيَعـا

مـا زلـت ذا فِطْنَـةٍ مُـؤَيَّـدة علـى غُيُـوبِ الأسـرار مُطَّلِعـا

ببأسك البِيضِ[4] والطُّلى[5] اصْطَحَبَتْ بِعَـذْلـك الـذئـبُ والطَّـلا[6] رتعَـا

كـم صـائـدٍ لـم يقـع[7] لـه قَنَـصٌ فـي شَـرَكٍ وهْـو فيـه قـد وقعَـا

ومـالـكٌ حيـن رُمْـتَ قَلْعَتَـهُ غـدا مطيعـاً لـلأمـر مُتَّبِعـا

عنَـا خُشُـوعـاً لـربِّ مملكـةٍ لغيـر ربِّ السَّمـاءِ مـا خَشَعَـا

كـان مقيمـاً منهـا علـى الفَلَـكِ الْـ أعلـى شِهـابـاً بنـوره سَطَعَـا

لكنَّمـا الشُّهْـبُ مـا تنيـرُ إذا لاحَ عمـودُ الصَّبـاح فـانْصَـدَعـا

يَـدْفَعُهـا[8] طـائعـاً إليـك وكـم عنهـا إبـاءً بجَهْـدِه دَفَعَـا

هـي التـي فـي عُلُـوِّهـا زُحَـلٌ[9] كـرَّ علـى وِرْدهـا ومـا كَـرَعَـا

وهْـي التـي قـاربـت عُطَـارِدَ فـي الْـ أُفْـقِ فَـلاحـاً والفَـرْقَـدَيْـنِ معـا

كـأنَّ منهـا السُّهـا[10] إذا استـرق الـسَّ (م) ـمـعَ أتـاهـا فـي خُفْيَـةٍ ودعـا

---

(١) في (م): ولن.

(٢) في (م): المعاني.

(٣) هذا البيت والذي يليه وردا في (م) بعد البيت السابع «حزت التقى..».

(٤) البيض: السيوف، مفردها: أبيض. انظر «اللسان» (بيض).

(٥) الطلى: الأعناق، مفردها: الطلاة. «اللسان» (طلي).

(٦) الطلا: ولد الظبية. انظر «اللسان» (طلي).

(٧) في (ل): يقطع، وهو تحريف.

(٨) في (م): يرافعها.

(٩) في الأصل: رجل، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(١٠) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٤ من هذا الجزء.

هضبةُ عزٍّ لولاك ما ارتُقيت وطَوْدُ مُلْكٍ لولاك ما فُرِعا
ما قَبِلَتْ في ارتقاء ذُروتها من مَلِكٍ لا رُقىً ولا خُدَعا
عَزَّتْ على المالك الشَّهيدِ وأعْـ ـطتك قِياداً ما زال مُمْتنعا
للأبِ لو حَلَّ خَطْبُها لغدا محرَّماً لابنه وما شُرِعَا
لا زلت محمودُ في أمورك محـ ـموداً بثوب الإقبال مُدَّرِعا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين ابن الدَّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتمْ لمحمودٍ كآلِ محمدٍ متصادفي[1] الأفعال والأسماءِ
يتلو أبا بكر عَلَى حسناته عمرُ الممدَّحُ في سناً وسناءِ
ويليه عثمانُ المرجَّى للعُلا وعليٌّ المأمولُ في اللأواءِ
ويقبِّلُ الحسنَ الممجَّدَ مجدُهُم فهمُ ذُوو الإحسانِ والنَّعْماءِ
فَرَعَتْ بمجد[2] الدين إخوتُهُ الذُّرى دونَ الورى في المجدِ والعلياءِ
من سابق كرماً وشمس سيادةٍ[3] شرفاً وبدر دُجُنَّةٍ وبهاءِ
سُرُجُ الهدى سُحُب النَّدى شُهُب النُّهى أُسْدُ الحروبِ ضراغِمُ الهيجاءِ

١/١٥٤

يريد[4] سابق الدين عثمان، وشمس الدين عليّاً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة، رحمهم الله تعالى[4].

---

(١) في (ل) و (م): متصادقي، وهو تصحيف، وصادفه: قابله، وافقه. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٤٣٣.
(٢) في الأصل و (ل): لمجد الدين، والمثبت من (م).
(٣) في (ل): سادة، وهو تصحيف.
(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

فصـــل

وفي هذه السنة فُتحت[1] الديار المصرية؛ سار إليها أسد الدين مرة ثالثة[2]، فهزم العدوَّ، وقتل شاوراً، ووليَ الوزارة مكانه، ثم مات، فوليها صلاح الدين.

وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأُوَلَيَيْن اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شِيركُوه قد خَبَروا الدِّيار المصرية، واطَّلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقرَّ بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد. فجمعوا وحشدوا، وقالوا: ما بمصر من يصدُّنا، وإذا أردناها فمن يردُّنا؟! ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفُراتية، وعسكر الشام متفرِّق كل منهم في بلده، حافظ لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر، ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها مَعْقِل، ولا لأهلها [منّا][3] موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشَّام، [نكون][4] قد حصلنا على المَرَام، وقوينا بتملك الدِّيار المِصْرية على سائر بلاد الإسلام. فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص، وشايعهم على قصد مصر جماعةٌ من أهلها كابن الخياط وابن قَرْجَلَّة[5]، وغيرهما من أعداء شاور[6].

---

(١) في (م): لما فتحت.

(٢) في الأصل: ثالث مرة، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ١٥٤.

(٥) سيرد ذكرهما ص ١٠٣ من هذا الجزء، وقد أقام ابن قرجلة بعد عند الفرنج. انظر ص ٢٨٩ من هذا الجزء، وقد أورد أخبارهما عمارة اليمني في كتابه «النكت العصرية». انظر مثلاً ص ٣٥، ٦٩، ٧٨، ٣١٩، ٣٤٨.

(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ٧٣ ــ ٧٤.

وكان الفرنج قد جعلوا لهم شِحْنة* بمصر والقاهرة، وسكن فرسانهم أبواب البلدين، والمفاتيح معهم، على ما سبق ذكره[1]، وتحكموا تحكماً كثيراً، فطمعوا في البلاد، وأرسلوا إلى ملكهم مُرِّي* ـ ولم يكن مَلَكَ الفرنج مُذْ خرجوا إلى الشَّام مثله شجاعة ومكراً ودهاءً ـ يستدعونه ليملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانعٍ عنها، وسهَّلوا أمرها عليه، فلم يجبهم إلى المسير. واجتمع فرسان الفرنج وذوُو الرأي والتقدم، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي ألاَّ نقصدها فإنها طُعْمة لنا، وأموالها تُساقُ إلينا، نتقوَّى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإنَّ صاحبها وعساكره، وعامة أهل بلاده وفلاحيه، لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوفُ منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشَّام. فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لا حافظ لها ولا مانع، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهِّزَ العساكر ويسيِّرَهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السَّلامة فلا يقدر عليها. وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها، فأجابهم إلى ذلك على كرهٍ شديد، وتجهَّزوا، وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا[2] من عَسْقلان في النصف من المحرَّم، ووصلوا أول يوم من صَفَر إلى بِلْبيس* ونازلوها، وحَصَروها فملكوها قهراً ونهبوها، وسبَوْا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحَصَرُوها عاشر صفر[2]، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بِلْبيس، فحملهم

(١) انظر ص ١٤ من هذا الجزء.

(٢ ـ ٢) ما بينهما اقتباس من البرق الشامي، انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٤.

[منهم][1]] على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جُهدهم
[حف]ظه. ولو أنَّ الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بِلْبيس لملكوا مصر والقاهرة سُرعةً، ولكن الله تعالى حَسَّن لهم ذلك ﴿ليقضيَ اللَّهُ أمراً كان مَفْعُولاً﴾[2]. وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً [عليها][3] من الفرنج، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البَوَار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في تمحُّل الحيل، وأرسل إلى ملك الإفرنج يذكر له مودَّته ومحبَّته القديمة، وأنَّ هواه معه، وتخوُّفَه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير [عليه][4] بالصُّلْح وأخْذِ مالٍ لئلا تسلَّم البلاد إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، واستقرَّت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سُلِّمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا: نأخذ المال نتقوَّى به، ونكثر من الرجال، ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره. ﴿ومَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[5]. فعجَّل لهم شاور مئة ألف دينار، وسألهم الرَّحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين من (ل).
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنْقِذَهُنَّ من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر. ١/ ١٥٥
ولما صالح شاوَر الفرنجَ على ذلك المال عاود العاضدُ مراسلةَ نور الدين وإعلامَهُ بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شِيركُوه مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث [الذي][1] لنور الدين. هذا قول ابنِ الأثير[2].

وقال العماد: عجَّل شاور لملك الفرنج بمئة ألف دينار حيلة وخِداعاً، وإرغاباً[3] له وإطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً، وبما ناب الإسلام[4] من الكُفْرِ مخبراً، ويقول: إن لم تبادر ذهبت البلاد. وسيَّر الكتب مسوَّدة بِمِدادها، كاسية لباس حِدَادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، [وعصائب محزوزة][5]، ظُنَّ أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عَرَاهم من بليَّة الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجَّابين سِرَاعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيِّراً، وعامل الفرنج بالمِطال، يَنْقُدُهم [في][6] كلِّ حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً، وما زال يعطيهم ويَسْتَمْهِلهُم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى[7].

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «الباهر»: ١٣٧ ـ ١٣٩، و «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٤.
(٣) في الأصل و (م): إرغاماً، والمثبت من (ل).
(٤) في الأصل: المسلمين، ثم كتب فوقها الإسلام، وهي الأصح، والمثبتة في (ل) و (م).
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٤ ـ ٧٥.

فصـــل
فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص ــ وهي إقطاعه ــ فلما خرج القاصد* من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كُتُبَ المِصْريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكُفْر. فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب، واجتمع بنور الدين ساعةَ وصوله، فتعجَّب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرَّه، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مئتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكَّمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس. وكان في مُدَّة حشده للتركمان[1]، سار نور الدين لتسلُّم قلعة جَعْبر*، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء*، وأعطى نور الدين كلَّ فارسٍ من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعةً من الأمراء والمماليك، منهم مملوكه عز الدين جُرْدِيك[2]، وغرس الدين[3] قليج، وشرف الدين بُزْغُش[4]،

---

(١) في الأصل: حشد التركمان، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته في ٤/ ٤٤٢ من هذا الكتاب، و «مذيله». في وفيات سنة (٥٩٤ هـ). وانظر ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨ من هذا الجزء.

(٣) في «الباهر» و «الكامل»: عز الدين، وهو تحريف.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٢ من هذا الجزء.

وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة [بن] الياروقي[1]، وقطب الدين يَنَال بن حَسَّان المَنْبِجي[2]، وغيرهم. ورحلوا على قَصْدِ مِصْر، مستنزلين من الله تعالى النَّصْر، وذلك منتصف ربيع الأول[3].

وخيَّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشِّرات، فوصل المُبَشِّر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسبَّ الملكُ كلَّ من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبثَّ رسلَه إلى الآفاق بذلك[4].

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان، يعني صلاحَ الدين: كنت أكرهَ النَّاس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجتُ مع عمي باختياري. قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[5].

وقال ابن الأثير: أحبَّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه[6]، حُكي لي عنه أنه قال: لما وَرَدَتْ الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه

---

(١) في الأصل: الباروقي ـ بالباء الموحدة ـ وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م): وهو ممن رفض مبايعة صلاح الدين وزيراً بعد وفاة عمه أسد الدين، وقد توفي سنة (٥٦٤ هـ). انظر ٦٩، ٧١، ١١٤، ١٣٨ من هذا الجزء. وما بين حاصرتين من (ل).

(٢) ستردُ أخباره ص ٣٤٦، ٤٠٥ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ١٣٩.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٧، و «الباهر»: ١٣٩.

(٥) «النوادر السلطانية»: ٣٩، وسورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٦) «الباهر»: ١٣٩.

مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عَمِّك أسد الدين بحمص مع رسولي[1] إليه يأمره بالحضور، وتحثُّه أنتَ على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلت، فلما فارقنا[2] حلب على [ميل][3] منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال [له][4] نور الدين: تجهَّزْ للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرتَ أنت عن المسير[5] إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشَّام وغيره. قال: فالتفتَ إليَّ عمي أسد الدين وقال: تجهَّزْ يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فترسم له. فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بُدَّ من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلَّة الدواب وما أحتاج إليه، فأعطاني ما تجهزتُ به، وكأنما أُساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرتُ معه. فلما استقرَّ أمره وتوفي، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه[6].

---

(١) في الأصل و (ل): رسولٍ، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: فارقت، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في الأصل: المصير، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) «الباهر»: ١٤١.

قلت: وحَرَّضه أيضاً حسان العَرْقَلة[1] بأبياتٍ من شعره من جملة قصيدة مدحه بها، قال:

وَهَلْ أخشى من الأنواءِ بُخْلاً | إذا ما يوسفٌ بالمالِ جادا
فتىً للدِّين لم يَبْرَحْ صلاحاً | وللأعداءِ لم يَبْرَحْ فسادا ١٥٦/١
لئن أعطاه نورُ الدينِ حِصْناً | فإنَّ الله يعطيه البِلادا
إلى كم ذا التَّواني في دمشقٍ | وقد جاءتكُمُ مِصْرٌ تَهادى
عروسٌ بَعْلُها أسدٌ هِزَبْرٌ | يصيدُ المعتدينَ ولن يُصَادا
ألا يا مَعْشَرَ الأجنادِ سيروا | وراء لوائه تلقَوْا رشادا
فما كلُّ امرىءٍ صَلَّى مع النَّا | سِ مأموماً كمن صَلَّى فُرَادىٰ[2]

فلما سافر صلاحُ الدين إلى مصر عبر العرقلة على داره، فوجدها مغلقة، فقال:

عَبَرْتُ على دار الصَّلاح وقد خَلَتْ | من القمر[3] الوضَّاح والمَنْهَلِ[4] العَذْبِ
فوالله لولا سُرْعَةٌ مِثْلُ عَزْمِهِ | لغرَّقها طرفي وأحرقَها قلبي[5]

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصُّوفية بحارة قطامش جوار قيسارِيَّة القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله. فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ما سيأتي[6].

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من الجزء الأول.
(٢) القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٣٠ ــ ٣٢ مع اختلاف في بعض الألفاظ، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٩٩ ــ ٢٠٠.
(٣) في الأصل: الذهب، وكتب فوقها القمر، وهي تصحيح لها.
(٤) في (م): المورد.
(٥) البيتان في «ديوانه»: ١٤.
(٦) انظر ص ٦٨ وما بعدها من هذا الجزء.

وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدةٍ، أوَّلها:

* سَلِّمْ على مِصْرَ لا ربعٍ بذي سَلَمِ *

يقول فيها:

النَّاصر الملكُ الموفي بذمَّتِهِ ... وَمَنْ ندى كفِّه يُغْني عن الدِّيَم

وَمَنْ إذا جرَّد البِيضَ الصَّوارِمَ في الـ ... ـهيجاءِ أغمدَها في البَيْضِ والقِمَم[1]

وَمَنْ حَوى المُلك من بعد الطماعة في انـ ... ـتزاعه بِشَبا الهندية الحُذُم[2]

وَرَدَّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ ما ... رجاه مِن مُلك مصرَ كان في الحُلُمِ

ولَّى وراحتُهُ صِفْرٌ وقد مُلِئَتْ ... بعد الطماعة من يأس[3] ومن نَدَمِ

يُصَعِّدون على ما فاتهم نَفَساً ... لو لافَحَ البَحْرَ أضحى المَوْجُ كالحُمَمِ

وفي السَّلامة لولا جَهْلُهُمْ ظَفَرٌ ... لمن أراد نزالَ الأُسْدِ في الأُجُم

وهم أُسُودُ الشَّرى لكنْ أذلَّهُمُ ... مَلْكٌ لديه الأُسودُ الغُلْبُ كالغَنَمِ[4]

وله من قصيدة أخرى:

أقمتَ عَمُودَ الدينِ حين أمالَهُ ... لطاغي الفرنج الغُتْمِ[5] طاغي بني سعْدِ[6]

---

(١) البيض الأولى: السيوف، مفردها: أبيض، والثانية مفردها: بيضة وهي الخوذة. والقمم، مفردها: قمة وهي أعلى الرأس، انظر «اللسان» (بيض، قمم) و «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٧١.

٥) من الحذم: القطع. انظر «اللسان» (حذم).

(٢) من الحذم: القطع. انظر «اللسان» (حذم).

(٣) في الأصل: بأس، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.

(٥) الغتمة: عجمة في المنطق، مفردها: أغتم وغتمي، وجمعها: غتم. «اللسان» (غتم).

(٦) إشارة إلى شاور، فإن نسبه يرجع إلى سعد بن بكر بن هوازن. «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٣٩.

وَجَاهَدْتَ حِزْبَ الكُفْرِ حتى رَدَدْتَهُمْ ... خـزايـا عليهـم خيبـةُ الـذُّلِّ والـرَّدِّ
أفـدتَ بمـا قَـدَّمْـتَ مُلْكـاً مُخَلَّـداً ... وذِكْـراً مـدى الأيـام يُقْـرَنُ بـالحَمْـدِ
وذِكْرُك في الآفاقِ يَسْرِي كأنَّه الصَّـ (م) ـبـاحُ لـه نَشْـرُ الأُلُـوَّةِ[1] والنَّـدِّ[2]

ولأبي الحسن بن الذَّرَوي[3] فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرِّي*:

ولكـم أَشَمْـتَ الرُّومَ أشـأمَ بـارقٍ ... أَضْحَـتْ ميـاه نُفُـوسِهـا مـن قَطْـرِهِ
وافــاكَ بَحْــرُ دُرُوعِهــا عــن مَــدِّهِ ... ومضـى وقـد حَكَمَـتْ ظُبـاك بِجَـزْرِهِ
وَلَقِيْـتَ «مُـرِّيًّـا» وطَعْـمُ حيـاتِـهِ ... حُلْــوٌ فبــدَّلَــه القِتــالُ بِمُــرِّهِ
فـاعقـدْ إليـه الـرأيَ فـي عَـذَبِ القَنـا ... واحلـلْ بهـا عَجِـلاً معـاقِـدَ مَكْـرِهِ
واطْـرِدْه مـن وَكْـرِ الشَّـآم فـإنَّـه ... قـد طـارَ منـك بخـافـقٍ مـن ذُعْـرِهِ

فصـــل

في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع[4] ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر، فخلع عليه وأكرمه، وأُجريت عليه وعلى عساكره الجراياتُ الكثيرة والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة

---

(١) الألوة: العود الذي يتبخر به. «اللسان» (ألا).
(٢) الأبيات ليست في «ديوان» المطبوع.
(٣) سترد ترجمته، ص ١٠١ من الجزء الثالث.
(٤) كتب فوقها في الأصل: رابع، وهي رواية في نسخة أخرى، ومثلها في (م).

بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه، ويعده ويمنِّيه ﴿وَمَا يَعِدُهُم الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1].

ثم إنه عَزَم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأُمراء، ويقبضُ عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عَزَمْتَ على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل[2] لنقتلَنَّ جميعاً. فقال: صدقتَ، ولأَنْ نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شِركُوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد. فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النُّوري المَطْلَ من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جُرْديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله. فأنكر ذلك. واتفق أن أسد الدين سار[3] بعض الأيام إلى زيارة قبر الشَّافعي، رضي الله عنه، وقصد شاور عسكرَه على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جُرْديك، ومعهما جمعٌ من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسدَ الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوَرُوه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ

١٥٧/١

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٠.
(٢) في الأصل: نفعل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): واتفق أن بعض الأيام سار أسد الدين.

أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمةٍ وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ماعملوه. وأرسل العاضد لدين الله؛ صاحب مصر، في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثُّه على قتله، وتابع الرُّسُلَ بذلك. فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلىٰ القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور. فقصدها الناس ينهبونها، فتفرَّقوا عنه، هذا قول ابنِ الأثير[1].

وقال ابن شَدَّاد: أقام أسد الدين بها يتردَّد إليه شاور في الأحيان، وكان وَعَدَهم بمالٍ في مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئاً، وعلقت مخاليبُ الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصةً أخذوا البلاد، وأن تردُّدهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاور يلعب بهم تارةً وبالإفرنج أخرى، وملاَّكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء[2] على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قَبْضِه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردَّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به. وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعَلَم، فلم يتجاسر على قبضه منهم[3] إلاّ السُّلْطان نفسه ــ يعني صلاح الدين ــ وذلك أنه لما سار إليهم تلقَّاه راكباً وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه، ففرُّوا ونهبهم

---

(١) «الباهر»: ١٣٩ ــ ١٤٠.
(٢) في الأصل: للاستيلاء، وفي (ل): على الاستيلاء، والمثبت من (م).
(٣) في (م): من الجماعة.

العسكر، وقُبض [على] شاور وأنزل إلى خيمة مفردة. وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بُدَّ من رأسه. جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مَن قويَ منهم على صاحبه، فحزَّتْ رقبته وأُنفذ رأسه إليهم[1].

وقال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع[2] من شهر ربيع الآخر الإِيوان، وخُلع عليه ولقي الإِحسان، وتردَّد شاور إلى أسد الدين وتودَّد، وتجدَّد بينهما من الوداد ما تأكَّد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة، والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة. فقال صلاح الدين: هذا أمرٌ يطول، ومسألة فرضها يَعُول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإِقامة يَقْصُرُ عنها الأمد[3] الطَّويل، ولا أمر[4] لنا مع استيلاء شاور، لا سيما إذا راوغ وغاور[5]، فَنَفَّذ أسد الدين الفقيه عيسى[6] إلى شاور يشير عليه بالاحتراس[7]، وقال له: أخشى عليك مَن عندي من النَّاس. فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٩ ــ ٤٠، وما بين حاصرتين منه.
(٢) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٧ التاسع.
(٣) في (م): المدى.
(٤) ولا أمر، ساقطة من (م).
(٥) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٨ غادر، وهي تصحيف.
(٦) هو ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، أمير كبير مشهور، وفقيه مجاهد، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٤/ ١٠٩ ــ ١١٠، وهو الذي سعى في تمكين صلاح الدين في وزارة مصر، كما سيرد ص ٧١ من هذا الجزء، ونسبة «الهكاري» ترجع إلى قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية. «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٤٥.
(٧) في الأصل: الاحتراز، والمثبت من (ل) و (م).

على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته[1]، وقبضة وأثبته، ووكل به في خيمةٍ ضربها له، وحاول إمهاله، فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول، وأَبَوْا أن يرجعوا إلا بنُجح السُّول، فَحُمَّ حِمامه، وحُمل إلى القصر هامُه[2].

قلت: وبلغني أن الذي باشر حَزَّ رقبة شاور هو عز الدين جُرْديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفَرسيْهما، فأجابه، ووافقهما في ذلك جُرْديك، وكان ذلك عن أمرٍ قد تقرَّر؛ فحرَّكوا خيلهم، فلما بَعُدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجُرْديك على شاور، وأُدخل الخيمة.

وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عَرْقَلة:

لقد فازَ بالمُلكِ العقيم خليفةٌ	له شِيركُوهُ العاضديُّ وزيرُ
كأنَّ ابنَ شاذي والصَّلاحَ وسيفَهُ	عليٌّ لديه شَبَّرٌ وشَبِيرُ[3]
هو الأسدُ الضاري الذي جَلَّ خَطْبُهُ	وشاوَرُ كلبٌ للرِّجالِ عَقُورُ
بغى وطغا حتى لقد قال قائلٌ[4]	على مِثْلِها كانَ اللعينُ يَدُورُ
فلا رَحِمَ الرحمنُ تُرْبَةَ قَبْرِهِ	ولا زال فيها مُنْكَرٌ ونكيرُ[5]

(١) كأنها بمعنى: جَرَّه على الأرض.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٧ ـ ٧٨.

(٣) شبر وشبير: اسمان للحسن والحسين ولدي الإمام علي رضي الله عنهم. «اللسان» (شبر).

(٤) في هامش (ل): صحبه، وهي رواية في نسخة أخرى، ومثلها في (م).

(٥) الأبيات في «ديوانه»: ٥٢، وهي مستدركة فيه من كتابنا.

١٥٨/١ وقال أيضاً:

قُـلْ لأميـرِ المـؤمنيـن الـذي مِصْـرٌ حَمـاه وعلـيٌّ أبـوهُ
نَـصَّ علـى شـاوَرَ فـرْعَـوْنُهـا وَنَـصَّ مـوسـاهـا علـى شِيـركُـوه[١]

وقد وصف الفقيه الشَّاعر أبو حمزة[٢] عمارة اليمني في كتاب «الوزراء المصرية» الذي صنفه حالَ شاور في وزارته الأولى[٣]، ثم قال: وزارة شاور الثانية، فيها تكشَّفَتْ صفحاته، وأحرقت لفحاتُه، وأغرقت نفحاته، وغَضَّه الدَّهْرُ وعَضَّه، وأوجعه الثُّكْلُ وأَمَضَّه، وبان غَمْرُه وثِمادُه[٤]، وجمره ورماده، ولم يجفَّ من الأنكاد لبدُه[٥]، ولا صفا من الأقذاء وِرْدُه، وما هو إلاّ أن تسلَّمها بالرَّاحة، وسُلِّمت له الهمومُ عوضاً عن الرَّاحة. وفي أول ليلةٍ دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بِلْبيس*، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر النَّاسَ يوم التاج وأُسر أخوه صُبْح[٦]، وأصيبَ على بابِ القَنْطَرة بحجرٍ كاد يموت منه، وتعقَّب ذلك بنقل[٧] القتال على القاهرة حتى دُخِلَتْ من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج، وعمل البُرْج، وحصار

---

(١) البيتان في «ديوانه»: ١٠٨، وهما مستدركان فيه من كتابنا، وفيه اعتماداً على طبعة وادي النيل: ١٥٨/١ «إن أمير المؤمنين الذي..»

(٢) ورد في بعض تراجمه «أبو محمد» انظر منتخبات لعمارة اليمني في سيرته وفي أخبار زمانه ومعاصريه، المنشور ضمن «تكملة ديوانه» بعناية هرتويغ دربرغ المطبوع في مدينة شالون سنة ١٩٠٢ م، وسيرد التعريف به ص ٢٩٧ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) انظر «النكت العصرية»: ٦٧ وما بعدها.

(٤) الغمر: الماء الكثير، والثماد: الماء القليل. «القاموس المحيط»: (غمر، ثمد).

(٥) يقال: فلان لا يجف لبده: إذا لم يزل يتردد. (أساس البلاغة) (لبد).

(٦) صبح هو أخو شاور، ذكر بعض أخباره عمارة اليمني في كتابه «النكت العصرية»: ١٣٤ وما بعدها.

(٧) في «النكت العصرية»: ٧٨ تثقيل.

بِلْبيس*، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخِياط[1] طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاقُ لواتَه ومن ضامَّها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان[2] وجماعة من غلمانه[3] لحربهم ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر. وفي أثناء هذه المدة قبضُه على الأثير بن جَلَب راغب وقتله، وأسر معالي بن فُريج ثم قَتْله. واتَّصل إليه الخبرُ من قدوم أسد الدين إلى إطْفِيح* بأم النَّوائب [الكُبَر][4]، ووافق مجيءَ الغُزِّ قدومُ الفرنج ناصرين للدولة، وتوجَّهوا من مصر في البر الشَّرْقي تابعين للغُزِّ. ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال، ما تنقطع دونه[5] الآمال، وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعَهم إلى الشَّام، فتجهَّز الكامل للمسير صحبة الإفرنج. حدثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم[6] بن علي البَيْسَاني، قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمةٍ وليس معنا أحد، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغريب إلى سليم وما وراءها، وقال شاور: لكن لا أبرَحُ أقاتل بمن صَفَا معي حتى أموت. فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الدَّاعي ابن[7] عبد القوي وصنيعة المُلك جوهر وعزٌّ [الأستاذ][8] وقد التزموا المال، وتفرَّع على هذا الأصل مقام الغُزِّ بالجِيزة،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.

(٢) في (ل): سلمان، وهو تصحيف، انظر بعض أخبار نجم وسليمان في «النكت العصرية»: ١٣٥ ــ ١٣٨ وما بعدهما.

(٣) في الأصل و(ل): غلمانهم، والمثبت من (م) وهو يوافق ما في «النكت العصرية».

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في الأصل: منه، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) في الأصل و (ل) عبد الرحمن، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وانظر ص ٦٥ من هذا الجزء.

(٧) في الأصل و (ل): أن، والمثبت من (م).

(٨) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «النكت العصرية»: ٨٠.

ونوبة البابَين، وحصار الإسكندرية، وانصراف الغُزِّ راجعين، والفرنج بعدهم. فما هو إلاّ أن توهَّم شاور أنَّ الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته[١] معه وعفا، وإذا الأيام لا تخطب إلا زواله وفَوْته، ولا تريد إلا انتقاله وموته. فكان من قدوم الفرنج إلى بِلْبيس* وقَتْلِ من فيها وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين بن القَسِيم، وإنجاده كلمةَ الإسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قُلْتُ فيهم وقد ربط الإفرنج الطريقَ عليهم:

أَخَذْتُمْ على الإفرنجِ كلَّ ثَنِيَّةٍ وقُلْتُمْ لأيدي الخيل مُرِّي على مُرِّي

لئن نصبوا في البَرِّ جسراً فإنَّكم عبرتمْ ببحرٍ من حديدٍ على الجسرِ[٢]

قلت: وهذان البيتان من قصيدةٍ له ستأتي[٣]. ومُرِّي [هذا][٤] هو اسم ملك الإفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغُزِّ برحيل الفرنج عن الدِّيار[٥] المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغزّ بثمانية عشر يوماً. وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له[٦].

قال: ولم يربِّ أحدٌ رجالَ الدولة مثل ما رباهم الصَّالح بن رُزِّيك، ولا

(١) في (م): عبادته، وهو تحريف.
(٢) «النكت العصرية»: ٧٨ ــ ٨٠، ٢٧٠ مع اختلاف في ترتيب البيتين.
(٣) انظر ص ٧٨ ــ ٧٩ من هذا الجزء.
(٤) ما بين حاصرتين من (م).
(٥) في (م): البلاد.
(٦) «النكت العصرية»: ٨٠ ــ ٨١.

أفنى أعيانهم مثل ضِرْغام ــ وكانت وزارته تسعة أشهر مُدَّة حمل الجنين ــ ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والإفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها(١).

ولما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سَفْكِ الدِّماء بغير حق؛ كان يأمر بضرب الرِّقاب بين يديه في قاعة البُسْتان من دار الوزارة، ثم تسحبُ القتلى إلى خارج الدار(٢).

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيفَ من شَرِّ شاور ومكره، لما عُرِفَ من غَدْره وخَتْره(٣) واتَّضح الأمر في ذلك واستبان، تمارضَ الأسدُ ليقتنصَ الثُّعْلُبان، فجاءه قاصداً لعيادته، جارياً في خدمته على عادته؛ فوثب جُرْديك وبُزْغُش، موليا نور الدين، فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شَرِّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين، فإنه أول من تولَّى القبضَ عليه، ومدَّ يده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين وَمُلِّك، وخلع عليه الخِلَع وحُنِّك(٤)، واستولى أصحابُه على البلاد، وجرت أموره على السَّداد، وظهر منه حميد السيرة، وظهرت كلمةُ [أهل](٥) السُّنَّة(٦).

---

(١) انظر «النكت العصرية»: ٨٧.
(٢) «النكت العصرية»: ٨٨.
(٣) الختر: شبيه بالغدر والخديعة، وقيل: هو الخديعة بعينها، وقيل: هو أسوأ الغدر وأقبحه. «اللسان» (ختر).
(٤) أي أديرت العمامة من تحت حنكه. «تاج العروس» (حنك).
(٥) ما بين حاصرتين من (م).
(٦) «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ج ١٤٨/١٦ ب في ترجمة نور الدين، والعبارة فيه مضطربة لسقط فيها.

فصــل
في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القَصْر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتَّب وزيراً، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمَن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرَّ في الأمر ولم يبق له فيه منازع ولا مناوىء، وولَّى الأعمالَ من يثق إليه، واستبدَّ بالولاية، فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مُقَرِّر لها، وزمام الأمر والنهي مفوَّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحُسْن تأتيه وسياسته[1].

١٥٩/١

قال العماد: وكُتِبَ لأسد الدين منشورٌ من القصر، بسيط الشُّرْح طويل الطَّي والنَّشْر، كتب العاضدُ في طُرَّته بخطه، ولا شك أنه بإملاء كاتبه[2]: هذا عَهْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحُجَّة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سُبُله، فَخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بقوَّة، واسحَبْ ذيلَ الفَخَار بأن اعْتَزَتْ خدمتك إلى بُنوَّة النُّبوَّة، واتخذه للفوز سبيلاً[3] ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُم اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً﴾[4].

---

(١) «الباهر»: ١٤٠.

(٢) في (ل) و (م): كُتَّابه.

(٣) في (م): واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً. وانظر «صبح الأعشى»: ٩/٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩١.

ونسخة المنشور: «من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شِيركُوه العاضدي، عَضَدَ الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله[1] الذي لا إله إلاّ هو، ويسأله أن يُصلّي على محمدٍ خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطَّاهرين، والأئمة المهديين، وسلِّم تسليماً»[2].

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتملٌ على كلام طويل، وحشوٍ غير قليل، على عادة الكُتَّاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبِّرين، والبلاغة عكس ذلك. قال النبيُّ ﷺ: «بُعثت بجوامع الكَلِم واختُصر لي الكلام اختصاراً»[3].

ولما استقلَّ أسدُ الدين بالوزارة طلب من القصر كاتبَ إنشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم بن [علي][4] البَيْسَاني، وكان أبوه من أهل بَيْسان* الشَّام. ثم ولي قضاء عَسْقَلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالإسكندرية على باب السِّدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور

---

(١) في الأصل: الله إليك، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٩ ــ ٨٠، والنص منشور بتمامه في «صبح الأعشى»: ١٠/ ٨٠ ــ ٩٠.

(٣) أخرج الحديث بهذا اللفظ من حديث عمر بن الخطاب البيهقي في «شعب الإيمان»، (١٤٣٦) وفي إسناده علي بن زيد بن جُدْعان، وهو ضعيف، وأصل الحديث في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، ولفظه: «بعثت بجوامع الكلم» أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) (٦).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من ص ٦١ من هذا الجزء، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣١ من الجزء الأول.

فاستكتبه وزاحم به كُتَّابَ القَصْرِ، فثقل عليهم أمرُه، فلما طَلَبَ أسدُ الدين كاتباً أُرسِلَ به إليه، وظنَّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيُقتل كما قُتِلَ من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا: لعله يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا. فكان من أمره ما كان، واستمرَّ في الدولة، ولم يزدد [في][1] كل يوم إلا تقدُّماً، بصدقه ودينه وحُسْنِ رأيه، رحمه الله.

وأنفذ العماد قصيدةً طويلة تهنئة لأسدِ الدين، أوَّلُها:

بالجِدِّ أَدْرَكْتَ ما أَدْرَكْتَ لا اللَّعِبِ ... كم راحةٍ جُنِيَتْ مِنْ دَوْحَةِ التَّعَبِ

يا شِيركُوهُ بن شاذي المَلْكُ دعوةَ مَن ... نادى فعرَّف خيرَ ابنٍ بخيرِ أبِ

جرى الملوكُ وما حازوا بركضِهِمُ ... من المدى في العُلا ما حُزْتَ بالخَبَبِ

تَمَلَّ من مُلْكِ مِصْرٍ رُتْبَةً قَصُرَتْ ... عنها الملوكُ فطالت سائرَ الرُّتَبِ

فَتَحْتَ مِصْرَ وأرجو أَنْ تصيرَ بها ... مُيَسَّراً فَتْحَ بيتِ القُدْسِ عن كَثَبِ

قد أَمْكَنَتْ أسدَ الدينِ الفريسةُ من ... فَتْحِ البلاد فبادِرْ نحوها وَثِبِ

أنت الذي هو فَرْدٌ من بسالته ... والدِّينُ من عَزْمِهِ في جَحْفَلٍ لَجِبِ

في حَلْقِ ذي الشِّرْك من عدوى سُطَاك شَجاً ... والقَلْبُ في شَجَنٍ والنَّفْسُ في شَجَبِ[2]

زارت بني الأصفر البيضُ[3] التي لقيتْ ... حُمْرَ المنايا بها مرفوعةَ الحُجُبِ

وإنها نقَدٌ[4] من خَلْفِها أسدٌ ... أرى سلامَتَها مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ

لقد رَفَعْنا إلى الرَّحمن أيدينا ... في شُكْرِنا ما به الإسلامُ منك حُبي

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) الشجب: الهمُّ والحزن. «اللسان» (شجب).

(٣) في (ل): الأبيض، وهو تصحيف.

(٤) النقد، مفردها النقدة: الصغيرة من الغنم. «اللسان» (نقد).

شكا إليك بنو الإسلامِ يُتْمَهُمُ ... فَقُمْتَ فيهم مقامَ الوالدِ الحَدِبِ

في كلِّ دارٍ من الإفرنج نادبةٌ ... بما دهاهُمْ فقد باتوا على نَدَبِ

من شَرِّ شاور أنقذْتَ العِبَادَ فكم ... وكم قضيتَ لحزبِ الله من أَرَبِ

هو الذي أَطْمَعَ الإفرنجَ في بلد الـ ... إسلام حتى سعَوْا للقَصْدِ والطَّلَبِ

وإنَّ ذلك عندَ اللَّهِ مُحْتَسَبٌ ... في الحَشْرِ من أَفْضَلِ الطَّاعاتِ والقُرَبِ

أذلَّه [الملك][1] المنصورُ مُنْتَصِراً ... لما دعا الشِّرْكُ: هذا قد تعزَّز بي

وما غَضِبْتَ لدينِ الله مُنْتقِماً ... إلا لنَيْلِ رِضَا الرَّحْمنِ بالغَضَبِ

وأنتَ مَنْ وَقَعَتْ في الكُفْرِ هَيْبَتُهُ ... وفي ذويه وقوعَ النَّارِ في الحَطَبِ

وحين سِرْتَ إلى الكُفَّارِ فانهزموا ... نُصِرْتَ نَصْرَ رَسُولِ اللَّهِ بالرُّعُبِ[2] ١/ ١٦٠

يا محيي الأمة الهادي بدعوته ... للرُّشْدِ كلَّ غَوِيٍّ منهمُ وغبي

لمَّا سَعَيْتَ لوجهِ الله مُرْتَقِباً ... ثوابَهُ نِلْتَ عفواً كلَّ مُرْتَقَبِ

أَعَدْتَ نِقْمَةَ مصرٍ نِعْمَةً فَغَدَتْ ... تقول: كم نُكَتٍ لله في النُّكَبِ

أركبتَ رأسَ سِنانٍ رأسَ ظالمها ... عَدْلاً وكنتَ لوِزْرٍ غيرَ مُرْتَكِبِ

رُدَّ الخلافةَ عباسيةً ودَعِ الدَّ ... (م) عِيَّ فيها يصادفْ شَرَّ مُنْقَلَبِ

لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعى وترسِلَه ... والحَزْمُ عنديَ قَطْعُ الرَّأْسِ كالذَّنَبِ[3]

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٢٩٧٧) ومسلم (٥٢٣). «نصرت بالرعب» قلت: كان أعداء النبي ﷺ قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر، هابوه وفزعوا منه. انظر «اللسان» (رعب).

(٣) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٩ ثلاثة أبيات من القصيدة، وانظر «مفرج الكروب»: ١/ ١٦٥ ـ ١٦٧. وهذا البيت الأخير فيه تضمين من قول الشاعر أبي أذينة ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان:

لا تقطعَنْ ذَنَبَ الأفعى وترسلها ... إن كنتَ شهماً فأتبعْ رأسها الذنبا

انظر «المختصر في أخبار البشر» ١/ ٧١.

وقال العماد في «الخريدة»: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه، وقد أعفى الملك العادل نور الدين ــ قدَّس الله روحه ــ أهلَ دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه:

لما سَمَحْتَ لأهلِ الشَّامِ بالخَشَبِ ... عُوِّضْتَ مِصْرَ بما فيها من النَّشَبِ
وإنْ بَذَلْتَ لِفَتْحِ القُدْسِ مُحْتَسِباً ... للأَجْرِ جُوزيت أجراً[1] غير مُحْتَسَبِ
والأَجْرُ في ذاك عندَ اللَّهِ مُرْتَقبٌ ... فيما يُثِيبُ عليه خيرُ مُرْتَقِبِ
والذِّكْرُ بالخيرِ بين النَّاسِ تَكْسِبُهِ ... خيرٌ من الفِضَّةِ البيضاءِ والذَّهَبِ
وَلَسْتَ تُعْذَرُ في تَرْكِ الجهادِ وقد ... أَصْبَحْتَ تملِكُ من مصرٍ إلى حَلَبِ
وصاحِبُ المَوْصِلِ الفيحاءِ مُمْتَثِلٌ ... لما تريدُ فبادِرْ فجأَةَ النُّوَبِ
فأَحْزَمُ النَّاس من قَوَّى عَزِيْمَتَهُ ... حتى ينالَ بها العالي من الرُّتَبِ
فالجِدُّ والجَدُّ مقرونانِ في قَرَنٍ ... والحَزْمُ في العَزْمِ والإِدْرَاكُ بالطَّلَبِ
فَطَهِّرِ المسجدَ الأقصى وحوْزَتَهُ ... من النَّجاساتِ والإِشراكِ والصُّلُبِ
عساكَ تَظْفَرُ في الدُّنيا بِحُسْنِ ثناً ... وفي القيامةِ تَلْقَى خَيْرَ مُنْقَلَبِ[2]

فصل

في وفاة أسد الدين
وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة من هذه السنة[3]، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على

---

(١) في (م): خيراً.
(٢) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٧٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٣) سنة (٥٦٤ هـ).

تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التُّخَم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شِدَّة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله رحمه الله تعالى، وفُوِّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرَّت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام. وبَذَلَ الأموال، وملك الرِّجال، وهانَتْ عنده الدُّنيا فملكها، وشكر نِعْمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللَّهو، وتقمَّص بلباس الجِدِّ والاجتهاد، وما عاد عنه، ولا ازداد إلا جِدًّا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته. ولقد سمعتُ منه ــ رحمه الله ــ يقول: لما يَسَّرَ الله لي الدِّيار المصرية علمتُ أنه أراد فَتْحَ السَّاحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر ما زال يشنُّ الغارات على الفرنج إلى الكَرَك* والشَّوْبَك* وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والنِّعَم ما لم يُؤَرَّخ عن غير تلك الأيام. هذا كلُّه وهو وزير متابع للقوم، لكنه مُقوٍّ لمذهب[1] السُّنَّة، غارسٌ في البلاد أهل العلم والفِقْه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويَفِدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله، لا يخيِّبُ قاصداً، ولا يعدم وافداً. ولما عَرَفَ نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حِمْصَ من نوَّاب أسد الدين، وذلك في رجب من هذه السنة[2].

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين؛ فإن جماعةً من الأُمراء النُّورِيَّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدُّمَ على العساكر وولاية الوزارة، منهم الأمير عين الدولة الياروقي[3]، وقطب الدين خُسْرو بن تُلَيل[4] ــ وهو ابنُ

---

(١) في الأصل و (ل): مذهب، والمثبت من (م).
(٢) «النوادر السلطانية: ٤٠ ــ ٤١.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.
(٤) الضبط من (ل). وسيرد ذكره ص ١٤٢ من هذا الجزء.

أخي أبي الهيجاء[1] الهَذَباني[2] الذي كان صاحب إربل* ـ ومنه سيف الدين علي بن أحمد الهكَّاري[3] ـ وجَدُّه كان صاحب قلاع الهكَّارية* ـ ومنهم شهاب الدين محمود الحارِمي[4] ـ وهو خال صلاح الدين ـ وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خِلَع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه.

١٦١/١ وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظنَّ أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته بحكمه [و][5] لا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشَّامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشَّامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. فامتنع صلاح الدين وضَعُفَتْ نفسه عن هذا المقام، فَأُلْزِمَ به وأخِذَ كارهاً «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجَنَّةِ بالسَّلاسل»[6] فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة

(١) هو أبو الهيجاء السمين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وكان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطنه. وانظر «المذيل على الروضتين» حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤ هـ.

(٢) نسبة إلى الهذبانية، قبيلة كبيرة من الأكراد، وهي القبيلة التي ينتسب إليها أيضاً السلطان صلاح الدين. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٣٩.

(٣) هو المعروف بالمشطوب، أمير كبير، سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وترجمته ٤/ ٣٤٨.

(٤) ولي بَعْدُ حماة، وتوفي فيها سنة (٥٧٣ هـ). انظر ص ٣٨٦، ٤٧٠ ـ ٤٧٢ من هذا الجزء.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٦) في هامش (ل): تأمل. قلت: وهذا الحديث أخرجه البخاري (٣٠١٠) في الجهاد، باب الأسارى في السلاسل، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عجب الله من =

الوزارة: الجُبَّة والعِمامة وغيرهما، ولقّبَ الملك النَّاصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحدٌ من أولئك الأُمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه.

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكّاري[1] معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إنَّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تُلَيل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصل إليك. ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه النَّاس ولم يبق غيرك وغير اليارُوقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلَه من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك. ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً. وعَدَلَ إلى عين الدولة الياروقي ــ وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ــ فلم تنفعه رُقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فِرَاقَهُ وقد فات الأمر ﴿لِيَقْضِيَ الله أمراً كان مفْعُولاً﴾[2] وثبت[3] قدم صلاح الدين ورَسَخَ ملكه، وهو نائبٌ عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلِّها، ولا يتصرَّفُون إلا عن أمره.

= قوم يدخلون الجنة في السلاسل». وأخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الجهاد ـ باب في الأسير يوثق (٢٦٧٧) والإمام أحمد في «مسنده»: ٣٠٢/٢ بلفظ «عجب ربنا عز وجل من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل».

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٣) كذا في النسخ الخطية، والصواب: ثبتت.

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأَسْفَهْسِلار* ويكتب علامته* في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل [يكتب][1] الأمير الأَسْفَهْسِلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل[2] لهم الأموال[2] مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه، فلم يمكنه منعه. فمال النَّاس إليه وأحبُّوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضَعُفَ أمر العاضد، وكان كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفِه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل[3] إليه إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد. ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسَيَّر نور الدين العساكر، وفيهم إخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ــ وهو أكبر من صلاح الدين ــ فلما أراد أن يسير قال له: إن كنتَ تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ، فإنك تفسد البلاد، وأُحضرك حينئذٍ وأعاقبك بما تستحقُّه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائمٌ فيها مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه واشْدُدْ أزره، وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطَّاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى. فكان كما قال[4].

وقال العماد: لما فُرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في (م): يسير.
(٤) «الباهر»: ١٤١ ــ ١٤٣.

آراؤهم واختلطت أهواؤهم، وكاد الشَّمْل لا ينتظم، والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأُمراء النُّوريَّة على كلمةٍ واحدة، وأيدٍ متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والرَّاية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه. وألزموا صاحب القصر بتوليته[١]، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفضَّ ختوم الخزائن، وأنضَّ رسومَ المزائن، وسلَّط الجُودَ على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفَرَّق ما جمعه أسد الدين في حياته. وأنارت على منار العُلا إياة[٢] آياته، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبُّوه، وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنَّهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفُّعاً، وما أفاده[٣] إلا تأصلاً في السَّماح وتفرُّعاً، وضمَّ من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد صاحبُ القصر منشوراً[٤]، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السِّحْر الحلال، والعذب الزُّلال[٥].

ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور عمه أسد الدين[٦]، وجرى [القلم][٧] فيه بما خَطَّ له القلم في الأزل من وَصْفِ جهاده وسِلْمه. ففي ذلك المنشور: «والجهاد أنتَ رضيع دَرِّه، وناشئة حَجْره، وظهور الخيل

---

(١) في الأصل: والتزموا لصاحب القصر بتوليته، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: مهملة، وفي (ل): إناة، وهو تصحيف، والمثبت من (م). وإياة آياته: ضوؤها وشعاعها، منه: إياة الشمس: ضوؤها وشعاعها. انظر «اللسان» (أيا).
(٣) في الأصل: وما زاده، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) منشوراً، ساقطة من (م).
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨١.
(٦) في (ل): بمنشور أسد الدين عمه. وفي (م): أسد الدين، ساقطة.
(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

مواطِنُك، وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات قساطله[1] تُجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتْلَى مناقبك. فشمِّرْ له عن ساق من القَنَا، وخُضْ فيه بحراً من الظُّبى، واحْلُلْ في عُقَدِ كلمة الله وثيقات الحُبى، وأَسِلِ الوهاد بدم العِدَى، وارفع برؤوسهم الرُّبا، حتى يأتيَ الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مَذْخُوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»[2].

وفي طُرَّته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحُجَّته عند الله سبحانه عليك، فأوفِ بعهدك ويمينك، وَخُذْ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدِّنا رسول الله ﷺ أحسن أُسوة، ولِمن بقي[3] بثقته[4] بنا أعظم سَلْوة[5] ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[6].

/١٦٢

يعني بمن مضى أسد الدين، وبمن بقي صلاح الدين.

ثم قال العماد: وهذا آخِرُ منشورٍ طُويت به تلك الدولة[7] وخُتمت، وتبدَّدَت عقودها وما انتظمت.

ووصلَتْ كُتُبُ صلاح الدين إلينا إلى الشَّام، بما تسنَّى له من المَرَام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخَّر[8] عنه بالخِلع والعطاء.

---

(١) القسطل: الغبار الساطع. «اللسان» (قسطل).
(٢) انظر «صبح الأعشى»: ١٠/ ٩٧، مع اختلاف في اللفظ.
(٣) في الأصل و(ل): تبقى، والمثبت من (م).
(٤) في الأصل: لثقته، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) انظر «صبح الأعشى»: ٩/ ٤٠٧، مع اختلاف في اللفظ.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٧) في (م): الدواة، وهو تحريف.
(٨) في (م): يتأخر.

وترددت الكتب الصَّلاحية بذكر الأشواق، وشكوى الفِراق، وشرح الاستيحاش، وبَرْحِ القلوب العِطاش، فإنَّ أصحابنا وإن ملكوا، ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أُمَّةٍ لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألفونها، ورأوا وجوهاً هناك بهم عابسة، وأعيناً للمكايد متيقظة، وعن الودِّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين محالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً، أوله:

أيها الغائبون عنِّي وإنْ كنـ ... ـتمْ لقلبي بِذِكْرِكُمْ جيرانا
إنني مُذْ فَقَدْتُكُمْ لأَراكم ... بعيونِ الضَّمِيرِ عندي عِيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه، فقلتُ:

أَيُّها الظَّاعنون عني وقلبي ... معهم لا يفارِقُ[1] الأَظْعانا
مَلَكُوا مِصْرَ مِثْلَ قَلبي وفي هـ ... ـذا و [في][2] تلك أصبحوا سُكَّانا
فاعْدِلُوا فيهما فإنَّكُمُ اليَوْ ... مَ مَلَكْتُمْ عليهما سُلْطانا
لا تَرُوعوا بالهَجْرِ قَلْبَ مُحبٍّ ... أَوْرَثَتْهُ رَوْعاتُه الخفقانا
حَبَّذا مَعْهَدٌ قَضَيْنا به العَيْـ ... ـشَ فَكُنَّا بِرَبْعِهِ جِيْرَانا
إذ وَجَدْنا من الحوادثِ أمناً ... وأَخَذْنا من الخُطُوبِ أَمانا
وَرَتَعْنا من المُنَى في رياضٍ ... وسَكَنَّا من المغاني جِنَانا

وبعد، فإنَّ وفود الهناء، وأمداد الدُّعاء، متواصلةٌ على الولاء، صادرة عن محض الولاء، إلى عالي[3] جنابه المأنوس، ومنيع كَنَفِه المحروس،

---

(١) في (م): ما يفارق.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل: غاية، والمثبت من (ل) و (م).

فليهنِه الظَّفَران: بالملك وبالعَدُوّ، وفَرْع هضبات المجد والعُلُوّ، وكيف لا يكون النَّصْر مساوقاً لدينٍ هو صلاحُه، والتأييد مرافقاً لعَزْمٍ به نجاحه وفلاحه:

فالشَّام يَغْبِطُ مِصْراً مُذْ حَلَلْتَ بها ... كما الفُرَاتُ عليكم تحسُدُ النِّيلا
نِلْتُمْ من المُلْكِ عَفْواً ما الملوكُ به ... عُنُـوا قـديمـاً ورامُـوهُ فمـا نِيْـلا

قال العماد: ورثيتُ أسدَ الدين بقصيدةٍ خدمت بها نور الدين، وعَزَّيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تَضَعْضَعَ في هذا المُصَابِ المُبَاغِتِ ... من الدِّين لولا نورُه كلُّ ثابتِ
فـأيَّـامُ نـورِ الـديـنِ دامَـتْ منيـرةً ... لنـا خَلَـفٌ من كـلِّ مُـودٍ وفـائـت[1]

[ومنها][2]:

فمـا بـالُنـا نُبْـدِي التَّصـامُـمَ غَفْلَـةً ... وداعي المنايا ناطِقٌ غيرُ صامتِ
نُـؤَمِّـلُ فـي دارِ الفَنَـاءِ بقـاءنـا ... ونـرجـو مـن الـدُّنيـا صـداقـةَ مـاقِـتِ
وما النَّاسُ إلاّ كالغُصُونِ يَدُ الرَّدى ... تقـرِّبُ منهـا كـلَّ عُـودٍ لنـاحِـتِ[3]
لقـد أبلَغَـتْ رُسْـلُ المنـايـا وأَسْمَعَـتْ ... ولكنَّهـا لـم تحـظَ منـا بنـاصِـتِ

[ومنها][4]:

فلهفـي علـى تلـك الشَّمـائـلِ إنهـا ... لقد كَرُمَتْ في الحُسْنِ عن نَعْتِ ناعتِ

---

(١) في الأصل: ونايت، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ما بين حاصرتين مثبت من (ل).
(٣) في الأصل: لناجت، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين مثبت من (ل).

وله من أُخرى عزَّى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده[1] ناصر الدين محمداً:

ما بَعْدَ يَوْمِكَ للمعنَّى المُدْنَفِ غيرُ العَويلِ وَحَسْرَةِ المُتَأَسِّفِ
ما أجرأ الحَدَثان كيف سطا على الـ ـلأسدِ المَخوفِ سُطاً ولم يتخوَّفِ
من ذا رأى الأسدَ الهصورَ فريسةً أم أبصرَ الصُّبْحَ المنيرَ وقد خَفِي
من ثابتٌ دونَ الكُماةِ سواه إنْ زَلَّتْ بهم أقدامُهُمْ في المَوْقِفِ
ما كان أسنَى البَدْرَ لو لم يَسْتَتِرْ ما كان أبهى الشمسَ لولم تَكْسِفِ
ما كنتُ أخشى أن تُلِمَّ مُلِمَّةٌ[2] يوماً وأنت لِكَرْبها لم تَكْشِفِ
أيام عُمْرك لم تَزَلْ مقسومةً لله بينَ تعبُّدٍ وتَعَرُّفِ
متهجداً لعبادةٍ أو تالياً من آيةٍ أو ناظراً في مُصْحَفِ
فُجِعَ النَّدى والبأسُ منك بحاتم وبحيدَرٍ والحِلْمُ منك بأَحْنَفِ
بالمُلْكِ فُزْتَ وحُزْتَه عن قُدْرَةٍ ومضيتَ عنه بسِيْرَةِ المُتَعَفِّفِ
ووُصِفتَ يا أسداً لدينِ محمدٍ مدحاً بما مَلِكٌ به لم يُوصَفِ
وَقَفَوْتَ آثارَ الشريعةِ كُلِّها وقد اهتدى مَن للشَّريعة يقتفي
[أأنِفْتَ من دُنْياك حينَ عَرَفْتَها فَلَوَيْتَ وَجْهَ العارِفِ المُسْتَنْكِفِ][3]

١٦٣/١

ومنها:

يا ناصِرَ الدين اسْتَعِذْ بتصبُّرٍ مُذْنٍ إلى مَرْضَاةِ رَبٍّ مُزْلِفِ
وتعزَّ نجمَ الدينِ عنه مهنَّأً أبدَ الزَّمانِ بمُلك مِصْرَ ويُوسُفِ
لا نستطيعُ سوى الدُّعاءِ فكلُّنا إلا بما في الوُسْعِ غيرُ مُكَلَّفِ

---

(١) في (م): في ولده، وهو خطأ.
(٢) في (م): يلم ملامة.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح، منها قوله:

لكَ الحَسَبُ الباقي على عَقِبِ الدَّهْرِ ... بل الشَّرَفُ الرَّاقي إلى قِمَّةِ النَّسْرِ

كـذا فليكـن سعـي الملـوكِ إذا سَعَـتْ ... بِهـا الهِمَـمُ العُلْيـا إلـى شَرَفِ الـذِّكْـرِ

نَهَضْتُـمْ بـأعبـاءِ الـوزارةِ نَهْضَـةً ... أَقَلْتُـمْ بهـا الأقـدام مـن زَلَّـةِ العَثْـرِ

كَشَفْتُـمْ عـن الإقليـمِ غُمَّتَـهُ كمـا ... كَشَفْتُـمْ بـأنـوارِ الغِنـى ظُلْمَـةَ الفَقْـرِ

حَمَيْتُـمْ مـن الإفـرنـج سِـرْبَ خـلافـةٍ ... جَرَيْتُمْ لها مُجْرى الأمانِ من الذُّعْرِ

ولمـا استغـاثَ ابـنُ النبـيِّ بِنَصْـرِكُـمْ ... ودائـرةُ الأنصـارِ أَضْيَـقُ مـن شِبْـرِ

جَلَبْتُـمْ إليه النَّصْرَ أَوْساً وخَزْرَجاً ... ومـا اشتُقَّـتِ الأنصـارُ إلاّ مِنَ النَّصْـرِ

كتـائـبُ فـي جَيْرونَ* منهـا أواخِـرٌ ... وأوَّلُهـا بـالنِّيْـلِ مـن شـاطِئَـيْ مِصْـرِ

طَلَعْتُـمْ فـأَطْلَعْتُـمْ كـواكـبَ نُصْـرَةٍ ... أضـاءَتْ وكـان الـدِّيـنُ ليـلاً بـلا فَجْـرِ

وآبَـتْ إليكُـمْ يـا ابـنَ أيـوبَ دولـةٌ ... تُـرَاسِلُكُـمْ فـي كـلِّ يـومٍ مـع السَّفْـرِ

حمـى اللّـهُ فيكُـمْ عَـزْمَـةً أسـدِيَّـةً ... فَكَكْتُمْ بها الإسلامَ مِنْ رِبْقَةِ الأَسْرِ

أَخَـذْتُـمْ علـى الإفـرنـج كُـلَّ ثنيَّـةٍ ... وقُلْتُمْ لأيدي الخيلِ مُرِّي على مُرِّي*

لئـن نَصَبـوا فـي البَـرِّ جِسْـراً فـإنَّكُـم ... عَبَرْتُمْ بِبَحْرٍ من حديدٍ على الجِسْرِ

طـريـقٌ تقـارَعْتُـمْ عليهـا مع العِـدَى ... فَفُزْتُمْ بها والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْرِ

وأَزْعَجَـهُ مِـنْ مِصْـرَ خَـوْفٌ يلـزُّهُ ... كمـا لُـزَّ مهـزومٌ مـن اللَّيـلِ بـالفَجْـرِ

وكـم وقعـةٍ عـذراء لمـا اقْتَضَضْتَهـا ... بسيفِـك لـم تَتْـرُكْ لغيـرِك مـن عُـذْرِ

وأيـديكُـمُ بـالبـأسِ كـاسِرَةُ العِـدَى ... ولكنَّهـا بـالجـودِ جـابـرةُ الكَسْـرِ

أبوكَ الذي أضحى ذخيرةَ مَجْدِكُمْ ... وأنـتَ لـه خيـرُ النَّفـائـس والـذُّخْـرِ

ومـن كنـتَ معـروفـاً لـه فـاستفـزَّه ... بمثلـكَ تِيـهٌ فهـو فـي أَوْسَـعِ العُـذْرِ

فكيـفَ أبٌ أصبحـتَ نـارَ زِنـادِهِ ... وإلاّ كَنُـورِ البَـدْرِ مـن سَنَـهِ البَـدْرِ

تـوقـره وسـط النَّـدِيِّ(1) كـرامـةً ... وتحمِـلُ عنـه مـا يَـؤُودُ مـن الـوِقْـرِ

---

(1) النديّ: مجلس القوم نهاراً. «اللسان» (ندي).

وتَخْلُفُه حَرْباً وسِلْماً خلافةً ... تُؤلِّفُ أَضْداداً من الماءِ والجمْرِ
وكم قُمْتَ في بأسٍ وجودٍ ورُتْبَةٍ ... بما سرَّه في الخَطْبِ والدَّسْتِ والثَّغْرِ
ولو أَنْطَقَ اللَّهُ الجمادات لم تَقُمْ ... لِنِعْمَتِكُمْ بالمُسْتَحِقِّ من الشُّكْرِ
يَدٌ لا يقوم المسلمونَ بِشُكْرِها ... لكم آلَ أيوبٍ إلى آخرِ الدَّهْرِ
بِكُمْ أمَّنَ الرَّحمنُ أعظمَ يَثْرِبٍ ... وأَمَّنَ أركانَ البَنِيَّةِ[1] والحِجْرِ
ولو رَجَعَتْ مِصْرٌ إلى الكُفْرِ لانطوى ... بساطُ الهُدَى من ساحةِ البَرِّ والبَحْرِ

١/ ١٦٤

ولكنْ شَدَدْتُمْ أَزْرَه بوِزَارةٍ ... غدا لَفْظُها يُشْتَقُّ من شِدَّةِ الأَزْرِ
فهُنِّيتُمُ فَتْحاً تقدَّمَ جُلُّه ... وبَشَّرَ أنَّ الكلَّ يتلو على الإِثْرِ
وما بَقِيَتْ في الشِّرْكِ إلاّ بقيةٌ ... تَتِمَّتُها في ذِمَّةِ البيضِ والسُّمْرِ
وعندَ تَمامِ المُلْك آتي مهنئاً ... ومُلْتَمِساً أَجْرَ الكَهانةِ والزَّجْرِ[2]
ولولا اعتقادي أنَّ مَدْحَك قُرْبَةٌ ... أرجِّي بها نَيْلَ المثوبةِ والأَجْرِ
لما قُلْتُ شِعْراً بعد إعفاء خاطري ... ولي سَنَواتٌ منذُ تُبْتُ عن الشِّعْرِ
فأَوْصِ بيَ الأيامَ خيراً فإنّها ... مُصَرَّفَةٌ بالنَّهْي منك وبالأمْرِ
وجائزتي تسهيلُ إذني عليكُم ... وملقاكُمُ لي بالطَّلاقةِ والبِشْرِ[3]

وقال أيضاً من قصيدةٍ:

يا شبيه الصِّدِّيقِ عَدْلاً وحُسْنا ... وسَمِيَّا حَكَاه معنىً ومغنى
هذه مِصْرُ يوسفٍ حَلَّ فيها ... يوسُفٌ مالكاً وما حَلَّ سِجْنا
أنتَ حرَّمتَ أنْ يُثَلَّثَ فيها ... بِسوى اللَّهِ وحدَه أو يُثَنَّى

---

(١) البنية: الكعبة لشرفها، إذ هي أشرف مبني. «اللسان» (بني).
(٢) الزجر: ضرب من الكهانة. انظر «اللسان» (زجر).
(٣) انظر أبياتاً من هذه القصيدة في «المختار من ديوان عمارة اليمني» المنشور في آخر «النكت العصرية»: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

إنَّمـــا المُلْـــكُ والـــوِزَارَةُ جِسْـــمٌ أنـتَ رُوحٌ فيـه وفـي اللَّفْـظِ معنـى [1]

وقال أيضاً من قصيدةٍ:

مُلْكُ صلاحِ الدين لا قُوِّضَتْ أطنـابُـهُ مُلْـكُ التُّقـى والصَّـلاحْ
سِيـرةُ عَـدْلٍ حَسَّنَـتْ عنـدنـا ما كانَ من وَجْهِ اللَّيالي القِباحْ
سـافَـرَ فـي الـدُّنيـا وأقطـارِهـا ذِكْـرٌ غـدا عنـهُ جميـلاً وراحْ
قُـلْ لابـنِ أيـوبٍ وكـمْ نـاصـحٍ أنفـعُ ممـن هـو شـاكـي السِّـلاحْ
حـاربْ علـى مِثْـلِ نجـومِ السَّمـا فمُلْـكُ مِصْـرٍ مـا عليـه اصْطِـلاحْ
قـولا لمـن فـي عَـزْمِـهِ فتـرةٌ ارجـعْ إلـى الجِـدِّ وخَـلِّ المُـزَاحْ
فـالقُـدْسُ قـد أذَّن إغـلاقُـهُ علـى يَـدَي يـوسـفَ بـالإنفتـاحْ [2]

وقال أيضاً من قصيدةٍ:

ونُبْتَ بِمِصْرَ عن سَمِيِّكَ يُوسُفٍ كما نابَ عن سَكْبِ الحَيا واكِفٌ سَكْبُ
حذوتَ على سَجْلَيْ نَدَاه وَهَدْيِهِ وإن كنـتَ لا سِجْـنٌ حـواكَ ولا جُـبُّ
ووافَقْتَهُ في الصَّفْحِ عن كلِّ مُذْنِبٍ فما منك تَثْرِيْبٌ وإنْ عَظُمَ الخَطْبُ

وللحكيم عبد المنعم الجِلْياني [3] من قصيدةٍ طويلة:

---

(١) انظر القصيدة بتمامها في «تكملة ديوان عمارة»: ٤٠٧ ــ ٤٠٨.

(٢) انظر مختارات من هذه القصيدة في «المختار من ديوان عمارة اليمني»: ١٩٢ ــ ١٩٣.

(٣) في (م) الجيلاني، وهو تحريف، وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسَّان، الجلياني الغَسَّاني الأندلسي، طبيب شاعر، أديب متصوف، كان يقال له «حكيم الزمان»، من أهل جليانة، وهي حصن من أعمال وادي آش بالأندلس، انتقل إلى دمشق، وأقام فيها، وكان السلطان صلاح الدين يجله ويحترمه، وله فيه مدائح كثيرة، أشهرها «المدبجات» والتي تسمى «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر». منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٢٩٨، وشعره حسن السبك، وفيه جودة، ولد سنة (٥٣١ هـ) وتوفي بدمشق سنة =

أبو المُظَفَّر مأوى كلِّ مُضْطَهَدٍ[1] بحلمِـهِ ونَـدَاه يُضْـرَبُ المَثَـلُ
مهمـا يَمِـلْ جـائِـرٌ أو عـائِـثٌ عَمِـهٌ فعنـد عَـدْلِ صـلاحِ الـدِّيـن يَعْتَـدِلُ
أحيـا بـه اللّـهُ مِصْـراً فهي نـاشِـرة[2] وافتكَّهـا مـن عـدوٍّ مـا بـه قِبَـلُ
كـم للفـرنـج بهـا وِرْداً ومنتَجعـاً ونـارُهُـمْ حـولَهـا تـذكُـو وتَشْتَعِـلُ
فـأطفـأ النَّـاصِـرُ المنصـورُ جَـذْوَتَهُـمْ وأَدْبَـرُوا بقلـوبٍ شَهْمُهـا وَجِـلُ
مَلْـك تقلَّـد سِلْـكَ الملـكِ[3] مُنْتَظِمـاً وقـال للمـال: هـذا منـك لـي بَـدَلُ
فَفَـرَّقَ المـالَ جَمْعـاً للقلـوبِ بـه وحَسْبُـهُ فيهـمُ إدراك مـا سـألُـوا
إنَّ الملـوكَ الـذيـن امتـدَّ أمـرهُـمُ لم يَخْزُنُوا المالَ بل مهما حوَوْا بَذَلُوا
كـذا السِّيـاسـةُ فـالأجنـادُ لـو عَلِمـوا بُخْلَ المليك وجاءَتْ شِدَّةٌ خَذَلوا[4]

فصـــل

هذا الذي ذكرناه من قِصَّة شاور وما جرى بسببه في الدِّيار المصرية إلى

= (٦٠٢ هـ) وقيل سنة (٦٠٣ هـ).

انظر ترجمته في «معجم البلدان»: ٢/ ١٥٧، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: ٦٣٠ ــ ٦٣٥، «والغصون اليانعة» لابن سعيد: ١٠٤ ــ وقد تداخلت فيه ترجمته مع ترجمة أبي الحكم الباهلي الوارد ذكره ص ١٦٦ من الجزء الأول ــ و «الذيل والتكملة» للمراكشي: السفر الخامس، القسم الأول: ٥٧ ــ ٥٨ وفيه أنه نزل بالقاهرة، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٧٦ ــ ٤٧٧، و «الوافي بالوفيات»: ٢/ ٤٠٧، و «نفح الطيب»: ٢/ ٦١٤، ٦٣٥ ــ ٦٣٧، ٤/ ٣٢٩، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٩/ ٢٣٦ ــ ٢٣٩، ١٠/ ٣١٧، ٢٠/ ٥٢٩ ــ ٥٣٠، وانظر فهرس مخطوطات الظاهرية قسم التصوف: ١/ ٤٦ ــ ٤٧، وقسم الأدب: ٢/ ٢٩٨ ــ ٣٠١.

(١) في (ل): مضطيد، وهي تصحيف.

(٢) في الأصل: ناشزة، وهي تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م): المجد.

(٤) في (م): جذلوا. قلت: وسيأتي بعض أبياتها ص ١٥٣ من هذا الجزء.

١/١٦٥ أن تمَّت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زياداتٍ وفوائد في كتابٍ ليحيى بن أبي طي الحلبي في «السِّيرة الصَّلاحية»[1]، فأحببتُ ذكره مختصراً.

ذكر أنَّ الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك؛ وزير الدِّيار المصرية، لما

---

(١) يحيى بن حميدة بن ظافر بن علي، الغساني، الحلبي، الشهير بابن أبي طي، مؤرخ، شيعي، ولد سنة (٥٧٥ هـ)، واشتغل بصنعة النجارة مع أبيه زمناً، ثم تركها، وحفظ القرآن، ومال إلى طلب العلم، ثم انتقل إلى تعليم الصبيان، وإقراء القرآن إلى سنة (٥٩٧ هـ)، ثم اختص بتعليم ابنٍ لأحد الوزراء إلى سنة (٦٠٠ هـ)، ثم ترفع عن التعليم ولزم منزله وطلب مشايخ الأدب، فقرأ عليهم ودرس، ثم أقبل على نظم الشعر، ومدح الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وارتفعت منزلته عنده، وولاه نقابة الفتيان سنة (٦٠٩ هـ)، ثم أحب التصنيف، فصنف كتباً في التاريخ وتفسير القرآن الكريم والفقه والأصول، من كتبه التاريخية التاريخ الأكبر المسمى «معادن الذهب في تاريخ حلب» جمع فيه أخبار الملوك والعلماء وأخبار الشام، وابتدأ فيه من أول الفتوح إلى سنة (٥٨٩ هـ). وله أيضاً «سلك النظام في أخبار الشام» و «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين» وهو الذي اختصر منه أبو شامة هذا الفصل، ولم يصلنا أي من كتبه التاريخية بعد، وفي مكتبة الاسكوريال كتاب ينسب له عنوانه «المنتخب في شرح لامية العرب» قال فيه العلامة الشنقيطي: «هو شرح لا نظير له»، توفي ابن أبي طي سنة (٦٢٧ هـ) وقيل سنة (٦٣٠ هـ).

انظر ترجمته في «لسان الميزان»: ٦/٢٦٣ ــ ٢٦٤ ــ وفيه ينقل عن ياقوت، وترجمته ساقطة من «معجمه» المطبوع ــ و «كشف الظنون» ٢/١٥٢٠، و «أعيان الشيعة»: ١٠/٢٨٦ ــ ٢٨٧، و «إعلام النبلاء»: ٤/٣٥٣ ــ ٣٥٤، و «التاريخ العربي والمؤرخون» للدكتور شاكر مصطفى: ٢/٢٥٢ ــ ٢٥٥ وقد مرَّ ذكر ابن أبي طي مراراً في أثناء هذا الكتاب، أرجأت الحديث عنه إلى هنا.

وفي مجلة الكتاب (المصرية) المجلد ٦/٤٧٦ ــ ٤٧٨ تعقيب عنه للعلامة مصطفى جواد ذكر فيه أن ابن شهراسوب وهو زوج أخت ابن أبي طي توفي سنة (٥٥٨ هـ) وهو وهم، صوابه سنة (٥٨٨ هـ)، انظر «الوافي بالوفيات»: ٤/١٦٤.

قُتل في رمضان سنة سِتٍّ وخمسين[1]، بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنَه رُزِّيك بشاور، وقال له: لا تزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك [ولملكك][2]، ويقال: إنه أنشد أبياتاً، منها:

فإذا تبدَّد شَمْلُ عِقْدكما ... لا تأمَنَا من شاور السَّعْدِي

وكان شاور متولي قُوص* والصَّعيد الأعلى؛ فلما دُفن الصَّالح استوزر ابنه رُزِّيك ولقب بالعادل. ولما استقرَّت أحواله أرسل إلى عمَّة العاضد فخنقها، واجتمع إلى رُزِّيك أولادُ عمته، ومن جُملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه بعزل شاور، فامتنع، ثم ألحُّوا عليه، فأجاب. وبلغ شاور فجاهر بالعصيان، وجمع العربان وأهل الصَّعيد وسار[3] إلى القاهرة، وخرج إليه جماعةٌ من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رُزِّيك تحت الليل، فَضَلَّ الطريق وتاه، فوقع عند إطْفِيح*، وثَمَّ بيوت عرب، فقبضوا عليه، وحُمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلَّمها، وأُخرجت إليه خلع الوزارة، وتَمَّ أمرُهُ.

ولما حصل رُزِّيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه: هذا جزاء من لا يراعي الجميل. وكان للصَّالح إليه إحسان، وتفرَّق آل رُزِّيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رُزِّيك بأموال، وصار إلى حماة، فأقام بها واشترى القُرى، ولم يزل بها إلى أن مات. وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعينَ ألف دينار، فوفَوْا له وردُّوها عليه، ثم أراد تقي الدين[4] أخذها منه، فقال: من العجب أنَّ الفرنج تفي لي بردِّها وتأخذها أنت مني. فكفَّ عنه.

---

(١) انظر ص ٣٩٠ من الجزء الأول.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) في الأصل: وصار، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ابن أخي السلطان صلاح الدين، صاحب حماة، =

قال: وتمكَّن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طيّ، والكامل، وسليمان، فتبسَّطوا على الناس، وتعاظموا، فمَجَّتهم الأنفس.

وكان مُلْهَم وأخوه ضِرْغام من صَنائع الصَّالح بن رُزِّيك، فلما شاهدا ميل النَّاس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رُزِّيك بن الصَّالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطيّ بن شاور، فدخل على أبيه وقال له: أنت غافل، ومُلْهَم وضِرْغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رُزِّيك، واستحلفا له جماعة من الأُمراء، ولا يمكن تلافي حالك إلا بقتل رُزِّيك. فقال له شاور: إنَّ الصَّالح أولاني جميلاً، وبسببه حللتُ هذا المحل. فتركه ولده طيّ، ودخل على رُزِّيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته؛ ونُمي الخبر إلى ضِرْغام وأخيه مُلْهَم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأُمراء، وزحفَا بالعساكر [إلى شاور][1]، فانهزمَ وخرجَ من باب القاهرة، وهرب إلى الشَّام، وأدرك ضرغام ولديه طيئاً وسليمان فقتلهما، وأَسَرَ الكامل، فأخذه مُلْهَم واعتقله عنده، وأراد ضِرْغام قتله فمنعه منه مُلْهَم، وحَفِظَ له جميلاً كان قد فعله معه.

واستقرَّ أمر ضِرْغام في الوِزَارة، وخُلِعَ عليه، ولقِّب بالملك المنصور. ولما استقرَّ به الأمر بلغه أن جماعةً من الأُمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاور ــ وكان صار إلى الشَّام ــ فأخذ في إعمال الحيلة عليهم، وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلاً، فقتلهم جميعاً، ولم يتعرَّض لأموالهم ولا لمنازلهم. وقيل: إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال: إنه جعلهم في توابيت [و][2] كتب

= تولاها سنة (٥٨٢ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٢٧ من الجزء الأول.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

على كلِّ تابوتٍ اسمَ صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين [عن يد أصحابها][1] لأنه أضعفَ عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحقُّقِهِ قتل ولديه. ولما وصل إلى بُصْرى* اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة إلى تلقِّيه، وأنزله في جَوْسَق[2] الميدان الأخضر*، وأحسن ضيافته وإكرامه. ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصُّوفي[3] وجماعة من وجوه الدِّمَشْقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل، وسلِّموا عليه، وعرِّفوه أعذارنا في التقصير في حَقِّه، وسَلُوه فيما قَدِمَ، وما حاجتُهُ، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأَرَبه وأَوَده، وتكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة [إليه][4] بالرِّسالة، فشكر إحسان نور الدين، وسكتَ عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيَّت الرأي جاء فطيراً. فعاد القوم إلى نور الدين، وَعرَّفوه ما دار بينهم وبينه، فأمر بالعَوْد إليه من غدِ ذلك اليوم، فعادوا، وطلبوا الجواب، فسكت أيضاً

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٥.

(٢) الجوسق: القصر، فارسي معرب. انظر «المعرب» للجواليقي: ٩٦، و «اللسان» (جسق).

(٣) في (ل) و (م): لابن الصوفي. وبنو الصوفي كانوا رؤساء دمشق، من أشهرهم الوزير زين الدولة حيدرة، ومؤيد الدين المسيب، قتل زين الدولة سنة (٥٤٨ هـ)، ومات مؤيد الدين سنة (٥٤٩ هـ) ولعل المقصود منهم في هذا الخبر هو عز الدولة. انظر ص ٢٨٩ ـ ٢٩١، ٣٠٨ من الجزء الأول.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

وأطال، ثم قال: إن رأى نورُ الدين ــ أطال الله بقاءه ــ الاجتماع بي، فله علوُّ الرأي. فعرَّفوا نور الدين بمقالته، فأجاب نور الدين إلى أن يكون الاجتماع على ظَهْرٍ بالميدان الأخضر*. وركب نور الدين من الغد في وجوه دَوْلَته وخواصِّ مملكته في أحسن زِيٍّ وأكمل شارة[1]. فلما دخل الميدان ركب شاور من الجَوْسَق، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجَّل أحدٌ منهما لصاحبه. ثم سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر.

١٦٦/١ وأما ضِرْغام فإنه حين استقرَّ به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين، على يد علم الملك ابن النَّحَّاس[2]، يُظْهر فيه الطَّاعة ويعرِّض بخِذْلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القَبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق. فلما كان بظاهر الكَرَك* أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجي[3]، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزَم علم

---

(١) وأكمل شارة، ساقطة من (ل).

(٢) هو علم الملك، أبو فراس يحيى بن جعفر بن عبد الجليل، الحميري المصري، من أمراء الدولة المصرية، ثم خدم السلطان صلاح الدين، وقدم معه الشام في خدمة تقي الدين، أورد له العماد نتفا من أشعاره، وقال ابن الفوطي: كان جده يعرف بالقائد مصطنع الدولة، ويعرف بابن النحاس، ولم يكن في أجداده من كان نحاساً، إنما ابتاع داراً بالإسكندرية من رجل يعرف بابن النحاس، فلما سكن الدار قيل له ابن النحاس، وهو من ولد تميم بن المعز الصنهاجي، توفي سنة (٥٨٩ هـ). انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ٢/ ١٢١ ــ ١٢٣، و «تلخيص مجمع الآداب» لابن الفوطي: ج ٤ ق ١/ ٦٣٠ ــ ٦٣١.

(٣) هو فيليب ميللي، وكان إقطاعه شرقي الأردن، ثم أصبح مقدم الدَّاوية، ثم استعفى وغدا سفيراً للملك أملريك في القسطنطينية. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» =

الملك بنفسه، وتوجَّه إلى السَّاحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين، واستحضر أسد الدين شِيركُوه من إقطاعه من الرَّحبة*، وكان نور الدين قد تيمَّن بأسد الدين، وَتبَرَّك بميمون نقيبته، لأنه لم يرسله في أمرٍ إلا نجح، ولم يولجه في مضيقٍ إلا انفتح. ولما حضر أسد الدين إلى دمشق أخلاه نور الدين، وتحدَّث معه بأشياء في أمر مصر، وأمرَه بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح عِلَّة العسكر الذي يريد يسيره[1] إلى مصر، فخرج من يومه.

وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر، ورغَّبه في ملكها، وأنه إذا ملكها كان من قِبَلِه فيها.

ولما بلغ شاور استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدَّم عليه، فقيل له أسد الدين شِيركُوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظَنَّ أن التقدمة تكون له، فلما زُوحم[2] بهذا العود سُقِطَ في يده، وَفُتَّ في عَضُده، ولم يجد بُدًّا من المسير، فخرج واجتمع بأسدِ الدين، وسارا جميعاً حتى وصلوا[3] أطرافَ البلاد المصرية، ونزلوا على تلٍّ في الحوْف[4] قريبٍ من بِلْبِيس* يُعْرف بتل بسطة، وضربوا خيامهم هناك.

= لرنسيمان «الترجمة العربية»: ٢/ ٥٤٠، ٥٨٠، ٦٣١. وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥١ من هذا الجزء.

(١) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٦ تسييره.

(٢) في الأصل: زحم، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م): وصلا.

(٤) جميع ريف بلبيس يسمونه الحوف. انظر «تاج العروس» (حوف). وقال ياقوت: الحوف بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام، وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٢٢.

ولما اتصل بضِرْغام خبرُ ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشَّامية جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتَخرج جريدة، وتَلقى العساكر الشَّامية بصَدْر* ــ وهو على يومين من القاهرة ــ فإنهم لا يثبتون، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولمكان قِلَّة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أَيْلَة* مسيرةَ ثلاثة أيام. فلم يَرَوْا ذلك، واختاروا أن [يلقوهم][1] على بِلْبيس*. فأمر ضِرْغام الأمراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زِيٍّ وأكمل عُدَّة، والمقدَّم عليهم ناصر الدين مُلْهَم؛ أخو ضِرْغام، وجاؤوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلاً عليه.

ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر، وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات، وسدُّوا منافذ الطُّرقات، قال لشاور: يا هذا[2]، لقد أرهقتنا وغرَّرتنا، وقلتَ إنه ليس بمصر عساكر، فجئنا في هذه الشرذمة! فقال له شاور: لا يهولنَّك ما تشاهد من كثرة الجموع، فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطَّبْلُ وتفرقهم العصا، فما ظنُّك بهم إذا حمي الوطيس وكَلِبَتْ الحرب! وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم[3]. ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد والركوب[4]، ففعل، ونهاهم شاور عن القتال.

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار، والتهبَ الحديدُ على أجساد الرِّجال، فضرب أكثرُ أهل مصر الخيم الصِّغار، وخلعوا

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: ما هذا، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): وسنقرىء ذلك لك إذا لقيناهم.
(٤) في الأصل: للوثوب، وهي ساقطة في (ل)، والمثبت من (م).

السِّلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظلِّ. فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه، وأطلق عِنانه وولَّى منهزماً. وتركوا خيمهم وأموالهم ليس لها حافظ، فاحتوى عليها أصحابُ أسد الدين، وأُسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكن شاور[1] من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا. وساق أسد الدين وشاور[1] في إثر النَّاس، ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً، وراسل شاور العاضد في إصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له.

وكان ضِرْغام صار[2] إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يُكلِّمني لأسأله عما أفعل. فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زُوَيْلَة*، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فالتحقه رجلٌ من أهل الشَّام ليقتله، فقال له ضِرْغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مُناك. فلم يقبل منه، وحمل عليه فطعنه، فأرداه، ونزل إليه، واحتزَّ رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصَعُبَ على أسد الدين وأوجعه ضرباً، وأراد قتله، فشفع فيه شاور. ودخل شاور القاهرة وقتل مُلْهماً أخا ضِرْغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار مُلْهَم، وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه.

واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المَقْس* ينتظر أمر شاور فيما ضَمِنَ لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضَجِرَ العسكر من الحَرِّ والغبار. فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله تعالى ودَعَتِهِ[3]. فلما سمع أسد الدين

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) في (م): سار.

(٣) في (ل) و (م): وفي دعته.

ذلك أرسل إليه: إنَّ نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مُغَلِّ البلاد، والثلث الآخر لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه. فقال شاور: أنا ما قرَّرْتُ شيئاً مما تقول، أنا طلبتُ نجدةً من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشَّام، وقد سيرتُ إليكم نفقةً فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل[1] مع نورِ الدين. فقال أسد الدين: أنا لا يمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره. فأمر شاور بإغلاق باب[2] القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعدَّ أسد الدين أيضاً، وسيَّر صلاحَ الدين في قطعةٍ من الجيش[3] إلى بِلْبِيس* لجمع الغِلال والأتبان[4] والأحطاب وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بِلْبيس ذَخيرة، وأخذ في قتال القاهرة.

١٦٧/١

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرِّي* يستنجده ويقول له: إن شِيركُوه طلع معي نجدةً على ضِرْغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك[5] معهم عيشٌ ولا قرار. وضَمِنَ له في كل مرحلةٍ يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته*. فخرج مُرِّي من عَسْقلان في جموعه إلى فاقُوس* في سبع

---

(١) في الأصل: أتصرف، ثم ضرب عليها، وكتب: أنفصل، وهي بمعناها، ومثبتة في (ل) و (م). وقد استعملت بمعنى قريب منه في ذلك العصر أيضاً. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ٢/ ٢٧١.

(٢) في (م): أبواب.

(٣) في الأصل: الخدم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) الأتبان جمع، مفردها تبنة، وهي ما تهشم من سيقان القمح والشعير بعد درسه تعلفه الماشية. وتجمع أيضاً على تبن. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٨٧، و«المعجم الوسيط» ١/ ٨٢.

(٥) في الأصل: لكم، والمثبت من (ل) و (م).

وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار.

ولما تحقَّق أسدُ الدين قُرْبَ الفرنج من[1] القاهرة أجفل عنها إلى بِلْبِيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانيَّة. وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيَّم على بِلْبيس، وأحاط بها محاصراً لأسد الدين، يباكر الحرب ويُرَاوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر.

وانقطعت أخبارُ مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين ــ وهو بدمشق ــ خبرُ مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور؛ فكاتَبَ الأطراف بقدوم العساكر، فَقَدِمَ عليه عساكر الشَّرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب، فنزل بهم مجد الدين ابن الدَّاية ــ وكان نائب نور الدين بحلب ــ وسار إلى جهة حارِم*، ونزل على أَرْتاح*، وخرج نور الدين من دمشق، وشنَّ الغارة على السَّاحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه حصن الأكراد*، فلما حصل بأرضه شنَّ الغارة فيها، وغنم غنيمةً عظيمة، ونزل في مَرْجه، فخرج إليه الفرنج الإخوة من حِصْن الأكراد، وهجموا عسكره، وقتلوا جماعةً من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسكِ النَّاس، وساروا على وجوههم.

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أَرْتاح، وكان أخوه نُصْرة الدين مع الفرنج[2]، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع

---

(١) في الأصل: إلى، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انفرد ابن أبي طي بهذا الخبر، وقد سلف أن نصرة الدين كان والياً على حران، وقد أخذها منه نور الدين سنة (٥٥٤ هـ) بعد نفرة بينهما، ثم ذُكِرَ أنه كان مع أخيه على حصار بانياس سنة (٥٦٠ هـ)، وقد أصابه سهم ذهب بإحدى عينيه، ثم سيذكر ابن أبي طي والعماد أن صلاح الدين أخذه رهينة أثناء حصاره حلب سنة (٥٧١ هـ) فيكون الذهبي قد وهم في ذكره في «العبر» ٤/ ١٦٩ في وفيات سنة (٥٦٠ هـ). انظر =

أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قَرُب منه نزل، وقَبَّل الأرض بين يديه، فلم يلتفت عليه[1]، فتمَّ على وجهه. واصطفَّ الناس للحرب، فحملت الفرنجُ فكسرت الميسرة، ثم عادت، فوجدت راجلها جميعه قد قتل، والخيل قد أطبقت عليهم، فنزلوا عن الخيول وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأُخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي.

وسار إلى حارِم* ففتحها، وأراد النُّزول على أنطاكية، فلم يتمكَّن لِشُغْلِ قلبه بمن في مصر من المسلمين، فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس*، فافْتَتَحها، وأغار على بلد طبريَّة، وجمع أعلام الفرنج وشِعافهم[2] وجعلها في عَيْبَة[3] وسلَّمها إلى نَجَّاب، وقال له: أريد أن تُعمل الحيلة في الدُّخول إلى بِلْبِيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام والشِّعاف، وتأمره بنشرها على أسوار[4] بِلْبيس*، فإنَّ ذلك مما يفتُّ في أعضاد الكُفَّار، ويدخل الوَهْن عليهم. ففعل ذلك، فلما رأى الفرنج الأعلام والشِّعاف قلقُوا لذلك وخافوا على بلادهم؛ وسألوا شاور الإذن في الانفصال. فانزعج شاور لذلك، وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التَّمهُّل أياماً، وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفَّل إتمام الصلح له الأمير شمسُ الخلافة، فأنفذه إليه، فتَمَّ الصُّلْح على يديه، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

= ص ٣٤٧ ــ ٣٤٩، ٣٨٢، ٣٨٦، ٤٣٧ من الجزء الأول وص ٤١٣ ــ ٤١٤ من هذا الجزء.

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٧: إليه، وهو الوجه.

(٢) مفردها الشَّعَفة، وهي الخصلة من الشعر. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٣٣٤.

(٣) في (م): غيبة، وهو تصحيف. والعيبة: ما يجعل فيه الثياب كالحقيبة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٢٣٤.

(٤) في الأصل: في أسواق، والمثبت من (ل) و (م).

وحُكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين، وهو محصور ببِلْبِيس*، يقول له: اعلم أنني [قد][1] أبقيت عليك ولم أمكِّن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأُقوِّيَ الفرنج عليهم، والثاني أني خِفت أن الفرنج إذا فتحوا بِلْبِيس طمعوا فيها، وقالوا: هذه لنا؛ لأنا فتحناها بسيوفنا. وما من [يومٍ][2] كان يمضي[3] إلا وأنا أُنفذ إلى أكابر الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا هِمَّةَ الملك عن الزَّحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بِلْبيس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة السَّاحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام، وجعل مسيره على البرِّية.

واتَّفق أن البرنس أرناط[4] صاحب الكَرَك* والشَّوْبَك* تأوَّل ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفتُ أني ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر، وأنا أريد ألحقه في البحر[5]. وركب في البحر[5]، وصار في يومٍ واحد إلى عَسْقلان، وخرج منها إلى الكَرَك والشَّوْبَك، وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحَدْس والتَّخمين، فسلك طريقاً مِنْ خلف المكان الذي كان

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل زيادة: بمصر، وهي ليست في (ل) و (م).

(٤) Renaud de chatillon انظره في كشاف الأعلام. وهذا الخبر لا يصح، لأن أرناط كان وقتئذٍ أسيراً في سجن نور الدين، فقد أسر سنة (٥٥٦ هـ)، ولم يطلق إلا في سنة (٥٧١ هـ)، انظر ص ٤٠٠ من هذا الجزء، و «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/ ٥٧٧.

(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (ل) و (م).

فيه أرْنَاط، : شَقَّ إلى الغَوْر* وخرج من[1] البَلْقاء*، وسلَّمه الله تعالى منه. ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين [وأخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغَّبه فيها، وشوَّقه إلى ملكها، فرغب [فيها] نور الدين][2] وأمره بتجنيد[3] الأجناد واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له هِمَّة إلا تتَبُّع مَنْ علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صُحْبة. وكان اسْتَفْسَد جماعةً من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكُرْدِي[4]، وأقطعه شَطَنَوْف[5]، وقتل شاور جماعةً من أهل مصر، وشرَّد آخرين.

ثم توجَّه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار المصرية[6]، وكتم أخباره، فما راع شاور إلا وُرُود كتاب مُرِّي* ملك الفرنج، يعرِّفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر. فطلب شاور منه إعادة النَّجْدة، والمقرَّر من المال يصلُ إليه على ما

١/١٦٨

---

(١) في (ل): إلى.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م) و [فيها] مستدركة من طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٧.

(٣) في (ل): بتجريد.

(٤) ولاه بعد صلاح الدين بزاعا سنة (٥٧١ هـ) انظر ص ٤٠٥ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل: شنطوف، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م) وهو ضبط ياقوت أيضاً ــ وفي (القاموس المحيط) شَطَنُوف ــ وهو بلد من نواحي كورة الغربية، عنده يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقياً إلى تنيس، وفرقة تمضي غربياً إلى رشيد، وهو على فرسخين من القاهرة. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤٤، و «القاموس المحيط» (شطف).

(٦) في (ل) و (م): الديار مصر.

كان يصل إليه في العام الماضي. فسار مُرِّي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً في البر، فسبقه الفرنجُ ونزلوا على ظاهر بِلْبيس*، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين.

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بِلْبيس، فنكَّب عن طريقهم وأمَّ الجبل، وخرج على إطْفِيح*، وهي في[1] الجنوب من مصر، وشنَّ الغارة هناك، واتصل بشاور خبرُه، فسار في عساكره، والفرنج في صحبته، يقفُو أثره. واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شَرُونَة[2] من صعيد مِصْر، وتحيَّل[3] في مراكب ركبها، وعدَّى إلى البرِّ الغربي. ولما استكمل تعديته أدرك شاور [بعضَ][4] ساقته ومنقطعي عسكريته، فأَوْقَع بهم. وأحضر شاور أيضاً مراكب، وقطع النِّيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجِيْزة، وخيَّم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقُرَشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلفُ لك بالله الذي لا إله إلاّ هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكِّن أحداً من التعرُّض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلْباً عليه، وما أُؤمِّل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن هذا العدو قد حَصَل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصُه

---

(١) في الأصل: ودخل الجنوب.. والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (م): بشرونة، وهو تصحيف. وشرونة شرقي النيل. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤٠.

(٣) في (م): وتخيل، وهي تصحيف.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهزَ فيه الفُرْصة التي قد أمكنت، والغنيمة التي قد أُكْثِبَتْ، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته[1]، وما أظن أنه يعود يتفق للإِسلام مثل هذه الغنيمة أبداً.

فلما صار الرسول إلى شاور، وأدَّى إليه الرسالة أمر به فَقُتِلَ، وقال: ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفَرَج! ثم أعلم الفرنج بما أَرْسَلَ به إليه أسد الدين، وأعلمهم بما أجابه[2]، وجدَّد لهم أيماناً وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين، فأكل يديه أَسَفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال[3]: لعنهُ الله، لو أطاعني لم يبق بالشَّام أحدٌ من هؤلاء الفرنج! ونزل شاور في اللُّوق* والمقسم*، وأمر بعمل الجسر بين الجِيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فَشُحِنَتْ بالرجال، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين.

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإِسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار[4] الإِسلام، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم. فقاموا معه، وأمَّروا عليهم نجم الدين بن مَصَال ــ وهو ابنُ أحد وزراء المِصْريين[5] ــ وكان لجأ إلى الإِسكندرية مستخفياً، فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الإِدريسي الشريف[6]، نزيل حلب، قال: كنتُ بالإِسكندرية يومئذٍ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إني

(١) في الأصل و (م): ناريته، والمثبت من (ل).
(٢) في (م): أجابهم.
(٣) في الأصل و (ل) زيادة: له، والمثبت من (م).
(٤) في (م): بلاد.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من هذا الجزء.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧ من هذا الجزء.

أخبرك أن السلاح واصل. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتُها[1] بيومين، وحضرتُ بين يدي أسد الدين، وأعطيته الكتب، وشافهته برسالة[2] ابن مَصال في معنى السلاح والآلات، ثم وَصَلَتْ الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه[3] ابن عَوْف. قال: وبقينا على الجِيزة يومين، فوصل إلينا رسول ابن مُدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنَّجاة، فترك أسدُ الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دَلْجَة*، فأمر أسد الدين بنهبها فَنُهِبَتْ. ونزل النَّاس لتعشية الدواب فلم يُستتمَّ عليقها حتى أمر أسد الدين الناس بالرَّحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا، فإذا الجاووش* ينادي في النَّاس بالرُّجوع، وعاد أسد الدين إلى دَلْجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأُشْمونين*. وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة، فأصبحوا على ذلك والتقوا، فَقُتِلَ من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة[4] وانهزموا. وكان أسد الدين قد فَرَّق أصحابه فريقين[5]: فريقاً معه وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا، وعلموا أنه لا منجىً[6] لهم إلاّ الصَّبر، فتحالفوا على

(١) في (م): فسبقتهما.
(٢) في الأصل: بمقالة، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل: الأمير، والمثبت من (ل) و (م). وابن عوف: هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف، شيخ المالكية في عصره، ولد سنة (٤٨٥ هـ) سمع منه السلطان صلاح الدين الموطأ، توفي بالإسكندرية سنة (٥٨١ هـ). انظر ص ٨٨ وما بعدها من الجزء الثالث، وترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٢٢ ـــ ١٢٣.
(٤) في الأصل: كبيرة، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في الأصل: فرقتين، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في الأصل: لا ملجأ، والمثبت من (ل) و (م).

الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم. فلم تزل الحربُ قائمةً إلى الليل، فولَّت عساكر الإفرنج والمصريين الأدبار، وكاد[1] مُرِّي* ملك الإفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سَلِمَ معه إلى مُنْيَة ابن خَصِيب*، وسار أسد الدين على الفيُّوم إلى الإسكندرية فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزُّبير[2] متولياً ديوانها، فحمل إلى أسد الدين الأموال، وقوَّاه بالسِّلاح. وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه، فربما تأذَّى بالحصار، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده جماعةً من العسكر، وَمَنْ به مرضٌ أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصَّعيد. ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مُدَّة ثلاثة أشهر بأشد القتال، وبذل أهلها في نُصْرة الملك النَّاصر أموالهم وأنفسهم، وقُتِلَ منهم جماعة عظيمة.

١٦٩/١ ولما صار أسد الدين بالصَّعيد حَصَّل من تلك البلاد أموالاً عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان. واتصل به اشتدادُ الأمر على الإسكندرية، فرحل من قُوص* إلى جهتها، واتَّبعه جماعةٌ كثيرة من العُرْبان وأهل تلك البلاد. وبلغ ذلك شاور فرحل هو والفرنج، واضطرَّ إلى الصُّلْح[3]، وضجرت الفرنج أيضاً، فتوسَّط ملك الفرنج في ذلك، فتقرَّر أمر الصلح على أن شاور يحمل إلى أسد الدين جميع ما غَرِمَهُ في هذه السَّفْرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. وطلب صلاح

---

(١) في (م): وكان، وهو تصحيف.

(٢) سلف ذكره ص ٢٥ من هذا الجزء.

(٣) في (م): واضطر أسد الدين إلى الصلح.

الدين من ملك الفرنج مراكبَ يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عِدَّة مراكب.

قال الإدريسي: كنتُ في جُمْلة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى ميناء عكَّا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرِّي* فأَطْلَقَنا، فخرجنا إلى دمشق.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوَرَ لأهلها وألا يعرض لهم بسوءٍ، واجتمع بعمِّه أسد الدين.

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مَصَال وجماعة ممن أعان صلاح الدين، وضيَّق عليهم، وتتبَّعَ أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين، فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاور نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا. فقال: ليس له ذلك. وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الأَيمان جرت على ألا تعرض لأحدٍ من أهل مصر ولا أهل الإسكندرية. وألزمه يميناً أخرى في ألا يعرض لأحدٍ ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين.

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصَّلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرَّحيل إلى الشَّام. واتصل[1] ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجَمَعَ جميع من عَزَمَ على الرِّحلة إلى الشام[1]، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى أيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل.

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم[1] في مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مُرِّي وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخُلَ إليهم ولا يتعرَّض لهم. فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه، فلم يجد بُدًّا من اليمين فحلف وحلف أصحابه، وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدَّوي منها، لأنه شاهدها وشاهد مُغَلاَّتها، فوجدها أمراً عظيماً. فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه، وأقطعه حِمْص وأعمالها.

وحدثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني غير واحد أن شاور كاتب نور الدين في ذلك، وضَمِنَ له أن يحمل في كلِّ سنة عن ديار مصر مالاً مصانعةً.

ولما بلغ شاور أن نور الدين صَرَفَ هِمَّةَ أسد الدين عن ذكر مصر والتعرُّض لها أنفذ رسولاً بهدية سنية، وأصحبه كتاباً حسناً، أوله: «ورد كتابٌ استدعى شكري وحَمْدي، واستخلص من الصَّفاء ما عندي، واستفرغ في الثناء على مُرْسله جَهْدي، فكأنما اسْتُمْلَتْ معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي؛ وسررتُ للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كلِّه، بأن[2] يكون مثلُه ملكاً من ملوكه، يُرجع إليه في عَقْده وحَلِّه، وتشير الأصابع وتُعقد الخناصر على عُلُوِّ محَلِّه. والله يزيده بمكانه[3] تثبيتاً وقوَّة، ويحقِّق على يديه مخايل النصر المَرْجُوَّة، فما أسعد[4]

---

(١) في (م): لها.

(٢) في الأصل: وأن، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: بمكا، ثم ضرب عليها، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في الأصل: خرم بمقدار كلمة رسمت بخط مغاير (والقد) ولا معنى لها، والمثبت من (ل) و (م).

رأساً دلَّ على نُصْرَةِ الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المُسْلِمة، ووفر على مصالح الأُمة قلوبَ رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدرَ مني، وباقٍ منه على ما نُقِلَ عني، لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا يخالفُ ما أظهره منه لما أخفيه، ولا أستكثر كثيراً أصلُ إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوقٍ استوجب شُكرَها قولاً وفِعْلاً، ونُصْرةٍ كانت في هجير الخُطُوب بَرْداً وظِلاً، وأَنْعُمٍ لا تزال آياتها بألْسُن الحمد تُتْلى وتملى، ولَعَمْري لقد بنى بها فخراً، وارتفع على الأملاك قَدْراً وذِكْراً، ووجب أن يستتمَّها فلا يصل إلى موارِدها الكَدَر، ويحوطَها فلا تتطرَّق إلى جوانبها الغِيَر. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابَهُ كصفحة يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرُّقِ أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مُرِّي* ملك الفرنج في مصر، وعوَّلَ على الدُّخول إليها والاستيلاء عليها، وذلك لما انكشف له من عُوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها. فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدَّاويَّة* والاسبتاريَّة*، وتشاوروا[1]، فَجَرَتْ بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الدِّيار المصرية. فأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيَّالته، وفرَّقَ قُراها على أجناده. وكان ــ لعنه الله ــ لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتَبَ له أسماء قرى مصر جميعها[2]، وتعرَّف له خبر ارتفاعها[3]. ثم سار حتى نزل الدَّاروم*، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر،

(١) وتشاوروا، ساقطة من (ل).

(٢) في (ل): أسماء القرى جميعها.

(٣) أي دخلها وإيرادها.

وانتخب أميراً من أمرائه، يقال له بدران، وسَيَّره إلى لقاء مُرِّي يسأله عن السَّبب في قصده. فاجتمع به وسأله، فتلكأ [عليه][1]، ثم استلان جانبه، وضَمِنَ له رَضِيخة[2] على أن يورِّيَ عنهم، ولا يكشف لشاور حالهم. ١/١٧٠ ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمِّمَ على المصريين الحيلة، ويُعلم شاور أنه إنما قصد مِصرَ[3] للخدمة، ففعل ذلك بدران.

ولما سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأميرَ شمسَ الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غَشَّني ولم ينصحني، وأنا فواثقٌ بك، فأريد[4] تخرج وتكشف لي حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مُرِّي ــ وكان بينهما مؤانسة ــ فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغَدَّار، وإلا ما الذي أقدمك إلينا[5]؟ قال: اتصل بي أنَّ الفقيه عيسى[6] يزوِّج أُخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويزوّج الكامل أُخت صلاح الدين، فقلنا هذا عملٌ علينا. فقال له شمسُ الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فُعل ذلك لم يكن فيه نَقْضٌ للعهد. فقال له الملك: الصَّحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغَلَبُونا على رأينا[7]، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجنا لنتوسَّط الأمر بينكم وبينهم. فقال شمس الخلافة: فأي شيء قد طلبوا؟ قال:

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) الرضيخة: العطية، «اللسان» (رضخ).

(٣) في (م): ديار مصر.

(٤) في (م): فأريدك.

(٥) في (م): علينا.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٧) في (ل) و (م): آرائنا.

ألفي ألف دينار. فقال: مكانكم حتى أصلَ إلى شاور، وأبلغه مقالكم وأعودُ بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بِلْبِيس* إلى أن تعود.

قال: وحُكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الدَّاروم كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدتُ الخدمة على ما قرَّرْتَه لي من العطاء في كل عام. فأجابه شاور: إن الذي قَرَّرته لك إنما جعلتُه متى احتجتُ إليك، أو إذا[1] قَدِمَ عليَّ عدو، فأما مع خُلُوٍّ بالي من الأعداء فلا حاجة بي إليك ولا لك عندي مُقَرَّر. فأجابه مُرِّي* أنه لا بدَّ من حضوري وأخذي المقرَّر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونَقَضَ الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد. فأخذ في تجنيد الأجناد، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بِلْبيس قطعةً من الجيش وميرة وعُدَّة.

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوي[2] على قولٍ حتى خَيَّم على بِلْبِيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النَّحَّاس[3]، وابن الخياط يحيى، وابن قَرْجَلَّة[4]. وأرسل إلى ابن طي[5] بن شاور ــ وكان ببِلْبيس ــ وقال له: أين ننزل؟ قال: على أَسِنَّة الرِّماح. وقال له: أتحسب أن بِلْبِيس جُبْنَةً تأكلها؟ فأرسل إليه مُرِّي: نعم هي جبنة والقاهرة زُبْدة. ثم قاتل بِلْبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسَّيف، وقتل

---

(١) في الأصل: وإذا، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل و (ل): ولا يلوي، والمثبت من (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٨٦ من هذا الجزء.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.
(٥) في (ل) وطبعتي الروضتين: وأرسل إلى طي بسقوط «ابن»، وهو تحريف، وقد مَرَّ أن طيئاً قتل سنة (٥٥٩ هـ)، انظر ص ٤٠٧ من الجزء الأول، وص ٨٤، ١٠٨ من هذا الجزء.

من أهلها خلقاً عظيماً، وخرَّب أكثرها، وحرَّق جُلَّ آدُرها[1]، ثم أُخرج الأسارى إلى ظاهر البلد، وحُشروا في مكانٍ واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرَّقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدَّى أكثرهم النيل إلى جهة مُنْية حمل[2]، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم، وبقي أهل بِلْبِيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير؛ لأن الملك النَّاصر رحمه الله تعالى لما ملك ديار مصر وقف مُغَلَّ بِلْبِيس على كثرته على فَكَاك الأسرى منهم، وسامحَ أهل بلبِيس بِخَرَاجهم إلى آخر أيامه.

ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بِلْبيس من القَتْلِ والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرِّجال والعُدد، وجعلوها لهم ظهراً، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أنَّ البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى، وتطلب نُصْرَتَه ومعونتَهُ. فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طَيَّ تلك الكتب كتباً، وسخَّم أعاليها بالمِدَاد.

قال: وحدَّثني شمسُ الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأي أبي شمس الخلافة، لأنه لما رجع من عند مُرِّي*، لعنه الله، بعد أخذِ بِلْبيس* اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أُفضي به إليك إلاّ بعد أن تحلف لي أنك لا

(١) آدر: جمع دار، على القلب. «اللسان» (دور).

(٢) منية حمل: قرية بالشرقية تابعة لمركز بِلْبِيس. انظر «الخطط التوفيقية»: ١٦/ ٦٢.

تطلع أباك عليه. فلما حلف له [قال][1]: إن أباك قد وطَّنَ نفسه على المُصَابرة، وآخر أمره يُسلِّم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد، وألزمه أن يكتبَ إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره. فَصَعِدَ الكامل وكتب الكتاب. فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسدَ الدين، وكان ذلك من مُناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكَّاري إلى مصر برسالةٍ ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالةٍ سِرِّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيَّنها، وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر[2] شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم، وهجُّوا في بلاد مصر[2]، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك النَّاس أكثر أموالهم فنهبت. وأُحرقت مِصْر في تاسع صفر[3]، وأقامت النَّار تعمل فيها أربعةً وخمسين يوماً.

ثم إن الفرنج ـ لعنهم الله ـ نزلوا في بركة الحَبَش[4]، وانبثَّتْ خيولهم في الأطراف، وتخطَّفوا من ظفروا به. فأنفذ شاور شمسَ الخلافة إلى مُرِّي* ـ لعنه الله ـ فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ١٧١/١

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (ل).

(٣) في (ل): رجب، وهو تحريف، انظر ص ٤٨ من هذا الجزء.

(٤) هي في وهدة من الأرض واسعة، مشرفة على النيل خلف القرافة، وهي من أجل متنزهات مصر، كانت تعرف ببركة المعافر وبركة حِمْيَر، رآها ياقوت وقال: وليست ببركة ماء، وإنما شبهت بها، وربما امتلأت بالماء وقت زيادة النيل، انظر «معجم البلدان»: ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.

ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السَّماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر، وما أتيتك إلا وقد أُحْرِقَتْ بعشرين ألف قارورة نفط، وفُرِّقت فيها عشرة آلاف مَشْعَل، وما بقي فيها ما يؤمَّل بقاؤه ونفعه؛ فخلِّ الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي، وكوني كلما قلت لك انزل في مكان تعدَّيت[1] إلى غيره، وما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة[2]. فقال: هو كما تقول[3]، ولا بُدَّ من نزول القاهرة، ومعي فرنجٌ[4] من وراء البحر قد طمعوا في أخذها. ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية* نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ* تقع في خِيَمه، فقاتلوا البلد أياماً.

فلما تيقَّن شاور الضَّعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، والمغاورة والمُدافَعة، إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مُرِّي ــ لعنه الله تعالى ــ برسالةٍ طويلة فتَلَ بها في غاربه[5] ودار من حواليه، وفي ضمنها: «إن هذا بلد عظيم كبير[6]، وفيه خَلْقٌ كثير، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالمٌ عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصِّل

---

(١) في (ل): تقدمت.
(٢) في الأصل: القاهرة، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): هو ما تقول.
(٤) في (م): فرنجي.
(٥) في المثل: فتل في ذروته وغاربه: يضرب في الخدع والمماكرة، أصله أن يكون البعير صعباً شرساً، لا يعطي رأسه الرجل، فيحك الرجل سنامه وغاربه (كاهله؛ ما بين السنام والعنق) ويفتل الوبر فيهما بأصابعه، يؤنسه بذلك ويخدعه حتى يستمكن منه، فيخطمه، انظر «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري: ٢/ ١٧٩ ــ ١٨٠.
(٦) كبير، ساقطة من (ل) و (م).

شيئاً[1] أدفعه لك [فيحصل لك][2] عفواً». فاستقرَّت المصالحة[3] على أربع مئة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُعَجَّل له منها مئة ألف دينار. فأجاب مُرِّي إلى[4] ذلك، وانعقدت الهُدْنة، وحلف مُرِّي، ورحل إلى بركة الحَبَش، وحمل شاور إليه مئة ألف دينار في عِدَّة دفعات سوَّف فيها الأوقات، ثم أخذ يمطله في الباقي[5] انتظاراً لقدومِ العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال. فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشَّام عليهم، فلما رأوهم رحلوا إلى بِلْبيس، ونزل أسد الدين بالمقس*. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس*، واتبعه أسد الدين ونزل على بِلْبيس*.

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر* أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه[6] بعضَ المال، فصار إليه واجتمع به، وقال: قد قلَّ علينا المال. فقال ملك الإفرنج: اطلب منه ما شئتَ. قال: أشتهي أن تَهَب لي النصف. قال: قد فعلتُ. فقال شمس الخلافة: ما بلغني أنَّ ملكاً في مثل حالك وقُدْرَتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنا! فقال ملك الإفرنج: أنا أعلم أنك رجلٌ عاقل، وأن شاور ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم[7] إلاَّ لأمرٍ قد حدث. فقال له: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صَدْر نُصرةً لنا، وما بقي لك

---

(١) في الأصل: شيء، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (ل) و (م): المصانعة.
(٤) في الأصل: على، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في (ل) و (م): بالباقي.
(٦) منه، ساقطة من (م).
(٧) العظيم، ساقطة من (م).

مُقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل، ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم[1] أكثر من هذا المال عُدْنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملكُ الفرنج: أنا راضٍ بذلك، وإن بقي عليَّ شيء حملته إليكم. وعوَّل على الرَّحيل. فقال له: بعد أن تطلق ابن طيّ[2] بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى، ولا تأخذ من بِلْبيس بعد انصرافك شيئاً. فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلتِ الفرنجُ عن القاهرة نزل أسد الدين بأرضٍ يقال لها اللُّوق*، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وندرك الفرنج ونوقع بهم. فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البَرِّ الغربي وليس لهم وَزَر، وأما الآن فلا؛ لأنهم على البَرِّ المتَّصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البَرِّ في أسوأ حال من الضعف والتعب، وقد كفانا الله شرَّهم، ونحن إلى الرَّاحة والاستجمام أحوج.

ولما نزل أسد الدين باللُّوق أرسل إليه العاضد هديةً عظيمة، وخِلَعاً كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه. ثم إنه خرج إليه في الليل سِرًّا متنكراً، واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمورٍ[3] كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره. وكان شاور قد رأى ليلةَ نزل[4] أسد الدين على القاهرة

---

(١) في (ل): رضاكم، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل: ابن أبي طي، والمثبت من (ل) و (م)، وفي طبعة وادي النيل: ١/ ١٧١ «طي بن شاور» وانظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

(٣) في (م): بأشياء.

(٤) في (ل): نزول.

كأنَّه دخل دار الوِزَارة، فوجد على سرير مُلْكِه رجلاً، وبين يديه دواة الـوزارة، وهـو يـوقـع منهـا بـأقـلامـه، فسـأل عنـه، فقيـل: هـذا محمـد رسولُ الله ﷺ.

ولما حَصَل أسد الدين بالدِّيار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنتِ البلاد، وتراجع النَّاس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعَّثَهُ الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين، فتلقَّاهم بالرُّحب والسَّعَة، وأحسن إليهم.

وأما شاور فإنه أخذ في التودُّد إلى أسد الدين، والتقرُّب إلى[1] قلبه بجميع ما وجد السَّبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة[2]، حتى استحوذ على قلبه، ونوى تَبْقِيَتَهُ في مُلْكه، وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سِرًّا: احْرُسْ نفسك من عساكر الشَّام.

وأما عسكر الشَّام فإنهم لما رأوا طِيبَ بلاد مصر وكثرة خيرها وسَعَة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سُكْناها، ورغبوا فيها رغبةً عظيمة؛ فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها. ثم علم[3] أنه لا يتم له ذلك وشاور باقٍ[4] فيها، فأخذ في إعمال الحيلة عليه. وكان العاضد قد تقدَّم إليه بقتله، فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور، ١/١٧٢ وقال لهم: قد عَلِمْتُم رغبتي في هذه البلاد، ومحبتي لها وحرصي عليها، لا سيما وقد تحقَّقْتُ أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمتُ أنهم قد كشفوا

(١) في (م): من.
(٢) في (ل): الكثيرة.
(٣) في (م): ثم إنه علم.
(٤) في الأصل: باقي، والمثبت من (ل) و (م).

عَوْرَتَها، وعلموا مسالك رُقْعتها، وتيقَّنت أني متى خرجتُ منها عادوا إليها واحتوَوْا عليها؛ وهي معظم دار الإسلام وحَلُوبة بيت مالهم، وقد قوي عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم، وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم، ويغرّنا ويغرّهم، ويضرِّب بيننا وبينهم[1]، وقد ضيَّع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوَّى بها الفرنج علينا، وما كلُّ وقتٍ ندرك الفرنج، ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قد قَلَّ[2] رجالها وهلكت أبطالها. فتنخَّلت الآراء بين الأمراء أنه[3] لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور، وتفرَّقوا على إيقاع القبض به.

وكان شاور يركب في الأبَّهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعُدَّة الحسنة، والآلة الجميلة، على عادتهم الأولى. وكان من جُملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حُمل في موكبه الطَّبْلُ والبوقُ، وكان شاور قليلَ الركوب، فجعل الأمراء يترصَّدونه. ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأنَّ شاور داخل إليه إلى داره، وناوله سيفَهُ وعِمامَتَهُ، فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأَخْذِ منصبه.

ثم إن شاور ركب يوماً في أبهَّته وجلالته[4]، فلما عاينه الأُمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضَّباب، وكان خروج شاور من باب القنطرة* للسَّلام على أسد الدين. فتقدَّم صلاح الدين، فسلَّم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدَّ يده إلى تلابيبه وصاح عليه فَرَجَّله[5]. ولما رأى

(١) يضرِّب بيننا وبينهم: أي يغري ويحرِّض. انظر «معجم متن اللغة» ٣/ ٥٤٠.
(٢) في (م): قلَّت.
(٣) في الأصل: أنهم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (ل): أبهة وجلالة.
(٥) في الأصل: فزجره، والمثبت من (ل) و (م).

ذلك عسكر الشَّام قويت عزماتهم، ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله[1]، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاور راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين. وفي الحال ورد على أسد الدين توقيعٌ من العاضد على يد خادمٍ يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال، وأنفذ رأسه إلى القصر. وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه، فهرب إلى القصر، وخلع العاضد على أسد الدين، وقلَّده الوزارة، وأنفذ إليه طبقَ فِضَّةٍ فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد إخوته.

ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عِدَّة دفعات استحساناً لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بدائع[2] الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فَتْحُ الدِّيار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل[3] الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عِدَّة أشعار. غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وَزَر للعاضد، واستبدَّ بالأمر في ذلك الصُّقع أمضَّه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهية، وأخذ في الفكرة في أمره، وسهر له ليالي، وأفضى بسرِّه إلى مجد الدين ابن الدَّاية. حدَّثني جماعة عن شمس الدين علي ابن الدَّاية، أخي مجد الدين، وحدَّثني الموفق

---

(١) في الأصل: مع شاور، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (ل) و(م): بديع.

(٣) في (م): وأوصل: وهو تصحيف.

محمود بن النَّحَّاس الفقيه [الحنفي][1] الحلبي[2] وقد جرى ذكر فتح مصر وأنَّ نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، ولقد كان ودُّه ألا يفتح وألا يصير أسَد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه. ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحدٌ أن يراه، واهتمَّ لذلك حتى أفضى[3] عليه الهمُّ. ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً، وعليه فَضْلُه محسوباً، لما صبر على ما جرى[4]، ولا أغضى للملك النَّاصر على القَذَى. ولقد كاتب العاضد عِدَّة دفعات في أمر الأسد والصَّلاح، فلم يحصل له فيهما نجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب[5] نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) هو محمود بن هبة الله بن طارق بن النحاس، فقيه حنفي، درَّس في حلب بالمدرستين الشاذبختيه الجوانية والبرانية، وكان شاذبخت قد بنى هاتين المدرستين، ولما كملت المدرسة الجوانية (معروفة الآن بجامع الشيخ معروف) ولاه تدريس المدرستين، وبقي فيها حتى وفاته سنة (٦٠٢ هـ).

أما شاذبخت، الخادم الهندي، فقد كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، واستمر بها مدة ولاية الملك الصالح، فلما توفي سنة (٥٧٧ هـ) حفظ شاذبخت حلب حتى قدمها عز الدين بن قطب الدين مودود، وقد مَرَّ ذكره ص ٥٩ من الجزء الأول، وانظر ص ٣٢٨، ٣٣٠ من هذا الجزء. وص ٧٧ من الجزء الثالث وانظر «الباهر»: ١٨٢، و«زبدة الحلب»: ٣/ ٩٠. و«الجواهر المضية»: ٣/ ٤٥٣، و«إعلام النبلاء» للطباخ: ٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، و«الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب»: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) في (م): قضى.

(٤) في (م): لما جرى.

(٥) في (م): رسائل.

أمكنه المجاهرة[1] بالقول لقال.

فمن بعض مكاتباته: «وقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوز عسكرَه يُمْن نقيبته، واشتد حزب الضَّلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين الضَّلال بشهابه الثَّاقب، ويُصْمي مقيل[2] الشِّرْك بسهمه النافذ[3] الصَّائب».

قلتُ: لعل نور الدين رحمه الله تعالى إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السَّبب. هذا إن صحَّ ما نقلهُ ابن أبي طيّ، والله أعلم.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغيِّر على أحدٍ شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم، إلى أن انقضت أيامه، وفنيت أعوامه.

وكان قَرَماً؛ يحبُّ أكل اللَّحْم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التُّخَم، واتصلت به مَرضاته، إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه. ويقال: إنه أكل في ذلك اليوم مَضِيرة[4] ودخل الحَمَّام، فلما خرج منها أصابه الخُنَّاق.

---

(١) في (م): المجاهدة، وهو تحريف.

(٢) في (ل): مقتل، وهو تصحيف، والمقيل: الموضع: ومنه شعر ابن رواحة:

اليوم نضربكم على تنزيله ... ضرباً يُزيل الهام عن مقيله

ومن المجاز قولهم: طعنته في مقيل حقده: في صدره. انظر «اللسان» و«أساس البلاغة»: (قيل).

(٣) النافذ، ساقطة من (ل).

(٤) المضيرة: لحم يطبخ باللبن حتى ينضج، وهي ما نسميها في دمشق «الشاكرية». انظر «اللسان» (مضر)، و«معجم متن اللغة»: ٥/ ٣١٠.

قال: وكان شجاعاً، بارعاً، قوياً، جَلْداً في ذات الله، شديداً على الكُفَّار وطأته، عظيمةً في ذات الله صولتُه، عفيفاً دَيِّناً، كثير الخير. وكان يحبُّ أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حَدِباً على أهله وأقاربه، وكان فيه إمساك، وخلَّف مالاً كثيراً، وخلَّف من الخيل والدَّواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف جماعة من الغِلْمان، خمس مئة مملوك؛ وهم الأسدية.

١/ ١٧٣

وهو كان مشيِّد قواعد الدولة الشَّاذية والمملكة النَّاصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تَكْريت* على إقطاعٍ مبلغه تسع مئة دينار[1]، وتنقَّل إلى أن ملك الديار المصريَّة. وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تُنْسَبُ المدرسة الأسدية* بالشَّرف القبلي* ظاهر دمشق، وهي المُطِلَّةُ على المَيْدَان الأخضر*؛ وهي على الطَّائفتين الشَّافعية والحنفية، والخانقاه الأسدية* داخل باب الجابية* بدرب الهاشميين*.

قال ابنُ أبي طيّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يُولَّى الوزارة بين العسكر الشَّامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأُرشد من جماعةٍ من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره، وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك، وأشار بولاية الملك النَّاصر. وكان الحارِميُّ أولاً قد رغب في الوزارة وتحدَّث فيها، وحصَّل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة اليارُوقي[2] وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في

---

(١) انظر ص ٤٠٣ وما بعدها من الجزء الأول.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

بيته[1].

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقعٍ، وأعجبه عقله وسَدَادُ رأيه، وشجاعته، وإقدامه على شاوِر في موكبه، وأنه قتله [حين][2] جاءه أمره، ولم يتريَّث ولا توقَّف. فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخِلَع الوزارة قد سبقت إلى الملك النّاصر.

وكانت خِلْعة الوزارة عِمامة بيضاء تِنِّيسي[3] بطرز ذهب، وثوب دَبيقي[4] بطراز[5] ذهب، وجُبَّة تحتها سقلاطون[6] بطرازي ذهب، وطَيْلَسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمتُهُ عشرة آلاف دينار، وسيف مُحَلًّى بجوهرٍ قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حِجْر[7] صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالدِّيار المصرية أسبق منها، وطوق، وتخت وَسرفسار[8] ذهب مجوهر، وفي رقبة الحِجْر[9] مشدَّة بيضاء، وفي رأسها

---

(١) انظر ص ٦٩ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) نسبة إلى تنيس، وهي جزيرة بين الفرما ودمياط. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٥١، وكان فيها دار الطِّراز. «صبح الأعشى»: ٣/ ٤٧٦.

(٤) نسبة إلى دبقا، من قرى مصر، قرب تنيس، وهي مشهورة بثيابها. «معجم البلدان»: ٢/ ٤٣٧.

(٥) في (ل) و(م): بطرازي.

(٦) ضرب من القماش الحريري، المطرز بالذهب، والنوع الذي يصنع ببغداد له شهرة واسعة «تكملة المعاجم» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ١/ ٦٦٣.

(٧) في الأصل و(م) حجرة، والمثبت من (ل)، والحجر: الفرس الأنثى تتخذ للنسل، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. «اللسان» (حجر).

(٨) كلمة فارسية مركبة من كلمتين: سر: رأس، وفسار: لجام، انظر «قاموس الفارسية»: ٣٥٨.

(٩) في (م) الحجرة.

مئتا حَبَّة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدَّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخِلْعة عدة بقج[1]، وعِدّة من الخيل، وأشياء أُخَر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض.

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمس مئة [وقرىء المنشور][2] بين يدي الملك النَّاصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميعُ أرباب الدَّولتين المِصْرية والشَّامية، وكان يوماً عظيماً.

وخَلَعَ السُّلْطان على جماعة الأُمراء والكبراء، ووجوه البلد، وأرباب دولة العاضد[3]، وعمَّ الناسَ جميعهم بالهبات والصِّلات.

ولما استقرَّتْ قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية بشريعة السياسة، ونظَم بحُسْن تدبيره من الدولة بَدَدَها، وجرى في مناهج العدل على جَدَدها، وحَيْعَلَ إلى جُوده وفَضْله، ونادى إلى رِفْده وبذله، وكاتب الأطرافَ بما صار إليه من السُّلْطان، وسَرَّ قلوبَ الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريفِ الرُّتبة والمكان، واستدعى إلى حَوْزته الأصحاب والأهل، وروَّى بسَيْح كرمه مَنْ بَعُدَ منه وقَرُبَ من أهل الفَضْل، وتاب من[4] الخمر، وعدل

---

(١) مفردها بقجة، وهي من الفارسية «بغجة» بضم الباء: قطعة قماش مربعة، وهي ما يتخذ منها صُرَّة. انظر «الكلمات الدخيلة على العربية الأصيلة» للدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي: ١٠، و«شفاء الغليل»، للخفاجي: ٤٨.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) الدولة العاضدية.

(٤) في الأصل: عن، والمثبت من (ل) و(م).

عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمَّص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشَّرْع المبين، وشمر عن ساقِ الجدِّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وَجُود جوده شآبيب فضله النَّائب عن العِهاد[1]، وورد عليه القُصَّاد والزُّوَّار، وأُمَّ بنفائس الخُطَب وجواهر الأشعار.

حدَّثني بعضُ الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبَّه محبَّةً عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يُعلم أين مقرُّه.

قال: ولما استولى الملك النَّاصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه في ماله وبلاده، حسده[2] من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشَّامية، كابن ياروق وجُرْديك وجماعة من غِلْمان نور الدين. ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشَّام.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدّثني جماعةٌ من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبَّة في قلوب الرَّعايا أعظمَ ذلك وأكبره، وتأفَّفَ منه وأنكره، وقال: كيف أقدَمَ صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عِدَّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلاَّ أنَّه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته. وأمر نور الدين مَنْ بالشَّام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه. وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب!

---

(١) العهاد جمع، مفرده: العهد، وهو أول المطر الوسمي. «اللسان» (عهد).
(٢) في الأصل و(ل): وحسده، والمثبت من (م).

قلت: هذا كلُّه مما تقتضيه الطِّباع البشرية والجِبِلَّة الآدمية. وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلاّ من عَصَم الله، ومن أنصف عذَر، ومن عَرَفَ صَبَر. والذي أنكره نور الدين إفراطُ صلاح الدين في تفرقة الأموال، واستبدادُه بذلك من غير مشاورته. هذا مع أن ابن أبي طيّ مُتَّهمٌ فيما ينسبُهُ إلى نور الدين مما لا يليق به، فإنَّ نور الدين رحمه الله تعالى كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوَّى أهلَ السُّنَّة[1]، وكان والدُ ابن أبي طيّ من رؤوس الشِّيعة، فنفاه من حلب. وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طيّ في كتابه[2] مفرَّقاً في مواضع، فلهذا هو في هذا الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله تعالى، فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. والله أعلم.

١/ ١٧٤

قال: ولما ملك الملك النَّاصر مِصْرَ انتزع نور الدين حمص والرَّحبة* من ناصر الدين بن أسد الدين، وفَرَّق عُمَّاله وأعطاه تل باشر*، ثم أخذها منه. ولقد كان يتألَّم لملك الملك النَّاصر. ويقال إنه لما مَرِضَ قال: ما أخطأتُ إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا متُّ فصِيروا بابني إسماعيل إلى حلب لأنه لا يبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك[3] النَّاصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضُّه، غير أنّه يلقاها بصدر رحب، وخُلُق

---

(١) انظر ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ من الجزء الأول.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من هذا الجزء.

(٣) في (م): السلطان الملك.

عَذْب. حدَّثني أبي عن ابن قاضي الدِّهليز ــ وكان من خواصِّ الملك النَّاصر ــ قال: جرى يوماً بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحُّمَ عليه، ثم قال: والله لقد صبرتُ منه على مثلِ حَزِّ المُدَى ووخز الإبر، وما قدر أحدٌ من أصحابه أن يجد عليَّ ما يعتدُّه ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدُّها عليَّ فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلِّي أتضرَّر[1] أو أَتَغَيَّر، فيكون ذلك وسيلةً له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: وقد وقفت على كتابٍ بخط نور الدين [رحمه الله][2] يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى، وذلك ضِدّ ما قاله ابنُ أبي طيّ. كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون رحمه الله وهو بحلب ليولِّيه[3] قضاء مصر. صورته: «حسبي الله وكفى. وفَّق الله الشيخ الإمام شرف الدين إلى طاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقرِّبني إلى الله، والله وليُّ التوفيق، والمطَّلع على نيَّتي. وأنت تعلم[4] نيتي كما قال عَزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[5] أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمَنا النَّظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام[6] بعدما كانت دار كفر ونفاق، فلله المِنَّة والحمد. إلاّ أنَّ المقدَّم على كل شيء أمور

(١) في (م): أتصور، وهو تصحيف.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، واالمثبت من (ل) و(م).
(٣) في الأصل و(ل) لتوليه، وفي (ل): مهملة، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ١٧٤.
(٤) في النسخ الخطية: وأنت هم تعلم، بزيادة: هم، ولم يتبين لي وجهها.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٦) في (ل) و(م): الله تعالى جعلها دار إسلام.

الدين التي هي الأصل، وبها النَّجاة، وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع؛ وما تُدخر الدُّموع إلاّ للشَّدائد، وأنا ما كنت أسْخَى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليَّ أيضاً أن نظر[1] إلى مصالحها، وما لنا أحدٌ اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أُولِّي أمورَها وأقلِّدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك ـ وفقك الله ـ أن تشمِّر عن ساقِ الاجتهاد وتتولَّى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقرِّبك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي ـ وفقه الله ـ فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبتُ هذا بخطي حتى لا تبقى عليَّ حُجَّة. تصلُ أنت وولدك إلى عندي حتى أسيِّرَكُمْ إلى مصر والسَّلام، بموافقة صاحبي واتفاقٍ منه صلاح الدين ـ وفقه الله ـ فأنا منه شاكر كثير كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصَّالحين والأخيار صلاحٌ عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان خير، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل. وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً».

قال ابنُ أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكُوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مئة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مئة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجلٍّ به من ديوان الإنشاء، وأُنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر، وعُرِضَ عليه سياقة جرائد الدَّواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدِّمة، آخرها سنة أربع وستين وخمس مئة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف إرْدَب* غلة، فسامح بجميع ذلك، وأبطله من الدَّواوين، وأسقطه

(١) في (م): انتظر، وهو تصحيف.

من المعاملين[1]. وأُنهي إليه ما يُستأدى من الحُجَّاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره، وعَوَّض عنه بعِدَّة ضياع؛ فأغاثَ أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شَرْحُها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه. ونسخةُ منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين[2]، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

فصل

ذكر العماد في ديوانه قصيدةً مدح بها نور الدين يهنئه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق، منها:

بمُلك مِصرَ أُهنِّي مالِكَ الأُمَم ... فاسْعَدْ وأَبْشِرْ بنَصْرِ الله عن أَمَمِ

أَضْحى بِعَدْلِكَ شَمْلُ المُلْكِ مُلْتئماً ... وهل بِعَدْلِكَ شَمْلٌ[3] غيرُ مُلْتَئِمِ

يا فاعِلَ الخيرِ عَنْ طَبْعٍ بلا كَلَفٍ ... ومُوليَ العُرْف[4] عن خُلقٍ بلا سَأَمِ

وواقماً ثَلْمَ ثَغْرِ الكُفْرِ يُعْجِبُهُ ... لا لَثْمَ ثَغْرٍ شتيتٍ[5] واضحٍ[6] شَبِمِ[7] ١/ ١٧٥

لله دَرُّكَ نورَ الدينِ مِنْ مَلِكٍ ... بالعَزْمِ مُفْتَتِحٍ بالنَّصْرِ مُخْتَتِمِ

آثارُ عَزْمِكَ في الإسلامِ واضحةٌ ... وسِرُّه لك بادٍ غَيْرُ مُكْتَتَمِ

---

(١) في (ل) و(م): عن.

(٢) انظر ص ٢٣٢ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و(ل): شيء، والمثبت من (م).

(٤) العُرْف: الجود. «اللسان» (عرف).

(٥) ثغر شتيت: مفرق مفلج. «اللسان» (شتت).

(٦) الواضح: الأبيض ليس الشديد البياض، «معجم متن اللغة»: ٥/ ٧٧٠.

(٧) الشبم: البارد. «اللسان» (شبم).

بمـا مِـنَ العَـدْلِ والإحسـان تَنْشُـرُه ... تخـافُ رَبَّـكَ خَـوْفَ المُـذْنِـبِ الأَثِـمِ

أَوْرَدْتَ مِصْـرَ خُيُـولَ النَّصْـرِ عـادمـةً ... ثنـيَ الأَعِنَّـةِ إقـدامـاً علـى اللُّجُـمِ

فَـأَقْبَلَـتْ فـي سَحَـابٍ مـن ذوابلهـا[1] ... وقُضْبُهـا[2] بـدِمـاءِ الهَـامِ مُنْسَجِـمِ

تمكَّـنَ الـرُّعْـبُ فـي قَلْـبِ العـدوِّ بهـا ... تمكُّـنَ النَّـارِ بـالإحـراقِ فـي الفَحَـمِ

سَـرَتْ لتقطَـعَ مـا للكُفْـرِ مـن سَبَـبِ ... واهٍ وتـوصِـلَ مـا للـدِّيـنِ مـن رَحِـمِ

مُسْتَسْهلاتٍ وعورَ الطُّرْق في طَلَبِ الـ ... ـعَلْياء مقتحماتٍ أصعبَ القُحَمِ[3]

وجـاعِـلاتٍ مـن الإفـرنـج غِلَّهـم ... والقيدَ في موضع الأطواق والحُزُمِ

لقـد شَفَـتْ غُلَّـةَ الإسـلامِ وانتقَمَـتْ ... مـنَ العـدوِّ بحـدِّ الصَّـارمِ الخَـذِمِ[4]

أعـانهـا الله فـي إطفـاءِ جَمْـرِ أذًى ... مـن شَـرِّ شـاوَرَ فـي الإسـلامِ مُضْطَـرِمِ

وأَصْبَحَـتْ بـك مِصْـرٌ بعـد خِيفَتِهـا ... لـلأمـنِ والعِـزِّ والإقبـالِ كـالحَـرَمِ

والسُّنَّـةُ اتَّسَقَـتْ والبِـدْعَـةُ انمحقَـتْ ... وعـاودت دولـةُ الإحسـانِ والكَـرَمِ

ملـوكُهـا لـك صـاروا أَعْبُـداً وغـدا ... بهـا عبيـدُك مُـلاَّكـاً[5] ذوي حُـرَمِ

أَنبـتَ عنـك بهـا قَـرْمـاً[6] ينـوبُ بهـا ... في البَأس عن عنترٍ في الجُودِ عن هَرِمِ[7]

لـلَّـه دَرُّكَ نـورَالـديـن مـن مَلِـكٍ ... عَـدْلٍ لحفـظِ أمـورِ الـديـنِ مُلْتَـزِمِ

---

(١) الذوابل الرماح. «أساس البلاغة» (ذبل).

(٢) مفردها قضيب: وهو السيف اللطيف الدقيق. «اللسان» (قضب).

(٣) القحم: الأمور العظام الشاقة، واحدتها: قحمة. «اللسان» (قحم).

(٤) الخذم: القاطع. «اللسان» (خذم).

(٥) في الأصل: أماكاً، وفي (ل): أملاكاً، والمثبت من (م).

(٦) القرم من الرجال: السيد المعظم. «اللسان» (قرم).

(٧) هو هرم بن سنان، ممدوح زهير بن أبي سلمى، وكان من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب بجوده المثل، يقال: أجود من هرم. انظر «مجمع الأمثال» للميداني: ١٢٧/١.

كانت ولايةُ مِصْرٍ قبل عِزَّتها بكشف دَوْلَتِها لحماً على وَضَمِ[1]
فالنِّيلُ مُلْتَطِمٌ جارٍ على خَجَلٍ جاراً لبحرِ نَوالٍ منكَ مُلْتَطِمِ
اُغْزُ الفرنجَ فهذا وقتُ غزوهِمُ واخْطِمْ جموعَهُمُ بالذَّابلِ[2] الحَطِمِ
وَطَهِّرِ القُدْسَ من رِجْسِ الصَّليبِ وَثِبْ على البُغَاثِ وُثوبَ الأَجْدَلِ[3] القَطِمِ[4]
فمُلْكُ مِصْرَ وملكُ الشَّامِ قد نُظِما في عِقْدِ عِزٍّ مِنَ الإِسلامِ مُنْتَظِمِ
محمودٌ المَلِكُ الغازي يَسُوسُهُما بالفَضْلِ والعَدْلِ والإِفضالِ والنِّعَمِ
بالشُّكْرِ كلُّ لِسانٍ ناطقٌ أبداً محمودٌ المَلْكُ محمودٌ[5] بكلِّ فَمِ
فَأَشْكِ[6] مِصْرَ وأَظْهِرْ عِزَّ سُنَّتِها كم تحتفي[7] وإلى كم تشتكي وَكَمِ

ولِعلم الدين الشَّاتاني[8] في نور الدين:

ما نال شأوَك في المعالي سِنْجَرٌ[9] كلا ولا كِسْرى ولا الإِسكندرُ
يا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الجيادَ وخاضَ في لُجَجِ المنايا والأَسِنَّةُ تَقْطُرُ

---

(١) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية (حصيرة) يوقى به من الأرض، ومن المجاز: هو لحم على وضم، للذليل، كأنه في ضعفه مثل ذلك اللحم لا يمتنع من أحد. انظر «اللسان» و«أساس البلاغة»: (وضم).
(٢) في (م) الذُّبَّل.
(٣) الأجدل: الصقر. «اللسان» (جدل).
(٤) القطم: الصقر المشتهي اللحم. «اللسان» (قطم).
(٥) في الأصل: المحمود، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) أي أَزِلْ عنها ما تشكو منه، انظر «اللسان» «شكا».
(٧) في (م): تختفي، والمثبت من الأصل و(ل).
(٨) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣٥ من الجزء الأول.
(٩) هو سنجر بن ملكشاه، وهو من كبار سلاطين السلاجقة. اتسع ملكه، وحكم قريباً من ستين سنة. توفي سنة (٥٥٢ هـ) انظر ص ٣٥٩ من الجزء الأول.

هل حازَ غَيْرُكَ مُلْكَ مِصْرَ وصار من أتباعِهِ مَنْ جَدُّه المُسْتَنْصِرُ[1]
والمستضي بالله[2] مُعْتَدٌّ به ويجَدِّه وبجدِّه مُسْتَظْهِرُ
أو سَدَّ بالشَّام الثغورَ محامياً للدِّين حتى عادَ عنها قَيْصَرُ
يبكي فيروي الأرضَ فيضُ دموعِه والجوُّ من أنفاسه يَتَسَعَّرُ
أوَما أبوكَ بسيفه فَتَحَ الرُّها* والأُسْدُ تَقْتَنِصُ الكُماةَ وَتَزْأَرُ
هابَتْ ملوكُ الأرضِ بأسَ كُماتِها فتقاعدوا عن قَصْدِها وتأخَّروا
ما ضَرَّه طيُّ المنية ذاتَه وصفاتُه بينَ البريَّةِ تُنْشَرُ
فَلَكُمْ على كلِّ الملوكِ مزيةٌ لوقائعٍ مَشْهُورةٍ لا تُنْكَرُ
وإذا عَدَدْنا للأنام مناقباً فعليك قَبْلَ الكُلِّ تُثْنى الخِنْصِرُ
في الرأي قَيْسٌ في السَّماحة حاتِمٌ في النُّطْقِ قُسٌّ في البَسَالة حَيْدَرُ
دانَتْ لك الدُّنيا وأنت تعافُها وسِوَاكَ في آمالِه يتعثَّرُ
من ذا يَصُون الصِّينَ عنك وأنتَ مَنْ أُسْدُ الشَّرى منه تخافُ وتَحْذَرُ[3]

176/1

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خِلَعاً لجماعةٍ من الأعيان، وأنفذ للعماد عِمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى، منها:

يا صلاحَ الدِّين الذي أصلح الفا سِدَ بالعَدْلِ[4] من خُطُوبِ الزَّمانِ
أنتَ أَجْرَيْتَ نِيْلَ مِصْرَ إلى الشَّا م نَوَالاً أم سالَ نيلٌ ثاني!

(1) خليفة فاطمي، ولي سنة (427 هـ) حتى وفاته سنة (487 هـ) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: 15/186 ـ 196، وقد أخطأ الدكتور شكري فيصل حين توهم أن المراد بالمستنصر الخليفة العباسي، فراح يتمحل لاستقامة المعنى وجوهاً غريبة. انظر حاشيته رقم 3 ص 377 من «خريدة القصر» قسم شعراء الشام الجزء الثاني.
(2) خليفة عباسي، ولي سنة (566 هـ) حتى وفاته سنة (575 هـ) وسترد ترجمته في وفياتها 3/ 50.
(3) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: 2/ 377 ـ 379.
(4) بالعدل، ساقطة من (م).

وعلى نيْلِها لِكَفَّيْكَ فَضْلٌ فهما بالنُّضَارِ جارِيتانِ
وَصَلَتْ أُعطياتُك الغُرُّ غُزْراً فتلقَّت آمالنا بالتَّهاني
خِلَعٌ راقتِ العيونَ وراعت وعلا وَصْفُها عنِ الإمكانِ
مُذهباتٌ كأنَّها خِلَعُ الرَّضْـ ـوانِ قد أُهْدِيَتْ لأهلِ الجِنَانِ
مُشْرقاتٌ بِطُرْزِها الذَّهبيا تِ الحِسانِ الرَّفيعةِ الأَثمانِ
فالعِماماتُ كالغماماتِ والطُّر زُ بروقٌ كثيرةُ اللَّمَعَانِ
والموالي بها من التِّيه والفَخْـ ـرِ على الدَّهْرِ ساحِبُو الأَرْدَانِ
كيف خُصَّ العمادُ بالأَدْوَنِ المُخْـ ـلَقِ من دونِ عُصْبَةِ الدِّيوانِ
أخليقٌ مَنْ نَسْجُهُ لكَ في المَدْ حِ جديدٌ بأَمْهَنِ الخُلْقَانِ
وكذا عادةُ اللَّيالي تخصُّ الـ ـفاضلَ المُسْتَحِقَّ بالحِرْمانِ
لم تَزَلْ سارياتُ[1] جُودِكَ بالشَّا مِ لديه غزيرةَ التَّهْتَانِ
فإذا لم تَزِدْه مِصْرُ كمالاً في المُنَى فاحْمِهِ مِنَ النُّقْصَانِ

وكتب إلى فخرالدين أخي صلاح الدين[2] قصيدةً، منها:

عَبْدُك شمسَ الدَّولةِ المُرْتَجى مُنْتَظِرٌ تَشْرِيفَكَ المُذْهَبا
واعْتِبْ صلاحَ الدِّين في حالتي عساه بالإصلاحِ أَنْ يُعتبَا
عَرِّفْه ما تَمَّ فإنِّي أرى[3] من فَضْلِهِ للفَضْلِ أن يَغْضَبا
وكيفَ يرضى ذاك بعضَ الرِّضا وَمَجْدُه يأباه كلَّ الإِبا

---

(١) في الأصل و (ل): سائرات، والمثبت من (م)، والساريات: مفردها سارية، وهي السحابة التي تسري ليلاً.
(٢) هو شمس الدولة تورانشاه، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته في وفيات سنة (٥٧٦ هـ) ٣/ ٦٣، وانظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٣٠٦.
(٣) أرى: ساقطة من (م).

وقُــلْ لــه : جــاءتــه مَلْبُــوسَــةً   تخلَّفَــتْ مِــن تبَّــعٍ فــي سَبــا
عِمــامــةٍ رَقَّــتْ ورثَّــتْ فمــا   نَشَــرْتُهــا إلاّ وطــارت هَبَــا

قال: فوصل من صلاح الدين عِمامةٌ مُذْهبة، وكتَبَ يعتذر عن العمامة التي قبلها. وكتب إلى سعد الدين كُمُشْتِكِين ليستعير لسانه في الاعتذار إلى العماد: فإني أستقلُّ لمرامه إرم ذات العماد. فكتب العماد:

أمـا العِمـادُ فقـد تضـاعَـفَ شُكْـرُهُ   نُعْماك شُكْرَ الرَّوْض نُعمى الصَّيِّبِ
لِعِمـــامَـــةٍ ذَهَبِيَّـــةٍ كغَمَـــامَـــةٍ   يبْـدو بهـا بَـرْقُ الطِّـراز المَغْـرِبـي
مـا كـان أحسـنَ حـالَـهُ لـو أنَّـهُ   شُفِعَـتْ عِمـامَتُـه بِثَـوْبٍ مُـذْهَـبِ

قال: وكتب إليه:

أُهَنِّـــي المَلِـــكَ النَّـــاصِـ   ـــرَ بـــالمُلْـــكِ وبـــالنَّصْـــرِ
ومـــا مَهَّـــدَ مـــن بُنْيَـــا   نِ ديـــنِ الحـــقِّ فـــي مِصْـــرِ
ومـــا أَسْـــدَاه مـــن بِـــرٍّ   بـــلا عَـــدٍّ ولا حَصْـــرِ
ومـــا أَحْيـــاه مـــن عَـــدْلٍ   ومـــا خَفَّـــفَ مـــن إِصْـــرِ
وإعـــــلاء سنـــــا السُّنَّـ   ـةِ فـي بُحْبُـوحَـةِ القَصْـرِ[1]
قـــد استـــولـــى علـــى مِصْـــرٍ   بحـــقٍّ يـــوســـفُ العَصْـــرِ
وأحيـــا سُنَّـــةَ الإحســـا   نِ فـــي البَـــدْوِ وفـــي الحَضَـــرِ

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدة:

١/١٧٧ ديارَ الهوى حيًّا معالِمَكِ القَطْرُ   وجادَكِ جُودُ النَّاصِرِ الغَدِقُ الهَمْرُ

---

(١) بحبوحة القصر: وسطه. انظر «اللسان» (بحح).

بـه رَجَعَـتْ فـي عُنْفُـوان شبـابهـا وَنُصْرَتِها من بعدِ ما هَرِمَتْ مِصْرُ
وكـم خـاطـبٍ رَدَّتْـهُ لـم يـكُ كفأهـا إلـى أَنْ أتـاهـا خـاطِـبٌ سَيْفُـهُ المَهْـرُ
حماها حِمى اللَّيْث العرينَ وصَانَها كما صان عَيْناً من مُلِمِّ القَذَى شُفْرُ[1]
وكـان بهـا بَحْـرٌ أُجـاجٌ فـأصْبَحَـتْ ومن جُوده العَذْبِ النميرِ بها بَحْرُ[2]

وله فيه من أخرى:

فما أنتَ إلاّ الشَّمْسُ لولاك لم تَزَلْ على مِصْرَ ظلماءُ الضَّلالةِ سَرْمَدَا
وكـان بهـا طُغْيـان فِـرْعـونَ لـم يَـزَل كمـا كـان لمَّـا أَنْ طغـى وتَمَـرَّدا
فبصَّـرْتَهُـمْ بَعْـدَ الغَـوَايـة والعَمـى وأَرْشَدْتَهُمْ بعد الضَّلال إلى الهُدَى[3]

وله فيه من أخرى:

قُلْ للملوك: تَزَحْزَحُوا عن ذُرْوَة الـ ـعلياءِ للملـكِ الهُمَـام النَّـاصِـرِ
يعطـي الأُلـوف ويلتقيهـا بـاسمـاً طَلْقَ المحيا فـي القنا المُتَشاجِرِ[4]

وقرأت في ديوان العَرْقَلة[5]: وقال في المولى الملك النَّاصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره سلاماً:

صـلاحَ الـدِّيـن قـد أَصْلَحْـتَ دُنيـا شقـيٌّ لـم يَبِـتْ إلاّ حـريصـا
أتـى منـك السَّـلامُ[6] لنـا عمـومـاً وجُـودُك جـاءنـي وَحْـدي خُصـوصـا

---

(١) الشفر، بالضم: شفر العين، وهو ما نبت عليه الشعر، وأصل نبت الشعر في الجفن، وليس الشفر من الشعر في شيء. «اللسان» (شفر).
(٢) الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.
(٤) البيتان ليسا في «ديوانه» المطبوع.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من الجزء الأول.
(٦) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٧٧، «وأرسلت السلام».

فكنتَ كيوسُفَ الصِّدِّيقِ لمَّا ... تلقَّى منه يَعْقُوبُ القَمِيْصَا[1]

وكان العرقلة من جُملة المتردِّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار. فلما تَمَّ أمرُه بمصر كتب إليه العَرْقَلة قصيدةً منها:

إليكَ صلاحَ الدِّينِ مولاي أشتكي ... زماناً على الحُرِّ الكريمِ يجورُ
تُرى أُبْصِرُ الألفَ التي كنتَ وَاعِدي ... بها في يدي قبل الممات تصيرُ
وَهَيْهات والإِفرنجُ بيني وبينكم ... سياجٌ قتيلٌ دونه وأسيرُ
ومن عَجَبِ الأيام أنكَ ذو غِنًى ... بِمِصْرَ ومثلي بالشَّآم فقيرُ[2]

وقال أيضاً:

قُلْ للصَّلاح مُعيني عند إعساري ... يا ألفَ مولايَ أين الألفُ دينار
أخشى من الأَسْرِ إن حاولتُ أَرْضَكُمُ ... وما تفي جَنَّةُ الفِرْدَوْس بالنَّارِ
فَجُدْ بها عاضِدِيَّاتٍ[3] مُسَطَّرَةً ... من بعض ما خلَّف الطَّاغي أبو الطَّارِي[4]

---

(١) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٥٧، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢١١.

(٢) «ديوان عرقلة»: ٥٠، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) العاضديات: دنانير منسوبة إلى الخليفة الفاطمي العاضد، ضربها بالقاهرة سنة (٥٦٤ هـ)، انظر كتاب «النقود» ٧١ ـ ٧٢، تأليف حسين عبد الرحمن، طبع بالقاهرة بلا تاريخ.

(٤) في أصول «الخريدة» يوافق ما في نسختنا الخطية، ولكن محققه الدكتور شكري فيصل استبدلها بـ «أبو العار» مستفيداً مما ورد في «فوات الوفيات»: ١/ ٣١٣، وفيه «أخو العار». وتابعه في ذلك محقق «ديوان عرقلة»، وسيرد مقتل الطاري بن شاور ص ١٣٧ من هذا الجزء.

حُمْـراً كـأسيـافِكُـم غُـرّاً[1] كخيلكُـمُ عُتْقـاً ثقـالاً كـأعـدائـي وأطمـاري[2]

يعني بالطاغي شاور، وله ابن اسمه الطاري.

وأنفذ له من مصر عشرين ديناراً[3] فقال:

يـا مـالكـاً[4] مـا بَـرِحَـتْ كَفُّـه تجـودُ بـالمـالِ علـى كَفِّـي

أفلـحَ بـالعِشْـريـن مـن لـم يَـزَلْ فـي رأس عشـريـن مِـنَ الكَهْـفِ

يـا ألـف مـولاي ولكنَّهـا محسـوبَـةٌ مـن جُمْلَـةِ الألـفِ[5]

وذكر العماد في «الخريدة» أن العرقلة قصدَ صلاح الدين إلى مِصْر، فأعطاه ذلك، وأخذ له من إخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، ومات بدمشق في سنة ست، أو سبع وستين وخمس مئة[6].

قلت: وفي ديوانه ما يدلُّ على قدومه مصر، فإن فيه: وقال، وكتبها على حَمَّامٍ عمَّرها المولى الملك الناصر بديار مصر:

يـا داخِـلَ الحَمَّـام هُنِّيْتَهـا دائـرةً كـالفَلَـكِ الـدَّائِـرِ

تـأمَّـلِ الجنَّـةَ قـد زُخْـرِفَـتْ وَعُمِّـرَتْ[7] للملـكِ النَّـاصِـرِ

كـأنَّمـا فَيْـضُ أنـابيبهـا نَـدَاه للـوارِدِ والصَّـادِرِ[8]

---

(١) في (ل) و (م): غبراً.

(٢) انظر «ديوان عرقلة»: ٤٩ ـ ٥٠، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) في «الديوان»: عشرين ألف دينار، وهو وهم.

(٤) في (ل) و (م): يا ملكاً.

(٥) «ديوان عرقلة»: ٦٤.

(٦) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٧٨ ـ ١٨٠.

(٧) في (م): وعجلت.

(٨) «ديوان عرقلة»: ٥٢ ـ ٥٣.

١٧٨/١

فصـــل
في قتل المُؤْتَمن بالخرقانية[١]، ووقعة السُّودان[٢] بين القصرين، وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص إقطاع المصريين، فقطع منهم الدَّابر من أجل مَن معه من العساكر. وكان بالقصر خَصِيٌّ يدعى مؤتمن الخلافة، متحكِّم في القَصْر، فأجمع هو ومن معه على أن يُكاتبوا الفرنج ويقبضوا على[٣] الأسدية والصَّلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ مَن بقي مِن أصحابه بالقاهرة ويُتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة. فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء[٤] فرأى مع إنسان ذي خُلْقان[٥] نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي،

---

(١) قرية صغيرة من مديرية القليوبية على الشط الشرقي للنيل في الشمال الغربي لقرية أبي القبيط، وكانت تسمى في العصر الفاطمي الخاقانية، انظر «مفرج الكروب» ١/ ١٧٦.

(٢) كانت أم المستنصر سوداء، فأحبت الاستكثار من جنسها، فاشترت السودان من كل مكان، ومن ثم كانت السبب في كثرة العبيد السود بمصر. انظر «خطط المقريزي»: ١٣٨/٢.

(٣) في هذه الورقة يبتدىء خرم في الأصل أعلى الصفحة يذهب ببضع كلمات، استدركت بخط متأخر، وكان أصلنا في تحقيقها نسختي (ل) و (م).

(٤) بئر البيضاء: كانت مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون زمن القلقشندي، وهو على الطريق بين القاهرة وغزة، وقد حقق محمد رمزي موقعها، فقال: وبالبحث عن موقعها تبين لي أن مكانها اليوم عزبة أبي حبيب الواقعة في حوض البيضاء بأراضي ناحية الزوامل بمركز بلبيس، ولا يزال اسم البيضاء المنسوب إليه هذه البئر يطلق على الحوض المذكور، انظر «صبح الأعشى»: ١٤/ ٣٧٦، و «النجوم الزاهرة»: ٨/ ٤٤.

(٥) الخلق، محرَّكة: البالي، للمذكر والمؤنث، جمعها خلقان، «القاموس المحيط»: (خلق).

فأنكرهما، فأخذهما، وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة الفرنج فيهما من أهل القَصْر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وقال: دلُّوني على كاتب هذا الخَطِّ. فدلُّوه على يهودي من الرَّهْط، فلما أحضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خَطِّه ويقابلوه، نطق بالشَّهادة قبل كلامه، ودخل في عِصْمة إسلامه، ثم اعترف بما جناه، وشيَّدَه من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة. فحسَّن السُّلْطان إسلامه، وثَبَّت اعتصامه، وعرف استسلامه، ورأى إخفاء هذا السر واكتتامه.

واستشعر الخَصِيّ العَصِيُّ، وخَشِيَ أن تَشُقَّه على شَقِّ العصا العِصِيُّ، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج[1] لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مُغْضَب وعنه مُغْضٍ، لا يأمر فيه ببسط ولا قَبْض، إلى أن استرسل واستبسل، وظن أن ما نسله من الشَّرِّ العقيم نَصَل. وكان له قصرٌ في قرية يقال لها الخرقانية لخُرقه، ورقع ما يتَّسع عليه من خَرْقه، وهو بقرب قَلْيوب*، فخلا فيه يوماً للذَّته، ولم يدر أنه يوم ذِلَّته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهضَ إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع مَنْ جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع؛ فورد موارده مِن رَداه على أدون مَشْرع[2].

قال: ولما قُتِل غار السُّودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. وكانوا إذا قاموا على وزيرٍ قتلوه، واجتاحوه وأذلُّوه، واستباحوه واستحلُّوه،

---

(١) في (م): وإذا خاف، وهو تحريف.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٢ ــ ٨٣.

فحسبوا أنَّ كلَّ بيضاء شَحْمة، وأنَّ كُلَّ سوداء فَحْمة[١]. فثار أصحابُ صلاح الدين إلى الهَيجاء، ومقدَّمهم الأمير أبو الهيجاء[٢]. واتصلت الحرب بين القصرين[٣]، وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشَّرُّ يومين، حتى أَحَسَّ الأساحم بالحَيْن، وكلما لجؤوا إلى محلَّة أحرقوها عليهم، وحوَوْا ما حواليهم، وأُخرجوا إلى الجِيزة، وأُذِلُّوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السُّودان بعدها من الشِّدَّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلاً و ﴿أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلوا تَقْتِيلا﴾[٤].

وكانت لهم على باب زُوَيلة* محلة تسمى المنصورة[٥]، وكانت بهم المعمَّرة المعمورة، فأُتي بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية، ثم حرثَها بعضُ الأمراء واتخذها بُسْتاناً، فهي الآن جَنَّة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل[٦] هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشدُّ أزره بمصر، لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

---

(١) في المثل: ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة، يضرب في اختلاف أخلاق الناس وطباعهم، انظر «المستقصى في أمثال العرب»: ٢/ ٣٢٨ ــ ٣٢٩، و «مجمع الأمثال»: ٢/ ١٥٦.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من هذا الجزء.
(٣) انظر ما كتبه المقريزي عن هذه الواقعة في «خططه»: ٣/ ٢ ــ ٤، ففيه تفصيل وافٍ.
(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦١، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٣ ــ ٨٤.
(٥) انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٢٩ ــ ٣٠.
(٦) في (ل) و (م): قبل.

قال [ابن أبي طيّ][1]: وباشر بنفسه وقعة السُّودان هذه، وكان له فيها أثرٌ عظيم. ومن عجيب ما اتفق أنَّ العاضد كان يتطلع[2] من المنظرة، ويعاين الحرب بين القصرين، فقيل: إنه أمر مَنْ بالقصر أن يقذفوا العساكر الشَّامية بالنُّشَّاب والحجارة، ففعلوا. وقيل: إن ذلك كان عن غير اختياره. فأمر[3] شمس الدَّولة الزرَّاقين بإحراق[4] منظرة العاضد، فهمَّ أحدُ الزراقين بذلك، وإذا باب المنظرة قد فُتِحَ وخرج منه زعيمُ الخلافة وقال[5]: أمير المؤمنين يُسَلِّم على شمس الدولة[6] ويقول: دونكم العبيد[7] الكلاب، أخرجوهم من بلادكم. وكانت العبيد مشتدَّة الأنفس بأنَّ العاضد راضٍ بفعالهم[8]، فلما سمعوا ذلك فَتَّ في أعضادهم، فجبُنُوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدةً، منها:

بالملكِ النَّاصرِ استنارَتْ ... في عَصْرِنا أَوْجُهُ الفَضَائِلْ
عليَّ مِنْ حَقِّهِ فُروضٌ ... شُكْراً لما جادَ من نَوَافِلْ
يوسفُ مِصْرَ الذي إليه ... تَشُدُّ آمالُنا الرَّوَاحِلْ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: يطلع، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): فأمن، وهو تصحيف.
(٤) في (م): وأحرق.
(٥) في (م): وذلك، وهو تحريف.
(٦) في (م): يسلم عليكم.
(٧) في (م): والعبيد.
(٨) في (م): من أفعالهم.

أَجْـرَيْـتَ نِيْلَيْـنِ فـي ثَـرَاهـا	نيـلَ نجيـعٍ[1] ونِيْـلَ نَـائِـلْ
ومـا نَفَيْـتَ السُّـودَانَ حتـى	حُكِّمَـتِ البِيـضُ فـي المقـاتِـلْ
صَيَّـرْتَ رَحْـبَ الفَضَـاءِ[2] ضِيْقـاً	عليهـمُ كِفَّـةً لحـابِـلِ[3]
وكـلُّ راءٍ[4] منهـمْ كَـرَاءٍ	وأَرْضُ مِضْـرٍ كـلامُ وَاصِـلْ[5]
وقـد خَلَـتْ منهـمُ المغـانـي	وأَقْفَـرَتْ مِنْهُـمُ المَنَـازِلْ
ومـا أُصيبـوا إلا بِطَـلٍّ	فكيـفَ لـو أُمْطِـرُوا بِـوَابِـلْ
والسُّـود بـالبِيْـضِ قـد أُبيحـوا	فهْـي نَـوَازٍ بهـم نَـوَازِلْ
مُـؤْتَمِـنُ القَـوْمِ خـانَ حتـى	غَـالَتْـهُ[6] مـن شَـرِّهِ غَـوَائِـلْ

١٧٩/١

(١) النجيع: الدم، «اللسان» (نجع).

(٢) في (م): الفناء.

(٣) الكفة: حبالة الصائد تجعل كالطوق تصاد بها الظباء. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٨٥.

(٤) في (م): امرىء، وهو تحريف.

(٥) كان واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، ألثغ في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء، ولا يفطن لذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه، انظر «البيان والتبيين»: ١/ ١٤ ـ ٢٢، و «الكامل» للمبرد: ٣/ ١١١٢ ـ ١١١٣ و «وفيات الأعيان»: ٦/ ٧ ـ ١١، وفيه توفي سنة (١٨١ هـ)، وهو تحريف، صوابه سنة (١٣١ هـ)، و «طبقات المعتزلة»: ٢٨ ـ ٣٥، قلت: في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذان البيتان اللذان أولهما: وما نفيت السودان، وكل راء منهم كراءٍ، فيهما زحاف، وذلك أنه استعمل مفعولن في وضع فاعلن، لأن هذا الوزن هو مسدس البسيط المخلع، ومنه:

أصبحت والشيب قد علاني

تقطيعه:

مستفعلن فاعلن فعولن

واستعمله العماد في هذين البيتين مخبوناً:

مستفعلن مفعولن فعولن

والله أعلم». قلت: وكذلك البيتان اللذان أولهما: وما أصيبوا، فقدِّس القدس، فيهما زحاف، فقد استعمل العماد «مفعولن» في وضع «فاعلن».

(٦) في (ل): عاليه، وهو تصحيف.

عـامَلَكُـمْ بـالخَنـا فـأَضْحـى وَرأسُـهُ فَـوْقَ رَأسِ عَـامِـلْ[1]

يـا مُخْجِـلَ البَحْـرِ بـالأيـادي قـدآن [أن][2] تَفْتَـحَ السَّـوَاحِـلْ

فقـدِّسِ القُـدْسَ مـن خِبَـاثِ أرجـاسِ كُفْـرٍ غُتْـمٍ[3] أراذِلْ

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئةً له بالملك وتعزية بعمه:

أيا يوسفَ الإحسان والحسن خيرَ مَنْ حَوَى الفَضْلَ والإفضالَ والنَّهْيَ والأمرا

وَمَـنْ للهُـدَى وَجْـهُ النَّجـاحِ بـرأيـهِ تجلَّـى وثَغْـرُ الثَّغْـرِ مِـنْ عَـزْمِـهِ افْتَـرَّا

حمـى حَـوْزَةَ الـدِّيـنِ الحنيـفِ بحَـوْزِهِ من الخالقِ الحُسْنى ومن خَلْقِه الشُّكْرا

أبـوه أبـى إلا العَـلاءَ وعَمُّـهُ بمعـروفِـهِ عَـمَّ الـوَرَى البَـدْوَ والحَضْـرَا

وطـالَ الملـوكَ شِيـركُـوه بِطَـوْلـهِ وما شاركُوه في العُلا فَحَوى الفَخْرا

بنـو الأَصْفَـرِ الإفـرنـجِ لاقَـوا بِبِيْضِـهِ وسُمْـرِ عَـوَاليـهِ منـايـاهُـمُ حَمْـرا

وما ابيضَّ يَوْمُ النَّصْرِ واخضرَّ رَوْضُهُ من الخِضْبِ حتى اسودَّ بالنَّقْعِ واغبرَّا

رأى النَّصْرَ في تَقْوى الإلٰه وكُلٌّ من تقـوَّى بتقـوى الله لا يَعْـدَمُ النَّصْـرا

ولمـا رأى الـدُّنيـا بعيـنِ مَـلالَـةٍ أغذَّ من الأولى مسيراً[4] إلى الأُخرى

وقـامَ صـلاحُ الـديـن بـالملـك كـافـلاً وكيف ترى شَمْسَ الضُّحى تَخْلُفُ البَدْرا

ولما صَبَتْ مِصْرٌ إلى عَصْرِ يوسفٍ أعـاد إليهـا اللّـهُ يُـوسُـفَ والعَصْـرا

فـأَجْـرَى بهـا مـن راحَتَيْـهِ بِجُـودِهِ بحـاراً فسمَّـاهـا الـوَرَى أنْمُـلاً عَشْـرا

---

(١) العامل: صدر الرمح، «اللسان» (عمل).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) غُتْم جمع، مفردها: الغتمة وهي عجمة في المنطق. «اللسان» (غتم).

(٤) في (م): المسير.

هـزمتـم جنـودَ المُشْـرِكيـن بِـرُعْبكـم ... فلـم يَلْبَثُـوا خَـوْفـاً ولـم يمكُثُـوا ذُعْـرا
وفـرَّقتُـمُ مـن حَـوْلِ مِصْـرَ جمـوعَهُـمْ ... بكسـرٍ وعـاد الكَسْـرُ مـن أهلِهـا جَبْـرا
وآمنتـمُ[1] فيهـا الـرَّعـايـا بِعَـدْلِكُـمْ ... وأطفـأتُـمُ مـن شَـرٍّ شـاورهـا الجمْـرا
بسفـك دمٍ حُطْتُــمْ دمـــاءً كثيـــرة ... وحُزْتُمْ بما أبدَيْتُمُ الحَمْدَ والأَجْرا[2]
ومـا يـرتـوي الإِسـلامُ حتـى تغـادروا ... لكـم مـن دمـاءِ الغـادريـنَ بهـا غُـدْرا
فصُبُّوا على الإِفرنج سَوْطَ عَذَابها ... بـأن تقسمـوا مـا بينهـا القَتْـلَ والأَسْـرَا
ولا تهملوا البيتَ المُقَدَّس واعزمـوا ... على فَتْحِهِ غازيـن وافترعوا البِكْرا
تـديمـون بـالمعـروف طيِّب ذِكْـرِكُـمْ ... وما المُلْكُ إلاّ أَنْ تديموا لكُمْ ذِكْرا
وإنَّ الـذي أثـرى مـن المـال مُقْتِـرٌ ... وإن يُفْنِـهِ فـي كَسْـبِ محمـدةٍ أثـرى

قال: وكَثُرَتْ كُتُبُ صلاحِ الدين إلى أصدقائه مبشِّرة بطيب أنبائه، فمنها كتاب ضمَّنَه هذا البيت:

مـا كنـتُ بـالمَنْظُـورِ أَقْنَعُ مِنْكُمُ ... ولقـد رَضِيْـتُ اليـومَ بالمَسْمُوعِ[3]

فقلتُ في جوابه[4] أبياتاً، منها:

يـا هَـلْ لسـالِفِ عيْشتي بفِنـائكـمْ ... مِــنْ عَــوْدَةٍ محمــودةٍ وَرُجُــوعِ
قـد غِبْتُـمُ عـن نـاظـري مـا آذَنَـتْ ... للقَلْــبِ شمْـــسٌ مَــرَّةً بِطُلُــوعِ
كنتُ المشَّفعَ في المطالب عندكـم ... فَغَـدَوْتُ أطلـبُ طَيْفَكُـمْ بشَفيـعِ
أصبحـتُ أقنـع بـالسَّلامِ على النَّوَى ... وبِقُــرْبِكُــمْ كَــمْ بِـتُّ غيـرَ قَنُـوعِ

---

(١) في (م): وآمنت.
(٢) في (ل): والشكرا.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٥.
(٤) في (ل): جوابها.

قال: ووصل أيضاً منه كتاب ضمنَهُ هذا البيت:

وأنثـر دُرَّ الـدَّمْـعِ مـن قَبْـلُ أبيضـا ... وقد حال مُذْ بِنْتُم فأصبحَ ياقوتا[1] ١/ ١٨٠

فنظمتُ في جوابه أبياتاً، منها:

هنيئاً لِمصْرٍ حَوْزَ يوسفَ مُلْكَهَا ... بأمرٍ من الرَّحمن قد كانَ مَوْقوتا
ومـا كـان فيهـا قتـلُ يـوسـفَ شـاوراً ... يمـاثِـلُ إلا قَتْـل داودَ جَـالـوتـا
وقلـتُ لقلبـي أَبْشِـرِ اليَـوْمَ بـالمُنَـى ... فقد نِلْتَ ما أَمَّلْتَ بل حُزْتَ ما شِيْتَا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضدُ بالقصر ابني شاور الكامل وأخاه ـ يعني الطَّاري[2] ـ يوم الاثنين الرَّابع من جُمادى الآخرة؛ وذلك أنه لما قُتل شاور عاذوا بالقصر، فكأنما نزلوا في القبر، فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سَلِموا، وامتنعوا وعُصموا[3]، فإنه ساءه قتل شاور، وإن كان أَمِنَ بقتله ما حاذر[4].

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له اخوان [أحدهما][5] طيّ تَقَدَّم ذِكْر قتل ضِرْغام له[6]، والآخر الطَّارِي. قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الرَّوحي[7] في «تاريخه»[8]: أُخذ ابنا شاور، شجاع

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٥.
(٢) انظر ص ١٢٨ ـ ١٢٩ من هذا الجزء.
(٣) وعصموا، ساقطة من (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٥.
(٥) ما بين حاصرتين من (م).
(٦) انظر ص ٤٠٧، ٤٠٩ من الجزء الأول، وص ٨٤ من هذا الجزء.
(٧) الروحي، ساقطة من (ل)، وقد تصحفت في طبعتي «الإعلان بالتوبيخ» إلى السروجي. انظر نشرة القدسي: ٩٥، ونشرة روزنتال ص ٥٤٦.
(٨) هو «بلغة الظرفاء في ذكرىٰ تواريخ الخلفاء»، طبع بمصر سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩ م.

الملقَّب بالكامل، والطَّاري الملقَّب بالمعظَّم، وأخوه الملقّب بفارس المسلمين، فقتلوا ودير برؤوسهم[1].

قال: ولما وَلي صلاح الدين ساس الرَّعية، وأظهر لهم من العَدْل ما لم يعلموه، فاجتمع أهلُ البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم، وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتَّت شملهم[2]. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[3].

قال[4]: ولما كانت سنة ست وستِّين رَفَعَ جميعَ المكُوس صادِرَها ووارِدَها، جليلَها وحقيرَها، وغزا بلاد الشام غزوتين[5].

قال ابنُ شداد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي ياروق الذي تُنْسَبُ إليه اليارُوقية[6]، يعني المحلَّة التي بظاهر حلب[7].

قال غيره: وفيها احترقَ جامع حلب وأسواق البَزِّ، وأخذ نور الدين في عمارته آخر السَّنة.

---

(١) انظر «بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء»: ٨٣ وفيه «طي» بدل «الطاري» وهو تحريف.

(٢) «بلغة الظرفاء»: ٨٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٢.

(٤) قال، ساقطة من (م).

(٥) «بلغة الظرفاء»: ٨٤.

(٦) «النوادر السلطانية»: ٣٩.

(٧) انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٤٢٥، و «وفيات الأعيان»: ٦/ ١١٧، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

ثم دخلت سنة خمسٍ وستين وخمس مئة[(١)]

ففي أول صفر منها نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على دِمْياط من الدِّيار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج السَّاحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصِقِلِّية يستمدُّونهم ويُعَرِّفونهم ما تجدَّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدَّس من المسلمين، وأرسلوا جماعةً من القُسوس والرُّهبان يحرِّضون النَّاس على الحركة، فأمدُّوهم بالمال والرِّجال والسِّلاح، واتَّعدوا على النزول على دِمْياط، ظنًّا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر. فلما نازلوها حصروها، وضيَّقوا على مَنْ بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النِّيل، وحشر فيها كُلَّ من عنده، وأمدَّهم بالمال والسِّلاح والذَّخائر، وتابع رُسُلَه إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلَّف عن دِمْياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلَّفيه ومخلَّفي عسكره بالسُّوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه. فجهَّز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهَّزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً. ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الإفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن[(٢)] تبلغه لخلُوِّ البلاد من[(٣)] ممانع.

---

(١) وخمس مئة، ساقطة من (ل).
(٢) في الأصل و (ل): يكن، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل و (ل): عن، والمثبت من (م).

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول[1] نور الدين بلادها[2]، ونهبها وإخرابها، رجعوا خائبين ولم يظفروا بشيء؛ وهذا موضع المثل: ذهبت النَّعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[3]! فوصلوا إلى بلادهم فرأوها[4] خاويةً على عُروشها.

وكان مُدَّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى، حُكِي لي عنه أنه قال: ما رأيتُ أكرم من العاضد؛ أرسل إليَّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مِصْرية سوى الثِّياب وغيرها[5].

قال القاضي ابن شَدَّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تَمَّ للسُّلْطان من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم، ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القُوَّة والملك. فاجتمع الفرنج والرُّوم جميعاً، وحدَّثوا نفوسهم بقصد الديار المِصْرية، والاستيلاء عليها ومُلْكِها، ورأَوْا قصد دِمْياط لتمكُّن القاصد لها من البرّ والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مَغْرِسُ قدم يأوون إليه. فاسْتَصْحَبُوا المنجنيقات* والدبابات* والجروخ* وآلات الحصار، وغير ذلك، ولما سمع الفرنج [بالشَّام][6] ذلك اشتدَّ أمرهم، فسرقوا حصن

(١) في (م): ودخلوا، وهو تصحيف.

(٢) في (م): بلادهم.

(٣) وهو مثل يضرب في سوء التدبير، انظر «الحيوان» للجاحظ: ٤/٣٢٣، ٣٩٨، وقد ورد فيه «إن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها»، وانظر «معجم الأمثال» للميداني: ٢/٥٧، و «المستقصى»: ٢/٢١٨ ـ ٢١٩.

(٤) في (م): فوجدوها.

(٥) «الباهر»: ١٤٣ ـ ١٤٤، و «الكامل»: ١١/٣٥١ ـ ٣٥٢.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

عَكَّار[1] من المسلمين، وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين يُسمى خُطْلُخ[2] العلمدار*، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بَعْلَبَكَّ وتدمر.

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج، وبلغه[3] نزولهم على دمياط قَصَدَ شغل قلوبهم، فنزل على الكَرَك* محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج السَّاحل، فرحل عنها، وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له.

١٨١/١ ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الدَّاية [بحلب][4] في رمضان، فاشتغل قلبه [لأنه][5] كان صاحبَ أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خَرَّبت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السَّنة المذكورة وهو بعَشْتَرا*. فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالمَوْصِل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحِجَّة، وبلغه الخبر وهو بتل باشِر*، فسار من ليلته طالباً بلاد المَوْصِل.

ولما علم صلاح الدين شِدَّة قصد العدوِّ دِمْياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرِّجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السِّلاح[6] ما أَمِنَ معه عليه، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات، وإزعاج العدوِّ عنهم إن نزل

---

(١) في مطبوع «النوادر السلطانية»: ٤٢، عكا، وهو تحريف.

(٢) سلف ذكره ص ٣٧٨ من الجزء الأول.

(٣) وبلغه، ساقطة من (ل).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) ما بين حاصرتين ساقطة في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) في (ل): والآلات والسلاح.

عليهم، وبالغ في العطايا والهبات. وكان وزيراً متحكِّماً لا يُرَدُّ أمره في شيء. ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتدَّ زحفهم عليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله تعالى يشنُّ الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونَصْرُ الله للمسلمين يؤيِّدهم[1]، وحُسْنُ قَصْده في نُصْرة دين الله يسعدهم وينجدهم، حتى بان لهم الخُسْران، وظهر على الكُفْر الإيمانُ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويَسْلَمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فَحُرِقَتْ مجانيقهم، ونهبت آلاتُهم، وقُتِلَ منهم خَلْقٌ عظيم، وسَلِمَ البلد بحمد الله ومَنِّه[2].

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، يُنهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العُدَد بعد العَدَد، ويسهر ليله، ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سِرَّه وجهاره، ولا ينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المُقْعِد المقيم. وسبق تقي الدين ابن أخي السُّلْطان إلى دِمْياط فدخلها، وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها. واتصلَ الحصار، وتواصل الأنصار، ودَبَّ في الفرنج الفَناء، وهَبَّ عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول، بالذل الأكمل، والصَّغَار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم، واجتماعهم على دِمْياط ونزولهم، اغتمَّ واهتمَّ، واستَصْعَبَ المُلِمَّ، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً مقدَّمه الأمير قطب الدين خُسْرو الهَذَباني[3]، وكان مقداماً مقدَّماً، وهُماماً مُعْلماً، وأمره أن يسير بالعسكر، ويخوض بهم بحر العَجَاج الأكدر،

(١) في مطبوع «النوادر السلطانية»: يؤذيهم، وهو تصحيف شنيع.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤١ ــ ٤٣.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٦٩ من هذا الجزء.

فوصل في النصف من ربيع الأوَّل قبل رحيل الفرنج بأسبوع، فوقع [رَوْعُه][1] من الكفر في كُلِّ رُوع[2].

قُلت[3]: وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نَزَلَ الفرنج على دِمْياط أنه قرىء عليه[4] جُزْء من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتبَسَّم لتتم السلسلة، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج.

وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبيَّ ﷺ وقال له: أَعْلِمْ نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدِّقني، فاذكر لي علامةً يعرفها. فقال: قل له بعلامةِ ما سجدت على تَلِّ حارِم* وقلتَ: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَنْ هو محمود الكلب حتى يُنْصر[5]! قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان [من][6] عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يصلِّي الصبح، قال: فتعرَّضْتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها،

(١) روعه، ساقطة من الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٦ ـ ٨٧.
(٣) في الأصل: قال، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (م): قرىء بين يديه.
(٥) في (ل): تنصر.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرِّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصــــل

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر[1] يهنيه برحيل الفرنج عن[2] ثغر دِمْياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم[3]، والاقتصار على صلاح الدين[4] وألزامه وخواصِّه، فكتب إليه نور الدين يمدَحُ الأتراك، ويُعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات* الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الدِّيار المصرية، ولحصلوا[5] منها على الأُمْنِيَّة، فلعل الله تعالى أن ييسِّرَ فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نِعَمِهِ التي لا تُحصى.

قلت: ولعُمارة اليمني من قصيدة:

مَـنْ شـاكـرٌ والله أَعْظَـمُ شـاكـر	مـا كـانَ مـنْ نُعمـى بني أيـوبِ
طَلَـبَ الهُـدَىٰ نَصْـراً فقـال وقـد أَتَـوْا	حَسْبـي فـأنتـم غـايـةُ المَطْلُـوبِ
جلبوا إلى دِمْيَاطَ عند حصارها[6]	عِـزَّ القـويِّ وذِلَّـةَ المَغْلُـوبِ
وجَلَـوْا عـن الإِسـلام فيهـا كُـرْبَـةً	لـو لـم يجلُـوهـا أَتَـتْ بكُـرُوبِ

---

(١) صاحب القصر، ساقطة من (ل).
(٢) في (م): على، وهو تحريف.
(٣) خوفاً منهم، ساقطة من (ل).
(٤) في (ل): أسد الدين، وهو تحريف.
(٥) في الأصل: وحصلوا، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في الأصل: حصارهم، والمثبت من (ل) و (م).

فالنَّاسُ في أعمالِ مصرٍ كلها عتقاؤهم من نازحٍ وقريبِ
إنْ لم تظنَّ النَّاسَ قِشْراً فارغاً وهم اللُّبابُ فأنتَ غَيْرُ لبيبِ ١/ ١٨٢

وللشِّهاب فِتْيان الشَّاغوري[1] من قصيدةٍ:

ولا غَرْوَ أَنْ عادَ الفرنجُ هزيمةً ولو لم تَعُدْ لم يَبْقَ للشِّرْكِ ساحِلُ
فقد أيقنتْ أعداؤه أَنَّ حَظَّهُمْ لديه رِماحٌ أُشْرِعَتْ أو سَلاسِلُ
ولما أَتَوْا دِمْياطَ كالبحرِ طامياً وليس له من كَثْرَةِ القَوْمِ ساحِلُ[2]
يزيدُ عن الإحصاء والعَدِّ جَمْعُهُمْ أُلوفُ أُلوفٍ خَيْلُهُمْ والرَّواحِلُ
رَأَوْا دونها أُسْداً بأيديهمُ القنا وبِيْضاً رِقاقاً أَحْكَمَتْها الصَّياقِلُ
وداروا بها في البحر من كلِّ جانبٍ ومن دونها سَدٌّ من الموتِ حائلُ
رجا الكلبُ مَلْكُ الرُّوم إذ ذاك فَتْحَها فخاب[3] فأُمُّ المَلْكِ والرُّومِ هابِلُ[4]

---

(١) هو شهاب الدين فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الشاغوري، ولد في بانياس الساحل نحو سنة (٥٣٠ هـ)، وعاش طفولته وشبابه في حي الشاغور جنوبي دمشق، فنسب إليه، وقضى فترة طويلة من حياته معلماً للصبيان في الزبداني، تعلق بخدمة الأمير بدر الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق ــ وهو أخو عز الدين فَرُّوخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين لأمه ــ وكان يعلم أولاده الخط، ثم كانت له في آخر حياته حلقة في الجامع الأموي يقرىء فيها النحو.

توفي سنة (٦١٥ هـ)، وفي «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٢٧٤ ذكر وفاته سنة ٦٢٧ هـ، والتاريخ الأول هو الأصح.

طبع «ديوانه» ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٧٦ م، بتحقيق الأستاذ أحمد الجندي، انظر ترجمته ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٧ ــ ٢٥٩، و «معجم البلدان»: ٣/ ٣١٠، و «التكملة» للمنذري: ٢/ ٤٢١، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤ ــ ٢٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٤٣ ــ ١٤٤.

(٢) ثمة اضطراب في هذا البيت في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل، و(ل): فخاف، والمثبت من (م)، وهي رواية الديوان.

(٤) هابل: أي ثاكل، منه: هبلته أمه: ثكلته، «اللسان» (هبل).

فعادوا على الأعقابِ منها هزيمةً ... كَأَنَّهُمُ ذُلاً نَعامٌ جَوافِلُ
وما أمّلوا أنْ يلحقوا ببلادِهم ... لِتَعْصِمَهُمْ مما رَأَوه المَعَاقِلُ[1]

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعملَ له أبياتاً في صلاح الدين تهنئةً بالنَّصْرِ في دِمْياط، فعملتُ قصيدةً، منها:

يا يوسف الحُسْن والإحسانِ يا ملكاً ... بجدِّه صاعداً أعداؤه هَبَطُوا
حَلَلْتَ من وَسَطِ العَلْياءِ في شَرَفٍ ... ومَرْكَزُ الشَّمْسِ من[2] أفلاكها الوَسَطُ
هنِّيتَ صونَك دِمْياطَ التي اجْتَمَعَتْ ... لها الفرنجُ فما حَلُّوا ولا رَبَطُوا
مِصْرٌ بيوسُفِها أَضْحَتْ مُشَرَّفةً ... وكلُّ أمرٍ لها بالعَدْلِ مُنْضَبِطُ
وحينَ وافى صلاحُ الدينِ أَصْلَحَهَا ... فللمَصَالِحِ مِنْ أيامه نَمَطُ

قال: ومما سَيَّرْتُهُ إلى صلاح الدين قصيدة، منها:

كأنَّ قلبي وحُبَّ مالكه ... مِصْرٌ وفيها المليكُ يُوسُفُها
هذا بسَلْبِ الفُؤاد يظلمني ... وَهْوَ[3] بقتلِ الأعداءِ يُنْصِفُها
المَلِكُ النَّاصر الذي أبداً ... بِعِزِّ سُلْطانه يشرِّفُها
قامَ بأحوالِها يُدَبِّرُها ... حُسْناً وأثقالَها يخفِّفُها
بعَدْلِه والصَّلاحِ يَعْمُرُها ... وبالنَّدى والجميلِ يَكْنُفُها
مِنْ دَنَسِ الغادِرينَ يَرْحَضُها[4] ... ومن خِباثِ العِدَى ينظِّفُها
وإنَّ مِصْراً بمُلْكِ يوسُفِها ... جَنَّةُ خُلْدٍ يَرُوقُ زُخْرُفُها

---

(١) القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٣١٥ ــ ٣٢١.
(٢) في (م): في.
(٣) في (م): وهل، وهو تحريف.
(٤) يرحضها: يغسلها، «اللسان» (رحض).

وإنَّـهُ فـي السَّمـاحِ حـاتِمُهـا … وإنَّـهُ فـي الـوَقـارِ أحْنَفُهـا
يوسُفُ مِصْرَ الذي[1] ملاحِمُها … جـاءَتْ بـأوْصـافِـهِ تُعَـرِّفُهـا
كُتْبُ التَّـوارِيـخِ لا يـزيِّنُهـا … إلاَّ بـأيـامِـهِ[2] مُصَنِّفُهـا

[ومنها][3]:

وحُطْتَ دِمْيـاطَ إذ أحـاطَ بهـا … مَـنْ بِـرجُـومِ البَـلاءِ يَقْـذِفُهـا
لاقَـتْ غـواةُ الفـرنـجِ خَيْبَتَهـا … فـزادَ مِـن حَسْـرَةٍ تَـأَسُّفُهـا
أَوْرَدْتَ قُلْبَ[4] القلوبِ أرشيةً[5] … مِـنَ القَنَـا للـدِّمـاءِ تَنْـزِفُهـا
وَلَّيْتَهَـا سَفْكَهـا فعـامِلُهـا[6] … عـامِلُهـا والسِّنـانُ مُشْـرِفُهـا
يُمضـي لـكَ[7] اللَّـهُ في قتـالِهِـمُ … عـزيمـةً للجهـادِ تُـرْهِفُهـا[8]

وله فيه من أُخرى:

قَـدِ اسْتَقَـرَّتْ أُمـوري … فيـهِ بحسْـبِ اقْتِـرَاحـي
كمـا اسْتَقَـرَّ صـلاحُ الـدُّ (م) … نيـا بملـكِ الصَّـلاحِ
تُنيـرُ شَمْـسُ أيـاديـ … ـهِ[9] فـي سمـاءِ السَّمَـاحِ[10]

(١) في «الخريدة»: التي.
(٢) في «الخريدة»: بأوصافه.
(٣) ما بين حاصرتين من (ل).
(٤) القلب: جمع قليب، وهو البئر، «معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٢٨.
(٥) الأرشية جمع، مفردها: رشاء: الحبل، «اللسان» (رشا).
(٦) عامل الرمح: صدره، «اللسان» (عمل).
(٧) في الأصل: إلى، والمثبت من (ل) و (م).
(٨) في الأصل و (م): ترهقها، والمثبت من (ل)، والقصيدة طويلة أورد جملة صالحة منها العماد في «الخريدة» قسم شعراء مصر ١/ ٩ ـ ١٣.
(٩) في «الخريدة»: مساعيه.
(١٠) في «الخريدة»: الصباح.

وأَمْـــــرُه[1] مستفـــــادٌ   مِـــنَ القضـــاءِ المُتَـــاحِ[2]

وأرسله نور الدين إلى خِلاَط*، ومتولِّيها حينئذٍ ظهير الدين سُكْماز

/١٨٣ المعروف بشاه أرمن. قال: فلما كنتُ بِمارِدين* كتبتُ إلى بعض المعارف:

قـــد نَـــزَلْنـــا فـــي جِـــوَارِكْ   وَطَلَبْنَـــــا قُـــــرْبَ دَارِكْ

وسَـــرَيْنـــا فـــي الـــدَّيـــاجـــي   فهـــدانـــا ضَـــوْءُ نـــارِكْ[3]

فَتَـــدَارَكْ أَمْـــرَنـــا اليَـــوْ   مَ بطَـــــوْلٍ مُتَـــــدَارِكْ

وَتَفَـــرَّدْ بـــاغتنـــام الشُّـــ (م) ـكْـــرِ مـــن غيـــر مشـــارك[4]

قال العماد: وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى داريَّا* فأعاد[5] عمارة جامعها، وعمَّر مشهد أبي سليمان الدَّاراني، وشتَّى بدمشق[6].

فصـــل

في مسير نجم الدين أيوب
إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عُمارة في قصيدةٍ مدح بها السُّلْطان صلاح الدين[7]، تقدَّم بعضُها[8]، يقول فيها:

---

(١) في الأصل: وأمر، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر مقاطع من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٢ ــ ٢٥.
(٣) هذا البيت، ساقط من (ل).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٨.
(٥) في الأصل: وأعاد، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٨ ــ ٨٩.
(٧) صلاح الدين، ساقطة من (م).
(٨) انظر ص ١٤٤ من هذا الجزء.

صَحَّتْ به مِصْرٌ وكانَتْ قَبْلَه تَشْكُو سَقَاماً لم يُعَنْ بطبيبِ
عَجَباً لمعجزةٍ أَتَتْ في عَصْرِه والدَّهْرُ ولاَّدٌ لكلِّ عجيبِ
رَدَّ الإلٰهُ بِهِ قَضِيَّةَ يُوسُفٍ نَسْقاً على ضَرْبٍ من التَّقْرِيبِ
جاءته إخوتُه ووالده إلى مِصْرٍ على التَّدْريج والتَّرتيبِ
فَاسْعَدْ بأكرمِ قادمٍ وبدولةٍ قد ساعَدَتْكَ رياحُها بهبوبِ

قال العماد: لما دخل فصل النَّيروز استأذن الأمير نجم الدين أيوب نورَ الدين في قَصْد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسَبَده ولَبَده[١]، وخيَّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جَدده[٢]. وسار في حفظ الله تعالى، فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حقٍّ قدومه ما وجب، وركب لاستقباله، وزاد إقبال البلاد بإقباله.

ولما عزم على التوجُّه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه، وتوفير مالَهُ فيه شركة على أشراكه، وما استصحب معه شيئاً من موجوده، وجعله نُهْبة لجوده[٣].

قلت: ووقف رباطاً[٤] داخل الدَّرْب الذي بقرب العوينة بباب البريد*.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه،

---

(١) السبد: الوبر، وقيل: الشعر، واللبد: الصوف، ويكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى به عن المعز والضأن، وقيل: يكنى به عن الإبل والمعز، فالوبر للإبل، والشعر للمعز، ويقال: ماله سبد ولا لبد أي ماله قليل ولا كثير، انظر «اللسان» (سبد).

(٢) الجدد: الطريق إذا كان مستوياً لا حدب فيه ولا وعوثة. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٤٨٥.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٩.

(٤) هو الرباط النجمي، وسيرد ذكره ص ٢٥٠ من هذا الجزء.

وسحب للعُلا على رَوْض الرضا سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء* بعسكره وخيامه، وأرهف للجِدِّ في الجهاد حَدَّ اعتزامه. ثم أقام بعد توديعه، والوفاء بحق تشييعه، إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جُنْده وحاضره، وعَبَّ بحرُه، وماجَ زاخره.

ثم توجهنا إلى بلاد الكَرَك* مستهل شعبان، ونزلنا أياماً بالبَلْقاء* على عَمّان، وأقمنا على الكَرَك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين. فورد[1] الخبر أن الفرنج قد تجمَّعوا[2] ووصلوا إلى ماعِين*. فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنَّتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم، أدركنا المُرَاد، وملكنا البلاد. فرحلنا إليهم فولوا مُدْبِرين حين سمعوا برجوعنا، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل، وهو مقصودنا. وعاد نور الدين إلى حوران، فخَيَّم بِعَشْترا*، وصام رمضان[3].

وقال ابن الأثير: كان سبب حَصْر نور الدين الكَرَك أن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سار عن دمشق إلى مصر، فَسَيَّر معه نور الدين عسكراً، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودَّة ما لا يُعد؛ فخاف نور الدين[4] عليهم، فسار إلى الكَرَك فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين[4] أيوب ومن معه سالمين، ونَصَبَ نور الدين على الكَرَك المجانيق، فأتاه الخبر أنَّ الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهَنْفَرِي[5]

---

(١) في (م): فوصل.

(٢) في (م): اجتمعوا.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٩ ــ ٩١.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) هو Orfrai (humphrey) de Toron III صاحب بانياس والكرك، سلف ذكره ص ٢٢ من هذا الجزء.

وفليب بن الرفيق[(١)] ـ وهما فارسا الفرنج في وقتهما ـ في المقدِّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق[(٢)] بهما باقي الفرنج، وكانا في مئتي فارس وألف تُرْكُبلي[(٣)] ومعهم من الرَّاجل خَلْقٌ كثير. فلما قاربهما رجعا القهقَرى إلى من وراءهم من الإفرنج، وقصد نور الدين وسط بلادِهم، ونهب ما كان على[(٤)] طريقه، ونزل بعَشْتَرا*، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا[(٥)] من مكانهم خوفاً منه[(٦)].

وقال ابن شداد: أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور، ويجمع القصة مشاكلةً ما جرى للنبي يوسف [الصديق][(٧)] عليه السَّلام[(٨)]. فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كُلّه فأبى أن يَلْبَسَه، وقال: يا ولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت

---

(١) هو Philippe de Milly ، وقد سلف ذكره ص ٢٢، ٨٦ من هذا الجزء. والرفيق: تعريب كلمة Comes فإن معناها الأصلي في اللاتينية «الرفيق» لأن الملقب به كان يرافق الملك، ثم أصبح معناها الأمير.

(٢) في (م): يلتجوا.

(٣) تركبلي تعريب Turcopole جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان، وكانوا رماة الفرنج، ورد ذكرهم كثيراً في تواريخ هذا العصر، وذكرهم ابن العديم باسم «كافر ترك» انظر «زبدة الحلب»: ٢/ ٢٦٤، و «النوادر السلطانية»: ٢٢٤، و «سنا البرق الشامي»: ٩٠، ١٧، ١٧٤، و «مفرج الكروب»: ٢/ ١٤٩ حاشية رقم (١).

(٤) في (ل): في.

(٥) في (م): بيرجعوا، كذا، وهو تحريف.

(٦) «الباهر»: ١٤٤.

(٧) استدركت العبارة في الأصل بخط مغاير، وفيها: النبي عليه السلام، وما بين حاصرتين مثبت من (ل) و (م).

(٨) في (م): ﷺ.

كفء له، فلا ينبغي أن يُغَيِّر موقع السَّعادة. فحكَّمه في الخزائن كلها[1].
وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولا يرد. ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله، وبه خُتم أمر المصريين[2].

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمَّله رسالة، منها: «وهذا أمر يجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة، قبل ١/١٨٤ هجوم الموت، وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت متطلِّعٌ إلى ذلك بكلِّيته، وهو عنده من أهم أمنيَّته».

وسار نجم الدين، وأصحبه نور الدين هديَّة سَنيَّة للملك النَّاصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح* عند شجرة الإِهْلِيلج[3]، ولم تجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه ولقَّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتُّحَف والهدايا، وأظهر السلطان من بِرِّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشُّكر والأجر،

---

(١) في (ل) و (م): بأسرها.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤٤.
(٣) الإهليلج: جنس أشجار حراجية وزراعية، من فصيلة الإهليجيات، منبتها الهند وجاوا والأنتيل وسرنديب والسنغال، يستخرج من لحائها صمغ يستعمل في الطلاء الصيني، وهو من أجود أنواعه، ولباب ثمار بعضها يدخل في عدة علاجات طبية، وهو على أنواع عدة، انظر «الموسوعة في علوم الطبيعة»: ١/ ١١١.
وصحراء الإهليلج المقصودة هنا، هي شرقي الخندق، إليها كانت تنتهي عمارة حارة الحسينية، من جهة باب الفتوح، وكان بها شجر الإهليلج الهندي، فعرفت به، انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٣٣، ٢٢١.

وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودِمْياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قُوص* وأُسوان وعَيْذَاب*، وكانت عبرتها[1] في هذه السنة مئتي ألف وستة وستين ألف دينار.

وسار شمس الدولة إلى قُوص*، وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيَّر رسلان بن دُغمش[2] لجباية خَرَاجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هُميم[3]، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة.

وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السُّلْطان ولده الملك الأفضل نور الدين علياً[4]، وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى، وتصدَّق بما بَهَرَ به العقول.

ومن قصيدةٍ للحكيم عبد المنعم تقدَّم بعضها[5]:

في مَشْرِقِ المَجْدِ نجمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ	وكلٌّ أبنائِهِ شُهْبٌ فلا أَفَلُوا
جاؤوا كيعقوب والأسباط إذ وَرَدُوا	على العزيزِ من أرض الشَّام واشتملوا
لكنَّ يوسف هذا جاء إخوتُه	ولم يكن بينهم نَزْغٌ ولا زَلَلُ
ومُلِّكوا مُلْكَ مِصْرَ في شماخَتِهِ	ومِثْلُها لرجالِ مِثْلِهِمْ نُزُلُ

---

(١) أي خراجها، انظر «قوانين الدواوين» لابن مماتي: ٢٢١، ٤٥٧.

(٢) الضبط من (ل).

(٣) في (م): برج، وهو تحريف، ومرج بني هميم بالصعيد من مصر، شرقي النيل، «معجم البلدان»: ٥/ ١٠١.

(٤) في النسخ الخطية: علي. وانظر ص ٤٧٥ من هذا الجزء.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من هذا الجزء.

فصـــل
في ذكر[1] الزَّلْزلة الكبرى

قال ابن الأثير: وفي ثاني عشر شوَّال كانت زلزلة عظيمة لم يَرَ النَّاسُ مثلَها، عمَّت أكثر البلاد من الشَّام ومصر والجزيرة والمَوْصِل والعراق وغيرها، إلا أن أشدَّها وأعظمها كان بالشَّام. فخَرِبَتْ بعلبك وَحِمْص، وحماة، وشَيْزَر*، وبعرين*، وغيرها، وتهدَّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُّور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العَدِّ والإِحصاء. فلما أتى نورَ الدين خبرُها سار إلى بَعْلَبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد[2] بخراب أسوارها، وخلوِّها من أهلها. فرتَّب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد[2] من الفرنج لا سيما قلعة[3] بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبقَ من سورها شيء البتَّة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أميرٍ كبير، ووكل بالعمارة من يحثُّ عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السَّالمة من الخراب خوفاً من الزَّلزلة، فإنها عاودتهم غيرَ مرَّة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفَعَلَة والبنَّائين، ولم يزل

---

(١) ذكر، ساقطة من (م).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) قلعة، ساقطة من (ل).

كذلك حتى أحكم أسوارها، وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يقدَّر قَدْرُه.

وأما بلاد الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نورَ الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر[1].

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبارين[2] كحصن الأكراد* وصافيثا* والعُرَيمة* وعِرقا*، في بحر الزَّلازل غَرْقى، لا سيما حصن الأكراد، فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليهم[3] فيه دُحُور وثُبُور. فشغلهم سوؤهم عن سواه، وكلٌّ اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام، بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النُّفوس من رُعبها، وسَلَتِ القلوب عن كَرْبها، إلا بما دَهَم الكُفَّار من أمرها، وعراهم من ضُرِّها، فلقد خصَّتهم بالأمَضِّ الأشقِّ، وأخذتهم الرَّجفة بالحقِّ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأصبحوا للرَّدَى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وأَتَاهُمُ العَذَابُ من حيث لا يَشْعُرُون﴾[4].

ثم ذكر العماد قصيدةً في مدح نور الدين، ووَصْفِ الزلزلة، مطلعها:

هل لعاني الهوى من الأَسر فادي ولساري لَيْلِ الصَّبابة هادي[5]

---

(١) «الباهر»: ١٤٥.

(٢) في (ل) و (م): بعرين، وهي نفسها، انظر كشاف الأماكن.

(٣) في الأصل: لهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) سورة النحل، الآية ٢٦، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٥) هادي، ساقطة من (م). وفي «الخريدة»: أو لساري.

جنِّبـونـي خَطْـبَ البِعـادِ فَسَهْـل[(١)] ... كـلُّ خَطْـبٍ سـوى النَّـوَى والبِعَـادِ

كنـتُ فـي غَفْلَـةٍ مـن البَيْـنِ حتـى ... صـاحَ يـومَ الأثيـلِ بـالبَيْـنِ حـادي

قد حَلَلْتُمْ من مُهْجَتي في السُّوَيْدا ... ءِ ومِـنْ مُقْلَتِـي[(٢)] مَحـلَّ[(٣)] السَّـوَادِ

وَبَخِلْتُـمْ مِـنَ الـوصـالِ بـإسعـا ... فِـي أمـا كنتُـمُ مـن الأَجْـوَادِ

وبعثتُـمْ نسيمَكُـمْ يتـلافـا ... نـي فعـادَ النَّسيـم مـن عُـوَّادي

سُمْتُمـونـي تجلُّـداً واشتيـاقـاً ... ومُحَـالٌ تجمُّـعُ الأَضْـدَادِ

أبقـاءً بعـد الأَحِبَّـةِ يـا قَلْـ ... ـبـيَ مـا هـذه شُـروطُ الـوِدَادِ

ذابَ قلبـي وسـالَ فـي الـدَّمْـعِ لمَّـا ... دامَ مِـنْ نـارِ وَجْـدِه فـي اتِّقـادِ

مـا الـدُّمـوعُ التـي تحـدِّرُهـا الأشـ ... ـواقُ إلا فتـائـتُ الأَكْبـادِ

حَبَّـذا سـاكنـو فـؤادي وَعَهْـدي ... بِهِـمُ يَسْكُنُـونَ سَفْـحَ الـوادِي

أتمنَّـى بـالشَّـام أهلـي ببغـدا ... دَ وأيـن الشَّـآمِ مِـنْ بَغْـدادِ

ما اعتياضي عن حُبِّهِم[(٤)] يَعْلَمُ اللَّـ ... ـهُ تعـالـى إلاَّ بحـبِّ الجِهـادِ

واشتغـالـي بخِـدْمَـةِ المَلِـكِ العَـا ... دِل محمـودٍ الكَـريـم الجَـوَادِ

أنـا منـه علـى سَـريـرِ سُـرُورِي ... راتـع[(٥)] العَيْـشِ فـي مَـرَادِ[(٦)] مُـرَادي

قَيَّـدَتْنـي بـالشَّـامِ منـه الأيـادي ... والأيـادي للحُـرِّ كـالأقيـادِ

قـد وَرَدْتُ البَحْـرَ الخِضَـمَّ وخَلَّفْـ ... ـتُ ملـوكَ الـدُّنيـا بـه كـالثِّمَـادِ[(٧)]

هُـوَ نِعْـمَ المـلاذُ مـن نـائِـبِ الـدَّهْـ ... ـرِ ونِعْـمَ المَعَـاذُ عنـد المَعَـادِ

١/ ١٨٥

---

(١) في الأصل: فهل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (ل): قلبي.

(٣) في (م): مجد، وهو تحريف.

(٤) في الأصل: بحبهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في (م): رافع، وهو تصحيف.

(٦) المراد: الموضع الذي ترعى فيه الإبل: انظر «اللسان» (رود).

(٧) الثماد: الماء القليل، «القاموس المحيط» (ثمد).

جَلَّ رُزْءُ الفِرَنْجِ فاسْتَبْدلُوا منـ ـه بِلُبْسِ الحديدِ لُبْسَ الحِدَادِ
فَرَّقَ الرُّعْبُ منه في أَنْفُسِ الكُفَّـ (م) ـارِ بينَ الأَرْوَاحِ والأَجْسَادِ
سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِها الأَرْ ضَ وهَدَّتْ قَوَاعِدَ الأَطْوَادِ
أَخَذَتْهُمْ بالحقِّ رَجْفَةُ بأسٍ تَرَكَتْهُمْ صَرْعَى صُرُوفِ العَوادي[1]
خَفَضَتْ من قِلاعِها كُلَّ عالٍ وأعادَتْ تِلاعَها كالوِهَادِ
أَنفَذَ اللَّهُ حُكْمَهُ فهْو ماضٍ مُظْهِراً سِرَّ غَيْبِهِ فهْو بادي
آيةٌ آثَرَتْ ذوِي الشِّرْكِ بالهُلْـ ـكِ وأهلَ التَّوحيدِ بالإِرشادِ
والأعادي جَرَى عليهمْ من التَّدْ ميرِ ما قَدْ جَرَى على قَوْمِ عادِ
أَشْرَكَتْ في الهلاك بينَ الفَرِيقيـ ـنِ دعاةِ الإشراكِ[2] والإلحادِ
ولقد حاربوا القَضَاءَ فأمضَى حُكْمَهُ فيهمُ بغيرِ جِلادِ
والإلٰه الرَّؤوفُ في الشَّامِ عنا دافعٌ لُطْفُهُ بلاءَ البلادِ

قال[3] العماد: ومنها معنى مبتكر ابتدعتهُ في الزَّلزلة، وهو:

وبحقٍّ أُصِيبَتِ الأَرْضُ لَمَّا سَكَنَتْ[4] من مَقَام أهلِ الفَسَادِ
عَلِمَتْ أنها جَنَتْ فعَرَاها حَذَراً من سُطاك شِبْهُ ارْتِعادِ [3]

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النُّورية كنت مقرِّظاً للفضائل الشَّهْرُزُورِيَّة، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد[5] ابن قاضي قضاة الشَّام كمال الدين أبي الفضل محمد بن

(١) في الأصل و(ل): الغوادي، والمثبت من (م).
(٢) في (م): المشراك، وهو تصحيف.
(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م)، وأورد العماد قطعة من قصيدته هذه مع اختلاف في بعض الألفاظ في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٤٦ ــ ٥٠.
(٤) في «الخريدة»: مكَّنَتْ.
(٥) سترد ترجمته في ٤/٢٣٨ ــ ٢٣٩.

عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُورِي. وكان كمال الدين قد عُذق[1] به تنفيذ الأحكام، وإليه أمور الديوان، وهو ذو المكانة والإمكان، في بسط العدل والإحسان، ومحيي الدين ولده ينوبُ عنه في القضاء بحلب وبُلْدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، [و][2] بحماة وحمص من بني الشَّهْرُزُوري قاضيان، وهما حاكمان متحكِّمان. وكان هذا محيي الدين من أهل الفَضْل، وله نَظْمٌ ونثر، وخُطَب وشِعْر. وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النِّظامية*، منذ سنة خمسٍ وثلاثين[3]، والمدرِّس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزَّاز[4]؛ وكان مَذهبُ الشَّافعي رضي الله عنه بعلمه مُعْلماً مُذْهَبَ الطراز. وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وجلبت[5] أفكاره، فكتبتُ إليه قصيدةً، مطلعها:

لو كان من شكوى الصَّبابة مُشْكيا لعدا[6] على عَدْوى الصَّبابة مُعْدِيا[7]

---

(١) أي اختص به. انظر «معجم متن اللغة» ٤/ ٥٦.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ذكر العماد في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٠ أنه اجتمع به في بغداد في المدرسة النظامية سنة ست وثلاثين وخمس مئة.

(٤) في الأصل: الرزاذ، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م)، وهو سعيد بن محمد بن عمر، شيخ الشافعية في عصره، تفقه بالغزالي وإلكيا الهَرَّاسي، وروى عنه السمعاني، ولد سنة (٤٦٢ هـ) وتوفي سنة (٥٣٩ هـ)، والرزاز: نسبة إلى من يبيع الأرز، انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٠/ ١١٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٦٩، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٩٣.

(٥) في الأصل، و (ل): حلبت، والمثبت من (م).

(٦) في (م): لغدا، وهو تصحيف.

(٧) في (م): سعديا، وهو تصحيف.

ومنها:

مات الرَّجاءُ فإنْ أَرَدْتَ حياتَه ... وَنُشُورَه فارجُ الإمام المحييا

أقضى القُضاة محمدُ بن محمدٍ ... مَنْ لَسْتُ منه للفضائل مُحْصِيَا

قاضٍ به قَضَتِ المظالِمُ نَحْبَها ... وغدا على آثارِهِنَّ مُعَفِّيا[1]

يا كاشفاً للحقِّ في أيامه ... غُرَراً يدوم لها الزمان مُغَطِّيا

لم تُنْعَشِ الشَّهباءُ عند عِثَارِها ... لو لم تَجِذْكَ لِطَوْدِ حِلْمِك[2] مُرْسِيا

رَجَفَتْ لِسَطْوَتِك التي أَرْسَلْتَها ... نحو الطُّغاة لحدِّ عَزْمِك ممهيا[3]

وَتَظَلَّمَتْ من شَرِّهم فتَمَلْمَلَتْ ... عَجِّلْ إجارتها[4] عليها مُبْقيا

أَنِفَتْ من الثُّقلاءِ فيها إذ رَمَتْ ... أثقالَها ورأتك منها مُلْجيا

حَلَبٌ لها حَلَبُ المدامع مُسْبَلٌ ... أَنْ لاقَتِ الخَطْبَ الفظيع المُبْكِيا

وَبِعَدْلِ نورِ الدين عاوَدَ أُفْقُها ... مِنْ بَعْدِ غَيْمِ الغَمِّ جَوّاً مُصْحِيا

أضحى لبهجتها مُعِيداً بعدما ... ذَهَبَتْ وللمعروف فيها مُبْدِيا

لأمورها مُتَدَبِّراً لِشَتاتِها ... متألِّفاً لصَلاحِها متولِّيا

فالشَّرْعُ عادَ بِعَدْلِه مُسْتَظْهِراً ... والحقُّ عادَ بِظِلِّه مُسْتَذْرِيا[5]

والدَّهْرُ لاذ بعفوه[6] مستغفراً ... مما جَنَاهُ مُطْرِقاً[7] مُسْتَحْيِيا

١/١٨٦

---

(١) في (ل): مقفيا.

(٢) في (ل): حكمك.

(٣) المهي: ترقيق الشفرة، وأمهى الحديدة: سقاها الماء وأحدها، انظر «اللسان» (مها).

(٤) في الأصل: إجاراتها، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) أي مستظلاً به، والذَّرى ــ بالفتح ــ كل ما استترت به. انظر «اللسان» (ذرا).

(٦) في (ل): بعدله.

(٧) في (م): واجماً.

فصـــل

في غزوة صاحب البيرة* ووفاة صاحب المَوْصِل

قال ابنُ الأثير: كان شهاب الدين محمد[1] بن إلياس بن إيلغازي بن أُرْتُق، صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره، وهم مئتا فارسٍ، إلى الخدمة النُّورية وهو بعَشْتَرا*. فلما وصل إلى اللّبوة ــ وهي من أعمال بَعْلَبَك ــ ركب متصيِّداً فصادف ثلاث مئة [فارس][2] من الفرنج قد ساروا للغارة[3] على بلاد الإسلام، وذلك سابع عشر شَوَّال، فوقع بعضُهم على بعض واقتتلوا، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون، لأنَّ ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاث مئة فارس من الفرنج. وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج، وعَمَّهم القَتْلُ والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتدُّ به. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي المِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولا﴾[4] وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين، فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى، فرأى فيها رأس مقدَّم الإسبتاريَّة* صاحب حصن الأكراد*، وكانت الفرنج تعظِّمه لشجاعته ودينه[5] عندهم، ولأنه شجًى في حلوق المسلمين، وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازداد سروراً، ولله الحمد[6].

---

(١) في «الباهر»: ١٤٥ محمود.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م): للإغارة.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٥) في الأصل و (ل): لدينه، والمثبت من (م).

(٦) «الباهر»: ١٤٥ ــ ١٤٦.

قال: وفي شوال سنة خمس وستين توفي الملك قطب الدين مودود بن زَنْكي بالمَوْصِل[1]. وكان لما اشتدَّ مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زَنْكي بن مودود[2]، وهو أكبر أولاده، وأعزُّهم عليه، وأحبُّهم إليه. وكان النَّائب عن قطب الدين حينئذٍ والقَيِّم[3] بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زَنْكي لأنه كان قد أكثر المَقَام عند عمِّه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوَّج ابنته، وكان عزيزه وحبيبَهُ. وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لِظُلم كان فيه، ويذمُّه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور. فخاف عبد المسيح أن[4] يتصرَّف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده[4]، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش؛ زوجة قطب الدين، فردُّوه عن هذا الرأي. فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي. وتوفي وقد جاوز عمرُه أربعين سنة.

وكان تام القامة كبير الوجه، أسمر اللون، واسع الجبهة، جَهْوَرِيَّ الصوت. وكانت ولايتُه إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهر ونصفاً.

ولما توفي استقرَّ سيف الدين في المُلْك[5]، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً، وكان عبد المسيح هو متولي[6] أمور سيف

(١) ولي الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي سنة (٥٤٤ هـ) انظر ص ٢٣١ من الجزء الأول.

(٢) ابن مودود، ساقطة من (ل).

(٣) في (ل): والقائم، وعبد المسيح سترد أخباره ص ١٦٥، ١٧٤ وما بعدهما من هذا الجزء.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) بقي حاكماً للموصل حتى سنة وفاته (٥٧٦ هـ). وانظر ٣/ ٦٠ من هذا الكتاب.

(٦) في (ل) و (م): يتولى.

الدين[1] ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين[1] من الأمر إلا اسمه، لأنه في عنفوان شبابه وغِرَّة حداثته[2].

قال: وهذه حادثة تحثُّ على العَدْل: من جملة أعمال جزيرة ابن عمر* قرية تسمى العُقَيمة[3] مقابل الجزيرة من الجانب الشَّرْقي، يفصل بينهما دِجْلة، لها بساتين كثيرة، بعضها تمسح أرضه، ويؤخذ على كلِّ جريب[4] من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم، وبعضُها عليه خَرَاج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلقٌ منهما. فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب، وكان لنا بها عِدَّة بساتين. فحكى لي والدي قال: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة ــ وأنا حينئذٍ أتولى ديوانها ــ يأمر بأن تُجعل بساتين العُقَيمة كلها ممسوحة. فشقَّ ذلك عليَّ لأجل أصحابها، ففيها ناسٌ صالحون، ولي بهم أُنسٌ، وهم فقراء. فراجعته، وقلتُ له: لا تظن أني أقول هذا لأجل ملكي، لا والله، إنما أريد أن يدوم النَّاس على الدُّعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه. قال: فأعاد الجواب يأمر بالمساحة ويقول: تمسح أولاً ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن نطلق لك ما يكون عليه. فشرع النُّواب يمسحون، وكان بالعقيمة رجلان صالحان، وبيني وبينهما مودَّة، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة، فحضرا عندي وتضوَّرا[5]

١٨٧/١

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) «الباهر»: ١٤٦.

(٣) الضبط من الأصل.

(٤) الجريب في المساحة ١٤٧٤ متراً مربعاً و٥٦ سانتيماً، والجريب المكيالي ١١١ كيلاً (كيلوغرام) و٢٦٣ غراماً وثلثي الغرام، انظر «معجم متن اللغة»: ١/٤٩٩، وانظر «المكاييل والأوزان الإسلامية» لفالترهنتس: ٦١ ــ ٦٢، ٩٦ ــ ٩٧، فعنده تقدير آخر للجريب.

(٥) في «الباهر»، وتضررا.

من هذه الحال، وسألاني المكاتبة في المعنى، فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابي، فشكراني، وقالا: وأيضاً تعودُ تراجعُه[1]. فعاودت القَوْلَ، فأصرَّ على المساحة، فعرَّفتهما الحال. فلما مضى عدة أيام عُدْتُ يوماً إلى داري وإذا هما قد صادفاني على الباب، فقلت لنفسي: عجباً لهذين الشيخين، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه! فقلت لهما: والله إني لأستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيف هو. فقالا: صدقت، ولم نحضُر إلا لنعرِّفك أن حاجتنا قُضِيَتْ. قال: فظننت أنهما [قد][2] أرسلا إلى المَوْصِل من شَفَع[3] لهما، فدخلت داري وأدخلتهما معي، وسألتهما عن الحال كيف هو، ومن الذي سعى لهما. فقالا: إن رجلاً من الصَّالحين الأبدال شكونا إليه حالنا، فقال[4]: قد قضيت حاجة أهل العُقَيمة جميعهم. قال: فوقع عندي من هذا، ولكن تارةً أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما، وتارةً أعجب من سلامة صدرهما[5]، كيف يعتمدان على هذا القول، ويعتقدانه واقعاً لا شكَّ فيه! فلما كان بعد أيام وصل قاصد* من المَوْصِل بكتابٍ يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كُلِّ مسجون وبالصَّدقة، فسألت القاصد عن السبب، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض. قال: فأفكرت في قولهما، وتعجَّبْتُ منه، ثم توفي بعد يومين من هذا. قال: ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه، ويحترمه، ويقضي أشغاله، واتخذهما صديقين[6].

---

(١) في (ل): وأيضا تعاوده.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (ل) و (م): يشفع.

(٤) في (م): فقال لنا.

(٥) في (ل) و (م): صدورهما، قلت: والأشبه صدريهما.

(٦) «الباهر»: ١٤٧ ــ ١٤٨.

قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك، وأعفِّهم عن أموال رعيَّته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم، حليماً عن المذنبين منهم، سريع الانفعال للخير. حدَّثني والدي قال: استدعاني يوماً وهو بالجزيرة، وكنت أتولى أعمالها، فلامني في بعض الأمر، فقلت: أخاف من الاستقصاء؛ لو دُعي على بعض هؤلاء الملوك ـ وأومأتُ إلى أولاده ـ لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها، ولنا مواضع تحتمل العمارة يتحصل منها أضعاف هذا. فقال: جزاك الله خيراً! لقد نصحت وأدَّيت الأمانة، فاشْرَعْ في عمارة هذه الأماكن. ففعلت[1]، وكبرت منزلتي عنده، ولم يزل يثني علي[2].

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه. لقد صبر من نوابه زين الدين[3] وجمال الدين[4] وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه. وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله؛ حضر معه المصافَّ بحارِم* وفتحها، وفتح بانياس*، وكان يخطُبُ له في بلاده باختياره من غير خَوْفٍ. وكان إحسانُه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض. وكان يبغض الظلم وأهله، ويعاقب من يفعله.

قال: وبالله أقسم إذا فكَّرْت في الملوك أولاد زَنْكي: سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق، ومحاسن

---

(١) ففعلت، ساقطة من (ل).

(٢) انظر «الباهر»: ١٤٨.

(٣) انظر ترجمته ص ٣٨ من هذا الجزء.

(٤) انظر ترجمته ص ٤٢٠ من الجزء الأول.

الأفعال، وحُسْن السِّيرة، وعمارة البلاد، والرِّفْق بالرَّعية؛ إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج المُلْكُ إليها، أذكر قول الشَّاعر:

من تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهم مِثْلَ النُّجوم التي يَسْري بها السَّاري[1]

قلت: وقرأت بخطِّ الشيخ عمر المَلاء[2] ــ رحمه الله ــ في كتاب كتبه إلى بعض الصَّالحين وسأله فيه الدُّعاء لقطب الدين صاحب المَوْصِل وقال فيه: يا أخي، لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته[3] أطلتُ[4] وأضجرت. غير أني أذكر لك ما خصَّه الله به من الأخلاق الصَّالحة: هو من أكثر النَّاس رحمةً، وأشدهم حياء، وأعظمهم تواضعاً، وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم، وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضاً. وهو من هذه الأخلاق على حدٍّ أحبُّه أنا محبةً لا أقدر أصفُها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة، يزورني وأزوره.

فصل

قال ابن الأثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قُطْب الدين وملك ولده سيف الدين بعده، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وَحُكْمُه على سيف الدين أَنِفَ من ذلك وكَبُرَ لديه، وشقَّ عليه. وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرَّعية والمبالغة في إقامة السِّياسة. وكان نور

(١) انظر «الباهر»: ١٤٩ ــ ١٥٠.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من الجزء الأول، وص ١٧١ وما بعدها من هذا الجزء.
(٣) في (م): بلاده.
(٤) في (م): لأطلت.

الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلاً، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد[1] أخي وملكهم. ثم سار من وقته، فعبر الفرات عند قلعة جعبر* أول محرَّم[2].

ثم دخلت سنة ست وستين [وخمس مئة][3]

وقصدَ الرَّقَّةَ فامتنع النَّائبُ بها شيئاً من الامتناع، ثم سلَّمها على شيء اقترحه. فاستولى نور الدين عليها وقرَّر أمورها، وسار إلى الخابور* فملكه جميعه، ثم ملك نَصِيبين* وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدةً، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان[4] صاحب الحصن* وديار بكر*، واجتمعت[5] عليه العساكر؛ وقد كان ترك أكثر عسكره بالشَّام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم. فلما اجتمعت[5] العساكر سار إلى سِنْجار* فحصرها، وأقام عليها، ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من المَوْصِل. فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثُّونه على السُّرعة إليهم ليسلِّموا البلد إليه، وأشاروا بترك سِنْجار، فلم يقبل منهم، وأقام حتى ملك سنجار، وسلَّمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زَنْكي[6]. ثم سار إلى

١٨٨/١

---

(١) في (ل) و (م): بني.
(٢) «الباهر»: ١٥٢.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) حكم بين سنتي ٥٦٢ هـ/ ٥٨١ هـ، وتسلم آمد من السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ، انظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٤. وانظر ص ١٤٧، ٢٣٣ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.
(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).
(٦) قال القاضي كمال الدين بن الشهرزوي تعليقاً على تسليم سنجار لعماد الدين: هذا طريق إلى أذى يحصل لبيت أتابك، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف ويطمع الأعداء. =

الموصل فأتى مدينة[(1)] بَلَد*، وعبر دِجْلة في مخاضةٍ عندها إلى الجانب الشَّرْقي[(1)]، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى*، ودِجْلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان عبد المسيح قد سيَّر عِزّ الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك إيلْدِكِز[(2)] صاحب بلاد الجبل* وأَذْرَبِيجان* وأرَّان* وغيرها[(3)] يستنجده، فأرسل إيلْدِكِز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد المَوْصِل ويقول له: إن هذه البلاد للسُّلْطان ولا سبيل لك إليها. فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ــ وكان بسِنْجار* ــ فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أَرْفَقُ ببني أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا، وعِنْدَ الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب هَمَذَان، فإنك قد ملكتَ نصف بلاد الإسلام، وأهملت الثُّغور حتى غلب الكُرْجُ[(4)] عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجعِ النَّاس؛ الفرنج، فأخذتُ بلادهم، وأسرتُ ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أَهْمَلْتَ من بلاد الإسلام، وإزالة الظُّلْم عن المسلمين. فعاد الرسول بهذا الجواب.

= قال ابن الأثير: فكان كذلك على ما سنذكره سنة سبعين وخمس مئة. قلت: وقد انضم وقتها عماد الدين إلى جانب صلاح الدين ضد سيف الدين. انظر «الكامل»: ١١/ ٣٦٥، وص ٣٨١ من هذا الجزء.

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) حكم بين سنتي ٥٣١ هـ/ ٥٦٨ هـ، والضبط من «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٩.

(٣) في الأصل: وغيرهما، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) الكُرج: أمة مسيحية كانت مساكنها بجبال القوفاز المجاورة لتفليس، ثم استولوا عليها سنة (٥١٥ هـ) ولم يزالوا متملكين لها إلى أن استردها منهم السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سنة (٦٢٢ هـ). انظر «الكامل»: ١٠/ ٥٦٧ ــ ٥٦٨، =

وحصر نور الدين الموصل، فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل، من جندي وعامّي معه؛ لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح[1] وتسليم البلد إليه. فلما علم عبد المسيح[1] ذلك راسله في تسليم البلد إليه، وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمانَ وإقطاعاً يكون له. فأجابه إلى ذلك وقال: لا سبيل إلى إبقائه بالموصل، بل يكون عندي بالشَّام[2]، فإني لم آتِ لآخذ البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص النَّاس منك، وأتولى أنا تربية أولادي. فاستقرَّت القاعدة على ذلك، وسُلِّمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جُمادى الأولى، وسكن القلعة. وأَقرَّ سيف الدين[3] غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كُمُشْتِكِين[4]، وجعله دُزْداراً* فيها، وقسم جميع ما خلَّفه أخوه قُطْب الدين بين أولاده بمقتَضَى الفريضة.

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خِلْعة من الخليفة[5] فلبسها، فلما دخل الموصل خَلَعَها على سيف الدين[3]، وأطلق المكُوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النُّوري[6] بالمَوْصِل،

= ١٢/ ٤٣١ ــ ٤٣٦، و «معجم البلدان»: ٤/ ٤٤٦.

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) وفي سنة (٥٦٨ هـ) تركه نور الدين مع عسكره في سيواس في خدمة ذي النون، وبعد وفاة نور الدين عاد إلى خدمة سيف الدين في الموصل، ولكن لم تعد له حظوته عنده. انظر ص ١٧٤، ٢٦٣، ٣٢٤ ــ ٣٢٥ من هذا الجزء.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).

(٤) سيرد خبر قتله ص ٤٦٨ من هذا الجزء، وكان له دور مهم بعد وفاة نور الدين، انظر ص ٣٢٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٥) هو المستضيء بأمر الله، انظر «الباهر»: ١٥٤، وص ١٧٠ من هذا الجزء.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٥ مـن الجــزء الأول.

فبني، وأقيمت الصَّلاة فيه سنة ثمانٍ وستين وخمس مئة[1].

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً[2]، وسار إلى الشَّام، فقيل له: إنك تحبُّ الموصل والمقامَ بها ونراك أسرعتَ العود؟ فقال: قد تغيَّر قلبي فيها، فإن لم أفارِقْها ظلمتُ، ويمنعني أيضاً أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدوِّ وملازماً للجهاد. ثم أقطع نَصِيبين* والخابور* العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغيَّر اسمه وسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كثيراً[3].

وقال العماد: [و[4]] استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقَّة وقال لي: قد أَنِسْتُ بك وأَمِنْتُ إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض، لا يبلغ فيه غيرك الغرض، فتمضي إلى الديوان العزيز جريدةً، وتؤدي عني رسالة سديدة سعيدة، وتُنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي، ومَغنى طريفي وتالدي، وأنا كبيره ووارثه، والذي له حديثه وحادثه. فامض وخذ لي إذناً فإني أعد كل جارحة لي لما أُخاطَبُ به أُذناً، وأَمْثَلُ ما يصلني من المثال لدفع كُلِّ مكروه ركناً. وأمر ناصر الدين محمد بن شِيركُوه أن يسيِّرَني إلى الرَّحْبة*، في رجال مأموني الصُّحبة، وسرتُ منها على البرية غربي الفُرات، بخفيرٍ من بني خَفَاجة. فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سِنْجار، فأخذها وملكها[5]،

(١) في النسخ الخطية: سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة، وهو خطأ، والمثبت من «الباهر» ١٥٤ وانظر ص ١٧٢ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل، مكان الخرم، بخط مغاير: «سنة» وفي هامشه: لعله عشرين يوماً.

(٣) «الباهر»: ١٥٢ ــ ١٥٤.

(٤) ما بين حاصرتين من (م).

(٥) وملكها، ليست في (ل) و (م).

وسلَّمها إلى خَتَنه ابن أخيه عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زَنْكي.

قال: ثم رحل على عزم المَوْصِل، وقَصَدَ بَلَد*، واستوضح فيها الجَدَد، ودُلَّ هناك في دِجْلَة على مخاضة، وكان ذا أخلاقٍ وهمم مُرْتاضة، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظُنَّ مستصعباً، وسَهَّل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تُرْكماني قُدَّامنا، وهو يقطع دجلة تارةً طولاً وتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيطٍ واحد لا نميل يميناً ولا يساراً، ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عَبَرْنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشَّرْقي برجالنا وأثقالنا، وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم، حتى تمَّ عبور القَوْم.

ثم رحلنا ونزلنا على المَوْصِل من شرقيها، وخيَّمنا على تلِّ توبة*، فاستعظم أهلها تلك النَّوْبة، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب، وأنَّا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون، مقهورون، محسورون[1]، وانقطعت عنهم السُّبُل من الشرق، وتعذَّر عليهم الرَّقْع لاتساع الخَرْق، وبَسَطَ العطاء، وكشف الغِطاء، وتكلَّم في المصلحة والمصالحة الوسطاء؛ ومُدَّ الجسر، وقُضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه، وَمَثَلُوا بناديه، وأَقَرَّ سيفَ الدين غازياً على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء.

١٨٩/١

ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً، وجَدَّد مناشيرَ أهل المناصب، وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما. وأمر

---

(١) مقهورون محسورون، ساقطة من (م).

بإسقاط جميع المُكوس والضَّرائب، وأنشأ بذلك منشوراً[1] يقرأ على الناس، فمنه:

«قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فَسُحْقاً للسُّحْت، ومَحْقاً للحرام الحقيق بالمَقْت، وبُعْداً لما يُبْعِدُ من رضا الرَّب، ويقصي من محلِّ القُرْب، وقد استخرنا الله وتقرَّبنا إليه، وتوكَّلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدَّمنا بإسقاط كل مَكْس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة، ومحو كل سُنَّة سيئة شنيعة، ونفي كل مَظلمة مُظلمة فظيعة، وإحياء كلِّ سنة حَسَنة، وانتهاز كلِّ فُرْصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرَّدِيَّة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جَوْرُ جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل، على الحطام العاجل. وهذا حقٌّ لله قضيناه، وواجبٌ علينا أدَّيناه، بل هي سُنَّة حسنة استنَّناها، ومَحَجَّة واضحة بيَّناها، وقاعدة مُحْكَمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها».

فصل

قال العماد: وكان بالمَوْصِل شيخ صالحٌ يعرف بعُمَر المَلاَّء[2]؛ سمي

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٩٤ ـ ٩٧.

(٢) انظر ص ٤٥ من الجزء الأول، وانظر «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٣٥ فقد نقل عن ابن القطيعي (توفي سنة ٧٣٩ هـ) في ترجمة محمد بن عبد الباقي بن هبة الله المجمعي خبراً ينافي ما عرف عنه من زهد وورع قال فيه: وكان بالموصل عمر الملا مقدماً في بلده، فاتهمه بشيء من ماله ـ أي اتهم عمرُ الملا ابنَ عبد الباقي ـ وكان خصيصاً به، فضربه إلى أن أشفى، ثم أخرجه إلى بيته، وبقي أياماً يسيرة، وتوفي.. وعمر هذا كان يظهر الزهد والديانة، وأظنه كان يميل إلى المبتدعة وقد تبين بهذه الحكاية أيضاً ظلمه وتعديه».

بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأُجْرَةٍ يتقوَّت بها، وكل ما عليه من قميصٍ ورداء، وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره. وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيفٌ قَرَاه ذلك المريد. وكان ذا معرفةٍ بأحكام القرآن والأحاديث النبوية.

وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبرَّكُون بهِمَّته، ويتيمَّنون ببركته. وله كل سنة دعوة يحتفل[1] بها في أيام مولد رسول[2] الله ﷺ، يحضره فيها[3] صاحب الموصل، ويحضر الشُّعراء، وينشِدُون مدح رسول الله ﷺ في ذلك المَحْفِل.

وكان نور الدين من[4] أَخَصِّ محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره. وكانت بالموصل خَرِبة واسعة في وسط البلد، أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا مَن ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره. فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجُمَع والجماعات. ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعةً من ضياع الموصل، ورتَّب فيه خطيباً ومُدرِّساً. وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عمادُ الدين أبو بكر النُّوقاني الشَّافعي، من أصحاب الإمام محمد بن يحيى[5]، فسأله أن يكون مدرِّساً في ذلك الجامع، وكتب له

(١) في الأصل: ويحتفل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م) النبي.
(٣) فيها، ساقطة من (ل)، وفي (م): فيه.
(٤) من، ساقطة من (م).
(٥) هو محمد بن يحيى بن منصور، أبو سعد النيسابوري، صاحب الغزالي وتلميذه، انتهت إليه رياسة المذهب بنيسابور، وقصده الفقهاء من النواحي، وبَعُد صيته، وهو أستاذ الفقهاء المتأخرين، ولد سنة (٤٧٦ هـ) وقتل في رمضان سنة (٥٤٨ هـ) قتله =

[به][1] منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز[2] صاحب إِرْبِل* في الخدمة النُّورية في المَوْصِل. وكان دخولهم إياها في بُحْبُوحة الشِّتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدةً، منها:

ما يمنَعُ الخادِمَ من قَصْدِهِ الـ ـخِدْمَةَ غَيْرُ الطُّرْقِ والوَحْلِ[3]
كأنما مَوْصِلُكُمْ مَقْطَعٌ ما يُهْتدى فيه إلى وَصْلِ
وكلُّ معروفٍ بها مُنْكَرٌ كما تراه ضَيِّقُ السُّبْلِ
وكلُّ مَنْ حَلَّ بها لا يَرَى في زَمَنِ الخِصْبِ سوى المَحْلِ
ومُذْ دَخَلْنَاها حَصَلْنا بها كَرْهاً على خَرْجٍ بلا دَخْلِ
أَصعَبُ ما نلقاه من أَهْلِها قَوْلٌ بلا أَهْلٍ ولا سَهْلِ
وكنتُ أهواها ولكنَّني لقيتُ منها كُلَّ ما يُسْلي
وأنتَ مَنْ أصبحَ إحسانُه حِلْيةَ هذا الزَّمنِ العُطْلِ

قال: وعاد نور الدين إلى سِنْجار*، فأعاد عمارة أسوارها، ثم أتى حَرَّان* وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونَصِيبين*، والخابور*، والمِجْدَل*. ووصل حلب في خامس رجب[4].

= الغز لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر السلجوقي، وقتل معه أئمة وفقهاء كثر. انظر ترجمته في «الكامل»: ١١/١٧٨ ـ ١٨١، وفيه أنه قتل في شوال سنة (٥٤٩ هـ) و «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣١٢ ـ ٣١٥، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٢٥ ـ ٢٨، و «طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من هذا الجزء.
(٣) في (م): والموصل، وهو تحريف.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٩٨ ـ ٩٩.

وقال ابن شَدَّاد: دخل حلب في شعبان، وزوَّج صاحب الموصل ابنته[1].

قال العماد: وفَوَّض القضاء والحُكم بنَصِيبين وسِنْجار والخابور إلى الشَّيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولَّى بها نوَّابه، وحكَّم فيها أصحابه[2].

وقال القاضي ابن شداد[3]: لما صارت المَوْصِل إلى سيف الدين ابن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه، وتولَّى أمر البلد رجلٌ يقال له عبد المسيح، كان نصرانياً فأسلم، وقيل: إنه كان باقياً على نصرانيته، وله بيعة في داره، وتتبَّع أرباب العلم والدين وشَتَّتهم وأبعدهم وآذى المسلمين. فبلغَ نور الدين ذلك، وكُتِب له قصصٌ في ذلك. فسار ونزل على الموصل من جانب الشطِّ، والشط بينه وبينها، وقال: لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حُرْمتها وهي لولدي. وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد، وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كُتِب إليَّ في عبد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وإنما[4] مقصودي أزيل هذا النَّصْراني عن ولاية المسلمين.

١٩٠/٢

قال: وعبد المسيح يدبِّر البلد ويدور فيه، والأمر إليه. وبذل الصُّلْح لنور الدين، فقال نور الدين: أنا قد جئت ولا بُدَّ لي من دخول البلد. فقال: نعم لا يدخل إلاّ من باب السِّرِّ. فقال نور الدين: ما أدخل إلاّ من باب السر.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٤٤.

(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠٠.

(٣) هذا النص ينقله أبو شامة عن كتاب آخر لابن شداد غير «النوادر السلطانية».

(٤) في (ل) و (م): وأنا.

فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات، إلى أن عَلِمَ أن نيته صالحة، فصالحه في السر، وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين، فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم؟ دمُك قد راح وأنت غافل! فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدِّين! فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشَهُ[1] بين يديه، وقال له: أنت قد صالحت عَمَّك وقد علمتَ ما عملتُ في[2] حفظ بلدك، وما لي طاقة بمقابلة نور الدين، فاللَّهَ اللَّهَ في دمي. فقال له: ما لي طاقة بدفعه عنك، ولكن عليك بالشَّيخ عمر المَلاَّء. فقال: والله لو مضيتُ إليه لم يفتح لي ــ لعلمه بما[3] جرى منه في حَقِّ المسلمين ــ ولكن تسيِّر أنت إليه. فسيَّرَ[4] سيف الدين إليه واستحضره ــ وكان معتكفاً ــ فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه. فوقف بين يديه يبكي، فالتفت إليه عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء! فقال له: قد تمسكتُ بك وأطلب منك حَقْنَ دمي. فقال: أنت آمن على دمك. فقال: وعلى مالي. فقال: وعلى مالك. قال[5]: وعلى أهلي[5]. فقال: وعلى أهلك.

وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذٍ، فقال سيف الدين لعمر المَلاَّء: تخرج تحلِّف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا له

---

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة تشبه التاج كأنه على شكل مثلث، تلبس بدل العمامة، كانت شارة للأمراء دون غيرهم. انظر «خطط المقريزي»: ٢/ ٩٩، و «التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ١٩٧ ــ ١٩٨.

(٢) في (م): وقد علمت ما علمت من.

(٣) في الأصل: ما، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (ل) و (م): فأنفذ.

(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).

نسخة يمين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه. فقال له عمر: الناس يعلمون حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وقد خرجتُ في كذا وكذا. وناوله النسخة التي تتعلَّق بسيف الدين، فقرأها وناولها لابن أبي عصرون، فقال: نسخة جيدة[١]. فقال له الشيخ عمر المَلاَّء: أيش تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة. فقال: [إذا][٢] حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى. فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك. يشير إلى أن نور الدين كان تجري منه أيمانٌ في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيَّد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وأن قولي مسموع عندك، وقد خرجتُ إليك ولا بُدَّ لي من ضيافة. قال: كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئاً! فقال: تحلف لي بهذه النسخة. فوقف عليها وتغيَّر وجهه، وقال: أنا ما جئتُ إلاّ في هذا لأخلص المسلمين منه! فقال له الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين. فقال: قد أمنته على نفسه. فقال: وعلى أهله. فقال: ومن أهله؟ قال: نصارى. فقال: أمنتهم. فقال: وعلى ماله. فقال: ومن أين لهذا الكلب مال؟ هذا[٣] مملوك لنا. فقال: قد أُعتق وماله له، وهو اليوم كان صاحب الموصل، فقال: قد أمنته على ماله. فحلف على ذلك جميعه، واستقرَّ الصُّلْح.

وخرج سيف الدِّين إلى خدمة نور الدين، فوقف بين يديه، فأكرمه نور

---

(١) جيدة، ساقطة من (ل).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: قال: هذا، والمثبت من (ل) و(م).

الدين، وكان وَصله خِلْعة أمير المؤمنين فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها، وانتقل إلى جانب الشط الآخر، ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطرٌ شديد جدًّا، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مُدَّة، ورتَّب أمورها، وولَّى فيها كُمُشْتِكِين، فرأى النَّبي ﷺ ذات ليلة [في المنام][1] وهو يقول [له][2]: جئتَ إلى بلدك وطاب لك المقامُ به، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين؟! فاستيقظ من منامه، وسار سُحْرَةَ ذلك اليوم ولم يلبث، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه، رحمه الله تعالى.

فصـــل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المُظَفَّر يوسف بن المقتفي، ونورُ الدين مخيِّم بشرقيِّ الموصل بتلِّ توبة*. وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر، وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن.

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمس مئة، وكانت خلافته إحدى[3] عشرة سنة وستة أيام. وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العَبَّاس. وهذا العدد له بحساب الجُمَّل، اللام والباء، وفيه يقول بعضُ الأدباء:

أَصْبَحْتَ لُبَّ بني العَبَّاس كلِّهِمُ ... إن عُدِّدَتْ بحسابِ الجُمَّل الخُلَفَا

وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرةً

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) ما بين حاصرتين من (ل).
(٣) في الأصل: أحد، والمثبت من (ل) و (م).

مع الرعية؛ كان عادلاً فيهم، كثير الرِّفْق بهم، وأطلق من المكوس كثيراً، ولم يترك بالعراق مَكْساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قَبَض على إنسانٍ كان يسعى بالنَّاس، ويكتب فيهم السِّعايات، فأطال حَبْسَه، فحضر بعضُ أصحابه وشفع فيه، وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفَّ شَرَّهُ عن الناس[1]. ١٩١/١

وتوفي في أيامه شيخ الشيوخ* إسماعيلُ بن أبي سعد[2]، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ[3]، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين توفي محمد بن نَصْر القَيْسَراني، وأحمد بن منير، الشَّاعران. وقد تقدَّم ذلك[4].

وفي سنة تسعٍ وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشَّاعر الأَنْدَلُسي[5].

وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوَأْوَاء الشَّاعر الحلبي[6].

---

(١) «الباهر»: ١٥٢.

(٢) هو أبو البركات، إسماعيل بن أبي سعد أحمد، الصوفي، كان أبوه من أهل نيسابور، واستوطن بغداد، فولد بها سنة (٤٦٥ هـ) وكان وقوراً مهيباً، قرأ عليه السمعاني وابن عساكر. انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٠/ ١٢١، و «وفيات الأعيان»: ١/ ٩٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) توفي عبد الرحيم سنة (٥٨٠ هـ). وانظر ص ٢١٠ من الجزء الثالث، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٠٢.

(٤) انظر ص ٢٩٣ من الجزء الأول.

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٦ من الجزء الأول.

(٦) هو أبو الفرج، عبد القاهر بن عبد الله بن الحسين، الشيباني الحلبي، شاعر، نحوي، أصله من بزاعة ــ بين منبج وحلب ــ ونشأ ومات بحلب، تردد إلى دمشق غير مرة، =

وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النَّجيب الصُّوفي الفقيه الواعظ(١).

قال العماد: وجاءنا رسلُ دار الخلافة مُبَشِّرين بخلافة المستضيء، واتَّفق ذلك يوم عبور دِجْلَة. وركب يوم النُّزول على تَلٍّ توبة* في الأُهبة* السوداء، واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحَدْباء. ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام(٢).

ومما نظمه العماد فيه:

قد أضاءَ الزَّمانُ بالمستضيء ... وارثِ البُرْدِ وابنِ عَمِّ النَّبيء

جاء بالحَقِّ والشَّريعةِ والعَدْ ... لِ فيا مَرْحباً بهذا المجيء

فهنيئاً لأهلِ بَغْدَادَ فازوا ... بعد بُؤْسٍ بكلِّ عَيْشٍ هَنِيء

ومُضيءٍ إن كان في الزَّمَنِ المُظْـ ... ـلم فالعَوْدُ في الزَّمانِ المُضِيء(٣)

وله من قصيدةٍ أخرى:

لهفي على زَمَنِ الشَّباب فإنني ... بسوى التأسُّفِ عنه لم أتعوَّضِ

نُقِضَتْ عهودُ الغانيات وإنَّها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تَنْقَضِ

= وكان يقرىء بها النحو، ويشرح شعر المتنبي ويعربه وهو طبعاً غير الوأواء الدمشقي، الشاعر المشهور. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ١٥٥ ـ ١٥٧، و «إنباه الرواة»: ٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧، و «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣، و «إعلام النبلاء» للطباخ: ٤/ ٢٣٢ ـ ٢٣٤.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٢ ـ ٥٣ من الجزء الأول.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠١.

(٣) الأبيات ما عدا البيت الأخير في «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠٣، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٢ ـ ١٣.

يــا حُســنَ أيــام الصِّبــا وكــأنَّهــا أيــامُ مَــوْلانــا الإمــامِ المُسْتَضِــي
ذو البَهْجَـةِ الـزَّهْـراء يُشْـرِقُ نـورُهـا والطَّلْعـةِ الغَـرَّاء والـوَجْـه الـوَضِـي
قَسَــمَ السَّعــادة والشَّقَــاوة ربُّنــا فــي الخَلْـقِ بيـن مُحِبِّـهِ والمُبْغِـضِ

ومنها:

فَضَلَ الخلائِفَ والخلائِقَ بالتُّقى والفَضْلِ والإفْضالِ والخُلُق الرَّضي
فــانْعَـمْ أميـرَ المـؤمنيـنَ بِـدَوْلـةٍ مـا تنتهـي وسَعَـادَةٍ مـا تنقضـي[1]

قال: ووصل نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ إلى دمشق، وأدَّى فَرْضَ الصِّيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سُرَادِقه إلى جسر الخشب*، وسرنا إلى عَشْتَرا[2].

ثم ذكر العماد هنا سيرة[3] [سرية][4] صاحب البيرة* الأَرْتُقي باللَّبْوَة، وقد مضت في أخبار سنة خمسة وستين[5] فَثَمَّ ذكرها ابنُ الأثير[6].

فصــل

فيما جرى بمصر في هذه السَّنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشِّحَن* يُعرف بدار المَعُونة[7]، فأعادها

---

(١) انظر أبياتاً من القصيدة في «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٣ ــ ١٠٤، و «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/١٧ ــ ١٨.

(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٥.

(٣) سيرة، ساقطة من (م).

(٤) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

(٥) انظر ص ١٦٠ من هذا الجزء.

(٦) انظر «الباهر»: ١٤٥ ــ ١٤٦، و «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٦ ــ ١٠٧.

(٧) دار المعونة كانت في الفسطاط قبلي جامع عمرو بن العاص، سميت بدار المعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولاتهم، ثم عرفت بدار الفلفل، ثم صارت داراً =

صلاح الدين مدرسةً للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرَّم دار الغزل[1] مدرسةً للمالكية، وولَّى صدرَ الدين عبد الملك بن دِرْباس[2] القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها، وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة. ثم خرج إلى الغَزَاة، وأغار على الرَّمْلة وعَسْقَلان، وهَجَمَ رَبَضَ غَزَّة، ثم رجع إلى القاهرة.

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفَقَ عليها، وأحبَّ أن يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الأول. وكانت

= للشرطة نحو سنة (٢١٣ هـ)، ثم جعلها يانس العزيزي صاحب الشرطة في عهد العزيز حبساً يعرف بالمعونة سنة (٣٨١ هـ)، وبقيت سجناً حتى أعادها صلاح الدين مدرسة كما ذكر هنا.

قال محمد رمزي في تحقيقاته في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨٥: هذه المدرسة قد زالت. انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥، ٤/ ١٩٣، و «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» لابن دقماق: ٤/ ٩٣.

(١) أوقف عليها صلاح الدين الأوقاف الكثيرة، أهمها ضيعة بالفيوم كان يجمع منها قمح كثير يوزع على فقهاء المدرسة، ومن ثم عرفت بالمدرسة القمحية، قال محمد رمزي: هذه المدرسة قد زالت. انظر «الانتصار» ٤/ ٩٥، و «خطط المقريزي»: ٤/ ١٩٣ ــ ١٩٤، و «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨٥.

(٢) هو عبد الملك بن عيسى بن درباس، الهذباني، كردي من قبيلة صلاح الدين، مولده بأعمال الموصل نحو سنة (٥١٦ هـ)، سمع من ابن عساكر الدمشقي، وروى عنه المنذري صاحب التكملة، كان من جلة العلماء وفضلائهم، توفي سنة (٦٠٥ هـ)، وهو أخو ضياء الدين عثمان بن عيسى، وكان أيضاً من أعلم الفقهاء في وقته بمذهب الإمام الشافعي، وقد ناب عن أخيه في الحكم بالقاهرة، وتوفي قبله سنة (٦٠٢ هـ)، وقد خلف كل منهما أولاداً كانوا أئمة أعلاماً. انظر ترجمة صدر الدين في «التكملة» للمنذري: ٢/ ١٥٦، و «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٠٥ هـ) و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٧٤ ــ ٤٧٥، وانظر ترجمة ضياء الدين في «التكملة» للمنذري: ٢/ ٩٠، و «وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٩١. وانظر ٤/ ٤٢٤، ٤٥٦ من هذا الكتاب.

بأَيْلة* قلعة في البحر قد حَصَّنها أهل الكُفْر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى ساحلها على الجمال، وركَّبها الصُّنَّاع هناك، وشحنها بالرِّجال، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلَّها، واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعُدَد والعَدَد، وحَصَّنها بأهل الجلاد والجَلَد. واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سَمْت القاهرة، ودخلوا في السَّادس والعشرين من جُمادى الأولى[1] إليها.

وسار إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ويُرَتِّب قواعدها، وهي أول دفعةٍ سار إليها في أيام سُلْطانه، وعَمَّ أهلَها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها. ١٩٢/١

وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه ـ وهو ابن أخي صلاح الدين ـ منازل العِز[2] بمصر وجعلها مدرسة للشَّافعية، واشترى الروضة وحَمَّام الذهب وغيرهما من الأملاك، ووقفها عليها.

---

(١) في «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٩ جمادى الآخرة، وهو تحريف.

(٢) عرفت هذه المدرسة بالتقوية، وهذه المنازل بنتها السيدة تغريد أم الخليفة العزيز بالله، وقال ابن دقماق: بناها المعز لأخته لما قدمت من المغرب، ولم يكن بمصر أحسن منها، وكانت تشرف على النيل، وصارت معدة لنزهة الخلفاء، وكان بجانبها حمام يعرف بحمام الذهب من جملة حقوقها، وقد أنزل فيها صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين، فسكنها مرة، ثم اشتراها كما ذكر هنا.

قال محمد رمزي: ومحلها اليوم مجموعة المباني التي تحد من الغرب بشارع مصر القديمة، ومن الجنوب مدخل شارع المرحومي، أما المدرسة التقوية فتعرف اليوم باسم جامع شهاب الدين أحمد المرحومي الذي يتوسط هذه المنطقة بشارع المرحومي بمصر القديمة انظر «الانتصار» لابن دقماق: ٤/٩٣ ـ ٩٤، و «خطط المقريزي»: ٢/٣٧٦، ٤/١٩٤ ـ ١٩٥، و «النجوم الزاهرة»: ٥/٥٦٦ حاشية رقم (١).

وفي النصف من جُمادى الآخرة أغار شمس الدولة ــ أخو السُّلْطان ــ بالصَّعيد على العُربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحَجَّاج يوسف بن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كَبِرَ. وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله[1].

وقال في «الخريدة»: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء، وله قوَّة على الترسُّل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره، وأَضَرَّ ولزم بيته إلى أن تعوَّض منه القبر. ومن شعره:

يا أخا الغِرَّة حَسْبُ الدَّهْر من عِظَةِ المغرورِ ما أَصْبَحَ يُبْدي
تؤثر الدُّنيا فهل نِلْتَ بها لحظةً تخلُصُ من همٍّ وكَدٍّ[2]

قلت[3]: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجَزَري[4] في أول كتابه المسمى «بالوشي المرقوم في حَلِّ المنظوم»، قال: حدَّثني عبد الرحيم بن علي البَيْسَاني رحمه الله تعالى بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمس مئة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن يعني بني عبيد غضاً طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم لسطانه بقلمه سلطاناً. وكان من العادة أن كلاً من أرباب

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠٧ ــ ١١٠.
(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٣٥ ــ ٢٣٧.
(٣) هذا النقل بطوله ساقط من (م).
(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٧ هـ).

الدَّواوين إذا نشأ له ولد، وشدا شيئاً من علم الأدب، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فنَّ الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع. قال: فأرسلني والدي ــ وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عَسْقلان ــ إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ــ وهو أحد خلفائها ــ وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأسُ به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخَلاَّل. فلما حضرتُ الديوان ومَثَلْتُ بين يديه، وعَرَّفته من أنا وما طَلِبتي، رحَّب بي وسَهَّل، ثم قال: ما الذي أعددتَ لفنِّ الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب «الحماسة». فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته. فلما تردَّدْتُ إليه، وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني بأن أحلَّه مَرَّة ثانية، فحللته[1].

وقال ابن أبي طيّ: في هذه السنة شرع السُّلْطان ــ يعني صلاح الدين ــ في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدَّم أكثره، وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقَرَاقُوش الخادم[2]. وقَبَضَ على القصور وسلَّمها إليه، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وقطع من الأذان «حيَّ على خير العمل»، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العَبَّاس.

---

(١) انظر «الوشي المرقوم في حل المنظوم»: ٩، طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨٠ م، وهي طبعة سقيمة، وانظر تعليق ابن خلكان على هذا الخبر في «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٢٠ ــ ٢٢١.

(٢) سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٤/ ٤٨٤، وترجم له أبو شامة أيضاً في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٧ هـ)، وانظر ص ٤٤٤ من هذا الجزء. وهو غير قراقوش مملوك تقي الدين عمر الذي سترد أخباره ص ٢٦٧، ٤١٨ ــ ٤١٩ من هذا الجزء، وص ٩٩ من الجزء الثالث.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بُوش[1]، وأعمال الجِيزة وسَمَنُّود[2] وغيرها.

قلتُ: وقد وقفتُ على كتاب فاضلي وصف فيه غَزَاة غزاها صلاح الدين رحمه الله تعالى في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قُوص* وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السَّابق. أوَّلُ الكتاب ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وفيه: توجهنا من بركة الجُبّ[4] يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول، ووصلنا بتاريخ السَّابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصَّعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المُعْلَمة، قد أَيَّدَتها جنود السماء المسوَّمة. وصابحنا الدَّير[5] يوم الأربعاء بقتالٍ جعل كلَّ من في حِصْن الدَّير راهباً، ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال بشهاب القذفِ ضارباً. فلما تعالى النَّهار ملكنا رَبَضَه، وأطلقنا فيه النيران، ورمَّلْنا الرِّجال بالدَّم، وأرملنا[6] النسوان، وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراجٌ قد استعدَت للبلاء جِلباباً، فجعلنا لكلّ واحدٍ جورة مفردةً وباباً[7]،

(١) مدينة من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل، «معجم البلدان»: ١/ ٥٠٨.

(٢) بلد من جهة دمياط على ضفة النيل. «معجم البلدان»: ٣/ ٢٥٤.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(٤) متنزه بظاهر القاهرة في الجهة البحرية، كان يخرج إليه خلفاء مصر وملوكها، وينزل الحجاج به عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم، ومن ثم سميت أيضاً ببركة الحجاج، انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٢٦٥ ــ ٢٦٧.

(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: بلغني أن الدير هو الداروم، والله أعلم».

(٦) في الأصل و (ل): وأرسلنا، والمثبت من (م).

(٧) في (م): مآبا.

وسرَّحنا إليهم رُسُلَ المنايا من النُّشَّاب، وقصدنا أَخْذَ الأبراج، والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب، وتقدَّمت إليهم نقَّابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصُّبْح وقد أمكن تعليقه، وتيسَّر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خَرَّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القَبْضَة، وعَجَزَ من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذابُ بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار.

واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر، وطهَّرَ[١] الأرض منهم بالدم المائر.

فلما كان بُكْرة الجمعة وَرَدتْنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غَزَّة في فارسه وراجله، ورامحه ونابله، وحشودِ دياره، وجنود أنصاره. فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطِّراد، وأحدقت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها[٢] من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً. ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني في عقابه، حتى تحصَّل في الدَّير هو وخيلُه ورَجْله،

---

(١) في الأصل: وظهر، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل: التي كان، وقد ضرب عليها.

١٩٣/١ ولم يبق له من مُلك الشام إلاّ ما وطئته رِجْله. فناصبناه الحصار في ليلة السّبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولا يحاجز؛ فخرست غماغمه، واستذأبت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين لله تعالى [سبحانه][1] لا مغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقرِّبين.

وواجهنا غَزَّة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بِكْراً لم تفترعها الحوادث، وحَصَاناً لم يَطْمِثْها أمل طامث، وهي معقل الديويّة* الذين هم جمرة الشِّرْك، وداهية الإِفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النَّصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدّة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمسِ الذَّاهب، فأَلْقَتْ إلينا أفْلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مَوَاشٍ تخرب البلاد التي منها خرجت[2]، وخيول مسوَّمة كأنها لركوبنا أُسْرِجَتْ وأُلجمت، وحوامل أثقال وزوامل[3] خَفَّفَتْ عن عساكرنا وفَرَّجَتْ، وميرة كثيرة تمكنت فيها يد الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقِدّ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المَلَكَة[4] وشدة الجهد. وأما الرؤوس المقطوعة، وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإنَّ الفضاءَ الفِضِّي تَعَصْفَرَ من دمائهم وتذهَّب، وجرى منها ما به اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل: خرجت منها، والمثبت من (م)، وفي (ل): منها حرمت.

(٣) مفردها: الزاملة، وهي الدابة يحمل عليها المتاع والطعام في السفر، «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٨.

(٤) في الأصل و (ل): المملكة، والمثبت من (م).

وينتقل ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[1]، أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاوية، وعِراصاً من سُكَّانها خالية، قد بقيت عبرةً للعابر، وذكرى للذّاكر، وموعظةً سارَّةً للمسلم مُرْغِمَةً للكافر.

ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك ــ خذله الله تعالى ــ راجين أن يحمله الثُكْلُ على الإقدام، ويخرجه حَرُّ النَّار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقَتْلُ أصحابه قد جَرَحه، فبِتْنا عليه والألسنةُ بقراره تعيّره، واستتاره يقَرِّعه ويقرِّره.

وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسبُ قد أثقل المقاتلة، ونَصْرُ الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسَّلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدُوُّ قد غُزي في عُقره وعُقر، وأُذِلَّ في دار مُلْكه واحتقر. ووصلنا إلى مستقرِّ سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقلال ركابه، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومحابّه، ما عَظُمَتْ به النِّعَم وجلَّت، وزالت به وعثاءُ الطريق وتجلَّت، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلَّت.

قلت: ومن قصيدة لعُمارة في مدح صلاح الدين، أولها:

فؤادٌ بنارِ الشَّوْقِ والوَجْدِ مُحْرَقُ

يقول فيها:

لعـلَّ بنـي أيـوب إنْ عَلِمُـوا بمـا تظلَّمْـتُ منـه أن يَـرِقُّـوا ويُشفِقُـوا
غــزوا عُقــر دار المشــركيــن بغَــزَّةٍ جِهاراً وطَرْفُ الشِّرْكِ خَزْيانُ مُطْرِقُ

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٨.

وزاروا مُصَلَّى عَسْقَلانَ بأرعنٍ[1] يفيضُ إناءُ البَرِّ منه ويَفْهَقُ[2]
وكانت على ما شاهد النَّاس قبلكم طرائقَ من شَوْكِ القنا ليس تُطرقُ
وما عَصَمَتْهُمْ منك إلا معاقلٌ تأنَّوْا على تحصينها وتأنَّقوا
جَلَبْتَ لهم من سَورة الحرب ما التقى بوادِرَهُ[3] سُورٌ عليهم وخَنْدَقُ
وأَخْرَبْتَ من أعمالهم كلَّ عامرٍ يمرُّ به طيفُ الخيال فَيَفْرَقُ
أضفتَ إلى أجر الجهاد زيارةَ الْـ ـخَليل فأَبْشِرْ أنت غازٍ مُوفَّقُ
وهَيَّجْتَ للبيت المقدَّس لوعةً يطولُ بها منه إليك التشوُّقُ
تَنَشَّقَ من ملقاك أَعْطَرَ نَفْحَةٍ تطيبُ على قَلْبِ الهُدَى حين تُنْشَقُ
وغَزْوك هذا سُلَّمٌ نحو فتحه قريباً وإلا رائدٌ ومُطَرِّقُ
هو البيتُ إنْ تَفْتَحْهُ والله فاعِلٌ فما بعدَه بابٌ من الشَّامِ مُغْلَقُ[4]

ثم دخلت سنة سبع وستين [وخمس مئة][5]

واستفتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخُطْبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العَبَّاس، وفي الجمعة الثانية خُطِبَ لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء ما دام لها من العصر.

---

(١) الأرعن: الجيش العظيم: «اللسان» (رعن).
(٢) الفهق: الامتلاء والاتساع. «اللسان» (فهق).
(٣) في (م): يؤازره.
(٤) انظر أبياتاً من القصيدة غير التي اختارها أبو شامة في «النكت العصرية»: ٢٩٩ - ٣٠٠.
(٥) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

وذكر العماد أيضاً في أخبار سنة اثنتين وسبعين[١]، كما سيأتي[٢]، أنَّ الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسَّن[٣] بن الحسين بن أبي المضاء البَعْلَبَكِّيّ[٤]. وذكر ذلك أيضاً ابن الدَّبيثي في «تاريخه»[٥]، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتابٍ له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره[٦].

١/ ١٩٤ وقال ابن الأثير: كان السَّبب في ذلك أنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر، وزال المخالفون له، وضَعُفَ أمرُ العاضد، وهو الخليفة بها، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملكُ العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخُطْبة العبَّاسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك؛ لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فُسْحة له فيه.

واتفق أنَّ العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عَزَمَ على قطع الخطبةِ له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العَبَّاسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلاّ أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجميٌّ يُعرف بالأمير

(١) وسبعين، ساقطة من (ل).
(٢) ستأتي ترجمته ص ٤٣١ من هذا الجزء.
(٣) ابن المحسن، ساقطة من (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٥.
(٥) انظر «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١٤٢.
(٦) انظر ص ١٩٥ من هذا الجزء، وكان ابن الجوزي قد ألف للمستضيء كتاباً لما خطب له بمصر سماه «النصر على مصر» لم يصلنا بعد، انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ٣٠٣.

العالم[1] ــ وقد رأيناه بالمَوْصِل كثيراً ــ فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدىء بها. فلما كان أول جمعة من المُحَرَّم صَعِدَ المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم[2] ينكر أحدٌ ذلك عليه. فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله[2]، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان[3]. وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العاضد قد اشتدَّ مرضه، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سَلِمَ فهو يعلم، وإن تُوفي فلا ينبغي أن نُنغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجلِهِ. فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه. وكان قد رتَّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قَرَاقُوش ــ وهو خَصِيٌّ ــ لحفظه، وجعله كأستاذ دار* العاضد، فحفظ[4] ما فيه حتى تسلَّمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد[4] إلى مكان منفرد، ووكَّل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء، فأعتق البعضَ ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسُكَّانه، فسبحان من لا يزول

---

(١) هو أبو أبو البركات محمد بن موفق الخبوشاني، ذكر ذلك الموفق عبد اللطيف، فيما نقله عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٢٠٥ وانظر ترجمته ٤/ ٢٩٣ من هذا الكتاب.

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في المثل: لا ينتطح فيها عنزان، إشارة إلى أن القضية لا يجري فيها خلف ونزاع. «اللسان» (نطح). و «المستقصى»: ٢/ ٢٧٧.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

ملكه، ولا يغيِّره ممرُّ الأيام وتعاقب الدهور[1].

قال: ولما اشتدَّ مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظنَّ أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلُّفه عنه[2].

قلتُ: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد ــ وقد اجتمعتُ به وهو محبوس مقيَّدٌ سنة ثمانٍ وعشرين وست مئة[3] بقلعة الجبل بمصر ــ أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: وأحضرنا ــ يعني أولادَه وهم جماعة صغار ــ فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله. وأما ندمُ صلاح الدين، فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السُّلْطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلَّم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه. وكان مذ نافق مؤتمنُ الخلافة وقُتِل[4]، صُرِف مَنْ هو زمام القصر[5] وعُزل، ووكَّل بهاء الدين قَراقُوش بالقصر، وجعله زِمَامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه؛ فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه

---

(1) «الباهر»: ١٥٦.

(2) «الباهر»: ١٥٧.

(3) سافر أبو شامة إلى مصر في هذه السنة، آخر ربيع الآخر، فدخل دمياط في جمادى الأولى، والقاهرة في جمادى الآخرة، والإسكندرية في ذي الحجة، ثم رجع إلى دمشق سابع ربيع الآخر سنة (٦٢٩ هـ). انظر «المذيل على الروضتين» حوادث هاتين السنتين، وانظر إلى ما آل إليه أمر آل العاضد في «مفرج الكروب»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١١.

(4) انظر ص ١٣٠ من هذا الجزء.

(5) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣١٠ من الجزء الأول.

ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، وَوَهَتِ المعاقد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضعٍ خارج القصر جعلَهُ برسمهم على الانفراد، وقرَّر ما يكون لهم برسم الكُسوات والأقوات والأزواد[1].

قلتُ: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار بَرْجَوان[2] في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيباً؛ ثم نقلوا بعد الدولة الصَّلاحية منها، وأُبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قَرَاقُوش واحتياطه واستظهاره، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره. وجَمَعَ الباقين من عمومتهم وعِتْرتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعدَ عنهم النِّساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نَقَصَ عددهم، وقَلَصَ مددهم. ثم عَرَضَ[3] من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدّة والعديد، والطَّريف والتَّليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنَّ، وجَمَعَ الباقيات فوهبهنَّ وَفرَّقهُنَّ، وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلَّط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعَدّ عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله ولأمرائه، وخواصِّ مماليكه وأوليائه[4]، من أخاير الذَّخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١١ ــ ١١٢.

(٢) هو أبو الفتوح برجوان، كان من خدام العزيز ومدبري دولته، نافذ الأمر مطاعاً، نقم عليه الحاكم فقتله سنة (٣٩٠ هـ). انظر «الإشارة إلى من نال الوزارة»: ٢٧ ـ ٢٨، و «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، و «خطط المقريزي»: ٣/ ٤ ــ ٥.

(٣) في الأصل: عوض، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في الأصل: ولأهله والخواص وأمرائه مماليكه، والمثبت من (م) و (ل).

الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدُّرَّة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التِّبْرِيَّة، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية، والصَّواني الصينيَّة، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النُّضارِيَّة، والكرائم واليتائم، والعُوَذ والتمائم، والعقود والنقود، والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدُّرِّ والياقوت، والحَلْي والوَشْي، والعبير والحبير، والوثير والنثير، والعيني واللُّجيني، والبُسط والفُرش، وما لا يُعَدُّ إحصاءً، ولا يحدُّ استقصاءً، فوقع فيها الفَنَاء، وكُشِفَ عنها الغطاء، وأُسرف فيها العطاء، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولَبِيسٍ وسحيق[1]، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصنوع ومعمول. واستمرَّ البيع فيها مُدَّة عشر سنين، وتنقَّلَتْ إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصَّادرين[2]. ١٩٥/١

ونقلتُ من «ديوان العماد» بخطِّه قال: ولما وصل الخبر بموت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوماً[3] بالأمر، في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات. فذكر قصيدةً، منها:

تـوفـي العـاضـدُ الـدَّعِـيُّ فمـا ... يَفْتَـحُ ذو بِـدْعَـةٍ بمصـرَ فمـا

وعَصْـرُ فِـرْعَـوْنِهـا انقضـى وغَـدا ... يـوسُفُهـا فـي الأمـور مُحْتَكِمـا

---

(١) اللبيس: الثوب الذي أكثر لبسه، فأخلق، ومثله السحيق. «معجم متن اللغة»: ٣/١١٧، ٥/١٤٣.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١١٢.

(٣) في (م): مسموماً.

وانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الغُواة وقد ... باخ[1] من الشِّرْكِ كلُّ ما اضْطَرَما

وصارَ شَمْلُ الصَّلاحِ ملتئماً ... بها وعِقْدُ السَّداد[2] مُنْتَظِما

لمَّا غدا مُعْلَناً شعارُ بني الـ ... ـعَبَّاس حقّاً والباطِلُ اكْتَتَما

وباتَ داعي التَّوحيد منتصراً ... ومِنْ دُعاة الإشراكِ مُنْتَقِما

وظَلَّ أهلُ الضَّلالِ في ظُلَلٍ ... داجِيَةٍ من غَيابةٍ[3] وعمى

وَارْتَبَكَ الجاهِلُونَ في ظُلَمٍ[4] ... لما أضاءَتْ مَنابِرُ العُلما

وعاد بالمستضيء ممتهَداً ... بناءُ حقٍّ قد كانَ مُنْهَدِما

واعتلَّتِ الدَّولة التي اضْطَّهَدَتْ ... وانتصرَ الدينُ بعدما اهتُضما

واهتزَّ عِطْفُ الإسلام من جَذَلٍ ... وافترَّ ثَغْرُ الإيمانِ وابتسما

واسْتَبْشَرَتْ أَوْجُه الهُدَى فرحاً ... فَلْيَقْرَعِ الكُفْرُ سِنَّهُ نَدَما

عاد حريمُ الأعداءِ مُنْهَتِكَ الـ ... ـحِمَى وفيءُ الطُّغاةِ مُقْتَسَما

قُصُور أهل القُصور أَخْرَبَها ... عامرُ بيتٍ من الكمال سَمَا

أَزْعَجَ بعد السُّكون ساكِنَها ... ومات ذُلاًّ وأنفُهُ رَغِمَا

ومن كتابِ فاضليٍّ عن السُّلْطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء في بعض السنين[5]: كتب الخادم هذه الخدمة من مستقرِّه ودينُ الولاء مشروع، وعَلَمُ الجهاد مرفوع، وسُؤْدُدُ السَّواد[6] متبوع، وحكم السَّداد بين الأمَّة موضوع، وسَبَبُ الفساد مقطوع[7]

---

(١) من باخت النار: سكنت. «اللسان» (بوخ).

(٢) في (م): السراد، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: غباية، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (م): ظلل، وكأنها سبق قلم مما قبلها.

(٥) انظر ص ١٩٠ من هذا الجزء.

(٦) من المعروف أن السواد شعار العباسيين.

(٧) في (م): مطوع، وهو تصحيف.

ممنوع. وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآماً، وصارت البلاد بل الدُّنيا، والشهر بل الدهر، حَرَماً حَرَاماً، وأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافة إذا ذُكّر بها أهلُ الخلاف لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً، والبِدْعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلَّة في شيع الضَّلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسمّوا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شِيَعاً، وفرّقوا أمرَ الأمة وكان مجتمعاً، وكذَّبوا بالنَّار فعُجِّلَتْ لهم نار الحتوف، ونثرت أقلامُ الظُّبى حروفَ رؤوسهم نَثْرَ الأقلامِ للحروف، ومُزِّقوا كل ممزَّق، وأُخذ منهم كل مُخَنَّق، وقُطِعَ دابرهم، ووعظ آتيهم غابِرُهم، ورَغِمَتْ أنوفهم ومنابرهم، وحقَّتْ عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمَّتْ كلماتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، وليس السيف عمن سواهم من كُفَّارِ الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم. ولا خَفَاء عن المجلس الصَّاحبي أن من شَدَّ عَقْد خلافةٍ وحَلَّ عُقَدَ خِلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عَجَزَ عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقرٌ إلى أن يُشْكَرَ[1] ما نَصَحَ، ويُقلَّد ما فتح، ويبلَّغ ما اقترح، ويقدَّمَ حقّه ولا يُطَّرَح، ويقرَّب مكانه وإن نَزَح، وتأتيه التَّشريفات الشَّريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلَبَّى دعوته بما أقامَ من دعوة، وتُوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسَلَ إليه السحب المروَّضة، فكلٌّ ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وَجْهَهُ لنصرها، وجرَّد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النُّجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته* وتنجُز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر

---

(١) في (م): يشكوا، وهو تصحيف.

قيام من برّ، واستفتح بلباس السَّواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السَّواد الأعظم، آملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاءُ فَضْلَ عَقِبه، ويخلِّد الشَّرفَ في عَقِبه.

ولصاحبنا[١] مجد الدين محمد بن الظهير الإِرْبلي[٢] من قصيدةٍ في مَدْح بعض ذُرِّيَّة السُّلْطان رحمه الله تعالى:

مليكٌ من القومِ الذينَ رِماحُهُمْ ... دعائمُ هذا الدِّين في كلِّ مَشْهَدِ

هُـمُ نَصَـرُوا التَّـوحيـدَ نَصْـراً مـؤزَّراً ... بـه عَـزَّ فـي الآفـاقِ كـلُّ مُـوَحِّـدِ ١٩٦/١

وهـم قَهَـرُوا غُلْـبَ الفرنـجِ بـبأسِهِـمْ ... فَـدَانُـوا لهـم بـالـرُّغْـم لا عَـنْ تَـوَدُّدِ

وردُّوا إلـى البيـتِ المُقَـدَّسِ نُـورَه ... وقـد كـانَ فـي ليـلٍ مـن الشِّـرْكِ أَسْـوَدِ

وهـم سَهَّلُـوا سُبْـلَ الحجيـجِ وآمنـوا ... بهـا الـركـب خـوفَ الكـافـرِ المتَشَـدِّدِ

وقـد رَكِبَـتْ فُـرْسـانُـه بَحْـرَ أَيْلَـةٍ* ... يخوضونَ في بحرٍ من الكَيْدِ مُزْبِدِ

وهم رجَّعوا مِصْراً إلى دعوة الهُدَى ... بِعَـزْمٍ ورأيٍ فـي العظـائـم مُحْصِـدِ

وهـم شَيَّـدوا رُكْـنَ الخِـلافـةِ بـالَّـذي ... أعـادوه مـن حـقٍّ طـريـفٍ وَمُتْلَـدِ[٣]

---

(١) قصيدة الإِربلي، ساقطة من (م).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عمر، الحنفي الأديب، ولد بإربل سنة (٦٠٢ هـ)، سمع بدمشق من علم الدين السخاوي شيخ أبي شامة، فانعقدت بينهما صحبة، وحدّث عنه أبو شامة أيضاً، كان من كبار الحنفية، درس بالمدرسة القيمازية (كانت تقع شرقي قلعة دمشق، مجاورة دار الحديث الأشرفية الجوانية، درست الآن)، وكان من أعيان شيوخ الأدب، وفحول المتأخرين في الشعر، له «ديوان» لم يصلنا بعد، توفي سنة (٦٧٧ هـ) بدمشق. انظر ترجمته في «فوات الوفيات»: ٣/ ٣٠١ ــ ٣١٠، وفيه منتخبات من شعره، و «العبر» للذهبي: ٥/ ٣١٦، و «الوافي بالوفيات»: ٢/ ١٢٣ ــ ١٢٧، و «الجواهر المضية»: ٣/ ٥٢ ــ ٥٤، ٤/ ٤٩٢ ــ ٤٩٥، و «البداية والنهاية»: ١٣/ ٢٨٢ ــ ٢٨٣، و «الدارس في تاريخ المدارس»: ١/ ٥٧٤ ــ ٥٧٥.

(٣) في الأصل: ملتد، والمثبت من (ل).

وهم شَرَّفوا قَدْرَ المنابرِ باسمها وذكرٍ مَنُوطٍ بالرَّسول مُمَجَّدِ[1]
وهم وَهَبُوا غُرَّ الممالكِ واكتفوا بسُمْرِ العوالي والعلاء المُشَيَّدِ
فَسَلْ عن ظُباهم يوم حِطِّين كم قَضَتْ بمرٍّ مرادِ الله في كلِّ أَصْيَدِ
وضَعِّفْ حديث العَدْلِ والبأس والنَّدى إذا كان عن أيامهم غير مُسْنَدِ

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: قد قدَّمنا ذكر مكاتبة نور الدين رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخُطْبة بمصر للعبَّاسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نور الدين فيه، وألحَّ نور الدين على[2] صلاح الدين[2] في طَلَبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتَّهم صلاح الدين، وشَنَّع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك.

ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقرَّ بعد، وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السُّودان وغيرهم، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلاَّ فسدت أحواله. فلما أوقع السُّلْطان الملك الناصر بالسُّودان والأَرْمن، ونكب أمراء[3] المصريين وقطع أخبارهم، ونزَّل أجناده في دُورهم، ثم قطع إقطاع العاضد، وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكَّلَ بها وبمن فيها قَرَاقُوش الخادم، وخَلَت له بلاد مصر من معاندٍ ومنابذ. ثم شرع وأبطل من الأذان «حيّ على

---

(١) في الأصل: فوقها محمد (خ) أي في نسخة أخرى، وهي المثبتة في (ل).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في الأصل: أمر، والمثبت من (ل) و (م).

خير العمل»، وأنكر على من يتّسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، وأعداؤه قليلون، شرع حينئذٍ في الخُطْبة لبني العبّاس، ولمَا عَوَّل على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعةٍ من أصحابه وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يُحضِرَ الخطيبَ إليه ويأمره بما يختاره. وإنما فعل الملك النَّاصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهاراً وخوفاً من فادحة ربما طرأت، أو عدوٍّ ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولمّا حَصَل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال [له][1]: إن ذَكَرْتَ هذا المقيم بالقصر ضَرَبْتُ عنقك. فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العبّاسي. فلما صَعِدَ المنبر وخطب، ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنّه دعا للأئمة المهديّين وللسُّلْطان الملك الناصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال: لمن خُطب؟ قيل له: لم يُخطب لأحدٍ مسمّى. قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مُسَمَّى. واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل: إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهَمُّ حتى مات. وقيل: إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتمَّ، وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعلِّلاً خمسة أيام ومات. وقيل: إنه امتصَّ فَصَّ خاتمه، وكان تحته سُمٌّ، فمات.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسُّلْطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت. أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المَارَسْتانية[1] في «سيرة ابن هُبيرة الوزير»[2] قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد[3] في سنة خمسٍ وخمسين وخمس مئة، كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة، وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرِّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحانٍ وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النَّاس بإمامهم. قال: وكان الرجل [قد][4] استَقْبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا، واستيقظ الرَّجل، وبلغ هذا المنام ابنَ هُبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتَبْدلُ به، وتكون الدعوة لبني

١٩٧/١

---

(١) في الأصل و(ل) المارستاني، وفي (م): المرستان، وهو خطأ، وهو عبيد الله بن علي بن نصر، المعروف بابن المارستانية نسب إلى أمه، وكانت تخدم مع أبيه في المارستان، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٩ هـ).

(٢) سلفت ترجمة ابن هبيرة ص ٤٤٠ من الجزء الأول.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: رأيت في السيرة المذكورة أن الذي رأى هذا المنام هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحمدي سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة، والله أعلم».

(٤) ما بين حاصرتين من (م).

العباس لمكان اللِّحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتَبَ نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة[1] لبني العباس بها على يده.

وقيلت في ذلك الزمان أشعارٌ في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان[2]، وكان صاحب[3] ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام[4]:

لِتَهنِك[5] يا مَوْلى الأنام بشارةٌ — بها سَيْفُ دينِ الله بالحقِّ مُرْهَفُ
ضَرَبْتَ بها هَامَ الأعادي بهِمَّةٍ — تَقَاصَرَ عنها السَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ
بَعَثْتَ إلى شَرْقِ البلادِ وغَرْبها — بعوثاً من الآراء تحيي وَتُتْلِفُ
فقامَتْ مَقامَ السَّيْفِ والسَّيْفُ قاطِرٌ — ونابَتْ منابَ الرُّمْح والرُّمْحُ يَرْعُفُ
وَقُدْتَ لها[6] جيشاً من الرَّوْعِ هائلاً — إلى كلِّ قَلْبٍ من عِدَاتِك يَزْحَفُ

---

(١) في (ل): الدعوة.

(٢) كذا في الأصل و(ل)، وفي (م) شمس المعالي أبي الفضائل بن تركمان ــ وتركمان تصحيف ــ وفي «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ج ٤/مج ٢/ ٥٠٦ ــ ٥٠٨، و «المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٢٧٤ محمد بن الحسين، من أكابر أهل واسط. وكان الوزير ابن هبيرة يصدر عن رأيه ويأخذ بقوله، ويعتمد عليه في جميع أنحائه، ولما توفي الوزير سنة (٥٦٠ هـ) أخذ وحبس، وضرب ضرباً شديداً أشرف به على الموت، توفي شاباً بعد وفاة الوزير بعام (٥٦١ هـ).

(٣) في (ل): حاجب.

(٤) في الأصل: «حاشية، قال المؤلف: أول هذه القصيدة:

لعل حُداة الركب أن يتوقَّفوا — ليشفي غليلاً بالمدامع مُدْنَفُ

وبعد قوله: فشابهته:

كشفت بها عن آل هاشم سبةً — وعاراً أبى إلا بسيفك يُكْشَفُ

(٥) في الأصل: ليهنك، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) في (م): بها.

مَلَكْتَ بـه أَقْصَى المغـارِبِ عَنْـوَةً ... وكادَتْ بمن فيها المشارِقُ تَرْجُفُ[1]

لِيَهْنِكَ يـا مـولاي فَتْحٌ[2] تَتَـابعتْ ... إليك بـه خـوصُ الـركـائب تُـوجَفُ

أَخَـذْتَ بــه مِصْــراً وقـد حـال دونهـا ... من الشِّرْكِ بأسٌ[3] في لَهَى الحق يُقْذَفُ

وقـد دَنَّسَـتْ منهـا المنـابِـرَ عُصْبَـةٌ ... يَعاف التُّقى والدينُ منهم ويَأْنَفُ[4]

فَطَهَّـرهـا مـن كـلِّ شِـرْكٍ وبِـدْعـةٍ ... أغـرُّ غـريـرٌ بـالمكـارمِ يَشْغَـفُ

فعـادَتْ بحمـد الله بـاسـم إمـامنـا ... تتيـهُ علـى كـلِّ البـلادِ وتَشْـرُفُ

ولا غَرْوَ أن دانَتْ[5] ليوسُفَ مِصْرُه ... وكـانـت إلـى عَلْيَـائـه تتشـوَّفُ

تملَّكهـا مـن قَبْضَـةِ الكُفْـر يـوسُـفٌ ... وخلَّصها من عُصْبَةِ الرِّفض يوسُفُ

قال يحيى بنُ أبي طيّ: يريد بيوسف الأول يوسف الصِّدِّيق النبي ﷺ، وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذٍ[6]، وقاله على سبيل الفأل؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشـابهتـه خَلْقـاً وخُلْقـاً وعِفَّـةً ... وكلٌّ عن الرَّحمٰن في الأرْضِ يَخْلُفُ

وجرى الفأل في البيت باسم الملك النَّاصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

---

(١) هذا البيت ساقط من (م).
(٢) في الأصل: فتحاً، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل و (ل): ناس، والمثبت من (م).
(٤) في الأصل: تعاف.. تأنف، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) دانت، ساقطة من (م).
(٦) مَرَّ أن اسم المستنجد بالله هو يوسف، انظر ص ١٧٧ من هذا الجزء.

قلت[1]: وذكر ابن المَارَسْتانية[2] في السيرة المذكورة، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزيرُ ابنُ هبيرة نورَ الدين بن زَنْكي يحثُّه على التعرُّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر[3] وقدومه هارباً منه[4] إلى نور الدين، فحرَّك ذلك ما كان تخمَّر في نفسه مما كان كاتبه به ابنُ هُبيرة، فاستطلعَ من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسيَّر إليها أسد الدين، كما سبق ذِكْره[1].

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السُّنَّة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلُّوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دُورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعَظُمَتِ الأذية بذلك. وجلا أكثر أهل مِصْر عنها إلى البلاد، وفرح النَّاس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار، وتحدَّث به السُّمَّار.

ولما وصل خبرُ ذلك إلى نور الدين ندبَ للبشارة به إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المُطَهَّر بن أبي عَصْرون، وكتب معه نسخة بشارة تُقرأ بكلِّ مدينةٍ يمرُّ بها، يقول فيها: أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رِتاجَه، وأوضح لنا مِنْهاجَهُ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن[5] والبلاد والأقطار والأمصار المِصْرية والإسكندرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).
(٢) في النسخ الخطية: ابن المارستاني، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.
(٣) فوقها في الأصل: مصر (خ)، أي في نسخة أخرى، وهي المثبتة في (ل).
(٤) منه، ساقطة من (ل).
(٥) المدن، ساقطة من (ل).

والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قُوص* وأُسْوان بأقصى الصَّعيد، وهذا شَرَفٌ لزماننا هذا وأهله، يفتخر[١] به على الأزمنة التي مضت من قبله. وما بَرِحت هممنا[٢] إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعَزَائمنا في إقامة الدَّعوة الهادية بها ماضِيَة، والأقدار في الأزل بقضاء آرابنا ونجاز مواعدنا قاضِيَة، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقَدَرْنا عليها وقد عَجَزوا عنها. وطالما مَرَّت عليها الحِقَب الخوالي، وآبت[٣] دونها الأيام والليالي، وبقيت مئتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين، مملوَّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضَّلال، مقفرة المَحَلِّ إلا من المُحال، مفتقرة إلى نُصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعةً يدها في إشكائها، متظلِّمة إليه ليكفُلَ بإعدائها على أعدائها، حتى أَذِنَ الله لغُمَّتها بالانفراج، ولعِلَّتها بالعلاج؛ وسَبَّب قصدَ الفرنج لها وتوجُّههم إليها، طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبِدْعة، وكلاهما شديد الرَّوْعة، فملَّكنا الله تلك البلاد، ومكَّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمِّله في إزالة الإلحاد والرِّفض، من إقامة الفَرْض[٤]، وتقدَّمنا إلى من استنَبْنَاه أن يستفتحَ باب السَّعادة، ويستنجح مالنا من الإرادة، ويقيم الدَّعوة الهادية العَبَّاسية هنالك، ويورد[٥] الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك.

١٩٨/١

وهو كتابٌ طويل اخترت منه الغرض، وهو هذا.

---

(١) في (ل): نفتخر.

(٢) في (ل): همتنا.

(٣) في (م): وأنت، وهو تصحيف.

(٤) في (م): الرفض، وهو تحريف.

(٥) في (م): ويوردوا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينةً إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذِّكْر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكبُ إلى تلَقيه[1] وجميعُ أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظِّمين لجليل موروده، ونُثرت عليه دنانير الإنعام، وحُبي بكلٍّ إحسانٍ وإكرام، وأُرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين[2]، كما سيأتي ذكره[3].

وقال العماد: كان صلاح الدين لا يخرجُ عن أمر[4] نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين. وقد كان كاتَبَه نور الدين في شوال سنة ستٍّ وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصَّعْبَة[5]، وافتراع بِكْر هذه القضية وفرع الرتبة. وأيقن أن أمره متبوع، وقولَه مسموعٌ، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التَّمام، ألسُنُ الخواص والعوام، فسيَّر نورُ الدين شهابَ الدين أبا المعالي المطهَّر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدَّم له بها من الإشاعة، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصَّة للديوان العزيز بحضرة الإمام، في مدينة السَّلام ــ ثم ذكر نسخة الكتابين[6].

ثم قال: ونظمتُ قصيدةً مشتملة على الخُطْبة بمصر، أولها:

---

(١) في (ل): لتلقيه.

(٢) وصلاح الدين، ساقطة من (م).

(٣) انظر ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ من هذا الجزء.

(٤) في (م): على أمور.

(٥) في الأصل: هذه الصعبة، بزيادة هذه، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٤ ــ ١١٥.

قــد خطبنـا للمستضـيء بمصـرِ   نـائـب المصطفـى إمـامِ العَصْـرِ
وخَــذَلنـا لنُصْـرةِ العَضُــدِ العــا   ضـدَ والقـاصـرَ الـذي بـالقَصْـرِ

أراد بالعَضُد وزير بغداد عَضُد الدين بن رئيس الرؤساء[1].

قال العماد في كتاب «الخريدة»: قصدت بالعَضُد والعاضد المجانسة. ونصرة وزير الخليفة كنصرته. ثم قال:

وأشَعْنَـا بهـا شعـارَ بنـي العَبَّ (م)   ـاس فـاسْتَبْشَـرَتْ وُجُـوه النَّصْـرِ
وتَـرَكْنـا الـدَّعـيَّ يـدعـو ثُبُـوراً   وهـو بـالـذُّلِّ تَحْـتَ حَجْـرٍ وحَصْـرِ
وتبـاهَـتْ منـابِـرُ الـدِّيـنِ بـالخُطْـ   ـبـةِ للهـاشمـيِّ فـي أَرْضِ مِصْـرِ
ولـدَيْنَـا تَضَـاعَفَـتْ نِعَـمُ اللَّـ   ـهِ وَجَلَّـتْ عـن كـلِّ عَـدٍّ وَحَصْـرِ
فاغتدى الدينُ ثابتَ الرُّكْنِ في مِصْـ   ـرَ مَحُـوطَ الحِمـى مصـونَ الثَّغْـرِ
واستنـارَتْ عَـزَائِـمُ المَلْـك العـا   دل نـورِ الـدِّيـن الكـريـم الأَغَـرِّ
وبنـو الأَصْفَـرِ القـوامـصُ* منـه   بـوجـوهٍ مـن المخـافـة صُفْـرِ
عَـرَفَ الحـقَّ أهـلُ مِصْـر وكـانـوا   قبلَـــهُ بيـــنَ مُنْكِـــرٍ ومُقِـــرِّ
قل لداعي الدَّعيِّ حَسْبُكَ[2] فاللَّـ   ـه أقـرّ الحقـوقَ خيـرَ مقـرِّ
هـو فَتْـحٌ بِكْـرٍ [و][3] دون البـرايـا   خَصَّنـا اللَّـهُ بـافتـراعِ البِكْـرِ
وحَصَلْنَـا بـالحمـد والأَجْـرِ والنَّصْـ   ـرِ وطيـبِ الثنـا وحُسْـنِ الـذِّكْـرِ
ونَشَـرْنَـا أعـلامَنَـا السُّـودَ قهـراً   للعِـدى الـزُّرْقِ بـالمنـايـا الحُمْـرِ
واسْتَعَـدْنـا مـن أدعيـاءَ حقـوقـاً   تُـدَّعـىٰ بينهـم لـزيـدٍ وعَمْـرِو
والـذي يـدَّعـي الإمـامـة بـالقـا   هـرةِ انحـطَّ فـي حضيـضِ القَهْـرِ

(١) سيرد خبر مقتله ص ٤٨١ من هذا الجزء.
(٢) في (م): حسبك الله فالله، وهو وهم، وينكسر به وزن البيت.
(٣) ما بين حاصرتين من (م).

خانه الدَّهرُ في مُناه، ولا يطـ ـمَعُ ذو اللُّبِّ في وفاءِ الدَّهرِ
ما يُقَام الإمامُ إلا بحقٍّ ما تُحاز الحسناءُ إلا بمهرِ
خلفاءُ الهدى سَرَاة بني العبّـ (م) ـاسِ والطيِّبون أهل الطُّهْرِ
بهِمُ الدين ظافرٌ مستقيمٌ ظاهرٌ قُوّةً قويُّ الظَّهْرِ 199/1
كشموس الضُّحى كمثل بدورِ التّـ (م) ـمِّ كالسُّحْب كالنُّجوم الزُّهْرِ
قد بلغنا بالصَّبْرِ كلَّ مُرَادٍ وبلوغُ المُرَاد عُقْبى الصَّبْرِ
ليس مُثْري الرجال من مَلَكَ الما لَ ولكنما أخو اللُّبِّ مُثْري
ولهذا لم ينتفع صاحب القصْـ ـر وقد شارف الدُّثور بِدَثْرِ[1]
دامَ نَصْرُ الهُدى بمُلك بني العبّـ (م) ـاس حتى يقومَ يَوْمُ الحَشْرِ[2]

قال العماد في «ديوانه»، ونَقَلْتُهُ من خَطِّه، قال: ووصل الخبر بالخطبة في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري شهر رمضان لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وإشاعة شعار بني العباس بها. فقلتُ، ونحن نزولٌ بجسر الخشب* من دمشق في عاشر شَوَّال، وكتبتُ بها إلى بغداد ــ فذكر هذه القصيدة.

وقال في «البرق»: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صَنْدَل[3] وهو من أكابر الخدم المقتفوية، من ذوي الروية والهِمَّة القوية. وتولى أستاذية الدار* العزيزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها، فأُكرم نور الدين بإرسال مثله إليه، وعُوِّل في هذا الأمر المهمِّ عليه.

(1) الدثور: الدروس، والدثر: المال الكثير. «القاموس المحيط» (دثر).
(2) انظر مختارات من هذه القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: 2/ 14 ــ 17.
(3) في الأصل: سندل، والمثبت من (ل) و (م). وقد ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (593 هـ).

وهو أكرمُ رسولٍ وصل، فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشَّريف لنور الدين مكملاً، معظَّماً مجملاً، بأُهبته* السوداء العراقية، وحُلَله الموشِيَّة، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل.

وعُيِّن يوم يحضر فيه الرسول، ونصُّوا على من يحضر في مجلس نور الدين وأغفلوا ذِكْر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسل له لما حضر، وقَصَدَ أن يعرِّفهم منزلته عنده، وناوله الكتاب ليقرأه. قال: فتناوله مني الموفق بن القَيْسَراني خالد*، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريته ومَاريته، وتركته يقرأ وأنا أردُّ عليه، وأرشده في التلاوة إلى ما لا يهتدي إليه، حتى أنهاه، وأنا على افتئاته عليَّ لا أنهاه. فأعجبَ نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل التأتي[1]، واجتاب الأُهبة*، ولبس الفَرَجية* فوقها، وتقلَّد مع تقلُّد السيفين طوقها. وخرج وركب من داخل القلعة، وهو حالٍ بما عليه من الخِلْعة؛ واللواء منشور، والنُّضار منثور، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبة، والآخر بحليته مجنوبة.

قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين، واشتماله بالنّجادين، فقيل: هما للشَّام ومصر، والجمع له بين البلادين.

وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر*، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمَصْدَر، لبيقاً بالأعظمين: السَّرير والمنبر. وكان وزن الطَّوْق مع أُكْرَته ألف دينار من الذَّهب الأحمر. وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً، رائعاً رائقاً، لجماله وكماله لائقاً، لكنَّ تشريفَ نور الدين أميز وأفضل، وأجمل وأكمل. فسيَّر تشريفه بِرُمَّته إليه بمصر ليجتابه، وسَيَّر أيضاً

(١) في طبعة وادي النيل ١٩٩/١: فضل التأني والتأتي.

بخِلَع من عنده يكرم بها أصحابه. ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وآنس من السَّعادة الدائمة قَبَسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أُهبة عَبَّاسِيَّة دخلت الديار المصرية؛ يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلامٌ وبنود، ورايات سود، وأُهَبٌ عباسية، للخطباء في الدّيار المصرية، فسُيِّرت إلى صلاح الدين، ففرَّقها على المساجد والجوامع والخطباء والقُضاة والعلماء؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى، ووهب وأعطى[1].

قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القُصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر[2]؛ لأن شاور[3] كان قد ضيَّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدَّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه: قضيب زمرّد طوله شبر وكَسْر، قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طَبْلٌ للقولنج، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع، ووجد فيه سبع مئة يتيمة من الجوهر. فأما قضيب الزُّمرد فإن[4] السّلطان أخذه وأحضر صائغاً ليقطعه[4]، فأبى الصَّائغ[5] قطعه، فرماه السّلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرَّقه السُّلطان على نسائه. وأما طبل القولنج [فإنه][6] وقع[7] إلى بعض الأكراد

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٥ ــ ١١٧.

(٢) في (ل): كثيراً.

(٣) شاور، ساقطة من (ل).

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) في الأصل و (م): الصانع، والمثبت من (ل).

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٧) في الأصل: دفع، والمثبت من (ل) و (م).

فلم يَدْرِ ما هو، فكسره، لأنه ضَرَبَ به فحَبَق[1]، وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد.

واحتاط السُّلْطان على أهل العاضد وأولاده في موضعٍ خارج[2] القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقَرَّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قَرَاقُوش الخادم، وفرَّق بين النساء والرِّجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم. واستعرض مَنْ بالقصر من الجواري والعبيد، والعُدَّة والعديد، والطَّريف والتّليد، فأطلق مَنْ كان منهم حُرًّا، وأعتق[3] من رأى إعتاقه، ووهب من أراد هبته. وفَرَّق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البَلَخْش[4] والياقوت وقضيب الزُّمرُّد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدَّة عشر سنين.

١/٢٠٠

قال: ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدُّنيا ويقال: إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة بتاريخ الطَّبري، ويقال: إنها كانت تحتوي على ألْفَي ألف وست مئة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. وحَصَّل القاضي الفاضل نُخبَها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكلُّ كتابٍ صَلُحَ له قطع جِلْده ورماه في بركةٍ كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك،

---

(١) أي ضرط، «القاموس المحيط» (حبق).

(٢) في (ل) و (م): في خارج.

(٣) في (م): فأطلق، وهو تحريف.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

ومنها حَصَّل ما[1] حصّل من الكتب، كذا أخبرني جماعةٌ من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى[2] بن محمد.

واقتسم النَّاس بعد ذلك دور القَصْر، وأعطى السُّلْطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة؛ وهو قَصْرٌ عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري؛ ونقل الملك العادل[3] إلى مكانٍ آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحِبَها وسكنها. وانقضت تلك الدولة برمَّتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد، مئتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال: وحكي أن الشَّريف الجليس ــ وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدِّثه ــ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السُّلْطان بعد القبض على القُصور، وأَخْذِ ما فيها وانقراض دولتهم[4]، وغَرِمَ هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدَّولة لهذا الشريف: حدِّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم. قال: نعم، طلبني العاضد يوماً ولجماعة من النُّدماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من التُّرْك عليهم أقبية* مثل أقبيتكم، وقلانس* كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق* كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير

---

(١) في (م): له.

(٢) في (ل): وموسى، وهو وهم.

(٣) هو سيف الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين، انظر ص ٢١٢ من هذا الجزء.

(٤) هذا الخبر يعد من جملة أوهام ابن أبي طي، فقد سلف ص ٦ من هذا الجزء أن الجليس توفي سنة (٥٦١ هـ)، أي قبل انقراض دولة الفاطميين بنحو ست سنوات..

المؤمنين، ما هذا الزِّيّ الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأُخِذَت ذخائر القصر. ففصَّلها كما سبق[١]. ثم قال: ومن جملتها الكتب، فإني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين[٢]، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مئة وعشرين ألف مجلَّدة، مؤبَّدَة من العهد القديم مخلَّدة، وفيها بالخطوط[٣] المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه[٤] التعدِّي؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام[٥]، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشَّام. وتقاسم الخواص بِدُورِ القصر وقُصورِه، وشرع كل من سكن في تخريب معموره؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرَّت سكناه فيه. وخطب لإمامنا المستضيء في قُوص* وأُسْوان والصَّعيد، والقاصي والدَّاني والقريب والبعيد. وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر. وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم ملَّكها أمراءه، وخَصَّ بها أولياءه؛ وباع منها أماكن، ووهب منها[٦] مساكن، وعفَّى الآثار القديمة، واستأنف السُّنن الكريمة[٧].

وقال ابن الأثير: لما استولى صلاح الدين على القَصْر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً. وكان فيه من

---

(١) انظر ص ١٩٣ ــ ١٩٤ من هذا الجزء.
(٢) انظر ص ٤٤٤ ــ ٤٤٦ من هذا الجزء.
(٣) في (ل): من الخطوط.
(٤) في (م): واقتطفه.
(٥) في (م): الانتهاب، وهو وهم.
(٦) منها، ليست في (ل) و (م).
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٣.

الجواهر والأعلاق النَّفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جُمع على طول السنين وممرّ الدُّهور، فمنه القضيب الزمرُّد طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت، وغيرهما؛ [و][1] من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مئة ألف مجلد[2].

فَصْــــل

ولما خُطب بالديار المِصْرية لبني العبَّاس، ومات العاضد انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة. واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلُّهم من قِبَل نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ هم أمراؤه وخدمه وأصحابه. وفيهم يقول العَرْقَلَة[3]:

أصبح المُلكُ بعدَ آلِ عليٍّ	مشرقاً بالملوك من آلِ شاذي
وغدا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الغَرْبَ للقو	مِ ومِصْرٌ تزهو على بَغْداذِ
ما حَوَوْها إلا بحزمٍ وعَزْمٍ	وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفِرْعون والعزيز ومن كا	ن بها كالخَصِيبِ[4] والأُستاذ[5]

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) «الباهر»: ١٥٧.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من الجزء الأول.

(٤) في (م): الخطيب، وهو تصحيف، والخصيب هو ابن عبد الحميد، كان على خراج مصر لواليها الحسين بن جميل الذي وليها للرشيد سنة (١٩٠ هـ)، وإليه تنسب منية الخصيب، وهو ممدوح أبي نواس، قال فيه حين زار مصر:

فإن يك فيكم إفك فرعون باقياً فإن عصا موسى بكف خصيبِ

انظر «ديوان أبي نواس»: ٤٨٤ ــ ٤٨٥ ففيه رائية في مدحه أيضاً، و «خطط المقريزي»: ١/ ٣٣١ ــ ٣٣٢.

(٥) الأبيات في «ديوانه»: ٣٧ ــ ٣٨، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٠٣ ــ ٢٠٤.

يعني بالأستاذ كافور الإخشيدي. وقوله: بعد آل علي، يعني بذلك بني عبيد المستخلفين بها، أظهروا للنَّاس أنهم شرفاء فاطميون، فملكوا البلاد، وقهروا العباد. وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً[1]، بل المعروف أنهم بنو عبيد.

٢٠١/١

وكان والد عُبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسي، وقيل: كان والد عبيد هذا يهودياً من أهل سَلَمْية[2] من بلاد الشَّام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله[3]، وزعم أنه علويٌّ فاطميٌّ، وادَّعى نسباً ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنِّفي الأنساب العَلَويَّة، بل ذكر جماعة من العلماء بالنَّسب خلافه، وهو ما قدَّمنا ذكره. ثم ترقَّت به الحال إلى أن ملك[4] وتسمى بالمهدي، وبنى المهدِيَّة

---

(١) اختلف علماء النسب والمؤرخون في صحة نسبهم، فالذين طعنوا بنسبهم اعتمدوا على المحضر الذي رفع للقادر بالله العباسي سنة (٤٠٢ هـ) زمن الحاكم بأمر الله، وقد تضمن القدح فيهم، وممن أيد صحة نسبهم ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي، وعلل السخاوي سبب تأييد ابن خلدون لنسبهم برأي غريب، وذكر أن المقريزي يدعي الانتساب إليهم. انظر «الكامل»: ٨/ ٢٤ وما بعدها، و «مقدمة ابن خلدون»: ١/ ٢٣٩ ــ ٢٤٤، و «اتعاظ الحنفا»: ١/ ٢٢ ــ ٥٤، و «المنتظم»: ٧/ ٢٥٥ ــ ٢٥٦، و«كنز الدرر» ٦/ ٥ وما بعدها و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٣٢، ١٤٢، ١٧٧ ــ ١٧٨، و «الإعلان بالتوبيخ»: ٩٤ نشرة القدسي، و«الضوء اللامع»: ٢/ ٢٣.

ولبرنارد لويس دراسة في نسبهم في كتابه «أصول الإسماعيلية» طبع بالقاهرة سنة ١٩٤٨، ثم أعيد طبعه في بيروت عن دار الحداثة سنة ١٩٨٠ م، و «في نسب الخلفاء الفاطميين» وهو كتاب المهدي إلى اليمن، نشره الدكتور حسين الهمداني، طبع بالقاهرة في مطبعة الجامعة الأمريكية سنة ١٩٥٨ م.

(٢) يلفظها أهل الشام: سَلَمِيَّة، وهي من أعمال حمص، والغالب على أهلها حتى الآن المذهب الإسماعيلي. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٤٠ ــ ٢٤١.

(٣) في (ل): بعبد الله، وهو تصحيف.

(٤) في (ل): تملك.

بالمغرب ونسبت إليه. وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإسلام، متظاهراً بالتشيع متَستِّراً به، حريصاً على إزالة الملَّة الإسلامية؛ قتل من الفقهاء والمحدِّثين والصَّالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود، ليبقى العالم كالبهائم، فيتمَكَّن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿والله مُتِمُّ نُورِه ولو كَرِهَ الكَافِرُون﴾[1]، ونشأت ذرِّيته على ذلك منطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفُرصة وإلا أَسَرُّوه، والدُّعاة لهم منبثُّون في البلاد، يضلُّون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحِجَّة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمس مئة.

وفي أيامهم كثرت الرَّافضة واستحكم أمرهم، ووضعتِ المكوسُ على النَّاس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشَّام... والحشيشية نوعٌ منهم. وتمكَّن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم. وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشَّام والجزيرة، إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي، وتقدَّمه مثل صلاح الدين، فاستردُّوا البلاد، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد.

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً[2]، ثلاثة منهم بإفريقية، وهم الملقَّبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعزّ، والعزيز، والحاكم، والظَّاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

(٢) انظر أخبارهم ومظان تراجمهم في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٤١ ــ ٢١٥.

يدَّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطميَّة والدولة العلوية، وإنَّما هي الدَّولة اليهودية أو المجوسية الباطنيَّة الملحدة. ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جُدْران المساجد وغيرها.

وخطب عبدهم جوهر ــ الذي أَخَذَ لهم الدِّيار المصرية، وبنى لهم القاهرة المعزِّية ــ بنفسه خطبة طويلة قال فيها: اللهم صَلِّ على عبدك ووليِّك، ثمرة النبوَّة وسليل العِتْرَة الهادية المهدِيَّة، مَعَدّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صلَّيت على آبائه الطاهرين، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين.

كذب عدوُّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولا في ذرِّيته الباقين، والعِترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصَّدْر الأول.

وقد بيَّن نسبهم هذا، وأوضح مُحالهم وما كانوا عليه من التَّمويه وعداوة الإسلام جماعة ممن[1] سلف من الأئمة والعُلماء، وكل متَورِّع منهم لا يُسميهم إلاّ بني عبيد الأدعياء، أي يدَّعون من النسب ما ليس لهم. ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب[2]، فإنه كشف في أول[3]

---

(١) في الأصل: من، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) المعروف بابن الباقلاني، عالم مشهور، من كبار علماء الكلام، وإليه انتهت رياسة المالكية في وقته، كان له بجامع البصرة حلقة عظيمة، من أشهر كتبه المطبوعة «إعجاز القرآن» حققه السيد أحمد صقر، وقدمه بمقدمة قيمة، نشرت بعد بكتاب مستقل باسم «الباقلاني وإعجاز القرآن». أما كتابه «كشف أسرار الباطنية» فلم يصلنا بعد. انظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ٥/ ٣٧٩ ــ ٣٨٣، و «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ١٩٠ ــ ١٩٣.

(٣) أول، ساقطة من (م).

كتابه، المسمى بـ «كشف أسرار الباطنية»، عن بطلان نسب هؤلاء إلى عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ القدَّاح الذي انتسبوا إليه دَعيٌّ من الأدعياء، ممخرق كذاب، وهو أصل[1] دعاة القرامطة، لعنهم الله.

وأما القاضي عبد الجبار البَصْري[2]، فإنه استقصى الكلام في أصولهم[3]، وبيَّنَها بياناً شافياً في أواخر كتاب «تثبيت النبوَّةِ» له[4]. وقد نقلت كلامهما في ذلك، وكلام غيرهما في «مختصر تاريخ دمشق»[5] في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس[6]، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس

---

(١) في الأصل: أضل، والمثبت من (ل) و (م)، والمعروف أن القرامطة هم حركة انفصالية عن الدعوة الإسماعيلية، من أسبابها معارضتهم ابتعاد المهدي ـ باتجاهه غرباً ـ عن أراضي الدولة العباسية التي يطمعون بتدميرها، انظر «ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية» الدورة الثانية، تونس ١٩٧٧ ص ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد، أبو الحسن الهمذاني، كان من كبار فقهاء الشافعية، وشيخ المعتزلة في عصره، له كثير من المصنفات المطبوعة، توفي سنة (٤١٥ هـ). وقد نسبه أبو شامة إلى البصرة لنزولـه فيها نحو سنة (٣٤٦ هـ)، وكان للمعتزلة فيها وقتئذٍ منزلة كبيرة، وفيها تحول عبد الجبار من مذهب الأشاعرة إلى مذهب الاعتزال. انظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ١١/ ١١٣ ـ ١١٥، و «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥، و «طبقات المعتزلة»: ١١٢ ـ ١١٣. وللدكتور عبد الكريم عثمان كتاب فيه عنوانه «قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني»، طبع في دار العربية في بيروت ١٩٦٧ م.

(٣) في الأصل و(ل): أصولها، والمثبت من (م).

(٤) طبع كتاب «تثبيت دلائل النبوة» في جزأين بتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان في بيروت سنة ١٩٦٦ م.

(٥) انظر ص ٢٥ من الجزء الأول.

(٦) كان ولي عهد الحاكم، ثم ولاه نيابة دمشق سنة (٤١٠ هـ)، فلما قتل الحاكم في السنة التالية قبض الأمراء عليه، وحمل مقيداً إلى مصر، وسجن إلى أن مات، وقيل: بل نحر نفسه في الحبس. انظر «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ١١٣ ـ ١١٤ نشرة د. زكار، و «تاريخ دمشق» لابن عساكر: س (خ): ج ١٠/ ١٤٧ أ ـ =

النَّاس[1]، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإسلام.

وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشَّعر عند[2] سماعها، ولكن لا بد من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لِمَنْ لعلّه يعتقد إمامتهم، وخفي عنه مُحالُهم، ولم يعلم قِحَتهم ومكابرتهم، وليعذر مَنْ أزال دولتهم، وأمات بِدْعتهم، وقلَّل عِدَّتهم، وأفنى أُمَّتهم، وأطفأ جمرتهم.

ذكر عبد الجبار القاضي أنَّ الملقَّب بالمهدي ــ لعنه الله ــ كان يتَّخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعُلماء فيذبحون في فُرشهم. وأرسل إلى الروم وسلَّطهم على المسلمين؛ وأكثر من الجَوْر واستصفاء الأموال وقتل الرجال. وكان له دُعَاة يُضِلُّون الناس على قدر طبقاتهم، فيقولون لبعضهم: هو المهدي ابن رسول الله ﷺ، وحُجَّة الله [على خلقه][3]. ويقولون لآخرين: هو رسول الله ﷺ، وحجة الله على خلقه، ويقولون لطائفةٍ أُخرى: هو الله الخالق الرَّازق. لا[4] إله إلا الله وحده لا شريك له، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول[5] الظالمون علوّاً كبيراً[4].

ولما هلك قام ابنه المسمَّى بالقائم مقامه، وزاد شرُّه على شرِّ أبيه أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادي في أسواق المهدِيَّة ١/٢٠٢

= ١٤١ ب، و«سير أعلام النبلاء»: ١٧٨/١٥، ١٨٤، وانظر «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور: ٣٢٨/٢٩ ففيه قصيدة تصور حريق دمشق في عهده.

(١) في (م): النار، هو تصحيف.

(٢) في الأصل: عن، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين من (ل).

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) في (ل): عما يصفون ويقول.

وغيرها: الْعنوا عائشة وبَعْلَها، الْعنوا الغار ومن حوى.

اللهم[1] صَلِّ على نبيِّك وأصحابه وأزواجه الطَّاهرين، والْعَن هؤلاء الكفرة الفَجَرة الملحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قَلْعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم؛ وأَصْلِهِمْ سعيراً، ولَقِّهم ثُبُوراً، وأسكنهم النَّار جميعاً، واجعلهم ممن قلت فيهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ[1] صُنْعاً﴾[2].

رجعنا إلى الأصل:

وبعث إلى [أبي][3] طاهر القِرْمِطي المقيم بالبحرين، وبعثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف.

وقام بعده ابنه المسمَّى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مَخْلَداً الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذِكْره، وسَلَخَه وصَلَبه، واشتغل بأهل الجبال يَقْتلهم ويشرِّدُهم، خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد.

وقام بعده ابنه المسمى[4] بالمعزِّ، فبثَّ دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك، وهو الشمس التي تطلُعُ من مغربها. وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الرُّوم بلادَهم، واحتجب عن الناس أياماً[5]، ثم ظهر وأوْهَم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٣٢٠ ــ ٣٢٥.

(٤) في هامش الأصل: الملقب (خ) أي في نسخة أخرى، وهي المثبتة في (م).

(٥) في (م): بمصر.

الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه[1].

وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة. واستدعى بفقيه الشَّام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرَّملي[2]، ويعرف بابن النابُلُسي، فَحُمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فَسُلخ حياً، وَحُشِيَ جلده تبناً وصُلب[3]، رحمه الله تعالى. قال أبو ذَرٍّ الهَرَوي[4]: سمعت أبا الحسن الدَّارَقُطْني[5] يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول وهو يُسْلخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾[6].

قلت: وفي أيام الملقَّب بالحاكم منهم أمر بكَتْب سَبِّ الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر* والشَّوارع، والطُّرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبِّ، ثم أمر بقلع ذلك. وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأُسْكُفَّة العليا منقوراً في الحجر، ودلَّني

(١) انظر «تثبيت دلائل النبوة»: ٢/ ٥٩٩ ـ ٦٠٦.

(٢) في الأصل: أبي بكر أحمد بن سهل البرمكي، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) وذلك سنة (٣٦٣ هـ)، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١٤٨ ـ ١٥٠، و «اتعاظ الحنفا»: ١/ ٢١٠ ـ ٢١١.

(٤) هو عبد بن أحمد بن محمد، من كبار رجال الحديث، كان مالكي المذهب، جاور بمكة زماناً، سمع من الدارقطني وغيره، وأخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني، توفي بمكة سنة (٤٣٤ هـ)، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٥٥٤ ـ ٥٦٣.

(٥) هو شيخ الإسلام علي بن عمر بن أحمد، من أئمة المحدثين، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، توفي في بغداد سنة (٣٨٥ هـ)، وهو أشهر من أن يعرف، ولكنني ذكرته إتماماً للفائدة، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٤٤٩ ـ ٤٦١.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جُدِّد ذلك الباب، وأزيل [ذلك][1] الحجر.

وفي أيَّامه طُوِّف بدمشق رجلٌ مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يحبُّ أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه[2]. وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء: مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي، أحد الصَّالحين، وكان أذَّن ببيت المقدس وقال في أذانه «حيَّ على الفلاح» فأُخذ وقطع لسانه[3]. ذَكَرَ ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابُلُسي الحافظُ أبو القاسم في «تاريخه»[4]. وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلاّ محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عِدَّتهم، فإن [عِدَّتهم][5] عِدَّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيّفاً وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مئتي سنة وثمانياً وستين سنة؛ فالحمد لله على ما يَسَّرَ من هُلْكهم، وإبادة ملكهم، ورضي [الله][6] عمَّن سعى في ذلك وأزالهم؛ ورحم مَنْ بيَّـن مَخْرقتهم وكذبهم ومُحَالهم.

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن علي بن أبي نصر الشَّاشي[7] في كتاب «الرَّدِّ على الباطنية»، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده[8]: ووصل الأمر إلى أن

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل).

(٢) وذلك سنة (٣٩٣ هـ)، انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ٣/ ٢٦٤ ب ــ ٢٦٥ أ و «تهذيبه» لابن بدران: ٣/ ٣٤٤، و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٣١.

(٣) انظر «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» لابن منظور: ٢٩/ ١٠٨ ــ ١٠٩.

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ١٤/ ٣٤٤ ب ــ ٣٤٥ أ.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٧) لم أهتد إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.

(٨) كان المستنصر قد عهد في حياته بالخلافة لابنه نزار، فخلعه الأفضل، وبايع المستعلي بالله. انظر «الكامل»: ١٠/ ٢٣٧ ــ ٢٣٨.

وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدةٍ سماها: الإيضاح عن دعوة القدَّاح، أوَّلها:

حيَّ على مِصْر إلى خلع الرَّسَنْ   فَثَمَّ تعطيلُ فروضٍ وسُنَنْ

وقال: لو وُفِّق ملوك الإسلام لصرفوا أعِنَّة الخيل إلى مصر لِغَزْو الباطنيَّة الملاعين، فإنهم من شَرِّ أعداء دين الإسلام[1]، وقد خرجَت من حدِّ المنافقين إلى حدِّ المجاهرين، لما ظهر في ممالك الإسلام من كُفْرها وفسادها[2]، وتعَيَّن على الكافة فرضُ جهادها. وضرر هؤلاء أشدُّ على الإسلام وأهله من ضرر الكُفَّار؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض، والله الموفق.

قلت: ثم إنّي لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردتُ كتاباً لذلك سميته «كشف ما كان[3] عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»[4]، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به، فإني بتوفيق الله تعالى جمعتُ فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنِّفون وغيرهم. ووقفتُ على كتابٍ كبير صنَّفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقَّب بالعزيز ثاني خلفاء مصر، فبيَّن فيه أصولهم أتمَّ بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغَلَبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة، وبالله التوفيق.

---

(١) في الأصل: الدين الإسلام، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م): سوادها، وهو تحريف.
(٣) في الأصل و (ل): ما كانوا، والمثبت من (م).
(٤) من كتب أبي شامة التي لم تصلنا بعد.

وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بني أيوب بقصيدة، منها:

أَلَسْتُمْ مزيلي دَوْلَة الكُفْر من بني عُبيدٍ بمصر إن هـذا هـو الفَضْـلُ
زنـادقـةٌ شيعيَّـة بـاطنيَّـة مجوسٌ وما في الصَّالحين لهم أَصْلُ
يُسِـرُّون كُفْـراً يُظهـرون تشيُّعـاً ليستتـروا شيئـاً وعَمَّهُـمُ الجَهْـلُ

وما فعله[1] هؤلاء من الانتساب إلى عليٍّ رضوان الله عليه، والتستر بالتشيُّعِ قد فعله جماعة القرامطة، وصاحب الزِّنج الخارج بالبَصْرَة، وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عَرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقف على أخبار الناس، وكلُّهم كَذَبة في ذلك، وإنما غرضهم التقرُّب إلى العوام والجهال، واستتباعهم لهم، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[2] ولا يُغتر بأبيات الشَّريف الرَّضي[3] في ذلك، فقد حصل الجوابُ عنها في كتاب «الكشف» بوجوه حسنة، وبالله التوفيق. ١/٢٠٣

وقد صنَّف الشَّريف العابد الدِّمشْقي[4] ــ رحمه الله ــ كتاباً في إبطال

(١) في الأصل: وما فعلوا، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٣) أولها:

ما مقامي على الهوان وعندي مِقْوَل صارم وأنف حميُّ

ومنها:

ألبس الذل في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولا ي إذا ضامني البعيد القصيُّ
لف عرقي بعرقه سيد النَّا س جميعاً محمد وعليُّ

انظر الأبيات في «ديوانه»: ٢/ ٩٧٢ ــ ٩٧٣، طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ، و «اتعاظ الحنفا»: ١/ ٣٢ ــ ٣٣ مع اختلاف في اللفظ.
(٤) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، أبو الحسين، المعروف بأخي محسن، كان يسكن بباب توما، محلة بدمشق، مات قبل الأربع مئة. انظر «سير أعلام النبلاء» ٦/ ٢٦٩ ــ ٢٧٠، وذكر =

نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصَّل ذلك تفصيلاً حسناً، وأطنب في ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة، لعنهم الله تعالى.

فصـــل
في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شداد: واستمرَّت القواعد على الاستقامة، وصلاح الدين كلَّما استولى على خزانة مال وهبها، وكلَّما فتح له خزائن ملك أنهبها، ولا يُبقي لنفسه شيئاً، وشرع في التأهُّب للغَزاة، وقصد بلاد العدو، وتعبئة الأمر لذلك، وتقرير قواعده.

وأما نور الدين فإنه عزم على الغَزَاة، واستدعى صاحبَ المَوْصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته. وكانت غزوة عِرْقَة*، فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرَّم سنة سبع وستين[1].

وقال ابن أبي طيّ: جمع نور الدين عساكره وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها، وغنم الناس غنيمةً عظيمة.

قال ابن الأثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشَّام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوءين من الأمتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا. فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

= اسمه ونسبه الدواداري في «كنز الدرر» ٦/٦ والمقريزي في «اتعاظ الحنفا»: ٢٢، وكتابه لم يصلنا بعد، وقد توسع في النقل منه الدواداري في كتابه «كنز الدرر» الجزء السادس.

(١) «النوادر السلطانية»: ٤٥.

وراسل الفرنج في ذلك، وأمرهم بإعادة ما أخذوه، فغالطوه، واحتجُّوا بأمورٍ، منها: أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسرٍ فيهما؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردُّوا شيئاً، فجمع العساكر من الشَّام والمَوْصِل والجزيرة، وبث السَّرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب رَبَضَه، وأرسل طائفةً من العسكر إلى حصني صافيثا* وعُرَيمة*، فأخذهما عَنْوَةً وكذلك غيرهما، ونهب وخرَّب، وغَنِمَ المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعِرْقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرِّب ويحرق وينهب. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدِّد[1] معهم الهُدْنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يُلْطَم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلَمَّا نُهبت بلادهم وخربت أعادوها[2].

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسانٍ إلا اليسير. وكان يُحمل المتاع[3] فكل من اسمه على ثوبٍ أخذه. وكان في النَّاس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانةٌ، وكان نصرانياً فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه

---

(١) في (ل): وتُجدَّد.

(٢) «الباهر»: ١٥٤ ــ ١٥٥.

(٣) في «الباهر»: إلى نور الدين.

وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب. وكان الذي حصل[1] من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلَّم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خُذْ أنت الجميع، فإنك أحوج إليه، وأنا في غنى عنه. فلم يفعل، فقال: خذ[2] النِّصف وأنا النِّصف. واجتهد[3] به والدي فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عِدَّة من الأثواب السوسي وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فُقّاعياً[4] من أهل تِبْريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه يردها ـ يعني عليهم ـ وسأل عني وقد قصدني، وهي معي، وحضر عندي السَّاعة وسلَّمها إليَّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمَّتي. فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاً يتَّجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده. قال: وهذان رجلان نادران في هذا الزمان[5].

فصـــل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نورُ الدين أن يجتمعا[6] على الكَرَك* والشَّوْبك* يتشاورانِ فيما يعود بالصَّلاح المشترك، فخرج من القاهرة

---

(١) في (ل): قد حصل.

(٢) في (م): خذوا.

(٣) في الأصل: فاجتهد، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٦ من الجزء الأول.

(٥) «الباهر»: ١٥٥.

(٦) في (ل) و (م): يجتمعوا.

في الثاني والعشرين من المُحرَّم، بالعزم الأجزم، والرأي الأحزم. فاتفق للاجتماع عائق، ولم يُقدر للاتفاق قَدَرٌ موافق، فلقي في تلك السَّفْرة شِدَّة، وعَدِم خيلاً وظهراً وعُدَّة، وعاد إلى القاهرة في النِّصف من ربيع الأول[1].

وقال ابن الأثير: وفي سنة سبعٍ وستين أيضاً جرى ما أوجب نُفْرَةَ نور الدين من صلاح الدين. وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية، والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكَرَك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج، والاستيلاء على بلادهم. فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرَّم، وكتب إلى نور الدين يُعَرِّفه أن رحيله لا يتأخر. وكان نور الدين قد جَمَعَ عساكره وتجهَّز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله[2] ليرحل هو. فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكَرَك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين[2] إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البُعْد عنها، فعاد إليها. فلم[3] يقبل نور الدين عُذْرَه.

١/ ٢٠٤

وكان سبب تقاعده أنَّ أصحابه وخواصَّه خوَّفوه من الاجتماع بنور الدين. فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شقَّ ذلك عليه، وعَظُمَ عنده[4]، وعزم على الدُّخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارِمي،

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٧ ــ ١١٨.
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في الأصل: ولم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (ل): عليه، وهو تصحيف.

ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قَصْده وأخذ مصر منه، واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء. فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد. ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه ــ وكان ذا رأي ومكر، وكيد[1] وعقل ــ وقال لتقي الدين: اقعد. وسَبَّه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أَتظنُّ في هؤلاء كلِّهم مَنْ يحبُّك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نورَ الدين لم يمكِنَّا إلا أن نترجَّل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسَّيف لفعلنا. فإذا كنَّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه[2] من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحدَه لم يتجاسر على الثَّبات على سَرْجه، ولا وسِعَه إلا النُّزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجَّاب حتى تقصد خدمته، ويولِّي بلاده من يريد. وقال للجماعة كلِّهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد. فتفرَّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكثير، وتُطلِعُهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازمٌ على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه، وأولاها بالقَصْد، ولو قصدك لم ترَ معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه. وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتُبون إليه ويعرِّفونه قولي، وتكتب أنت

---

(١) وكيد، ليست في (م).

(٢) في (م): ترى.

إليه، وترسل في هذا المعنى وتقول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي. فهو إذا سمع هذا عَدَل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده، والأيام تَنْدرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده. فلما رأى نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين؛ توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها[١].

فصل
في الحَمَام

قال ابن الأثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نورُ الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتَّسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النَّوْبة إلى باب هَمَذان، لا يتخلَّلها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج ــ لعنهم الله ــ ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم [يكونون][٢] قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذٍ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربِّيها؛ فوجد بها راحةً كبيرة. كانت الأخبار تأتيه[٣] لوقتها، لأنه كان له في كل ثَغْر رجالٌ مرتَّبون، ومعهم من حمام

(١) «الباهر»: ١٥٨ ــ ١٥٩.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من طبعة وادي النيل ١/ ٢٠٤.
(٣) في (م): تأتيها، وهو تصحيف.

المدينة التي تجاورهم، فإذا رأَوْا أو سمعوا أمراً كتبوه لِوَقْته، وعلَّقُوه على الطائر، وسرَّحوه، [فيصل][1] إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرُّقْعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثُّغور بذلك، حتى إن طائفةً من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثَّغْر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكَبْس العدوِّ، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج قد أَمِنوا لبُعْد نور الدين عنهم. فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد[2].

وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصَّيف محافظةً على الثغر، وصَوْناً من الحَيْف، ليحمي البلاد من العدوِّ بالسَّيف، وهو متَشوِّف إلى أخبار مصر وأحوالها، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها. فرأى اتِّخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان[3]. وتقدَّم إليَّ بكتب منشور لأربابها، وإعزاز أصحابها[4]، وهو حينئذٍ بظاهر دمشق، مخيِّم بوادي اللَّوَّان[5]، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادُون على أهل العُدْوان، وذلك في سابع عشر ذي القَعْدة من السنة.

ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام، فقال: هي برائد الأنباء،

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) «الباهر»: ١٥٩.
(٣) في الأصل: بالأخبار البلدان، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٩.
(٥) جنوبي غرب دمشق، قرب المزة.

والمخصوصة[1] بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة ١/٢٠٥ الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، والحاملات مُلطَّفات* الأسرار في أقرب مُدَّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمَّات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعاتها[2] إلى البلاد أجواز القِفار والمَوَامي[3]، والنَّافذات بنُجْح المرام بعود السِّهام إلى المرامي. وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى غايات[4] الطاعة بأتمِّ استطاعة. وقد عَمَّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالَّةً على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى مَنْ وراءهم من الطَّلائع والسَّرايا، مظهرةً لهم من أحوالها[5] خبايا الأمور الخفايا. وإنها لميمونة المطار، مأمونة العِثار، سالمة على الأخطار، مَهْدِيَّة في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرةً بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بأنباء[6] الكُفَّار.

قلت: وكل هذه أوصاف[7] حسنة، وعبارات مستحسنة. وقد بلغني عن القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقال: الطُّيور ملائكة الملوك. يشير إلى [أن][8] نزولها على الملوك من جَوِّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من

---

(١) في (ل) و (م): والمخصوصات.

(٢) في (ل) و (م): ساعتها.

(٣) مفردها: موماة، وهي الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس بها. «اللسان» (موم).

(٤) في الأصل و (ل): عنايات، والمثبت من (م).

(٥) في (م): أحوالهم.

(٦) في (ل) و (م): بنبأ.

(٧) في الأصل: من أوصاف، والمثبت من (ل) و (م).

(٨) ما بين حاصرتين من (ل).

السماء، مع فرطِ ما فيها من الأمانة، لا يتوهَّم من جهتها خيانة. فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف. رحم الله الجميع.

فصـــل
في باقي حوادث هذه السنة

قرأتُ نسخة سجل بإسقاط[1] المكوس [بمصر][2]، قُرِىء على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصَّلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمس مئة، عن السُّلْطان الملك النَّاصر في أيام نور الدين رحمه الله[3]، فهو كان الآمر وذاك المباشر، يقول فيه:

أما بعد، فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكَّن لنا في الأرض، وحسَّنَه عندنا من أداء كلِّ نافلة وفَرْض، ونصَبنا له من إزالة النَّصَب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حقَّ جهاده، وزهَّدنا فيه من متاع الدُّنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النَّقير والفتيل[4]، وأولانا من شجاعة السماحة، فَيَوْماً نَهَبُ ما اشتملت عليه الدَّواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النِّيل. فالبشائر[5] في أيَّامنا تترى، شفعاً وَوِتْراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع

---

(١) في (م): بإطلاق.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م): رحمهما الله.

(٤) النقير: النكتة في ظهر النواة، يضرب بها المثل للشيء الطفيف، والفتيل: السَّحاة (أي ما يقشر) التي في شق النواة، يمثل بها للتافه الحقير. «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٢٠، ٤/ ٣٥٦، ٥/ ٥٢٨.

(٥) في (م): والبشائر.

الواحدة منها الأُخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، وأسخطت الخيمة والصّناعة وأرضتِ المنبر والجامع، ولما تقلّدنا أمور الرَّعية رأينا المكوس الدِّيوانيَّة بمصر والقاهرة[1]، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدُّنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرَّد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهِّر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرَّعيَّة ضَرَّهم الذي يتوجَّه إليهم، وَنَضَعُ عنهم إِصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم[2]، ونعيدها اليوم كأمس الذَّاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعدُ يد حاسب، ولا قلم كاتب. فاستخرنا الله وعَجِلنا إليه ليرضى، ورأينا فُرْصَة أجر لا تغض عليها بصائرُ الأبصار ولا تُغضى؛ وخرج أمرنا بكَتْب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار[3] المتردِّدين إليهما، وإلى ساحل المقسم*، والمنية*، بأبواب المكوس صادرها وواردها، فَيَرِدُ التَّاجر ويُسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر برًّا وبحراً، مركباً وظهراً، سرّاً وجهراً، لا يحلُّ ما شَدَّه، ولا يُحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عمَّا أورده وأصدره، ولا يُستوقف[4] في طريقه، ولا يَشْرَقُ بِريقه، ولا يُؤخذ منه طُعْمة، ولا يُستباح له حُرْمة. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العَيْن مئة ألف دينار، مسامحة لا يتعقَّبها تأويل، ولا يتخوَّنها تحويل، ولا يعْتريها زوال، ولا يعْتورُها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة

---

(١) في الأصل و (م): بالقاهرة ومصر، وأثبتنا ما فيَ (ل) لتناسب السجعة.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) في (م): البحار، وهو تصحيف.

(٤) في (م): ولا يستوفق.

ما قام دين القَيِّمة، مَنْ عارضها رُدَّت أحكامه، ومن ناقضها[1] نُقِضَ إبرامه، ومن أزالها زلَّت قدمه، ومن أحالها حَلَّ دَمُه، ومن تعقبها خُلِّدت اللَّعنة فيه وفي عَقِبه، ومن[2] احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الَّذي هو من حَطَبه[2]. فمن قرأه، أو قُرِىء عليه من كافَّة ولاة الأمر مِنْ صاحب سيف وقلم، ومشارف* أو ناظر[3]، فليَمتثل ما مثل من الأمر، ولْيُمْضِه على ممرِّ الدَّهْر[4]، مُرضياً لربِّه، ممضياً لما أُمر به.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر[5] يحيـى بن سَعْدون القُرْطُبي المقرىء النَّحْوي، وهو نزيل المَوصِل، رحمه الله[6].

وفيها ولد العزيز[7] والظَّاهر[8] ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين[9].

---

(١) في (ل): عارضها، وهي سبق قلم مما قبلها.

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في (ل) و (م): وناظر.

(٤) في الأصل و(ل): الدهور، والمثبت من (م).

(٥) في الأصل: أبي بكر، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) ولد سنة (٤٨٦ هـ) بقرطبة، وقدم إلى المشرق في عنفوان شبابه، وأقام بدمشق مدة، واستوطن الموصل، كان بارعاً في العربية، بصيراً بعلل القراءات، وافر الحرمة، ديناً خيراً، تخرج به أئمة، وهو شيخ بهاء الدين بن شداد صاحب «النوادر السلطانية»، وابن عساكر مؤرخ دمشق. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٦/ ١٧١ ــ ١٧٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٤٦ ــ ٥٤٨.

(٧) ترجم له أبو شامة في وفيات سنة (٥٩٥ هـ) ٤/ ٤٤٣ من هذا الكتاب، وفي حوادث سنة (٥٩٦ هـ) في «المذيل على الروضتين»، وكان أحب أولاد صلاح الدين إليه. انظر ص ٤٨ من الجزء الثالث.

(٨) ورد أنه ولد في منتصف رمضان سنة (٥٦٨ هـ) انظر ص ٤٧٥ من هذا الجزء، وترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٩) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٧ هـ).

وفيها[1] في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نَصْر[2] بن عبد الله الإسكندري، المعروف بابن قَلاقِس[3] الشَّاعر، بعَيْذَاب[4]، ومولده بالإسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، فيكون عمره نحواً من خمسٍ وثلاثين[5] سنة.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وستين [وخمس مئة][6]

ففيها توفي ملك النُّحاة الحسن بن صافي[7].

---

(١) هذا الخبر ساقط من (م).

(٢) في مصادر ترجمته ما عدا «الخريدة» نصر الله، وهو تحريف، انظر «الأعلام» للزركلي: ٨/ ٢٦.

(٣) قلاقس جمع، مفردها قُلْقاس: وهو جذر نبات كان يؤكل مطبوخاً. انظر «وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٨٨، و «معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٣٨، و «الموسوعة في علوم الطبيعة»: ٢/ ٣١٥.

(٤) بليدة على ضفة البحر الأحمر، وكانت مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، «معجم البلدان»: ٤/ ١٧١، و «وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٨٨.

(٥) انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٤٥ ـ ١٤٦، و «وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٤٦، وفي «الأعلام» للزركلي ترجمة مطولة له: ٨/ ٢٤ ـ ٢٦، طبعت منتخبات من شعره في مصر بمطبعة الجوائب سنة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م، راجعها وضبطها الشاعر خليل مطران، ثم طبع ديوانه في الكويت سنة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٨ بتحقيق سهام الفريح.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٧) ولد في بغداد سنة (٤٨٩ هـ)، واستوطن دمشق، وفيها توفي، ودفن في مقبرة الباب الصغير، كان من كبار النحاة في عصره، شافعي المذهب، إلا أنه كان عنده عجب وتيه بعلمه، فلقب نفسه بملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك. انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/ ٨٩ ـ ١٣٧، و «معجم الأدباء»: ٨/ ١٢٢ ـ ١٣٩، و «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٢٨١، و «إنباه الرواة»: ١/ ٣٠٥ ـ ٣١٠، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٩٢ ـ ٩٤، وترجم له العلامة محسن =

وفيها ترتب[1] العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الإنشاء.

قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعياً، فَطِناً لَوْذعياً، لا تشتبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال. ٢٠٦/١

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سَيَّر منها عِدَّة من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البِلَّوْر واليَشَم[2]، والأواني التي لا يُتصوَّر وجودُها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البَلَخْش[3]، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقَرَنَ بها من اللآلىء مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات ما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطِّيب والعطر ما لم يخطر ببال عَطَّار، فشكر نور الدين هِمَّته، وذكر بالكرم شِيْمَتَهُ، ووصف فضيلته، وفضَّل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدُّ به خَلَّة الإقلال، فهو يعلم أنا ما

= الأمين في «أعيان الشيعة»: ٥/ ١١٥ ــ ١١٨ مستدلاً على تشيعه بما أورده صاحب «كشف الظنون»، ولم أجد عبارته فيما بين يدي من مطبوع «الكشف»: ٢/ ١١٧٠.

(١) في الأصل: رتب، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) اليشم: تعريبه اليشب: حجر قريب من الزبرجد لكنه أكثر شفافية وصفاء منه، وألوانه: أبيض وأصفر وزيتي وهو أفضلها. انظر «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» لابن الأكفاني: ٧٢ ــ ٧٤ مع حاشية المحقق.

(٣) هو جوهر أحمر شفاف مُسْفِر صاف، يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق، ويتخلف عنه في الصلابة، وليس له منفعة كالياقوت، بل يشترى لحسنه. انظر «نخب الذخائر»: ١٤ ــ ١٦.

أنفقنا[1] الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذَّهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جُدْنا به قدر، وتمثَّل بقول أبي تَمَّام:

لم يُنفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بِكَثْرَتِهِ على الحَصَى وبه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ[2]

لكنه يعلم أن ثغورَ الشَّام مفتقرة إلى السِّدَاد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عَمَّ بالفرنج بلاءُ البلاد؛ فيجب أن يقع التَّعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد.

فاستنزره وما استغزره، واستقلَّ المحمول في جَنْبِ ما حرَّره، وتروَّى فيما يُدَبِّره، وأفكر فيما يقدِّمه من هذا المهمِّ ويؤخِّره[3].

قال ابنُ أبي طيّ: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقعٍ، وجرَّد الموفق بن القَيْسَراني* وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها[4]، وأين صُرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قَرَّر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعَظُم على نور الدين أمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعِد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال. حدَّثني أبي قال: لم يَخْفَ حالُ نور الدين في كراهية الملك النَّاصر، ولقد علم ذلك جميعُ الأجناد والأمراء، وتحدَّث به العوام، ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتدَّ بعد ذلك في مراسلته، وأنفذَ ابن

---

(١) في الأصل: ما نفقنا، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي مدح بها المعتصم لفتحه عمورية، والتي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

انظر «ديوان أبي تمام» بشرح الخطيب التبريزي: ١/ ٦٦.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢١ ـ ١٢٤.

(٤) ارتفاعها: أي خراجها.

القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مُذْ مُلكت مصر، وتوجَّه له فيها النَّصْر، يؤثر أن يُقَرَّرَ له فيها مالٌ للحمل، يستعين به على كُلَف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أنَّ صلاح الدين يبتدىء من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده. فلما حمل من أخاير الذَّخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصَّله، تقدَّم إلى الموفق خالد بن القَيْسَرانيّ أنْ يمضي، ويطالب ويقتضي، ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية جُزَازة، ولا يبقي في نفوس ديوانه من أمرها حَزَازة، وأرسل معه الهدايا، والتُّحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء*، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الإنشاء. ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شَوَّال[1] ومعه الفيل، والحمارة العَتَّابية[2]، والذخائر النفيسة التي كان انْتَخَبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين[3]، وقُوبلت بالإحسان والتحسين. ووصلت الحمارة وكَثُرَت لها النظارة[4]. وأما

---

(١) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٤ في النصف من شعبان.

(٢) نوع من حمر الوحش المخططة، نسبة إلى العتابيين، إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها، اشتهرت بالنسيج المخطط، ومن ثم كان هذا النوع من الحمير يوصف بالعتابي تشبيهاً له بهذا النسيج، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٩، و «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ٢/ ٩٣.

(٣) انظر ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

(٤) في (م): وكثرت الحمارة، وكبر لها النظارة، وهو تحريف.

الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسعٍ وستين ونحن بحلب بالميدان الأخضر*، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تُحفة الثياب والعود والعنبر. ثم سيَّره سيف الدين [غازي][1] إلى بغداد هدية للخليفة، مع ما سيَّره معه من التُّحف اللطيفة، وسَيَّر نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتُحَف سنايا[2].

فصـــل
في جهاد السُّلْطانَين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكَرَك* والشَّوبَك* وغيرهما من الحصون فَبرَّح بها، وفرّق عنها عَرَبها، وخَرَّب عماراتها، وشنَّت على أعمالها سراياه بغاراتها.

ووصل منه كتابٌ بالمثال الفاضلي: سَبَبُ هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعزَّ الله سلطانه، ومدَّ[3] أبداً إحسانه[3]، ومكن بالنَّصر إمكانه، وشَيَّد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثرُه المولى بأن يقصد الكُفَّار بما يَقُصُّ[4] أجنحتهم، ويفلِّلُ أسلحتهم، ويقطع موادَّهم، ويخرِّب بلادهم. وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومُه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العُرْبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفْر إلى عِزِّ الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعَدَّه من أعظم أسباب

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٤.
(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).
(٤) في (ل): من قصد بما يقص.

الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يَهْتَدي سبيلاً.

ثم: ذكر باقي الكتاب[١].

قال ابنُ شَدَّاد: وهذه أوَّلُ غزوة غزاها صلاح الدين من[٢] الدّيارالمصرية. وإنما بدأ ببلاد الكَرَك والشَّوْبَك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطَّريق تمنع من يقصد الديارَ المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُعَبِّرها بلاد العدوِّ[٣]، فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتَّصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السَّابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمانٍ وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدَّفعة؛ وحصل ثوابُ القصد. وأمّا نور الدين فإنَّه فتح مَرْعَش* في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بَهَسْنى* في ذي الحِجَّة منها[٤].

١/٢٠٧

وقال العماد: حضرتُ عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهُه بنُور البِشْر قد سَفَر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورِقَّة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكلٌّ منا يمدَحُها، وبحبِّه يمنحُها، وكل منا يُطْريها، فقال

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٤ ــ ١٢٦.
(٢) في الأصل: في، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (ل): عن بلاد العدو.
(٤) «النوادر السلطانية»: ٤٥.

نور الدين: أنا حُبُّ الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال، فقلت:

ليس في الدُّنيا[1] جميعاً بَلْدَةٌ مِثْلُ دمشقِ
وَيُسَلِّينيَ عنها في سبيلِ اللَّهِ عِشقي
والتُّقى الأَصْلُ ومن يتـ ـركها[2] يَشْقَى ويُشْقي
كم رشيقٍ شاغِلٌ عنـ ـه بِسَهْمِ الغَزوِ رَشْقي
وامْتِشاقُ البِيضِ يُغْني عنه بالأقلامِ مَشْقي[3]

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتيات[4] في معنى الجهاد على لسانه، فقلتُ:

للغَزْوِ نشاطي وإليه طَرَبي مالي في العيش غَيْرَه من أَرَبِ
بالجدِّ وبالجهاد نُجْحُ الطَّلَبِ والرَّاحة مُسْتَوْدَعَةٌ في التَّعَبِ[5]

وقُلْتُ أيضاً:

---

(١) في (م): الأرض.
(٢) في «الخريدة»: يتركه.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٢٦ ــ ١٢٧، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٧ ــ ١٨.
(٤) الدوبيت: وزن فارسي غير داخل في أوزان العروض العربية، استحدثه أدباء الفرس، ومن أسبق من نظم فيه من شعرائهم (رودكي) المتوفى سنة (٣٠٢ هـ)، وعنهم أخذه شعراء بغداد، ولفظه مركب من كلمتين: إحداهما فارسية وهي «دو» أي اثنان، والأخرى «بيت» العربية، وسموه كذلك لأنه لا يكون إلا بيتين، ولا يجوز فيه اللحن مطلقاً، ويعرف بـ «الرباعي» أيضاً، ومن مشهوره «رباعيات الخيام». انظر «تاريخ آداب العرب» للرافعي: ٣/٧٢ الطبعة الأولى، و «ميزان الذهب» لأحمد الهاشمي: ١٣٢ ــ ١٣٤.
(٥) «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٤٣.

لا راحة في العيش سوى أن أغزو ... سَيْفِي طَرَباً إلى الطُّلى[1] يهتزُّ
في ذُلِّ ذوي الكُفْرِ يكونُ العِزُّ ... والقُدْرَةُ في غيرِ جهادٍ عَجْزُ[2]

وقلتُ أيضاً:

أقسمتُ سوى الجهاد مالي أَرَبُ ... والرَّاحةُ في سواه عندي تَعَبُ
إلا بالجِدِّ لا يُنالُ الطَّلَبُ ... والعَيْشُ بلا جِدِّ جهادٍ لَعِبُ[3]

قال: واتَّفق خروج كلب الرُّوم[4] اللَّعين في جنود الشياطين، يقصد الغارة على زُرًّا* من ناحية حَوْران*، وهم في جمع غلبت كثرته الخُبْر والعِيان، ونزلوا بقريةٍ تعرف بشمسكين*. فركب نور الدين وهو نازل بالكُسْوة* إليهم، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوَّار، ثم إلى السَّواد*، ثم نزلوا بالشَّلالة، ونزل نور الدين عَشْتَرا*، وقد سَرَّه ما جرى؛ فأنفذ سَرِيَّة إلى أعمال طبريَّة، واغتنم خلوَّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شنِّ الغارة غدوَّهَا، فلما عادت لَحِقَها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشُّجعان، وثبتَ من ثَبَّته الإيمان، حتى عبرت السَّرِيَّة، وانفصلت تلك القضيَّة. ورحل نور الدين من عَشْتَرا، فنزل بظاهر زُرًّا[5].

قال العماد: وكنتُ راكباً في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة، منها:

عُقِدَتْ بِنَصْرِكَ رايةُ الإيمانِ ... وبَدَتْ لِعَصْرِكَ آيةُ الإحسانِ

---

(١) الطلى: الأعناق، مفردها طُلاة، «اللسان» (طلي).
(٢) «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٤٢ ــ ٤٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) في «الخريدة» عظيم الفرنج، وفي «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٧ كلب الفرنج.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٧ ــ ١٢٨.

يا غالبَ الغُلْبِ الملوكِ وصائدَ الصِّـ (م) ـيـد اللُّيـوثِ وفـارِسَ الفُـرْسَـانِ
يـا سـالـبَ التِّيجـان مِـنْ أَرْبـابهـا حُـزْتَ الفَخَـارَ علـى ذوي التِّيجـانِ
محمـودٌ المحمـودُ مـا بيْـنَ الـورى فــي كـلِّ إقليـمٍ بكـلِّ لِسـانِ
يـا واحـداً فـي الفَضْـل غيـرَ مُشَـارَكٍ أقسمـتُ مـالَـكَ فـي البَسِيْطَـةِ ثـانـي
أحلـى أمـانيـك الجهـادُ وإنَّـه لـك مُـؤْذِنٌ أبـداً بِكُـلِّ أَمَـانِ
كـم بِكْـر فَتْـحٍ وَلَّـدَتْـهُ ظُبـاك مـن حَـرْبٍ لقَمْـعِ المُشْـرِكيـن عَـوَانِ
كـم وقعـةٍ لـك بـالفِـرَنْـجِ حَـدِيثُهـا قـد سـارَ فـي الآفـاقِ والبُلْـدَانِ
قَمَّصْـتَ قُـومَصهُـم* رداء مـن ردًى وقَـرَنْـتَ رَأْسَ بِـرِنْسِهِـمْ بسِنـانِ
وَمَلَكْـتَ رِقَّ مُلـوكهـم وتَـرَكْتَهُـمْ بـالـذُّلِّ فـي الأَقْيَـادِ والأَسْجَـانِ
وَجَعَلْـتَ فـي أَعْنَـاقِهِـم أَغْـلالَهُـمْ وسَحَبْتَهُـمْ هُـونـاً علـى الأَذْقَـانِ
إذْ فـي السـوابغِ تُحْطَـمُ السُّمْـرُ القنَـا والبِيـضُ تُخْضَـبُ بـالنَّجِيْـع القَـانـي
وعلـى غِنَـاءِ المَشْـرَفِيَّـةِ فـي الطُّلَـى والهـام رَقْـصُ عـوالـيَ[1] المُـرَّانِ
وكـأَنَّ بيـنَ النَّقْـعِ لَمْـعَ حَـدِيْـدِهـا نـارٌ تـأَلَّـقُ مـن[2] خِـلالِ دُخَـانِ
فـي مَـأْزِقٍ وِرْدُ الـوَرِيـدِ مُكَفَّـلٌ فيـه بـريِّ الصَّـارم الظَمْـآنِ
غَطَّـى العَجَـاجُ بـه نجـومَ سمـائِـهِ لتنـوبَ عنهـا أَنْجُـمُ الخُـرْصَـانِ
أَوَ مـا كَفـاهُـمْ ذاك حتـى عـاودوا طُـرُقَ الضَّـلال ومـركـبَ الطُّغْيـانِ
يـا خيبـةَ الإفـرنـجِ حيـن تجمَّعُـوا فـي حَيْـرة وأَتَـوْا إلـى حَـوْرَانِ

١/٢٠٨

ومنها:

وجَلَوْتَ نورَ الدين ظُلْمَةَ كُفْرِهِم[3] لمَّـا أتيـتَ بـواضـحِ البُـرْهَـانِ

---

(١) في (م): عوامل.
(٢) في (م): في.
(٣) في الأصل و(ل): ظلمهم، وأشير فيهما إلى «كفرهم» على أنه في نسخة أخرى، وهو المثبت في (م)، و«الخريدة».

وَهَزَمْتَهُمْ بالرَّأْيِ قَبْلَ لِقَائِهِمْ ... والرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ[1]

أَصْبَحْتَ للإِسْلامِ رُكْناً ثابتاً ... والكُفْرُ مِنْكَ مُضَعْضَعُ الأَرْكَانِ

قَوَّضْتَ آساسَ الضَّلالِ بِعَزْمِك الـ ... ـمَاضي وشِدْتَ مبانيَ الإِيمانِ

قُل أينَ مثلُك في الملوك مجاهدٌ ... لله[2] في سِرٍّ وفي إعلانِ

لم تَلْقَهم ثِقَةً بقُوَّةِ شَوْكَةٍ ... لكِنْ وَثِقْتَ بنُصْرَةِ الرَّحمانِ

ما زال عَزْمُكَ مستقلاً بالذي ... لا يَسْتَقِلُّ بِثِقْلِهِ الثَّقلانِ

وبَلَغْتَ بالتَّأييد أقْصى مَبْلَغٍ ... ما كانَ في وُسْعٍ ولا إمكانِ

دانَتْ لك الدُّنيا فقاصيها إذا ... حقَّقْتَه لنفاذِ أمرك داني

فمن العراق إلى الشَّآم إلى ذُرا ... مِصْرٍ إلى قُوص * إلى أُسْوانِ

لم تَلْهُ عن باقي البلاد وإنما ... ألهاك فَرْضُ الغزو عن هَمَذَانِ[3]

للرُّوم والإِفرنج منْك مصائبٌ ... بالتُّرك والأكراد والعُرْبانِ

أذْعَنْتَ لله المهيمن إذْ عَنَتْ ... لك أوْجُهُ الأملاكِ بالإِذْعانِ

أنتَ الذي دونَ الملوكِ وَجَدْتُه ... ملآن من عُرْفٍ ومن عِرْفانِ

في بَأْس عمرٍو في بسالة حَيْدَرٍ ... في نُطْقِ قُسٍّ في تُقَى سَلْمانِ

سِيرٌ لو أنَّ الوحي يَنْزل أُنزلت ... في شأنها سُوَرٌ من القُرْآنِ

فاسلمْ طويلَ العُمْر ممتدَّ المدى ... صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلْطَانِ[4]

---

(١) عجز هذا البيت هو من مطلع قصيدة للمتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أولٌ وهي المَحَلُّ الثاني

انظر «ديوانه» ٤/ ٣٠٧.

(٢) في (م): في الله.

(٣) كان نور الدين يفكر بغزو همذان. انظر ص ١٦٧ من هذا الجزء.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٨ ــ ١٢٩، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٥٤ ــ ٦٢.

وهي قصيدة طويلة، وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه، ومدحهم.

فصـــل
في فتح بلاد النُّوْبة

قال العماد: وفي جُمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين، بلاد النُّوبة[1]، وأراهم سُطاه المرهوبة، وفتح حِصْناً لهم يُعرف بإبريم، وآلى ألا يريم؛ وهي بلادٌ عديمة الجدوى، عظيمة[2] البَلْوى، ثم جمع السَّبْي، وعاد به إلى أُسْوان، وفَرَّقَ على أصحابه في الغنائم السُّودان.

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: وفي هذه السنة اجتمعَ السُّودان والعبيد من بلاد النُّوْبة، وخرجوا في أُممٍ عظيمة قاصدين مُلْكَ بلاد مِصْر، وصاروا إلى أعمال الصَّعيد، وصَمَّموا على قَصْدِ أُسْوان وحصارها، ونَهْبِ قراها. وكان بها الأمير كَنْز الدَّولة[3]، فأنفذ يُعلم الملك النَّاصر، وطلب منه نجدةً، فأنفذ قِطْعةً من جيشه مع الشجاع البَعْلَبَكي. فلما وصل إلى أُسْوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخْرَبوا أرضها، فاتَّبعهم الشجاع والكَنْز، فجرت حربٌ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم.

ورجع الشُّجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد، وتمكُّنِهم من بلاد الصَّعيد، فأنفذ الملك النَّاصر أخاه شمسَ الدولة في عسكرٍ كثيف، فوجدهم

(١) للدكتور مصطفى مسعد كتاب في تاريخ النوبة عنوانه: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى.
(٢) في (ل): كثيرة.
(٣) وقد خرج بعد على صلاح الدين. انظر ص ٣٣٧ من هذا الجزء.

قد دخلوا بلاد النُّوبة، فسار قاصداً بلادهم، وشَحَن مراكب كثيرةً في البحر بالرِّجال والمِيرة، وأمَرها بلحاقه إلى بلاد النُّوْبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغَنِمَ جميع ما كان فيها من المال والكُراع والميرة، وخلَّص جماعةً من الأسرى، وأسَرَ مَنْ وجده فيها، وهرب صاحبها.

٢٠٩/١

وكتب إلى السُّلْطان بذلك، فأنشد السُّلْطانَ أبو الحسن بن الذَّرَوي[١] [يهنِّئه][٢] بفتح إبريم[٣] قصيدةً، منها:

فَقَدِّمِ العَزْمَ فذا مُبْتَدَاه ... يَقْصُر مُلْكُ الأرضِ عن منتهاهْ
واسْحَبْ ذيولَ الجيشِ حتى أرَى[٤] ... أنْجمَه طالعةً عَنْ دُجاهْ
سواكَ من ألقى عَصاه بها ... قناعةً لمَّا استقرَّت نَوَاه
عليكَ بالرُّومِ وَدَعْ صاحب التَّـ (م) ـاجِ إذا شئتَ وتُورانشاهْ
فقد غَدَت إبريمُ في مُلكه ... تُبرم أمراً فيه كَبْتُ العُداهْ
لا بُدَّ للنُّوبة من نَوْبَةٍ ... تُرضي بسُخطِ[٥] الكُفْرِ دينَ الإلهْ
تظلُّ من سوبة[٦] منسوبةً ... لعَزمةٍ كامنةٍ في أناهْ
تَكْسُو الغُزَاة القاطِني أرضها ... ما نَسَجَتْ للحَرْبِ أيدي الغُزاه
سودٌ وتحمرُّ الظُّبى حولَها ... كأعينِ الرُّمْدِ بَدَت للأُساهْ

---

(١) سترد ترجمته في ٣/ ١٠١ من هذا الكتاب.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) واقعة على بعد ٥٥ كلم إلى الشمال من أبي سمبل، ١١٧٢ كلم عن القاهرة. كتاب «صلاح الدين» ليونز وجاكسون (الترجمة العربية) ص ٨١ طبعة بيروت ١٩٨٨ م.
(٤) في (م): يرى.
(٥) في الأصل: لسخط، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) كذا في النسخ الخطية، وفي طبعة وادي النيل: نوبة، ولم يتضح لي المعنى.

أوْ لاَ فَسُمْـــرٌ يحتميهـــا القَنـــا ... مثــل دِنَــانٍ[1] بــزَّلتهـا[2] السُّقـاهْ

للَّـــهِ جَيْـــشٌ منـــك لا ينْثني[3] ... إلا بِنَصْـــرٍ[4] دَمِيَـــتْ شَفْـــرتــاهْ

مـــا بيـــن عِقْبـــان ولكنَّهـــا ... خيـــلٌ وفُـــرْســان كَمِثْـــلِ البُـــزَاهْ

آســـادُ حَـــرْبٍ فـــوقَ أيـــديهـــمُ ... أســـاود الطَّعْـــنِ فهـــم كـــالحُـــوَاهْ

تقلَّـــدوا الأنهـــار واستـــلأمـــوا الـ ... ـغُـــدْران فـــالنِّيـــران تجـــري ميـــاهْ

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أُسوان ثم إلى قُوص*، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم الكُرْدي، فطلب من شمس الدَّوْلة قلعة إبريم، فأقطعه إياها، وأنفذ معه جماعةً من الأكراد البَطَّالين*، فلما حصلوا فيها تفرَّقُوا فِرَقاً. وكانوا يشنُّون الغارات[5] على بلاد النُّوْبة حتى[6] بَرَّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عَفَتْ أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتَّفق أنهم عَدُّوا إلى جزيرة من بلاد النُّوْبة[6] تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كانوا فيها، وأخلَوْها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النُّوبة إليها وملكوها.

وأنفذ ملك النُّوْبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقُوص* ومعه كتاب فيه طلب الصُّلْح، ومع الرسول هَدِيَّة؛ عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجَيْ نُشَّاب، وقال: ما لك عندي جواب إلا هذا. وجهَّزَ

---

(١) في (م): ذئاب.

(٢) بزل: ثقب إناء الخمر، «اللسان» (بزل).

(٣) في (م): لا تنسني، وهو تصحيف.

(٤) في طبعة وادي النيل ١/ ٢٠٩ إلا بنصل.

(٥) في (ل) و (م): الغارة.

(٦ ـ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها. فسار الحلبي مع الرّسول حتى وصل دُنْقُلة[1]؛ وهي مدينة الملك. قال مسعود: فوجدتُ بلاداً ضيِّقة ليس لهم زَرْع إلا الذُّرة، وعندهم نخل صِغار منه إدامُهم. وَوَصَفَ مَلكهم بأوصاف منها [أنْ][2] قال: خرج علينا يوماً وهو عُريان قد ركب فرساً عُرْياً[3]، وقد التفَّ في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر. قال: فأتيت فسلَّمت عليه، فضحك وتغاشى، وأمر بي أن تكوى يدي، فكوي عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلاً من الدَّقيق، ثم صرفني. قال: وأما دُنْقُلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص.

فصـــل

في وفاة نجم الدّين أيُّوب، والد صلاح الدّين، وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب، فشَبَّ به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصْر* وسط المَحَجَّة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحِجَّة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السَّابع والعشرين من ذي الحجة.

وكان كريماً رحيماً، عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود. وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكَرَك*

---

(١) ويقال لها دمقلة أيضاً. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٧٠، ٤٧٨.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) أي لا سرج عليه. «اللسان» (عرا).

والشَّوْبك* على الغَزَاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر[1] أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السُّلْطانية، ثم نقلا بعد سنين[2] إلى المدينة الشَّريفة النبوِيَّة، على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، والتحية والإِكرام، والإِجلال والإِعظام، وعلى آله وصحبه وسلم[3].

قلت: وقبرهما في تُرْبة الوزير جمال الدِّين الأَصْفهاني وزير المَوْصِل المقدَّم ذكره[4]، رحمهم الله تعالى.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غَزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشقَّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته. وكان سبب وفاته وقوعه من الفرس. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد الرّكض، وَلعاً بلعب الكرة* بحيث من رآه يلعبُ بها يقول: ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس[5]. ٢١٠/١

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عز الدين فَرُّخْشاه[6] بمصر يقول فيه: صح[7] من المصاب بالمولى الدَّارج[8] ـ غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تُرْبَه ـ ما عظمت به اللَّوْعة، واشتدَّت الرَّوْعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

---

(١) قبر، ساقطة من (م).

(٢) نقلا سنة (٥٨٠ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٥٨.

(٣) في (م): على ساكنها السلام والصلاة والتحية. وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٤) انظر ص ٤٢٠ من الجزء الأول.

(٥) «النوادر السلطانية»: ٤٦.

(٦) له ذكر في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته في ٣/ ١٢٦.

(٧) صح، ليست في (م).

(٨) الدارج، من دَرَجَ: أي مات. «معجم متن اللغة» ٢/ ٣٩٤.

مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصَّبر فأبى وأنجدت[1] العبرة، فيا له فقيداً فُقِدَ عليه العزاءُ، وهانت بعده الأرزاء، وانتثر شمل البركة بفقده، فهي بعد الاجتماع أجزاء.

وتخطفته يدُ الرَّدى في غيبتي ... هَبْني حَضَرْتُ فكنت ماذا أَصْنَعُ

قال ابنُ أبي طيّ الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي[2]، ولا يُعرف في نسبه أكثر من والده شاذي. وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول: شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابنُ أبي طيّ: وقد ادَّعى ابنُ سيف الإسلام لما ملك اليمن أنَّهم[3] من بني مروان[4] بن محمد الجَعْدِي المعروف بالحمار، يعني آخر خلفاء بني أميَّة. قال: وقد نقَّبْتُ عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أنَّ هذا كذبٌ، وأن جميع آل أيوب لا يَعرفون جَدًّا فوق شاذي. وكذلك أخبرني السلطان الملك الظَّاهر[5] رحمه الله تعالى.

قلت: ودليل[6] صحة ذلك أنني وقفتُ على كتاب وقف الرباط[7] النَّجْمي[6] بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي، وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طُغْتِكِين بن

(١) في الأصل و (ل): وانحدرت، والمثبت من (م).

(٢) في «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٥٩ «وهذا الاسم أعجمي، ومعناه بالعربي: فرحان».

(٣) في الأصل: أنه، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) قول ابن أبي طي هذا مكرر في (م) ومصحح.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

(٧) في الأصل: رباط، والمثبت من (ل)، وقد وقفه قبل سفره إلى مصر سنة (٥٦٥ هـ) وقد درس. انظر ص ١٤٩ من هذا الجزء.

أيوب بن شاذي، ابن أخي السُّلْطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه[١] وتعاظم إلى أن ولّى نفسه الخلافة، وادَّعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة[٢]، وتلقَّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. ومدحه كثيرٌ من الشُّعراء بذلك، وزيَّنُوا له فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنـي أنـا الهـادي الخليفـةُ والـذي ... أدوسُ رقابَ الغُلْبِ بالضُّمَّرِ الجُرْدِ
ولا بُـدَّ مِـنْ بغـدادَ أطـوي رُبُـوعَهـا ... وأَنْشُـرهـا نَشْـرَ السَّمـاسِـرِ للبُـرْدِ
وأنصـب أعـلامـي علـى شُـرُفـاتهـا ... وأُحيـي بهـا مـا كـان أَسَّسَـهُ جَـدِّي
ويُخْطَـبُ لـي فيهـا علـى كـلِّ مِنْبَـرٍ ... وأُظْهِـرُ ديـنَ الله فـي الغَـوْرِ والنَّجْـدِ

ثم قال ابنُ أبي طيّ: وكان نجم الدين أيوب عدلاً مرضياً، كثير الصَّلاة والصِّلات، غزير الفَضْل والخيرات، يحب العلماء، ويميل إلى الفُضَلاء، وكان مُمَدَّحاً، مدحه العماد الكاتب بعِدَّة قصائد.

قال: وكان مولد[٣] نجم الدين أيوب ببلد شبختان، كذا حكاه مُؤَيَّد

---

(١) ولي أبوه طغتكين اليمن سنة (٥٧٨ هـ)، وتوفي سنة (٥٩٣ هـ) بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن، ومدحه الشاعر ابن عُنين بغرر القصائد حين دخوله اليمن، وابنه إسماعيل قتل سنة (٥٩٨ هـ) وكان أهوج، كثير التخليط. انظر «الكامل»: ١١/ ٤٨٠ ـ ٤٨١، و «رحلة ابن جبير»: ١٢٦، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٥، و «شفاء القلوب» ١٩٨ ـ ٢٠٠، و«العقود اللؤلؤية»: ١/ ٢٩، و «تاريخ ثغر عدن»: ١٣٣ ـ ١٣٦، ٥١ ـ ٥٢، و «بلوغ المرام»: ٤١، وانظر ص ٩٤، وما بعدها من الجزء الثالث. و«المذيل على الروضتين» حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(٢) أورد له أبو الغنائم مسلم بن محمود الشيزري في كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» قصيدة طويلة يدعي فيها أن بني أيوب أمويون. انظر «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق»: ٦/٣٣.

(٣) هنا ينتهي الخرم الذي ابتدأ من ص ١٣٠ من هذا الجزء، انظر حاشيتنا رقم ٥ من الصفحة المذكورة.

الدين ابن منقذ[1]. وحدَّثني جماعةٌ أنَّ مولد نجم الدين كان بجبل جُور[2]، ورُبي في بلد المَوْصِل. ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السُّلْطان محمد بن مَلِكْشاه[3] فرأى منه أمانة وعقلاً، وسَداداً وشهامة، فولاه قلعة تَكْريت*، فقام في ولايتها أحسنَ قيام، وضبَطَها أكْرَمَ ضبط، وأجْلى مِن أرضها المفسدين وقُطَّاع الطريق وأهل العَيْث، حتى عُمِرَتْ أرْضُها، وحَسُنَ حال أهلها، وأمنت سُبُلها.

فلما ولي السُّلْطان مسعود[4] المُلْكَ أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بِهْرُوز الخادم[5] شِحنة* بغداد ومُتولي العراق ــ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس ــ فأقرَّ الأمير نجم الدين في ولاية تَكْريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرَّر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بِهْرُوز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومَعْذُوقاً[6] بهِمَّته.

وكان نجم الدين عظيماً في أنفس النَّاس بالدين والخير وحُسْن السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يَسمعُ بأحدٍ من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه.

---

(١) هو أسامة ابن منقذ، والمشهور أنه مؤيد الدولة، ويلقب أحياناً بمؤيد الدين. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٥٦٨.

(٢) اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية. انظر «معجم البلدان»: ٢/١٠٢.

(٣) انظر ترجمته ص ١٠٧ ــ ١٠٨ من الجزء الأول.

(٤) انظر ترجمته ص ٢٨٦ من الجزء الأول.

(٥) انظر ص ٤٠٤ من الجزء الأول.

(٦) بمعنى منوطاً، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٨ من هذا الجزء.

وقد ذكر العماد الكاتب في «سيرة السَّلْجُوقية» الأمير نجم الدين وقرَّظه وأثنى عليه، وذكر من دينه وعِفَّته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة. وحكى قضية عمه العزيز حين حُبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدَّرْكَزيني[1]، وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بِهْرُوز بنفسه بأمر الدَّرْكَزيني[2].

ثم إن السلطان مسعوداً حَشَدَ وخرج في أخذ السَّلْطنة، وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سُنْقُر في بغداد، وجرَّدا عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكْريت طامِعَيْن في بغداد، واتصل هذا الخبر بقراجه السَّاقي ــ وهو أتابك ابن السُّلْطان محمود[3] ــ فجرَّد ألف فارس للقاء زَنْكي[4]، ثم أردفهم بعسكرٍ ضخم، فانهزم[4] زنكي، وقُتل جماعة من أصحابه، ونهب جميع ما كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكْريت وبه عِدَّة جراحات. وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شِيركُوه، فمتحاه إلى القلعة بحبالٍ، وداوَيا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظَّهْر، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظَّهْر حتى إنّهما أعطياه جُمْلَةً من البقر حمل عليها ما سلم معه مِنْ أمتعته. فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصَّنيعة، ويواصله بالهدايا والألطاف مُدَّة مُقامه في تكريت. فلما انفصل عنها ــ على 211/1

---

(١) هو أبو القاسم ناصر بن علي الأنساباذي الدركزيني، ولي الوزارة سنة (٥١٨ هـ)، وقتل سنة (٥٢٧ هـ). انظر أخباره في «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٣٥ وما بعدها، و «معجم البلدان»: ٢/ ٤٥١.

(٢) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٥٥ ــ ١٥٦.

(٣) انظر ص ٤٠٤ من الجزء الأول.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

ما سنذكره ــ تلقَّاه زَنْكي بالرَّحب والسَّعة، واحترمه احتراماً عظيماً، وأقطعه عدة قطائع.

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حَبَّات قلوبهم، وكان أخوه شِيركُوه معه في القلعة، وكان شُجاعاً باسلاً[1]، ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها. فاتَّفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً، فاتَّفق في ذلك اليوم أن النَّصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة مُمِضَّة، فجرَّد أسد الدين سيفه، وقتل النصراني، وصَعِدَ إلى القلعة، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأُخذ النَّصْراني بِرِجْله، فأُلقي من القلعة.

وبلغ بِهْرُوز صاحبُ قلعة تكريت[2] ما جرى، وحضر عنده مَنْ خَوَّفه جُرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرَّعايا، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب[3] استدراكه. فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائبٍ سيَّره صُحبة الكتاب. فأجاب نجم الدين ذلك بالسَّمع والطَّاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهلٍ ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمّما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل.

وقيل: إن أسد الدين كان خرج إلى المَوْصِل قبل نجم الدين.

---

(١) باسلاً، ساقطة من (م).
(٢) في (م): صاحب تكريت.
(٣) في (م): ويضعف، وهو تصحيف.

وأَعْظَمَ أهلُ تكريت خروج نجم الدين مِنْ بين أظهرهم، ولم يبق أحدٌ إلا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقته.

ولما اتصل بأتابك زَنْكي قُدومُهما أفْرَحَه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما، وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقْطعهما في بلد شهرزور* إقطاعاً سنياً. وقيل: إنه أقطع أسد الدين بالمُوَزَّر*.

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير[1] مودَّة عظيمة حتى حلف كل واحدٍ منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته. وتجرَّد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمْرِ أخيه نجم الدين حتى قرَّبهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة. وخرجا معه إلى الشَّام، وشهدا معه حروب الكُفَّار وقتال الفرنج ـ لعنهم الله تعالى ـ وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفَعْلَة الغَرَّاء.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي[2] ـ وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب ـ قال: وحدّثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين ابن داية الملك الصَّالح قال: حدّثني حسام الدين سُنْقُر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب ـ وكان سُنْقُر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي ـ قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما نفَّذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السُّلْطان الملك النَّاصر إلى مصر مِنْ أجل قطع خُطْبَة المصريين، وإقامة دعوة بني العباس، في أول سنة سبع وستين وخمس مئة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر

(١) سلفت ترجمته ص ٤٢٠ من الجزء الأول.
(٢) في (م): الموصلي.

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طُرَّاحة[1] واحدة، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدَّوْلتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول. فبينا الناس كذلك إذ تقدَّم كاتبٌ نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين، فقبَّل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده [الأمير] نجم الدين[2]، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يا مولاي، هذا تأويل مقَالتي لك بالأمس حين وُلد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقتَ والله. ثم أَخذ في حمدِ الله وشُكْره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء، والقُضَاة والأمراء، وقال: لكلامِ هذا النَّصْراني حكايةٌ عجيبة؛ وذلك أنّني ليلة رُزقت هذا الولد ــ يعني السلطان الملك الناصر ــ أمرني صاحب قلعة تكريت في تلك الليلة بالرِّحلة عنها بسبب الفَعْلة[3] التي كانت من أخي أسد الدين شِيركُوه رحمه الله وقَتْله النَّصْراني، وكنت قد أَلِفْت القلعة، وصارت لي كالوطن، فَثَقُلَ عليَّ الخروج منها، والتَّحوُّل عنها إلى غيرها[4]، واغتَمَمْت لذلك. وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به، وتطيَّرت لِمَا جرى عليَّ، ولم أفرح به ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة، وأنا على طِيَرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنتُ له، فقال لي: يا

---

(١) الطرَّاحة: كلمة عامية تعني وسادة مربعة ومحشوة موثرة، تطرح ليجلس عليها، مأخوذة من طرح الوسادة إذا ألقاها، فكأنها بمعنى مطروحة، وفصيحها الميثرة، وتعرف في مصر: الشلتة. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٩٤ حاشية رقم (١). و«قاموس رد العامي إلى الفصيح» ٣٤٦ ــ ٣٤٧.

(٢) نجم الدين، ساقطة من (ل)، وما بين حاصرتين من (م).

(٣) في (م): القلعة، وهو تصحيف.

(٤) إلى غيرها، ساقطة من (ل).

مولاي، قد رأيتُ ما قد حدث عندك من الطِّيَرَة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبِمَ استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يُغْني شيئاً! وهذا الذي جرى عليك قضاءٌ من الله تعالى سبحانه وقَدَر، ثم ما يُدريك أنَّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت[1]، جليلَ المقدار. فعطفني كلامه عليه، وها هو قد وقفني على ما كان قاله. فتعجَّب الجماعة من هذا الاتفاق، وحَمِدَ السُّلْطان ووالده الله تعالى سبحانه وشكَراه.

قلت: ولعُمارة في نجم الدين مدائح ومراثٍ، منها قوله:

ثَغْرُ الزَّمان بنجمِ الدِّين مُبْتَسِمُ ... وَوَجْهُهُ بِدَوَامِ العِزِّ مُتَّسِمُ

يقولُ فيها:

أَضْحَى بكَ النِّيْلُ محجوجاً ومُعْتَمَراً ... كأنَّما حَلَّ فيهِ الحِلُّ والحَرَمُ ١/٢١٢

جاءت بَنُوك وشَمْلُ الدِّين مُنْتَثِرٌ ... فقَارعوا عنه فَهْوَ اليومَ مُنْتَظِمُ

وما دَرَى أحدٌ من قَبْلِ رُؤْيَتِهِمْ ... أنَّ الحُظُوظَ بِلَثْمِ الأَرْضِ تُقْتَسَمُ

نامَتْ عيونُ الوَرَى في عَدْلِ سيرتهمْ ... كأنَّ يقظتنَا في عَصْرِهِمْ حُلُمُ

والنَّاصِرُ ابنُكَ كافٍ[2] كلَّ مُعْضِلَةٍ ... إذا الحوادثُ لم يُكْشَفْ لها غَمَمُ

أَعَزَّ بالبأسِ والإحسانِ حَوْزَتَنا ... فلم يُلِمَّ بنا خَوْفٌ ولا عَدَمُ

تَبَسَّمَ الدَّسْتُ مِنْ أيوبَ عن مَلِكٍ ... تَنْحطُّ عن قَدْرِهِ الأقْدارُ والهِمَمُ[3]

وقال في مرثيته:

هي الصَّدْمَةُ الأُولى فمن بانَ صَبْرُهُ ... على هَوْلِ مَلْقاها تَضاعَفَ أَجْرُهُ

---

(١) في (م): عظيما عظيم الصيت.

(٢) في الأصل و(ل): كافي، والمثبت من (م).

(٣) انظر أبياتاً من القصيدة غير هذه في «النكت العصرية»: ٣٥٥ ـ ٣٥٦. وسيأتي بعض أبياتها ص ٢٩١ من هذا الجزء.

أذُمُّ صباحَ الأربعاءِ فإنه ... تَبَسَّمَ عن ثَغْرِ المَنِيَّةِ فَجْرُهُ
أصابَ الهُدَى في نجمهِ بمصيبةٍ ... تَداعَى سِماكُ الجوِّ منها ونَسْرُهُ
فلا تَعْذُلونا واعْذُرونا فَمَنْ بكى ... على فَقْدِ أيوبٍ فَقَدْ بانَ عُذْرُهُ
أقامَ بأعمالِ الفُرَاتِ وخَيْلُهُ ... يُراعُ بها نِيلُ العزيزِ ومِصْرُهُ
إلى أنْ رماها من أخيه بِضَيْغَمٍ ... فرىٰ نابُه أهلَ الصَّليبِ وظُفْرُهُ
فلما قَضَى نَحْبَي حياةٍ ودَوْلَةٍ ... بأمرك في إدراكها تَمَّ أمْرُهُ
تعاقَبتما مِصْراً تَعاقُبَ وابلٍ ... يبيتُ بقُطْرِ النِّيلِ ينهلُّ قَطْرُهُ
نَزَلْتَ بدارٍ حَلَّها فَحَلَلْتَها ... فمَغْناكَ مَغْناهُ وقُطْرُكَ قُطْرُهُ
وواخيتَه في البَرِّ حيّاً وميّتاً ... فَقَبْرُكَ في دارِ القَرَارِ وقَبْرُهُ
وقد شَخَصَتْ أهلُ البقيعِ إليكما ... وإلا فَسُكَّانُ الحَجُونِ وحِجْرُهُ
هنيئاً لمَلْكٍ ماتَ والعِزُّ عِزُّه ... وقُدْرَتُهُ فَوْقَ الرِّجالِ وقَدْرُهُ
وأَدْرَكَ مِنْ طُولِ الحياةِ مُرَادَه ... وما طالَ إلا في رِضا الله عُمْرُهُ
وأَسْعَدُ خَلْقِ الله مَنْ ماتَ بعدما ... رأى في بني أبنائه ما يَسُرُّهُ
شهيدٌ تلقَّى رَبَّه وهو صائِمٌ ... فكانَ على أجْرِ الشَّهادَةِ فِطْرُهُ

[منها][1]:

مضى وهو راضٍ عنكَ لم تَرِمِ صَدْرَه ... بضيقٍ ولا جاشَتْ من الغيظ قِدْرُهُ
حمى حَوْزَةَ الإسلام والدِّين بعده ... ثمانيةٌ مِن أَجْلِهِمْ عَزَّ نَصْرُهُ
فكيف بخِيسٍ[2] آلُ أيوبَ أُسْدُه ... لقد بانَ خَوْفُ الدَّهْرِ منه وذُعْرُهُ
رَعَى الله نجماً تَعْرِفُ الشَّمْسُ أنَّه ... أبوها ونورُ البَدْرِ منها وزُهْرُهُ

(١) ما بين حاصرتين من (ل).
(٢) الخيس: الشجر الكثير الملتف، وهو موضع الأسد، انظر «اللسان» (خيس).

وأبقى المَقَامَ النَّاصِرِيَّ فإنَّه ... لِدَوْلَتِكُمْ كَنْزُ الرَّجاءِ وَذُخْرُه[1]

وقال أيضاً:

صَفْوُ الحياةِ وإنْ طالَ المَدَى كَدَرُ ... وحادثُ الموتِ لا يُبْقي ولا يَذَرُ

وما يَزَالُ لسانُ الدَّهْرِ يُنْذِرُنا ... لو أثَّرَتْ عندنا الآياتُ والنُّذُرُ

فلا تَقُلْ غرَّت الدُّنيا مطامِعَنا ... فما مَعَ الموتِ لا غِشٌّ ولا كَدَرُ

كأسٌ إذا ما الرَّدى حَيَّا الحياة بها ... لم يَنْجُ مِنْ سُكْرِها أنثى ولا ذَكَرُ

كَمْ شامخِ العزِّ لاقَى الذُّلَّ من يَدِها ... ما أَضْعَفَ القَدْرَ إنْ أَلْوى به القَدَرُ

في كلِّ جيلٍ وعَصْرٍ مِنْ وقائعها ... شَعْواءُ يَقْطُرُ منها النَّابُ والظُّفُرُ

أودى عليٌّ وعثمانٌ بمخلبها ... ولم[2] يَفُتْها أبو بكر ولا عُمَرُ[3]

ومَن أراد التَّأسِّي في مُصيبتِه ... فلِلْوَرَى برسولِ الله مُعْتَبَرُ[4]

نجمٌ هَوَى من سماءِ الدِّين مُنْكَدِراً ... والنَّجْمُ من[5] أُفْقِهِ يهوي وَيَنْكَدِرُ[6]

منظومةٌ أنْجُمُ الجوزاء من جَزَعٍ ... له وعِقْدُ الثُّرَيَّا منه مُنْتَثِرُ

وكيف يُنْسى مُحَيَّاه الكريمُ ومَنْ ... نُعماه في كلِّ عَيْشٍ صالحٍ أَثَرُ

جَدَّدْتَ مِنْ أَسَدِ الدِّينِ الشَّهيدِ لنا ... حُزْناً به يتساوى الصَّبْرُ والصَّبِرُ

قد كانَ للدِّين والدُّنيا بعزمكما ... ذكرٌ يُعَبِّرُ عنه الصَّارِمُ الذَّكَرُ

إنْ فاحَ نَشْرُ كلامٍ تُمدحانِ به ... مِسْكاً فَعِتْرَةُ أيوبٍ هي العِتَرُ

٢١٣/١

---

(١) انظر أبياتاً من هذه القصيدة في «النكت العصرية»: ٢٦٠ ـ ٢٦١، و «مفرج الكروب»: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢) في الأصل: ولا، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في هامش الأصل: رضي الله عنهم.

(٤) في هامش الأصل و (ل): ﷺ.

(٥) في (م): في.

(٦) انكدرت النجوم: تناثرت. «اللسان» (كدر).

تخفـي ذُبـالَ مصـابيـحٍ إذا طَلَعُـوا ... صُبْحاً وتُنْسي مُلُوكَ الأرضِ إنْ ذُكِرُوا

كـأنَّمـا صَـوَّرَ الله الكمـالَ بهـم ... شَخْصاً ويوسفُ منه السَّمْعُ والبَصَرُ

لا شَوْبَكٌ* منـه معصـومٌ ولا كَـرَكٌ* ... ولا خليـلٌ ولا قُـدْسٌ ولا زُغَـرُ*

لـم يـرتَحِـلْ قـافـلاً إلا وسـاكنهـا ... إمـا مُبَـاحٌ حِمـاه أو دمٌ هَـدَرُ

مـا مـاتَ أيـوبُ إلا بعـد مُعْجِـزَةٍ ... في المجد لم يُؤْتَها من جِنْسِهِ بَشَرُ

مضـى سعيـداً مـن الـدُّنيا وليسَ لـه ... فـي رُتْبَـةٍ أَرَبٌ بـاقٍ ولا وَطَـرُ

وطـوَّلَ الله منـه بـاع أربعـة ... منها النَّدى والتُّقَى والمُلكُ والعُمُرُ

وأشـرفُ المُلـكِ مـا امتـدَّت مسـافَتُهُ ... فـي صِحَّـةٍ أخـواهـا العَقْـلُ والكِبَـرُ

ومـن سَعَـادتِـهِ أنْ مـاتَ لا سَـأَمٌ ... يشكـوه منـه مُعـانيـه ولا ضَجَـرُ(١)

فصل

قال العماد: وسار نور الدين قاصداً جانب الشّمال لتسديد ما اختلّ هناك من الأحوال. فسار إلى بَعْلَبك ومنها إلى حمص ثم حلب، وفعل في كلٍّ منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الرُّوم(٢)، ففتح مَرْعَش* في العشرين من ذي القَعْدَة، ثم فتح بَهَسْنىٰ*، واتَّبع في كلٍّ منهما الطريقة الحُسْنى.

وكتب العماد إلى صديقٍ له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المِشْمِش:

كتـابي فَدَيْتُـك مـن مَرْعَـشِ* ... وخـوفُ نـوائبهـا مُـرْعِشـي

(١) في «النكت العصرية»: ٢٦٩ بيتان من القصيدة.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من الجزء الأول.

وما مَرَّ في طَرْفِها مُبْصِرٌ صحيحُ النَّواظرِ إلا عَشي[1]
وما حَلَّ في أرضها آمِنٌ من الضَّيْمِ والضُّرِّ إلاَّ خَشي
تُرَنِّحُني نشَواتُ الغَرامِ كأنّيَ مِنْ كأسِهِ مُنْتَشي
أُسِرُّ وأُعْلِنُ بَرْحَ الجَوَى فقَلبي يُسِرُّ ودمعي يَشي
بَذَلْتُ لكم مُهْجتي رِشْوَةً فحاكِمُ حُبِّكُمُ مُرْتَشي
وكيف يَلَذُّ الكَرَى مُغْرَمٌ بنارِ الغَرَامِ حَشَاه حُشي
بِمَرْعَشَ أبغي وبلُوطِها مُضَاهاة جِلِّقَ والمِشْمِشِ![2]

قال العماد في «الخريدة»: فسارت هذه القطعة، ونُمي حديثها إلى نُور الدين، فاستنشدنيها، فأنشدتُها إياه ونحن سائرون في وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بَدَهْتُ بهما في الحال، وهما:

وبالمَلكِ العادِلِ اسْتَأنَسَتْ نجاحاً مُنى كلِّ مُسْتَوْحِشِ
وما في الأنامِ كريمٌ سواه فإنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ذا فتِّشِ[3]

وقال ابنُ الأثير: وفي سنة ثمانٍ وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السَّلْجُوقي[4]، وهي مَلَطْية* وسيواس* وقُونية* وأَقْصَرا*، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه.

---

(١) في (ل): غشي.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٤، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٦٣ ــ ٦٤.
(٣) انظر «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ٦٤ ــ ٦٥.
(٤) في (ل) و (م): السلجقي.

وكان سببُ ذلك أنَّ ذا النُّون بن دانْشَمَنْد[1] صاحب مَلَطْيَة وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قَصده قليج أرسلان، وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستَجيراً به، وملتجئاً إلى ظِلِّه، فأكرم نُزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليقُ أن يُحملَ للملوك، ووعدَه النَّصْر والسَّعي في ردِّ ملكه إليه. وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحدٍ من المسلمين إلا ضرورةً؛ إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما فعل بدمشق ومصر وغيرهما. فلما قصده ذو النُّون راسل قليج أرسلان وشفع ١/٢١٤ إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسون[2] وبَهَسْنَىٰ* ومَرْعَش* ومَرْزُبان، فملكها وما بينها من الحصون، وسيَّرَ طائفةً من عسكره إلى سيواس فملكوها.

وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلادَه قد سار من أطرافها التي تلي الشَّام إلى وسطها خوفاً وفَرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه، ويسأله الصُّلْح والصَّفْح عنه، فتوقَّف نور الدين عن قَصْدِه رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصُّلْح.

وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركتُ منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدِّد إسلامك على يد رسولي حتى يحلَّ لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً ـ وكان قليج أرسلان يُتَّهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة ـ والثَّاني إذا طلبتُ عسكرك إلى الغزاة تسيِّره، فإنَّك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام،

---

(١) ولي للمرة الأولى سنة (٥٣٧ هـ) حتى (٥٥٠ هـ)، ثم ولي ثانية سنة (٥٦٤ هـ) حتى سنة (٥٦٩ هـ)، وقد توفي في نهايتها. انظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٢٢١.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ويريد: كيسوم، لأن رستاقها هو رستاق بهسنى. انظر «معجم البلدان»: ١/٥١٦.

وتركت الرُّوم وجهادهم وهادنتهم، فإما أن تكون تُنْجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد مَنْ يجاورك من الرُّوم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم. والثالث أن تزوِّج ابنتك لسيف[1] الدين غازي ولد أخي. وذكر أموراً غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرِّسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشَّناعة عليَّ بالزَّندقة، وقد أجبتُه إلى ما طلب، أنا أجدِّد إسلامي على يد رسوله. واستقرَّ الصُّلْح، وعاد نور الدين، وترك عسكره في سيواس* مع فخر الدّين عبد المسيح[2] في خدمة ذي النُّون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين رحمه الله تعالى، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان وملكها[3].

قال العماد: وفي هذه السنة وصل الفقيه الإمام الكبير قطب الدين النَّيْسَابوري[4]؛ وهو فقيه عصره، ونسيج وحدِه، فَسُرَّ نور الدين به، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي[5] رحمه الله تعالى، ونزل بمدرسة

---

(١) في (م): بسيف.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ١٦٠ ــ ١٦١.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٥) هو نصر بن إبراهيم بن نصر النابلسي المقدسي، الفقيه الشافعي، ولد قبل سنة (٤١٠ هـ)، وقدم دمشق سنة (٤٨٠ هـ)، ونزل في الزاوية الغربية من مسجد دمشق، ثم عرفت هذه الزاوية فيما بعد بالزاوية الغزالية لنزول الإمام الغزالي فيها أيضاً سنة (٤٨٩ هـ). وكان الشيخ نصر متقشفاً، متجنباً ولاة الأمور، قانعاً باليسير من غلة أرض كانت له بنابلس، يأتيه منها ما يقتاته، ولا يقبل من أحد شيئاً، توفي سنة (٤٩٠ هـ)، ودفن في مقبرة الباب الصغير. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ١٣٦ ــ ١٤٣، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٥/ ٣٥١ ــ ٣٥٣، ٦/ ١٩١ ــ ٣٨٩.

الجاروخ[1]. وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشَّافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلتُ: هي المدرسة العادليّة* الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب؛ أخو صلاح الدين، وفيها تربتُه، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومَنْ بعده منها وهو موضع المسجِد والمحراب الآن. ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المُحْكَم الذي لا نظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قَدَّر الله سبحانه وتعالى جَمْع هذا الكتاب، فلا أَقْفَرَ ذلك المنزلُ ولا أَقْوى[2]. وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام النَّاصرية في سنة ثمانٍ وسبعين. ووقف كتبه على طلبة العلم، ونُقِلَتْ بعد بناء هذه المدرسة إليها، فما فاتها ثمرته إذ فاتها مُبَاشرته، رحمه الله تعالى.

قال العماد: وكان وَفَدَ في سنة أربع وستين شيخ الشُّيوخ* عماد الدين أبو الفَتْح محمد[3] بن علي بن محمد بن حَمُّويه، فأقبل عليه نور الدين، وأمرني بإنشاء مَنْشورٍ له بمشيخة الصُّوفية، ورغَّبه في المقام بالإحسان إليه

---

(1) في النسخ الخطية، و «سنا البرق الشامي» ١/ ١٣٥ الجاروق، وإخاله تحريفاً وما أثبتناه هو الصواب، انظر «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٧ هـ) ترجمة صدر الدين بن شيخ الشيوخ، وانظر المدرسة الجاروخية في كشاف الأماكن.

(2) وقد استجاب الله دعاء أبي شامة ــ رحمه الله ــ فلا تزال العادلية إلى يومنا هذا عامرة، يختلف إليها طلاب العلم، وقد غدت منذ سنة ١٩١٩ م مقراً لمجمع اللغة العربية بدمشق، ثم ألحقت بالمكتبة الظاهرية العامرة، وفيها الآن قاعة للباحثين، كان من توفيق الله تعالى لي أن كنتُ أميناً لها ما يقرب من عشرين عاماً، ومن جميل الموافقات أن قدر الله لي فيها تحقيق هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

(3) كذا سماه العماد، وإنما هو عمر بن علي، انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٦ من الجزء الأول و«سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٥ ــ ١٣٦.

بالشَّام. ومن جُملة ما أتحفه به عِمامة بأعمدة ذهبيَّة نفَّذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزِنة ذهبها، فلم يُجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العِمامة في أخبار نور الدين أوَّل الكتاب من كلام ابنِ الأثير، وابن المُعْطَى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله، رحمهم الله تعالى[1].

ثم ذكر العماد نسخة المنشور، وفيه: فلينظر[2] في رباط السُّمَيْساطي* وقُبَّة الطَّواويس* ورباط الطَّاحونة* وغيرها من رُبُط الصُّوفية بدمشق المعمورة وبَعْلَبك.

ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرَّحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[3] قطائف، وكتب إليه:

مـا راقـداتٌ فـي صُحُـونِ	مستـوطنـاتٌ فـي سُكُـونِ
يجليـنَ أمثـالَ العَـرَا	ئِـسِ بيـن أبكـارٍ وَعُـونِ
أو كـالعَقـائـلِ فـي الخُـدُو	رِ قـد اعْتُقِلـنَ علـى دُيـونِ
هُـنَّ اللـذيـذات اللـوا	ئـذ بـالسُّهـولِ مـن الحُـزُونِ
أو كـالتَّمـائـم للصِّحـا	فِ ومـا نُسِبْـنَ إلـى جُنُـونِ
السُّكَّـريـاتُ الغـريـ	ـقـاتُ الغـلائـلِ والشُّؤونِ
صَـرْعَـى ومـا دارَتْ لهـا	يـومـاً رحى الحَـرْبِ الـزَّبُـونِ
لُفِّفْـنَ فـي أكْفـانِهـنَّ (م)	علـى المُنَـى لا للمَنُـونِ

(١) انظر ص ٣٦ من الجزء الأول.

(٢) في الأصل: فلتنظر، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣٥ من الجزء الأول.

يحيينَ بالتغريق بل | يَسْمَنَّ في ضِيقِ السُّجونِ
المُسْتَطاباتُ الظُّهو | ر المُسْتَلَذَّاتُ البُطُونِ
نُضِّدْنَ بالتَّرْصيع في الـ | ـجامات كالدُّرِّ المَصُونِ
المستقيماتُ الصُّفُو | فِ وَقَفْنَ كالخيلِ الصُّفُونِ
وقد اشْتَمَلْنَ من اللَّطَا | ئِفِ والصِّفات على فُنُونِ
اسْمَعْ حديثي في انبسا | طي فالحديث أخو شُجُونِ

وهي أكثر من هذا.

٢١٥/١

فصل

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مُقدَّم بلاد الأرمن، والتجائه إلى نور الدين، وتطاوله بقوَّته على الرُّوم والأرمن. وكانت الدُّروب: أَذَنة*، والمَصِّيصة*، وسيواس*[1]، يحميها كلب الرُّوم، ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون، فكسرهم وقتل وأَسَر، وساق لنور الدين من مقدَّمي الروم ثلاثين أسيراً. فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة، وما فتح من البلاد، ويقول فيه: وقُسْطَنْطينية* والقُدْس يجريان إلى أَمَد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظَّلام[2] المُدْلَهِمِّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يُدْني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام.

وفي آخره: ومن جُمْلة حسنات هذه الأيام الزَّاهرة ما تَسنَّى في هذه النَّوبة، من افتتاح بعض بلاد النُّوبة*، والوصول إلى مواضع منها لم تَطْرُقْها

(١) في «سنا البرق الشامي»: طرسوس.
(٢) في (م): الضلال.

سنابك الخيل الإسلامية في العصور الخالية. وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على بَرْقة* وحصونها، وتحكَّموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السُّؤل بعنقاء مُغرب[1].

قلت: كان اتَّفق في هذه السَّنة وصول قَراقُوش[2] غلام تقي الدين من الدِّيار المصرية مع طائفةٍ من الترك، وانضمَّ إليهم جماعةٌ من العرب، فاستولى على طَرابُلُس* وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المَهْدِيَّة وسَفَاقُس* وقَفْصة* وتُونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المُنى، وإقصاء عَبدَة الصَّليب الأنجاس من[3] المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مُفْتَتَح مراده، ومُقْتَدَح زِناده، ومُقترحه في جهاده، وأن يملكه السَّاحل بجميع بلاده[4].

وسَيَّر العماد معه قصيدةً، منها:

بالمستضيء أبي محمدٍ الحَسَنْ	رَجَعَتْ أمورُ المسلمينَ إلى السُّنَنْ
في أَرْضِ مِصْرَ دعا له خُطَباؤها	وأتت لتخطب بِكْرَ خطبته عَدَنْ
فالمغربُ الأقصى لذلك[5] مُشْرِقٌ	وَبِنَصْرِ مِصْرَ مُحَقَّقٌ يُمْنُ اليَمَنْ
ورأى الإِلٰه المستضيء لشرعه	وعباده نِعْمَ الأمينُ المُؤتَمَنْ
سِرُّ النُّبوة كامِنٌ فيه وَمِنْ	فطر الإِمامةُ مُشْرق نورُ الفِطَنْ

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) طبعاً هو غير قراقوش الأسدي المتوفى سنة (٥٩٧ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) في (م): في، وهو تصحيف.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٣٧.

(٥) في الأصل: بذاك، والمثبت من (ل) و (م).

تَقْوى أبي بكرٍ ومن عُمَرَ الهُدى وحياءُ عثمانٍ وعِلْمُ أبي الحَسَنْ
وبجِدِّه عُرِفتْ مقالةُ حَيدرٍ لا من دَدٍ أنا، لا، ولا مِنِّي الدَّدَنْ[1]
كم من عدوٍّ ميِّتٍ في جلدِهِ رُعْباً وخوفاً فهو حيٌّ في كَفَنْ

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله تعالى:

هل مِثْلُ محمودِ بن زَنْكي مُخْلِصٌ متوحِّدٌ يبغي رضاك بكلِّ فَنْ
وَرِعٌ لدى المحراب أَرْوَعُ مِحْرَبٌ في حالتيه إنْ أَقامَ وإنْ ظَعَنْ
يُمسي ويُصْبِحُ في الجهاد وغَيْرُه يَضْحَى رَضِيع سُلافَةٍ وضجيعَ دَنّ
وبعِزَّةِ الإسلام منتصراً حَرٍ وبِذِلَّةِ الإشراكِ منْتقِماً قَمَنْ

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عَصْرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصَرِيفين، وخمسين ديناراً من دنانير النِّثار التي نُثِرَتْ يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخُطْبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصَريفين من أعمال العراق لِزَنْكي ــ والد نور الدين ــ قديماً من إنعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرَّسْم[2] في حقِّه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثالَهُ الشَّريف إليه. وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطىء دِجْلة أرضاً يبنيها مدرسةً للشَّافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر، ولحسن الذكر

---

(١) هذا القول الذي نسبه العماد إلى حيدر، وهو علي بن أبي طالب يؤثر عن النبي ﷺ بلفظ: «لست من دَدٍ ولا الدَّد مني» أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٥)، والبيهقي في «السنن» ١٠/ ٢١٧ من حديث أنس بن مالك، والطبراني في «معجمه الكبير» ١٩/ (٧٩٤) من حديث معاوية، بأسانيد ضعيفة. قال البخاري: يعني: ليس الباطل مني بشيء، والدد والددن: اللهو واللعب. «اللسان» (ددن) و(ددا).
(٢) في الأصل: الاسم، والمثبت من (ل) و (م).

الباقي على الدَّهْر، فقيل له: ما ثَمَّ موضعٌ لهذا إلا دار التمر، فعاقه أمر القَدَر عن قُدْرته على[1] الأمر[2].

ثمَّ دخلت سنة تسع وستين [وخمس مئة][3]

ونور الدين قد فتح من حصون الرُّوم مَرْعَش* وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته. ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب مَلَطْيَة*. وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المِجْدَل*، فسرَّحهم بالعطاء الأجْزَل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الرُّوم على الفُرات، فتقبل[4] مستخلَف الأرمن[5] بالبراءة وحمل خمسين ألف دينار، على سبيل الجزية مصانعةً بِذُلٍّ وصَغار، وعاد إلى حلب وقد أنجح في كل ما طلب[6]. ٢١٦/١

وآراد آن يسرعَ إلى دمشق فالتاث سِرُّه لالتياث سُرِّيَّته، وحظي بمرض القلب لمرض جسم حَظيَّته، وجرَّت شكايَته شكايةُ جاريته، فتصدَّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف؛ ثم سَيَّرها في مِحَفَّة*، تحمل على أيدي الرجال في خِفَّة، وسارت على الطَّريق المهيع مع العسكر، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تُقرِّب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدَّم بحقٍّ لازم من بخدمته شَيَّعها. وتأخر نور الدين

---

(١) في الأصل: عن، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٩.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) في (م): فيقتل، وفي طبعة وادي النيل ١/ ٢١٥ فتقبله.
(٥) في الأصل و (ل): الأرض، وهو تصحيف، والمثبت من (م).
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٧ ــ ١٣٨.

في[1] جريدة مع عِدَّة من مماليكه وأمرائه، المماحضين في ولائه، وتقدَّم إليَّ أنْ أسايره في طريقه وأحاوره، وأحاضره في منازله وأسامره.

وسرنا على طريق قُبَّة ملاعب والمشهد وسَلَمْية*، فجاءه الخبر أَنَّ الفرنج قد أغارت على حَوْرَان، فثنى إلى الجهاد العِنان، وسمع الفرنج به فتفرَّقوا، وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق[2].

قلت: وفي جمادى الأُولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك، وعلامته عليه بخطه «الحمد لله»، يقول فيه:

وبعد، فإنَّ من سنتنا العادلة، وسِير أيامنا الزَّاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنَّه الظالمون من جائرات الرُّسوم. وما نزال نجدِّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفِّيها من الشُّبَه والشَّوائب، ونُلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضَّرائب، تقرُّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج، وجبل سَنِير*، وقصر حَجَّاج*، والشَّاغور*، والعُقَيبة*، ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع ما يُقَسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضِّياع الخواصِّ والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفَّرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهَرَباً من انتقامه وأليم عقابه. وسبيل النُّواب إطلاق ذلك على الدَّوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من

(١) في، ليست في (ل) و (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٩ ــ ١٤٠.

أوزاره، والاحتراز من التدنُّس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسعٍ وستين، وما بعدها على تعاقُب الأيام[1] والسِّنين.

فصــــل

في فتح اليمـن

قال العماد: وفي رجب توجَّه تورانشاه ــ أكبر إخوة صلاح الدين ــ إلى اليمن فملكها. وكان يحثُّه على المسير إليها عُمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه، فتجهَّز وسار إلى مكة، ثم إلى زَبِيد* فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيفُ الدولة مبارك بن منقذ[2]. ومضى إلى عَدَن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزَّنْجيلي[3]، وفتح حصن تعز* وغيره من القلاع، ففتح إقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بِكْراً وشيَّع ذِكْراً[4].

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسعٍ وستين رأى صلاح الدين قُوَّة عسكره، وكثرة عدد إخوته وقوَّة بأسهم. وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النَّبي بن مهدي، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتبَّ أمره؛ فرأى أن يسيِّر إليها أخاه الأكبر الملك المُعظَّم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق ــ سمعت منه، يعني من صلاح الدين رحمه الله تعالى، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه، وترجيحه إياه على نفسه ــ فمضى إليها وفتح الله على

---

(١) في (م): الأعوام.

(٢) سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وبخاصة ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦ من هذا الجزء، وص ٩٢ من الجزء الثالث، وسنترجم له هناك.

(٣) سيرد ذكره ص ٩٦ ــ ٩٧ من الجزء الثالث.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٠ ــ ١٤١.

يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها[1].

قلت: وكان أخو[2] هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عُمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلامٍ له قال: وكان جماعةٌ من أماثل الناس مثل بركات بن المقرىء وعلي بن محمد النّيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن وأزال دولة أهل زَبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلّق به[3].

وقال العماد في «الخريدة»: [المهدي بن] علي بن مهدي، ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شُرْب الخمر، وادَّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدِّث نفسه بالمسير إلى مكة، فمات سنة ستين، وتولّى بعده أخوه، وله شِعْرٌ حسن يدلُّ على عُلوِّ هِمَّته[4].

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفُتُوَّته، ولا ينهض بمروَّته، وكان قد انتظم في سِلْكه عُمارة الشَّاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٤٦، وانظر ص ٣٦٢ من هذا الجزء.

(٢) لعل هذا سبق قلم من أبي شامة فالصواب أن يقول: وكان أبو هذا الخارجي، لأن أباه ــ وهو علي بن مهدي بن محمد، كان يظهر التنسك ويحج كل عام ــ قد غلب على زبيد سنة (٥٥٤ هـ) ومات بعد شهرين ونيف من دخولها. انظر «بلوغ المرام»: ١٧، ثم ولي ابنه مهدي بن علي، وتوفي سنة (٥٥٩ هـ) كما في «بلوغ المرام»: ١٧، وهو الذي ترجم له العماد في «الخريدة» كما سيأتي، ثم ولي أخوه عبد النبي بن علي بعده، حتى مقتله في حوادث هذه السنة كما سيأتي. انظر «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» لعمارة اليمني: ٢٢٩ ــ ٢٣٧.

(٣) انظر «النكت العصرية»: ٢٩، وما بعدها.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ٦٤ ــ ٧٠، وما بين حاصرتين منه.

ومدَح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه. وكان إذا خلا به يَصِفُ له بلاد اليمن، وكثرة أموالها وخيرها، وضَعْفَ من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت: فمن جملة شعره في ذلك قولُه في القصيدة التي أولها:

العِلْمُ مُذْ كانَ محتاجٌ[1] إلى العَلَم ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تستغني عن القَلَمِ
كم يترك البيضَ في الأجفانِ ظامئةً ... إلى الموارِدِ في الأعناقِ والقِمَمِ
أمامَك الفَتْحُ من شامٍ ومن يَمَنٍ ... فلا تَرُدَّ رؤوسَ الخيلِ باللُّجُمِ
فعمُّك الملكُ المنصورُ سوَّمها ... من الفُراتِ إلى مِصْرٍ بلا سَأَمِ
فاخلُقْ لنفسك مُلْكاً لا تضافُ به ... إلى سِواك وأوْرِ النَّارَ في العَلَمِ
هذا ابنُ تُومَرْتَ قد كانت بدايتُهُ ... كما يقولُ الورى لحماً على وَضَمِ
وقد ترامى إلى أن أَمْسَكَتْ يَدُهُ ... من الكواكب بالأنفاسِ والكَظَمِ
حاسِبْ ضميرك عن رأي أتاكَ وقُلْ ... نصيحةٌ وَرَدَتْ من غيرِ مُتَّهَمِ[2]

١/٢١٧

وله من أخرى:

أفاتحَ أرضِ النِّيلِ وهْي منيعةٌ ... على كلِّ راجٍ فَتْحَها ومُؤَمِّلِ
متى توقدِ النارَ التي أنتَ قادحٌ ... بِغُمْدَانَ مشبوباً سناها بِمَنْدَلِ[3]
وتَفْتَحُ ما بينَ الحصينِ وأبْيَنٍ ... وصنعاءَ من حصنٍ حصينٍ ومَعْقِلِ
وتملكُ من مخلافِ طرفٍ وجعفرٍ ... نقيضين من حَزْنٍ خصيبٍ[4] ومُسْهلِ

(١) في الأصل و (ل): محتاجاً، والمثبت من (م).

(٢) انظر «النكت العصرية»: ٣٥٢ ـ ٣٥٥.

(٣) مندل: بلد بالهند منه يجلب العود الفائق الذي يقال له المندلي، «معجم البلدان»: ٥/٢٠٩.

(٤) في (ل): خفيف.

وتخلــق مُلْكــاً لا تُحِيــل بفخــره		علـى أَحَـدٍ إلاّ علـى عَـزِمـكَ العَلـي

وله من قصيدةٍ أخرى:

قالوا إلى اليمن الميمونِ رِحْلَتُهُ		فَقُلْتُ ما دونَه شيْءٌ سوى السَّفَرِ
سيْـرٌ يَسُـرُّ بنـي الـدنيـا وطِيْـبُ ثنـاً		وطول عُمْرٍ كذا يُحكى عن الخضِرِ
لا توقدَنَّ لها النار التي خمدت[1]		خفّض عليك تَنَلْ ما شِئْتَ بالشَّرَرِ
المــالُ مـلءُ يـدٍ والقَـوْمُ ملـكُ يـدٍ		ولا أطيــل وهــذا جملـــة الخَبَــرِ

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتبَه رجلٌ من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم وأطمَعَه في المعاونة، لأنَّ صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدَّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، وتجهَّز، ثم دخل على أخيه السُّلطان، واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مُغَلّ قُوص* سنة، وزوَّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمَّن سَيَّره من حلقته*. وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأسطول، يحمل الأزواد والعُدَد والآلات. فوصل إلى مكة ـ شَرَّفها الله تعالى ـ فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن، فوصل زَبيد في أوائل شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جَمٍّ وعدد كثير، فهجم زَبيد وتسلَّمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبيّ أخي علي بن مهدي[2].

ثم رحل إلى عَدَن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عَنْوَةً، وولاها

---

(١) في الأصل و (م): عمدت، والمثبت من (ل).
(٢) وهم ابن أبي طي في ذلك، والصواب أن يقول: أخي مهدي بن علي بن مهدي. انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧٢ من هذا الجزء.

عز الدين بن الزَّنْجيلي. ثم سار إلى المخلاف، وتسلَّم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي، كتعز* وغيرها، وسار إلى صَنْعاء بعد فتح مدينة الجَنَد* وغيرها، فأُحرقت صَنْعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد بها إلا شيخاً وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلَّة المِيرة، فرجع إلى زَبيد، فوجد ابن منقذ قد قتل عبدَ النبي ابن مهدي[1]. وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد [الأمير][2] سيف الدولة المبارك بن منقذ وأمره بحمله، فلما بَعُدَ شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره، فرأى المصلحة في قَتْله، فقتله ابن منقذ بزَبيد، فلما بلغ شمسَ الدولة قَتْلُه استصوبه

ولما حصل شمس الدولة في زبيد أنفذ إليه صاحب طَمَار وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال. ثم تتبَّعَ تلك الحصون والقلاع، فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك النَّاصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان، وخَوَّله من ملك البُلْدان، فأرسل نورُ الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النَّقَّاش[3] بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصـــل

ذكر العماد ههنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزَبيد ووصفه بأنه من الكُفَاة الكرماء، والدُّهاة ذوي الآراء. وهو فاضلٌ من أهل بيت فضل، كتب إلى العماد من شعره:

---

(١) ابن مهدي، ساقطة من (م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ستَرد ترجمته في ٣/ ١٤ ــ ١٥ من هذا الكتاب.

لما نزلتُ الدَّيْر قُلْتُ لصاحبي ... قُمْ فَاخْطُبِ الصَّهْبَاءَ من شَمَّاسِهِ
فـأتـى وفـي يُمْنـاه كـأسٌ خِلْتُهـا ... مقبـوسـةً فـي اللَّيـل مـن نِبْـراسِـهِ
وكـأنَّ مـا فـي كـأسـه مـن خَـدِّه ... وكـأنَّ مـا فـي خَـدِّه مـن كـاسِـهِ
وكـأنَّ لـذَّةَ طَعْمِهـا مـن رِيقِـهِ ... وأريجَهـا الفَيَّـاحَ مِـنْ أنفـاسِـهِ
لـم أَنْسَ ليلـةَ شُـرْبِهـا بِفِنـائِـهِ[1] ... إذْ بـاتَ يجلـوهـا علـى جُـلاَّسِـهِ
إذ قـام يسقينـا المُـدَامَ وكلمـا ... عـاتبتُـه ردَّ الجـواب بـراسِـهِ[2]

/٢١٨

قلت: ومدَحَه أبو الحسن [بن][3] الذَّرَوي المِصْري[4] بقصيدةٍ غَرَّاء ذاليّة، ما أظنُّ أنه نُظم على قافية الذال أرق منها لفظاً وأروق معنى، أوَّلها:

لك الخَيْرُ عَرِّجْ بي على رَبْعِهِمْ فذي ... ربوع يفوحُ المِسْكُ من عَرْفها الشَّذى

يقول فيها:

مَبَـارِكُ عِيسِ الـوفـد بـابُ مبـارِكِ ... وهل منقذ القُصَّاد غيرُ ابن مُنْقِذِ[5]

قال العماد: ثم سيَّر نور الدين إلى بغداد بشارةً بأمرين، أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الرُّوم مرة ثانية ومقدَّمهم الدوقس كلمان ــ وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم[6]، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمس مئة وخمسين ثوباً أطلساً ــ وسيَّر معه أسرى من الرُّوم، وذلك في

---

(١) في النسخ الخطية: بغنائه، والأشبه ما أثبتناه.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤١ ــ ١٤٢.
(٣) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).
(٤) سترد ترجمته في ٣/ ١٠١ من هذا الكتاب.
(٥) انظر أبياتاً أخرى من هذه القصيدة في «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٤٥، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧١ من هذا الجزء.
(٦) انظر ص ٤١٦ من الجزء الأول.

شعبان هذه السَّنة [1].

ومما تضمَّنه كتاب البشارة: ولم يَنْجُ من عشرة آلاف غير عشرة حُمْرٍ مستنفرة، فَرَّت من قَسْورة.

وقبلَ ذلك بشهرين سُيِّرَتْ قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد، أوَّلها:

أطاع دمعي، وصبري في الغَرَام عَصَى ... والقَلْبُ جُرِّع من كأسِ الهوى غُصَصَا

وإنَّ صَفْوَ حياتي ما يُكَدِّرُه ... إلا اشتياقي إلى أحبابيَ الخُلَصا

ما أطيب العيشَ بالأحبابِ لو وصلوا ... وأسعدَ القلبَ من بلواه لو خَلَصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيري في ولائِكُمُ ... غداة قال العِدَى لا سير عند عصا [2]

قد نال عبدُك محمودٌ بها ظَفَراً ... ما زال يرقُبه من قَبْلُ مُرْتَبِصا

مِنْ خوف سطوته أنَّ العدوَّ إذا ... أمَّ الثُّغورَ على أعقابه نَكَصَا [3]

قال العماد: وكَلِفَ نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصَّدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النِّسْوة الأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرَّعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٢.

(٢) عصا: موضع على شاطىء الفرات بين هيت والرحبة، «معجم البلدان» ٤/ ١٢٨، وكان نور الدين قد طلب إذناً من الخليفة في اجتياز الفرات وهو في طريقه إلى الموصل، ليطمئن الخليفة إلى سلامة مقصده، انظر ص ١٦٩ من هذا الجزء.

(٣) انظر مختارات مطولة من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ٦٤ ـ ٧١.

ببذله، وعَوْن الضعفاء وتقوية المُقْوين[1] بعدله[2].

ثم ذكر ما قَدَّمنا ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة[3].

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه، حافلين في إيوانه، لبسط عَدْله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سُلْطانه. فجاءني من أخبرني أنَّ نور الدين نزل إلى المدرسة[4] التي تتولاها[5]، وبسط سجادته في قبلتها لسُنَّة الضُّحى وصلاَّها. فقمتُ في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدِّهليز خارجاً، في أجر[6] العبادة ناجحاً ولنهج[7] السعادة ناهجاً. فلما رآني توقَّف، ولقولي تشوَّف، فقلت له: إنَّ الموضع قد تشرَّف؛ أما ترى أنه من آيام الزلزلة قد تشعَّث؟ فلما رأى حاله تلبَّث، وقال: نعيدُه إلى العمارة، ونكسوه حُلَل النَّضارة. ثم حملت له وجوه سكر، وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبتُ معها هذه الأبيات:

عنـد سليمـان علـى قَـدْره	هَـدِيَّـةُ النَّمْلَـةِ مَقْبُـولَـهْ
ويصغـر المملوكُ عـن نَمْلَـةٍ	عنـدك والـرَّحمـةُ مـأمُـولَـهْ
رِقِّـي لمـولانـا وملكـي لـه	وذمَّتـي بـالشُّكْـرِ مَشْغُـولَـهْ

(١) أقوى الرجل: نفد طعامه وفني زاده، ومنه قوله تعالى: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ «اللسان» (قوا).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٣.
(٣) انظر ص ٥١ ــ ٥٤ من الجزء الأول.
(٤) هي المدرسة العمادية، انظرها في كشاف الأماكن.
(٥) في (م): متولاها.
(٦) في (م): أمر.
(٧) في (م): ولنجح.

وكيف يقضي الحقَّ ذو مُنَّةٍ ضعيفةٍ بالعَجْزِ مَغْلُولَه[1]
وإنَّما شيمةُ مَوْلى الوَرَى طاهرةٌ بالخير مَجْبُولَهْ

قال: وكان رأى قِبْلَة المدرسة غير مُفصَّصة، وبالترخيم والتذهيب [والتهذيب][2] غير مخصَّصة[3]، فنفَّذ لي لعمارتها فصوصاً مُذهبة وذهباً. ثم حُمَّ مقدور حِمامه، وعاق القدر عن إتمامه. ودُفعتُ إلى المَوْصِل فرأيتُه في المنام، وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصَّلاةَ الصَّلاة. فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه الآن على هيئة الخراب، فكتبتُ إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ودخلت دمشق يوم فراغ الصَّانع منه[4]. ١/٢١٩

فصل

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القَيْسَراني* إلى الدِّيار المصرِيَّة، واجتمع بالسُّلْطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حَصَّله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فَصَعُبَ ذلك على السُّلْطان وأراد شَقَّ العصا لولا ما ثاب إليه من السَّكينة. ثم أمر النواب[5] بعمل الحساب، وعرضه على ابن القَيْسَراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وكميات جامكياتهم* ورواتب نفقاتهم.

---

(١) في (م): معلولة.
(٢) ما بين حاصرتين من (ل).
(٣) في (ل): مجصصة.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٥.
(٥) النواب، ليست في (م).

فلما حَصَل عنده جميعُ ذلك أرسل معه هديَّة إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى[1].

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخطِّ الموفق بن القَيْسَراني وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جُزْءاً مغشَّاة بأطلس أزرق، مضببة[2] بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمة بخط راشد مغشَّاة بديباج فُسْتُقي عشرة أجزاء. وختمة بخطِّ ابن البَوَّاب، مجلَّد واحد بقفل ذهب. وختمة بخطّ مهلهل، جزء واحد، وختمة بخطّ الحاكم البَغْدادي، ثلاثة أحجار بَلَخْش[3]؛ حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف. ست قصبات زمرُّد، قَصَبة وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث[4]. وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس، مئة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثماني مئة وسبعة وخمسون مثقالاً، خمسون قارورة دهن بَلَسان[5]، عشرون قطعة بلَّور، أربعة عشر[6] قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم[7]، طشت يشم سقرق

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٢) أي ملبسة. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٢٥.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

(٤) لم يذكر القصبة السادسة.

(٥) البلسان أو البيلسان، ضرب من الشجر، كان يزرع بالمطرية في القاهرة، يستخرج من حبه دهن تداوى به الجروح، انظر «الموسوعة في علوم الطبيعة»: ١/ ١٨٤، و «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٣٧. و «صبح الأعشىٰ» ٣/ ٢٨٣.

(٦) كذا في النسخ الخطية، أبقيتها على حالها حفاظاً على لغة الوثيقة.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

مينا[1] مُذْهب؛ صحون صيني وزبادي وسكارج[2]. أربعون قطعة عود طيب، قطعتان[3] كبار، كُرَتان وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري والأخرى أحد وعشرون رطلاً. مئة ثوب أطلس. أربعة وعشرون بَقْياراً[4] مذْهبة، أربعة وعشرون ثوباً حريري. أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض. حُلَّة فلفلي مُذْهبة. حُلَّة مرايش صفراء مُذْهبة. وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مئتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعِدَّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السِّلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعا عليها من نهبها، واستبدَّا[5] بأكثرها. وقيل: إنها وصلت جميعها إلى السُّلْطان، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من رَدَّها.

قال: وحدَّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لم يُعْلَم مقداره.

وقال العماد: ولما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفَّق خالد، أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطَّريف والتالد، وقال: هؤلاء الأجناد فاعرضهم وأثبت أخبازهم*، وما يُضْبط مثل هذا

(١) مينا: الزجاج المنقوش. انظر «قاموس الفارسية»: ٧١٢.

(٢) مفردها سُكَرَّجة: قصاع صغار يؤكل فيها، وهي فارسية معربة. «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٨٠، و «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٩٢.

(٣) في الأصل و (ل): قطعتين، والمثبت من (م).

(٤) البقيار: فارسية، وهي العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والكُتَّاب والقضاة. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي، الترجمة العربية: ١/ ٤٠٧.

(٥) في النسخ الخطية: وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا.

الإقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدَّوْلة وعظماءها، وأنهم اعتادوا على السَّعَة والدَّعة نُعماءها، وقد تصرَّفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن يَنْقُصَ ارتفاعها؛ فالموارد مشفوهة، والشَّدائد مكروهة، والمقاصد بردعها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة، وشَرَعَ في جمع مال يُسيِّره ويحمله، بجهدٍ يبذلُهُ، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خَلَده، وجاء مُطَرَّفُ غناه أضعافَ مُتَّلده[1].

فصـــل

في صَلْبِ عُمارة اليمني الشَّاعر وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دُعاة الدولة المصرية المتعصبة[2]، المتشدِّدة المتصلِّبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخُفْية، واعتقدوا أمنيَّة، عادت بالعُقْبى عليهم منيَّة، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرَّأْي والتَّدْبير، وبيَّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدَّعوة قريبهم وبعيدهم.

وكانوا قد أودعوا سرَّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عِدَّة من أنصار الدولة النَّاصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم.

وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا[3] يُناجيهم فيما زُيِّنَ لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدُّور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٧.

(٢) في (ل): المتعصية المتعصبة.

(٣) انظر حاشيتنا رقم (٤) ص ٣٩١ من الجزء الأول.

الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وما سوَّلوه من مُرَاد مرادهم، وطلب مالابن كامل الدَّاعي[1] من العَقَار والدُّور، وكل ماله من الموجود والمذخور. فبذل له السُّلْطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغَّبه.

ثم أمر السُّلْطان بإحضار مقدَّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين، منهم عُمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم، ومات بموتهم الخبر عنهم.

وكان منهم داعي الدُّعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بإبدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك ١/ ٢٢٠ الدفائن مخزونة، قد دُفِنَ دافنها، وخُزن تحت الثَّرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها، والاطلاع عليها. وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام[2].

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة اجتمع جماعةٌ من دُعاة المصريين والعوام، وتآمروا فيما بينهم خُفْيَةً، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذُّلِّ والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، ويجتمعوا[3] هم وجماعة عَيَّنوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، ويَثِبوا بالملك النَّاصر. وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، وواعدوا جماعةً من شيعة المصريين ليلة عَيَّنوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرَّروا[4] معهم الوصول إليهم في ذلك[4] الزمان المقرَّر، فخانهم ابنُ مصال

---

(١) ستَرِد ترجمته ص ٢٩٦ من هذا الجزء.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٧ ـ ١٤٩.
(٣) في الأصل و (ل): وتجمعوا، والمثبت من (م).
(٤ ـ ٤) هذه العبارة مكررة في (م).

فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكَفَّر عنها، وصار إلى الملك النَّاصر، وعرَّفه بجليَّة ما جرى.

فأحضرهم واحداً واحداً وقرَّرهم على هذه الحالة، فأقرُّوا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قُطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم. فأحضر السُّلْطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم.

وقيل: إن الذي أذاعَ سِرَّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع ما لابن الدَّاعي من العقَار والمال، فأعطاه جميع ذلك.

وكان الذين صلبوا منهم المُفَضَّل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الدَّاعي، والعوريس[١] وكان [قَد][٢] تولَّى النَّظر* ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصَّمد القشة[٣] أحد أمراء المصريين، ونجاح الحَمَّامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتمَّ بطريق علم النُّجوم، وعُمارة اليمني الشَّاعر.

قلت: وبلغني أن عُمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة[٤] على المسير إلى اليمن ليتمَّ هذا الأمر، لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في «الخريدة»: ووقعت اتِّفاقات عجيبة من جملتها أنه نُسِبَ إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حَرَّض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن، أوَّلها:

---

(١) في (م): العوديس.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (ل): الفشة، وفي (م): عبد الصمد والقشة، وكأنهما شخصان.

(٤) في (م): يحرضه بشمس الدولة.

العِلْم مذ كان محتاجٌ إلى العَلَم

وقد تقدم ذكرها[1]، وأما البيت[2] فهو:

قد كان أولُ هذا الدين من رَجُلٍ سعى إلى أَنْ دَعُوه سيِّدَ الأُمَمِ[3]

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرَّضوا السلطان على المُثْلَة بمثله[4].

قال: ولعُمارة في مصلوب بمصر يقال له طَرْخان، وكان خرج على الصَّالح بن رُزِّيك، فظفر به الصَّالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عُمارة فيه، وهي:

أرادَ عُلُوَّ مَرْتَبَةٍ وقَدْر فأَصْبَحَ فوقَ جِذْعٍ وهو عالي
ومُدَّ على صَليبِ الجِذْع منه يمينٌ[5] لا تطولُ على الشِّمالِ
ونكَّسَ رأسهُ لعتابِ قَلْبٍ دعاه إلى الغَواية والضَّلالِ

قال العماد: فكأنه وصف حاله، وما آل إليه أمره[6].

وقال في «البرق»: ووصلَ من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قُريش، يعني المرتضى[7].

---

(١) انظر ص ٢٧٣ من هذا الجزء.
(٢) «النكت العصرية»: ٣٥٤.
(٣) في هامش (م): «وهذا البيت قد نسب في بعض الكتب إلى أبي العلاء المعري».
(٤) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠٤.
(٥) في (م): يميناً. قلت: فيكون «مَدَّ» مبنياً للمعلوم.
(٦) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠٩ ــ ١١٠، و «النكت العصرية»: ٤٦ ــ ٤٧.
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٠، وهذا النص فيه مستدرك من كتابنا هذا.

وقال ابنُ أبي طيّ: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شَرَح فيه قضية المصلّبين، فقال بعد مطلع الكتاب: قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كُلِّه، بعد أن كانت لها مقدِّمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجْح، وأوائل كالليلة البهيمة[1] إلا أنها انفرجت عن الصُّبْح، فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب في البلاد بجِرَانه[2] بعد أن كاد الكفر[3] يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه أطلع عَلى أمرها من أوَّله، وأظهر على سِرِّها من مستقبله[4]، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر:

لم يزل يُتوسم من جُنْد مصر ومن أهل القصر بعدما أزال الله من بِدْعتهم، ونقض[5] من عُرى دولتهم[5]، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم[6] أعداء وإن قعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمةُ الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكَّلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنةٌ تمر، ولا شهر يكرّ، من مكرٍ يجتمعون عليه، وفساد يتسرَّعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدةٍ يتمِّمونها[7]. وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى،

---

(١) الليلة البهيمة: هي التي لا يطلع فيها القمر. انظر «اللسان» (بهم).

(٢) أي ثبت واستقر. انظر «أساس البلاغة» و «اللسان» (جرن).

(٣) في الأصل و (ل): بعد أن كان كالكفر، والمثبت من (م).

(٤) في (ل): متقبلة، وهو تصحيف.

(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).

(٦) في (م): أنه.

(٧) في (م): يتيممونها.

التي يوسِّعون لهم فيها سُبُلَ المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم الفظائع، ويزيِّنُون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها[1] رِبْقة الإسلام خلع المرتدِّ المخصوم؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون ٢٢١/١ حَبْلَ طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سَوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيُّلَ في مفاوضتهم، سَيَّرَ جُرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارِضاً علينا الجميل الذي ماقبلته قَطُّ أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القَصْرِ والمصريين في أثناء[2] هذه المدد رسل تتردَّد، وكتب إلى الفرنج تتجدَّد.

ثم قال: والمولى عالمٌ أنَّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذِّبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، وخَلَّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرِّقَّة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جُرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتابٌ ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لا رسول مجاملة، وحامل بَلِيَّة، لا حامل هديَّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقُّظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصَّل مرَّة بالخروج ليلاً، ومرَّة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخُدَّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم[3]، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكُتَّابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم مَنْ داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم. ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهرُ علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا

---

(١) في الأصل: فيه، وفي (م): بها، والمثبت من (ل).

(٢) أثناء، ساقطة من (ل).

(٣) في (م): وأشبابهم.

الجنس متمرِّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسَّرائر المنافقة، فكلاً أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرَّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرَّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أُخَر كانت مكتومة، ونُوَبٌ غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلاً، حاصِلُه أنهم عيَّنوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحدٍ من ولدين له. وأما بنو رُزِّيك وأهل شاور فكلٌّ منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

[ثم][1] قال: وكانوا فيما تقدَّم، والمملوك على الكَرَك* والشَّوْبك* بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صَدْر* أو إلى أَيْلة* ثارت حاشية القَصْر وكافة الجُنْد وطائفة السُّودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جُرج كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاَّتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بَعْضُهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلان مَنْ عنده وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدَّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدة[2] كاتبوا سِناناً صاحب الحشيشيَّة[3] بأن

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

(٢) في (ل): النوبة.

(٣) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد توفي سنة(٥٨٨ هـ)، انظر عنه وعن الحشيشية. «رحلة ابن جبير»: ٢٤٢ ـ ٢٤٣، و «معجم البلدان»: ٤/ ١٣٧، =

الدَّعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترقُ به كلمة، ولا يجب به قعودٌ عن نُصْرة. واستدعوا منه من يُتمّم على المملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، ﴿ واللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[1] وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قَرْجَلَّة[2] المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صحَّ الخبر، وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدبُ الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشَّرْع المطهَّر جماعةً من الغُواة الغُلاة، الدُّعاة إلى النَّار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفُجَّار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجُذُوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبُّعُ لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافَّة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصَّعيد. فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وَجْهُ رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه مستخار[3]، وهو مستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادَّة لا تنحسم الأطماعُ عنها، فإنه قِبْلة

= و «النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١٧، و «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٩٤ ــ ٢٩٥، ولبرنارد لويس كتاب «الدعوة الإسماعيلية الجديدة» ترجمة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٣٩١/ ١٩٧١، و «أعلام الإسماعيلية» ٢٩٥ ــ ٣٠٣.

(١) سورة البروج، الآية: ٢٠.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و (ل): مستجار، والمثبت من (م).

للضَّلال منصوبة، وبِيْعَة للبدع محجوجة[1].

قال المؤلف: لعلَّها محجوبة[2].

ومما يطرفُ به المولى أن ثَغْرَ الإسكندرية على عموم مذهب السُّنَّة فيه، أَطْلَعَ البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمره، محتقراً شَخْصُه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الدِّيار المصرية، قد فَشَتْ في الشَّام دعوته، وطبقت عقول[3] أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جُزْءاً من كسبهم، والنُّسْوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهنّ، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له، والهَجْم عليه، كُتب مجرَّدة فيها خلع العِذَار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها[4] فيها ما تقشعرُّ منه الجلود، وكان يدَّعي النَّسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً، ونشأ على الضَّلالة كبيراً، وبالجملة فقد كُفي الإسلام أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره. ٢٢٢/١

قلت: وفي قضية عُمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكِنْدي رحمه الله تعالى[5]، ونقلته من خَطِّه:

عُمارة في الإسلام أبدَى جناية[6] ... وبـايـع فيهـا بِيعـةً وصَليبـا

وأمسَى شريك[7] الشِّرْك في بُغْضِ أحمدٍ ... فـأصبـح[8] فـي حُـبِّ الصَّليـبِ صَلِيبـا

(١) في (ل): محجوبة. قلت: والظاهر أنها من تصرُّف النَّاسخ.

(٢) تعليق المؤلف، ساقط من (م).

(٣) عقول، ساقطة من (م).

(٤) بها، ساقطة من (ل).

(٥) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٦) في (م): خيانة.

(٧) في (م): يعين.

(٨) في (م): وأصبح.

وكان خبيثَ الملتقى إنْ عَجَمْتَهُ تَجِدْ منه عوداً في النِّفاقِ صَلِيبا
سيلقى غداً ما كان يسعى لأجله وَيُسْقى صَديداً في لظًى وصَلِيبا

قلت: الصليب الأول صليب النَّصارى، والثاني بمعنى مصلوب، والثالث من الصَّلابة، والرابع وَدَك العظام، وقيل: هو الصَّديد، أي يُسْقى ما يسيلُ من أهل النَّار، نعوذ بالله منها.

وكان عُمارة مستشعراً من الغُزِّ وهم أيضاً منه، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها واختلَّ أمره بعدها، فلم تَصْفُ القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه، في نَظمه ونثره، ما يقتضي التحرُّز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلَّف ذلك وصرَّح، وعرَّض فيه بما في ضميره.

وقد قال في كتاب «الوزراء المصرية»: ذكر الله أيامهم بحمدٍ لا يَكِلُّ نشاطه، ولا يُطْوى بساطه، فقد وجدتُ فَقْدَهم، وهُنْتُ بعدَهم[1].

وقال من قصيدة مَدَح بها نجم الدين أيوب:

وكان لي في ملوك النِّيل قبلَكُمُ مكانةٌ عرفتها العُرْبُ والعَجَمُ
وكان بيني وبين القَوْمِ مَلْحَمَةٌ في حربها ألْسُن الأديان تَخْتَصِمُ
وما تزال إلى داري عوارفهم يسعى إليَّ بها الإنعامُ والكَرَمُ
تَركْتُ قَصْدَكَ لمّا قيل إنك لا تجودُ إلا على من مَسَّه العَدَمُ
ولستُ بالرَّجُلِ المجهولِ مَوْضِعُهُ ولا لِنَزْرٍ من الإحسانِ أغْتَنِمُ
ولا إلى صدقات المال أطلُبها ولا عمًى نال أعضائي ولا صَمَمُ
وإنما أنا ضيفٌ للملوك ولي دونَ الضيوفِ لسانٌ ناطِقٌ وفَمُ[2]

---

(١) «النكت العصرية»: ١٢٠.

(٢) انظر أبياتاً من هذه القصيدة في «النكت العصرية»: ٣٥٥ ــ ٣٥٦، وقد سلفت بعض أبياتها ص ٢٥٧ من هذا الجزء.

وقال من قصيدةٍ مَدَح بها صلاح الدين رحمه الله تعالى:

قَــرَّرَتْ لــي أبنــاءُ رُزِّيــك رِزقــاً كــان فــي عَصْـرِهـم مسنَّـى مُهَنَّـا
وأَتَــتْ بَعْــدَهُــمْ ملــوكٌ فَسَنُّــوا فــيَّ مــا كــانَ صــالـحُ القَــوْم سَنَّـا
وَرَعَــوْنــي إمــا اقتــداءً بمــاضٍ أو لمعنًــى فكلُّهــمْ بــي يُعَنَّــى

وله من أُخرى:

فقد صارت الدُّنيا إليكُمْ بأَسْرِها فـلا تَشْبَعُـوا منهـا ونحـنُ جِيـاعُ
إذا لم تزيدونا فكونوا كمن مَضَى ففـي النَّـاس أخبـارٌ لهـم وسَمَـاعُ
وليـس علـى مُـرِّ الفِطَـامِ إقـامـةٌ فهل في ضُروع المكرمات رِضاعُ

وقال في قصيدةٍ مَدَح بها تقيَّ الدين:

هـل تـأذنـونَ لمـن أراد عِتـابكـم أم ليس في إعتابكم من مَطْمَعِ
ضيَّعْتُـمُ مـن حَـقٍّ ضيفِكُـمُ الـذي مـا زالَ قَبْـلَ اليـوم غيـرَ مُضَيَّـعِ
وتغـافَـلَ السُّلْطـانُ عنـي حيـن لـم أَكْشِـفْ قِنـاعَ مَـذَلَّـةٍ وتَضَـرُّعِ
وَرَجَـوْتُ نَفْعَـك بـالشَّفـاعـةِ عنـدَه فَسَمَحْـتَ لـي بشفـاعـةٍ لـم تَنْفَـعِ
وإذا نطـاقُ الـرِّزْقِ ضـاقَ مجـالُـه أمسـى مجـالُ النُّطْـقِ غيـرَ مُـوَسَّـعِ

وقال أيضاً:

تيمَّمْتُ مِصْراً أطلبُ الجاه والغِنى فَنِلْتُهُمـا فـي ظِـلِّ عَيْـشٍ مُمَنَّـعِ
وَزُرْتُ ملـوكَ النِّيـلِ أرتـادُ نَيْلَهُـمْ فـأحمـدَ مُـرْتـادي وأَخْصَـبَ مَـرْبَعي
وَفُـزْتُ بـألـفٍ مـن عطيَّـةِ فـائـزٍ مــواهبُـه للصُّنْـعِ لا للتَّصَنُّـعِ
وكـم طـرقتني مِـنْ يَـدٍ عـاضـديَّـةٍ سَـرَتْ بيـن يَقْظَـى مـن عُيـونٍ وهُجَّـعِ
وجـاد ابـنُ رُزِّيـكٍ مـن الجاه والغِنى بما زاد عن مَرْمى رجائي ومَطْمعي

١/٢٢٣

وأوحى إلى سمعي ودائعَ شِعْره فَحَبَّرْتُهُ مني بأكرم مُودَعِ
وليست أيادي شاورٍ بذميمةٍ ولا عَهْدُها عندي بعهدِ مُضَيَّعِ
ملوكٌ رَعَوْا لي حُرْمةً صار نَبْتُها هشيماً رَعَتْهُ النَّائباتُ وما رُعي
مذاهِبُهُمْ في الجُودِ مَذْهَبُ سُنَّةٍ وإنْ خالفوني باعتقادِ التَّشيُّعِ
فَقُلْ لصلاح الدينِ والعَدْلُ شأنُهُ مَنِ الحَاكِمُ المصغي إليَّ فأدَّعي
أقمتُ لكم ضيفاً ثلاثةَ أشهرٍ أقول لصَدْري كلما ضاق وَسِّعِ
وكم في ضيوفِ البابِ مِمَّن لسانُهُ إذا قطَّعوه لا يقومُ بأُصْبعي
فيا راعيَ الإِسلامِ كيف تَرَكْتنا فريقَيْ ضَياعٍ من عَرَايا وجُوَّعِ
دَعَوْناك من قُرْبٍ وبُعْدٍ فَهَبْ لنا جوابَكَ فالباري يُجيب إذا دُعي[1]

وقال أيضاً:

أسفي على زَمَنِ الإمامِ العاضِدِ أَسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحدِ
جالستُ مِنْ وزرائه وصَحِبْتُ مِنْ أُمرائه أهلَ الثناء الخالِدِ
لهفي على حُجُراتِ قَصْرِكَ إذْ خَلَتْ يا ابنَ النَّبيِّ من ازْدِحامِ الوافِدِ
وعلى انفرادك من عساكرِكَ الذي[2] كانوا كأمواجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ
قَلَّدْتَ مُؤْتَمِنَ الخِلافةِ[3] أَمْرَهُمْ فكبا وقَصَّرَ عن صَلاحِ الفاسِدِ
فَعَسى اللَّيالي أن تَرُدَّ إليكمُ ما عوَّدَتْكُمْ من جميلِ عَوائِدِ[4]

---

(١) القصيدة بتمامها في «النكت العصرية»: ٢٨٧ ـ ٢٩١، مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٢) في (م): التي.
(٣) انظر ص ١٣٠ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) انظر «النكت العصرية»: ٢١٤.

وقال أيضاً:

قَسَتْ رَأفَةُ الدُّنيا فلا الدَّهْرُ عاطِفٌ ... علـيَّ ولا عَبْـدُ الـرَّحيـمِ رَحِيْـمُ
عفـا الله عـن آرائـه كـلَّ فَتْـرَةٍ ... كـلامُ العِـدَى فيهـا علـيَّ كُلُـومُ
وسـامَحَـهُ فـي قَطْـعِ رِزْقِ بِفَضْلِـهِ ... وَصَلْـتُ إليـه والـزَّمـان ذَمِيـمُ
ألا هَـلْ لَـهُ عَطْـفٌ علـيَّ فـإنَّنـي ... فقيـرٌ إلـى مـا اعتـدتُ منـه عَـدِيْـمُ

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل[1] رحمه الله تعالى.

وبلغني أن عُمارة لما مَرُّوا به لِيُصلب عُبِرَ به على جهة دار الفاضل، فطلب الاجتماع به، فقيل: ليس إليه طريق. فقال:

عَبْـدُ الـرَّحيـم قَـدِ احْتَجَـبْ ... إنَّ الخـلاصَ هـو العَجَـبْ

وقال: وهذه القصيدة تحقِّق ما رمي به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض في فساد الدولة بل المِلَّة، وتوضح عُذْر السُّلْطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك:

رَمَيْتَ يـا دَهْـرُ كَـفَّ المَجْـدِ بـالشَّلَـلِ ... وجِيْدَه بعد حَلْي الحُسْنِ[2] بالعَطَلِ
سَعَيْتَ في منهج الرأي العثور فإنْ ... قَـدَرْتَ مـن عَثَـرَاتِ البغـي فـاسْتَقِـلِ
جَدَعْتَ مارِنَك[3] الأقنى فأنفُكَ لا ... ينفكُّ ما بين نَقْصِ الشَّين والخَجَلِ
هَدَمْتَ قاعِدَةَ المعروفِ عن عَجَلٍ ... سُقِيْتَ مُهْلاً[4] أما تمشي على مَهَلِ
لهفـي ولهـفُ بنـي الآمـال قـاطبـةً ... علـى فجيعتنـا فـي أكـرمِ الـدُّوَلِ

---

(١) الفاضل، ليست في (م).
(٢) في (م): بعد حسن الحلي بالعطل.
(٣) المارن: ما لان من الأنف، «اللسان» (مرن).
(٤) المهل: القيح والصديد. «اللسان» (مهل).

قَدِمْتُ مِصْرَ فأَوْلتني خلائِفُها ... من المكارِمِ ما أَرْبى على الأَمَلِ

قومٌ عَرَفْتُ بهم كَسْبَ الأُلوفِ ومِنْ ... كمالها أنَّها جاءَتْ ولم أَسَلِ

وكنتُ من وزراء الدَّسْتِ حيث سما ... رأسُ الحِصانِ بهاديه على الكَفَلِ

وَنِلْتُ من عظماءِ الجيشِ تَكْرِمَةً[1] ... وخُلَّةً حُرِسَتْ من عارِضِ الخَلَلِ

يا عاذلي في هَوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لكَ المَلامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذَلِي

بالله زُرْ ساحةَ القَصْرَيْنِ وابْكِ معي ... عليهما لا على صِفِّينَ والجملِ

وقُلْ لأهلهما واللّهِ ما التَحَمَتْ ... فيكم قُروحي ولا جُرْحي بمُنْدَمِلِ

ماذا ترى كانتِ الإفرنجُ فاعِلَةً ... في نَسْلِ آلِ أميرِ المؤمنين علي

هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما ... مُلِّكْتمُ بين حُكْمِ السَّبْيِ والنَّفَلِ ١/ ٢٢٤

وقد حَصَلْتُمْ عليها واسمُ جَدِّكُمُ ... محمدٍ وأبيكم غيرُ مُنْتَقِلِ

مَرَرْتُ بالقَصْرِ والأركانُ خاليةٌ ... من الوفودِ وكانت قِبْلَةَ القُبَلِ

فَمِلْتُ عنها بوجهي خَوْفَ مُنْتَقِدِ ... من الأعادي وَوَجْهُ الوُدِّ لم يَمِلِ

أَسْبَلْتُ من أسفٍ دمعي غَدَاةَ خَلَتْ ... رحابُكُمْ وغَدَتْ مهجورةَ السُّبُلِ

أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمِكُمْ ... حالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ

دارُ الضِّيافَةِ كانت أُنْسَ وافِدِكُمْ ... واليومَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ ومن طَلَلِ

وفطرة الصَّومِ إن أصغت مكارِمُكم ... تشكو من الدَّهْرِ حيفاً غير مُحْتَمَلِ

وكسوة النَّاس في الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ ... ورَثَّ منها جديدٌ عنهمُ وبلي

وموسم كان في كَسْرِ الخليجِ لكم ... يأتي تجمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ

وأَوَّلُ العامِ والعيدانِ كان لكم ... فيهنَّ من وَبْلٍ[2] جودٍ ليس بالوَشَلِ[3]

والأرضُ تهتزُّ في عيدِ الغدير لما ... يَهتَزُّ ما بينَ قصريكُم مِنَ الأَسَلِ

---

(١) في (م): مكرمة.

(٢) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر. «اللسان» (وبل).

(٣) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة. «اللسان» (وشل).

والخيلُ تعرض من وشيٍ ومن شِيَةٍ مِثْلَ العَرائِسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ[1]
ولا حملتم قِرَى الأضيافِ من سَعَة الـ أطباقِ إلا على الأعناق والعَجَلِ
ومـا خَصَصْتُـمْ ببـرٍّ أهـلَ مِلَّتِكُـمْ حتى عَمَمْتُمْ به الأَقْصَىٰ من المِلَلِ
كـانـت رواتبكـم للـذمتيـن وللضَّـ (م) ـيْفِ المقيمِ وللطَّـاري مـن الـرُّسُلِ
وللجـوامـع مـن أَحْبَـاسِكُـمْ نِعَـمٌ لمـن تصـدَّر فـي عِلْـم وفـي عَمَـلِ
وربمـا عـادَتِ الـدُّنيـا لِمَعْقِلها منكم وأَضْحَتْ بكم محلولةَ العُقُلِ

وقال العماد في «الخريدة»: أبو القاسم، هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدُّعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلَّة العلياء، والمرتبة الشَّمَّاء، والمنزلة في السماء، حتى انكَدَرَتْ نجومُهم، وَتَغَيَّرَتْ رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعُضِدَ عاضدهم، وأخليت منهم مِصْرهم، وأجلي عنهم قصرهم. فحرَّك ابنُ كامل ناقصَ الذَّبِّ[2] عنهم، والشد منهم، فمالأ قوماً على البيعة لبعض أولاد العاضد، ليبلغوا به ما تخيَّلُوه من المقاصد، وسوَّلُوه من المكايد، فأثمرت بجثثهم الجذُوع، وأَقْفَرَتْ من جسومهم الرُّبوع، وأُحكمت في حلوقهم[3] النُّسوع[4]، وهذا أول من ضَمَّه حبل الصلب، وأمه فاقرة[5] الصُّلْب. وهذا صنع الله فيمن ألحد[6]، وكفر النعمة وجحد، وذلك غُرَّة رمضان سنة تسع

---

(١) في الأصل: الحلل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في (م): نافض الكرب عنهم.
(٣) في الأصل: حلومهم، وفي «خريدة القصر»: لحومهم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) النسوع، مفردها: النسع: سير يضفر على هيئة أعِنَّة النعال تشد به الرحال، ويجعل زماماً للبعير وغيره، انظر «اللسان» (نسع).
(٥) الفاقرة: الداهية الكاسرة للفقار، «اللسان» (فقر).
(٦) ألحد، ساقطة من (ل).

وستين وخمس مئة. سمعتُ الملك النَّاصر صلاح الدين يذكره[1]، وقد ذكروه عنده بالفَضْل والأدب، ونسبوا إليه هذين البيتين في غلامٍ رفاء، وأنشدهما[2] الملك الناصر، وذكر أنه كان[3] ينكرهما:

يا رافياً خَرْقَ كلِّ ثَوْبِ ... وَيا رَشاً حُبُّه اعتقادي

عسى بِكَفِّ الوِصالِ تَرْفُو ... ما مَزَّقَ الهَجْرُ من فؤادي[4]

فصل

في التعريف بحال عُمارة[5] ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردتُ شعر عمارة[5] بن أبي الحسن اليمني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر»، ونقلتُ إلى هذا الكتاب ــ يعني كتاب «البَرْق الشَّامي» ــ لمعاً من ذلك. فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمدٍ بن مَصَال[6]:

---

(١) في (م) يقول يذكره، وإخال «يقول» مقحمة.

(٢) في الأصل: وأنشده، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) كان، ساقطة من (م).

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٨٦ ــ ١٨٧، وهما مستدركان من كتابنا هذا. وذكر محققه نقلاً عن «المغرب» لابن سعيد أن البيتين لابن القابلة السبتي.

قلت: هو أبو بكر محمد بن يحيى الشلطيشي؛ كاتب وشاعر أندلسي، كان من كبار أعوان ابن قَسِي الثائر على المرابطين، كان يسميه المصطفى لاختصاصه بالكتابة له، واطلاعه على أموره، قتل بعد نحو سنة (٥٣٩ هـ)، انظر «الحلة السيراء»: ١٩٨، ٢٠٦، و «المغرب في حُلَى المغرب»: ١/ ٣٥٢ ــ ٣٥٣، و «نفح الطيب»: ٣/ ٦١٠، ٤/ ١٠، ١٣.

(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من هذا الجزء.

لـو أنَّ قلبـي يـوم كـاظمـةٍ معـي لملكتُـه وكَظَمْـتُ غيـظَ الأَدْمُـع

ـ قال العماد: إنما أنشدني فيضَ الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم ـ

قَلْـبٌ كَفَـاك مـن الصَّبـابَـةِ أنَّـه لبَّـى نـداءَ الظَّـاعنيـن ومـا دُعـي

ومِـنَ الظُّنـون الفـاسِـدَاتِ تَـوَهُّمـي بعـدَ اليقيـنِ بقـاءَه فـي أَضْلُعـي

مـا القَلْـبُ أَوَّلَ غـادِرٍ فـألـومَـه هي شِيْمَةُ الأيامِ مُذْ[1] خُلِقَتْ معي[2]

/٢٢٥ قال: وأنشدني لعمارة أيضاً:

مَلِـكٌ إذا قـابَلْـتُ بِشْـرَ جَبِيْنِـهِ فـارَقْتـهُ والبِشْـرُ فـوقَ جبينـي

وإذا لَثَمْـتُ يمينَـهُ وخَـرَجْـتُ مـن أبـوابـه لَثَـمَ الملـوكُ يمينـي[3]

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مُرْهَف بن أسامة بن منقذ[4]:

لي في هوى[5] الرَّشأ العُذْرِيِّ أَعْذَارُ لم يَبْقَ لي مُذْ أَقَرَّ الدَّمْعُ إنكارُ

لي في القُدُودِ وفي لَثْمِ الخدودِ وفي ضَـمِّ النُّهـودِ لُبـانـاتٌ وأَوْطَـارُ

هـذا اختيـاري فَـوافِـقْ إنْ رَضِيْـتَ بـه أَوْلا فَـدَعْنـي ومـا أَهْـوَى وأَخْتـارُ

لُمنـي جـزَافـاً وسـامحنـي مُصـارفـةً فـالنَّـاسُ فـي دَرَجـات الحـبِّ أَطْـوارُ

---

(١) في «الخريدة» و «النكت»: قد، وهي الأشبه.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٠٦/٣، و «النكت العصرية»: ٣٩٧ ـ ٣٩٨ مع اختلاف في ترتيب البيتين الثالث والرابع.

(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١٠٦/٣، و «سنا البرق الشامي»: ١٤٩/١ وفيهما: إيوانه بدلاً من أبوابه.

(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٥) في «الخريدة» و «النكت»: ما عن هوى.

وخـلٍّ عَـذْلـي ففـي داري ودائـرتـي مـن المَهَـا دُرَّةٌ قلبـي[1] لهـا دارُ[2]

قلت: ويُروى:

وغُرَّ غيري ففي أسري ودائرتي[3]

والأبيات العينية من قصيدةٍ في مَدْح تقيِّ الدين، والنُّونيَّة في مدح نجم الدين أيوب، والرائيَّة في مدح شمس الدولة بن أيوب.

وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً، وله كتابٌ صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر[4]، فذكر أنه أقام بزَبيد* ثلاث سنين يُقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه. قال: ولي في الفرائض مصنَّف يُقْرأ باليمن[5].

وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من إخوتي إلى زَبيد، فأنشدته شيئاً من شعري، فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب نعمة من نِعَمِ الله عليك فلا تكفُرها بذمِّ الناس. واستحلفني ألاَّ أهجو مسلماً ببيت

---

(١) في «النكت»: صدري.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/١٠٧ ــ ١٠٨، و «النكت العصرية»: ٢٦٥ ــ ٢٦٧، و «سنا البرق الشامي»: ١/١٤٩.

(٣) هي رواية «النكت العصرية» ٢٦٥.

(٤) هو «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» نشر سنة ١٨٩٧ م بعناية هرتوغ درنبرغ، ونشر له أيضاً «تكملة ديوان شعر عمارة اليمني ونبذ من ترسلاته وتراجمه» سنة ١٩٠٢ م، وأعاد طبع كتاب «النكت» بالأوفست قاسم محمد رجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد، وعلى هذه المصورة كانت إحالاتنا عليه.

وطبع لعمارة أيضاً تاريخه «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» بتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، طبع غير مرة، ثالثها سنة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

(٥) «النكت العصرية»: ٢٣.

شعر، فحلفت له على ذلك، ولطف الله تعالى بي فلم أهجُ أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ــ يعني ابن رُزِّيك ــ ببيتي شعر، فأقسَم الصَّالح عليَّ أن أجيبه، ففعلت متأوِّلاً قول الله عَزَّ وجل: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْه بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[2]. قال: ولم يكن شيء غير هذا[3].

وحججتُ مع الملكة أم فاتك ملك زَبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاجّ اليمن براً وبحراً، وبجميع خفارات الطَّريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها، فانتفع بها حتى أثرى وكَثُر ماله وجاهه. ثم طرأت أمورٌ اقتضت أنْ هرب من اليمن، وحجَّ سنة تسعٍ وأربعين وخمس مئة[4].

قال: وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[5]، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم[6]، فألزمني السَّفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المِصْرية، فَقَدِمْتُها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظَّافر، والوزير له الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك، فلما حضرتُ للسَّلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما:

الحَمْدُ للعيسِ[7] بعدَ العَزْمِ والهِمَمِ حمداً يقومُ بما أَوْلَتْ من النِّعَمِ

---

(١) سورة الشورى، الاية: ٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) «النكت العصرية»: ٢٣ ــ ٢٤.

(٤) انظر «النكت العصرية»: ٢٤ ــ ٣١.

(٥) انظر ص ٣١٧ من الجزء الأول.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣١٧ من الجزء الأول.

(٧) في الأصل: للعيش، وهو تصحيف، والمثبت من (ل)، و (م).

لا أجْحَدُ الحقَّ عندي للركاب يَدٌ … تمنَّتِ اللُّجْمُ فيها رُتْبَةَ الخُطُمِ

قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ العِزِّ من نَظَري … حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَمِ

ورُحْنَ من كعبةِ البَطْحاء والحَرَمِ … وفداً إلى كعبةِ المعروفِ والكَرَمِ

فهل دَرَى البَيْتُ أني بعد زَوْرَتِه[1] … ما سرتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ

حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرَادِقُها … بين النقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَمِ

وللإمامةِ أنوارٌ مُقَدَّسَةٌ … تجلُو البغيضينِ من ظُلْمٍ ومن ظُلَمِ

وللنُّبُوَّةِ آياتٌ تنصُّ لنا … على الخفيَّين من حُكْمٍ ومن حِكَمِ

وللمكارمِ أعلامٌ تعلِّمنا … مَدْحَ الجزيلين من بَأْسٍ ومن كَرَمِ

وللعُلا أَلْسُنٌ تُثْني محامِدُها … على الحميدين من فِعْلٍ ومن شِيَمِ

ورايةُ الشَّرَفِ البذَّاخِ تَرْفَعُها … يَدُ الرفيعين من مَجْدٍ ومن هِمَمِ

أَقْسَمْتُ بالفائزِ المعصومِ معتقداً … فَوْزَ النَّجاةِ وأَجْرَ البِرِّ في القَسَمِ

لقد حمى الدِّينَ والدنيا وأهلَهما … وزيرُه الصَّالحُ الفرَّاجُ للغُمَمِ

اللاَّبِسُ الفَخْرَ لم تَنْسُجْ غلائِلَه … إلا يَدُ الصنعتين[2] السَّيْفِ والقَلَمِ

وُجُودُهُ أوجدَ الأيام ما اقترحَتْ … وَجُودُه أعدَمَ الشَّاكين للعَدَمِ [٢٢٦/١]

قد ملَّكته العَوَالي رقَّ مملكةٍ … تعيرُ أنفَ الثُّريّا عِزَّةَ الشَّمَمِ

أرى مقاماً عظيمَ الشَّأنِ أَوْهَمَني … في يقظتي أنها من جُمْلةِ الحُلُمِ

يومٌ من العُمْرِ لم يَخْطُرْ على أَمَلٍ[3] … ولا تَرَقَّت إليه رَغْبَةُ الهِمَمِ

لَيتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فأنظِمَها … عُقُودَ مَدْحٍ فما أَرْضَى لكم كَلِمي

ترى الوزارةَ فيه وهي باذِلَةٌ … عِنْدَ الخلافةِ نُصْحاً غيرَ مُتَّهَمِ

عواطِفٌ أعلمتنا أنَّ بينهما … قرابةً من جميلِ الرَّأْيِ لا الرَّحِمِ

---

(١) في (م): فرقته.

(٢) في «النكت» الصَّنعَيْن، ومثله في «وفيات الأعيان».

(٣) في (م): أملي.

خليفـــةٌ ووزيـــرٌ مَـــدَّ عَـــدْلُهمـــا ظـلاًّ علـى مَفْـرِقِ الإِسـلامِ والأُمَـمِ
زيــادَةُ النِّيــلِ نَقْــصٌ عنــد فَيْضِهِمــا فمـا عسـى نَتَعـاطـىٰ مِنَّـة الـدِّيَـمِ[1]

قـال: وعهـدي بـالصَّـالـح وهـو يستعيـدهـا فـي حـال النشيـد مـراراً، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب. ثم أُفيضت عليَّ خِلَعٌ من ثياب الخلافة مُذْهَبة، ودفع إليَّ الصَّالح خمس مئة دينار، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمس مئة دينارٍ أخرى، وحُمل المال معي إلى منزلي، وأُطلقت[2] لي من دار الضيافة رسومٌ لم تُطْلَق لأحدٍ قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصَّالح للمجالسة، ونظمني في سِلْك أهل المؤانسة، وانثالت علي صِلاتُه، وغمرني بِرُّهُ.

وَوَجَدْتُ بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الجَبَّاب[3]، والمـوفـق أبـا الحجَّـاج يـوسـف بـن الخـلاَّل صـاحـب ديـوان الإنشاء[4]، وأبا الفتح محمود بن قادوس[5]، والمهذَّب أبا محمد الحسن بن الزُّبير[6]، وغيرهم، وما من هذه الحَلْبَة أحدٌ إلا ويَضْرِبُ في الفضائل النفسانية والرِّياسة الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أحذو على طرائقهم حتى

---

(١) «النكت العصرية»: ٣٢ ــ ٣٤، و «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٣٢ ــ ٤٣٣، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١١٢ ــ ١١٤.
(٢) في الأصل: وأطلق، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) سلفت ترجمته ص ٦ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) سلفت ترجمته ص ١٨٣ من هذا الجزء.
(٥) سلفت ترجمته ص ٣٢٩ من الجزء الأول.
(٦) سلفت ترجمته ص ٢٥ من هذا الجزء.

نظموني في سِلْك فرائدهم[1]، وقلتُ:

ليالِيَ بالفُسْطاط من شاطئي[2] مِصْرِ ... سقى عَهْدَكَ الماضي عِهادٌ[3] من القَطْرِ
ليالٍ هي العُمْرُ السَّعيدُ وكلُّ ما ... مضى في سِواها لا يُعَدُّ من العُمْرِ[4]
أفادتنيَ الأقْدار فيها مَواليًا ... صَفَتْ بهمُ الأيامُ من كَدَرِ الغَدْرِ
تواصَوْا على ألا تُرَدَّ إرادتي ... ولو سُمْتُهُمْ نَثْرَ الكواكبِ في حِجْري[5]

وله في الصَّالح بن رُزِّيك من قصيدة:

ولو لم يكن[6] أدرى بما جَهِلَ الورى ... من الفَضْلِ لم تَنْفُقْ لديه الفَضَائِلُ
لئن كان منا قابَ قَوْسٍ فبيننا ... فراسخُ من إجلاله ومَرَاحِلُ[7]

قال: وأنشدتُ الصَّالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدةً، منها:

دعُوا كلَّ بَرْقٍ شِمْتُمُ غَيْرَ بارِقٍ ... يلوحُ على الفُسْطاط صادِقُ بِشْرِهِ
وزوروا المقامَ الصَّالحيَّ فكلُّ من ... على الأرض يُنْسىٰ ذِكْرُه عند ذِكْرِهِ
ولا تجعلوا مَقْصُودكُمْ طَلَبَ الغِنى ... فَتَجْنُوا على مَجْدِ المقام وفخْرِهِ
ولكن سَلُوا منه العُلا تَظْفروا بها ... فكلُّ امرئٍ يُرْجى على قَدْرِ قَدْرِهِ[8]

---

(١) «النكت العصرية»: ٣٤ ــ ٣٥.
(٢) في (م): جانبي.
(٣) العهاد جمع، مفردها العهد: أول مطر، وقيل: هو كل مطر بعد مطر. «اللسان» (عهد).
(٤) اضطرب ترتيب أوراق نسخة (ل)، فجاءت تتمة هذه القطعة بعد ورقتين.
(٥) انظر «النكت العصرية»: ٤٠.
(٦) في الأصل: أكن، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) «النكت العصرية»: ٤٧.
(٨) «النكت العصرية»: ٣٥ ــ ٣٦، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١١٤ ــ ١١٥.

قال: ولما جلس شاور في دار الذَّهب قام الشُّعراء والخُطَباء ولفيفُ الناس إلا الأقل ينالون من بني رُزِّيك وضِرْغام نائب الباب، ويحيى بن الخيَّاط[١] الأسفهسلار*، فأنشدته:

صَحَّتْ بدَوْلتك الأيامُ من سَقَمِ ... وزال ما يشتكيه الدَّهْرُ من أَلَمِ

ومنها:

زالت ليالي بني رُزِّيك وانْصَرَمَتْ ... والحمدُ والذمُّ فيها غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كأنَّ صالحهم يوماً وعادِلَهم ... في صَدْرِ ذا الدَّسْتِ لم يَقْعُدْ ولم يَقُمِ
كنَّا نَظُنُّ وبعضُ الظَّنِّ مأثمةٌ ... بأنَّ ذلك جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
فمذْ وَقَعْتَ وقوعَ النَّسْرِ خانَهُمُ ... مَنْ كان مجتمعاً من ذلك الرَّخَمِ
ولم يكونوا عدوّاً ذلَّ جانِبُهُ ... وإنما غَرِقُوا في سَيْلك العَرِمِ
وما قَصَدْتُ بتعظيمي عِدَاكَ[٢] سوى ... تعظيم شأنِك فاعْذُرْني ولا تَلُمِ
ولو شكرتُ لياليهم محافظةً ... لعهدها لم يكنْ بالعَهْدِ من قِدَمِ
ولو فَتَحْتُ فمي يوماً بذمِّهِمُ ... لم يَرْضَ فَضْلُك إلا أن يُسَدَّ فمي
والله يأمر بالإحسانِ عارِفَةً ... منه وينهى عن الفَحْشاء في الكَلِمِ

٢٢٧/٢

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رُزِّيك[٣].

قلت: وشعر عُمارة كثيرٌ حسن، وعندي من قوله: الحمد للعيس ـ وإن كانت القصيدة فائقة ـ نُفْرَةٌ عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: الحمد لله، ولا ينبغي أن يُفْعَلَ ذلك مع غير الله تعالى عزَّ وجل، فله الحمد وله

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: علاك، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) «النكت العصرية»: ٦٩ ـ ٧٠.

الشُّكْر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الرُّبوبيَّة المقدَّسة، على ذلك اطَّرد استعمال السَّلَف والخلف، رضي الله عنهم[1].

فصــــل
في وفاة نور الدين رحمه الله

قال العماد: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالُّ دمشق أياماً[2].

قال: ونظمتُ للهناء بالعيد والطُّهْر قصيدةً، منها:

عيـــدانِ: فِطْـــرٌ وطُهْـــرُ	فَتْـــحٌ قـــريـــبٌ ونَصْـــرُ
كـــلاهمـــا لـــك فيـــه	حقّـــاً هنـــاءٌ وأجْـــرُ
وفيهمـــا بـــالتَّهـــانـــي	رَسْـــمٌ لنـــا مُسْتَمِـــرُّ
طَهَـــارةٌ طـــابَ منهـــا	أَصْـــلٌ وفَـــرْعٌ وذِكْـــرُ
نَجْـــلٌ علـــى الطُّهْـــرِ نـــامٍ	زكـــا لـــه منـــك نَجْـــرُ
محمـــودُ المَلِـــك العـــا	دِلُ الكـــريـــمُ الأَغَـــرُّ
وبـــابنـــه الملـــك الصَّـــا	لـــحِ العيـــونُ تَقِـــرُّ
مـــولـــىً بـــهِ اشتـــدَّ للـــدِّيـ	ـــنِ والشَّـــريعـــة أَزْرُ

---

(١) في «مجلة العرب» السنة الثالثة، الجزء الأول ص ٨٤ ــ ٩٠، والجزء الثاني ص ١٣٠ وما بعدها، مقالان عن عمارة يحسن الرجوع إليهما.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٠ ــ ١٥١، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٦٥ ــ ٦٦.

نـــورٌ تجلَّـــى عِيـــانـــاً ... مـــا دونَـــهُ اليـــومَ سِتْـــرُ
أَضْحَـــتْ مســـاعيـــكَ غُـــرّاً ... كمـــا أيـــاديـــك غُـــزْرُ
وكـــلُّ قَصْـــدِكَ رُشْـــدٌ ... وكـــلُّ فِعْلِـــكَ بِـــرُّ
وإنَّ حُبَّـــكَ دِيْـــنٌ ... وإنَّ بُغْضَـــك كُفْـــرُ
لنـــا بيمنـــاكَ يُمْـــنٌ ... كمـــا بِيُسْـــراكَ يُسْـــرُ[1]
وللمـــواليـــنَ نَفْـــعٌ ... وللمُـــعـــاديـــنَ ضَـــرُّ
وللسَّمـــاء سَحَـــابٌ ... وسُحْـــبُ كَفَّيْـــكَ عَشْـــرُ
نـــاديـــكَ بـــالـــرِّفْـــدِ رَحْـــبٌ ... نَـــدَاك للـــوَفْـــدِ بَحْـــرُ
للبحـــر مَـــدٌّ وجَـــزْر ... ومـــا لجُـــودِكَ جَـــزْرُ
عَـــدْلٌ عميـــمٌ وَجُـــودٌ ... غَمْـــرٌ ويُسْـــرٌ وبِشْـــرُ
وفـــي العَطِيَّـــةِ حُلْـــوٌ ... وفـــي الحَمِيَّـــةِ مُـــرُّ
قـــد استـــوى منـــك تقـــوى الـ ... إلـــهِ سِـــرٌّ وجَهْـــرُ
تُقـــاك والمُلْـــكُ عنـــد الـ ... ـقيـــاس عِقْـــدٌ ونَحْـــرُ
يـــا أَعْظَـــمَ النَّـــاس قَـــدْراً ... وهـــل لغيـــركَ قَـــدْرُ!
وســـاهـــراً حيـــن نـــامـــوا ... وقـــائمـــاً حيـــن قَـــرُّوا[2]
مـــا اعْتَـــدْتَ إلاّ وفـــاءً ... وعـــادَةُ القَـــوْمِ غَـــدْرُ
وفِعْلُـــكَ الـــدَّهْـــرَ غَـــزْوٌ ... للمشـــركيـــنَ وقَهْـــرُ
وفِعْـــلُ غيـــرِك ظُلْـــمٌ ... للمسلميـــنَ وقَسْـــرُ
يفتـــرُّ مـــن كـــلِّ ثغـــرٍ ... إلـــى ابتســـامِـــكَ ثَغْـــرُ
رومٌ بـــه وفـــرنـــجٌ ... فـــي شَفْعِهِـــمْ لـــك وِتْـــرُ

---

(١) سقط في (م) عجز هذا البيت، وصدر البيت التالي.
(٢) في (ل): فروا.

حَـــرْبٌ عَـــوَانٌ وفَتْـــحٌ على مُـــرَادِك بِكْـــرُ

بنـــو الأصـــافـــر مِـــنْ خشـ ـيَـــةِ انتقـــامـــك صُفْـــرُ[1]

لـــم يَبْـــقَ للكُفْـــرِ ظُفْـــرٌ لا كـــان للكُفْـــرِ ظُفْـــرُ

ومـــا دَجَـــا ليـــلُ خَطْـــبِ إلاّ وعَـــزْمُـــك فَجْـــرُ

أَصْبَحْـــتَ بـــالغَـــزْوِ صَبّـــاً وعنـــه[2] مـــا لَـــكَ صَبْـــرُ

لكســـرِ كـــلِّ يتيـــمٍ إسعـــافُ بِـــرِّك جَبْـــرُ

فـــي كـــلِّ قَلْـــبِ حســـودٍ مـــن حَـــرِّ بـــأسـك جَمْـــرُ

تمـــلَّ تطهيـــرَ مَلْـــكٍ لـــه الملـــوكُ تَخِـــرُّ

يُـــزْهـــى ســـريـــرٌ وتـــاجٌ بـــه وَدَسْـــتٌ وصَـــدْرُ

وكيـــفَ يُعْمَـــلُ للطَّـــا هـــرِ المُطَهَّـــرِ طُهْـــرُ

هـــذا الطُّهـــورُ ظُهـــورٌ علـــى الـــزَّمـــان وأَمْـــرُ

وذا الخِتـــانُ خِتـــامٌ بِمِسْكِـــهِ طـــابَ نَشْـــرُ

رُزِقْـــتَ عُمـــراً طـــويـــلاً مـــا طـــالَ للـــدَّهْـــرِ عُمْـــرُ

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرَّسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد. ووقف في الميدان الأخضر* الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق*، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطَب له القاضي شمس الدين ابن الفَرَّاش قاضي العسكر[3]، بعد أن صلَّى به وذكَّر، وعاد إلى القلعة، طالع البهجة بهيج

(١) من هنا يعود اتساق أوراق نسخة (ل). انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٠٣.
(٢) عنه، ساقطة من (ل).
(٣) سترد ترجمته في وفيات سنة (٥٨٨ هـ) ٤/ ٣٤٧ ـــ ٣٤٨ من هذا الكتاب.

الطلعة، وأنهب سِمَاطه العام على رَسْمِ الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خِوَانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بِشْرَه، وأضوع نَشْرَه، وأضحك سِنَّه، وأبرك يُمْنَه.

وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب، وكأن الفَلَك بنيِّره جار، والطود الثابت يمرّ مرَّ السَّحاب في وقار. وكأنه القمر في هالته، /٢٢٨ والقدر في جلالته، والبدر في دائرته، سائرٌ بين سَيَّارته، ودخل الميدان والعظماء يُسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوَّل دولته والي حلب، وقد جرَّب الدهر بحنكته ولأَشْطُرِه حَلَب، فقال لنور الدين في كلامه، عظةً لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة*، مع خواصِّه البَرَرة، فاعترضه في حاله أمير آخُر* [اسمه] يَرَنْقُش وقال له: باش[1]، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخُلُقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل. فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والنَّاس من الختان، لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجودُ بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا

---

(١) باش: كلمة تركية بمعنى الرأس، استعملت هنا بمعنى: انتهى. انظر «الدراري اللامعات في منتخبات اللغات»: ١٠٠، والحاشية رقم ٨ ص ١٥٢ من «سنا البرق الشامي».

بملك الصَّلاح[1].

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء، إلى مرتع البقاء. ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصَّالحين، وصار إلى جنَّات عدنٍ أُعدَّت للمتقين.

وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشَّمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصُّفَّة بيتاً من الأخشاب، مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه ويصبح، ويخلو بعبادته[2] ولا يبرح. فدُفن في ذلك البيت الذي اتخذه حِمًى من الحِمام، وأذن بناؤه لبانيه بالانهدام[3].

قال العماد: وقلتُ في ذلك:

عَجِبْتُ من الموتِ كيف اهْتَدى ... إلى مَلِكٍ في سجايا مَلَكْ
وكيف ثَوَى الفَلَكُ المستديـ ... ـرُ في الأرضِ والأَرْضُ وَسْطَ الفَلَكْ

وله فيه رحمهما الله تعالى:

يا مَلِكاً أيَّامُه لم تَزَلْ ... لفَضْلِهِ فَاضِلَةً فَاخِرَهْ
غاضَتْ بحارُ الجُودِ مُذْ غُيِّبَتْ ... أَنْمُلُكَ الفائِضَةُ الزَّاخِرَهْ
مَلَكْتَ دُنياكَ وخلَّفتها ... وسرتَ حتى تملكَ الآخِرَهْ

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٥١ ـ ١٥٣، وفيه «وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح». وما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ١/٢٢٨.

(٢) في (ل): بعبادة ربه.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٥٣.

قال ابن شداد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عَجَزَ الأطباء عن علاجها. ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالدِّيار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون[(١)] بأن نكاشف ونخالف ونشقَّ عصاه، ونلقى عسكره بمصافٍّ يرده، إذا تحقق قصده. قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النِّزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله تعالى، ورضي عنه[(٢)].

قال ابن الأثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً عن غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى المَوْصِل وديار الجزيرة وديار بكر، يطلب العساكر ليتركها بالشَّام لمنعه من الفرنج، ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانعُ لصلاح الدين من الغزو الخوفَ من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدَّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه، فتجهز للمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يُرَدُّ[(٣)].

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدِّين من بعده لقرَّتْ عَيْنُه، فإنه بَنَى على ما أَسَّسه

---

(١) في (ل): يشيرون علينا.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٤٧.

(٣) «الباهر»: ١٦١.

نور الدِّين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق، يُعرف بالرَّحْبي[(١)]، وهو من حُذَّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدِّين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيتٍ صَغير بقلعَة دمشق، وقد تمكَّنت الخوانيق منه وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسْمَعُ صوتُه، وكان يخلو فيه للتعبُّد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلتُ [له][(٢)]: كان ينبغي أن لا يؤخِّر إحضارنا إلى أن يشتدَّ بك المرض إلى هذا الحد، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدَّواء، وعَظُمَ الدَّاء، ومات عن قريبٍ، رضي الله عنه[(٣)].

قال ابن الأثير: وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلاَّ في حنكه، وكان واسعَ الجبهة، حسن الصُّورة، حلو العينين. وكان قد اتَّسع ١/٢٢٩

---

(١) هو رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي، من أشهر أطباء عصره، كان كبير النفس عالي الهمة، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، أصل والده من بلد الرحبة على الفرات، وولد هو في جزيرة ابن عمر سنة (٥٣٤ هـ)، وقدم دمشق مع والده ــ وكان طبيباً أيضاً ــ سنة (٥٥٥ هـ)، وأقام فيها حتى وفاته سنة (٦٣١ هـ) ودفن بجبل قاسيون، وقد تخرج به كثير من أطباء عصره، انظر «عيون الأنباء»: ٦٧٢ ــ ٦٧٥، ٦٨٢ و «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤.

ولا يلتفت إلى ما ذكره ابن واصل في «مفرج الكروب»: ١/ ٢٦٢ من أن الطبيب هو جمال الدين الرضي، فهذا متأخر الوفاة حتى سنة (٦٥٨ هـ)، وهو الابن الأصغر لرضي الدين.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) «الباهر»: ١٦١ ــ ١٦٢.

ملكه جداً، فملك المَوْصِل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشَّام والدِّيار المِصْرية واليمن، وخُطِبَ له بالحَرَمين الشَّريفين: مكة والمدينة، وطبَّق الأرضَ ذِكْرُه بحسن سيرته وعَدْله. ولم يكن مثله إلا الشَّاذ النادر. رحمة الله تعالى عليه(١).

قال الحافظ أبو القاسم، بعدما ذكر أوصاف نور الدّين الجليلة المتقدِّمة مفرَّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرَّصين، والاقتداء بسيرة السَّلف الماضين، والتَّشَبُّه بالعلماء والصَّالحين، والاقتفاء(٢) بسيرة من سلف منهم في حُسْن سمتهم، والاتِّباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سَمِعَه وجَمَعه، حرصاً منه على الخير في نشر السُّنَّة بالأداء والتحديث، ورجاءً أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث(٣). فمن رآه شاهَدَ من جلال السَّلْطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره، يحبُّ الصَّالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنِّه فيهم. وإذا احتلم مماليكه أعتقهم،

---

(١) «الباهر»: ١٦٢.

(٢) في الأصل: الاقتداء، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) حديث: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي أدخلته يوم القيامة في شفاعتي»، رواه ابن النجار في «تاريخه» عن أبي سعيد الخدري، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة». قال النووي: طرقه كلها ضعيفة.
وقال ابن عساكر: الحديث روي عن علي وعمر وأنس وابن عباس وابن مسعود، ومعاذ وأبي أمامة وأبي الدرداء، وأبي سعيد بأسانيد فيها كلها مقال، ليس للتصحيح فيها مجال، لكن كثرة طرقه تقويه، وأجود طرقه خبر معاذ مع ضعفه. انظر «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للمناوي: ٦/ ١١٩.

وزَوَّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرَّرَتْ الشكاية إليه من أحدٍ من ولاته، أمره بالكفِّ عن أذى من تظلَّم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العَدْل، قابله بإسقاط المنزلة والعَزْل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيَسَّر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسَهَّل[1] على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكَّن له في البُلْدان والبقاع[2].

ثم قال بعد كلامٍ كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعةٌ من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصَّروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادةً في تواضعه لعلوِّ القدر[3].

ومولِدُهُ على ما ذكر لي كاتبه أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله[4]، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوَّال سنة إحدى عشرة وخمس مئة[5]، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسعٍ وستين وخمسة مئة، ودُفن بقلعة دمشق، ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخَوَّاصين* في الشَّارع الغربي رحمه الله تعالى[6]:

قلت: وفي هذه المدرسة يقول العَرْقَلَة:

---

(١) في (م): سهل الله.

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٤٨/ب ـ ١٤٩/أ.

(٣) «تاريخ دمشق» (خ) س: ١٦/١٤٩/أ.

(٤) سلفت ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٩ من هذا الجزء.

(٥) المصدر السابق: ١٦/١٤٧/ب.

(٦) في النسخة الخطية التي بين يدي من تاريخ ابن عساكر، وهي نسخة سليمان باشا ـ لم تذكر سنة وفاة نور الدين، والمعروف أن ابن عساكر أنهى تأليف كتابه ونور الدين حي، بل إنه كان وراء التعجيل في إنجازه.

ومـدرسـة سَيَـدْرُسُ كُـلُّ شـيءٍ وتبقـى فـي حِمَـى عِلْـمٍ ونُسْـكِ
تَضَـوَّعَ ذِكْـرُهـا شَـرْقـاً وغَـرْبـاً بنـور الـدِّيـن محمـود بـن زَنْكـي
يقـول وقـولُـهُ حـقٌّ وصِـدْقٌ بغيـر كنـايـةٍ وبغيـر شَـكِّ
دمشـقٌ فـي المـدائـن بيـت مُلكـي وهذي في المدارسِ بيت مِلكي[1]

ولما اشتهر به من قِلَّة ابتهاجه بالمدح[2] لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء، قال يحيى بن محمد الوَهْرَاني[3] في مقامةٍ له، وقد سُئِلَ في بغداد عن نور الدين: هو سَهْمٌ للدَّوْلة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تُساعده الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك[4]، غير أنه عُرف بالمرعى الوبيل، لابن السَّبيل، وبالمحل الجديب، للشَّاعر الأديب، فما يُرَزَّىٰ ولا يعزَّى، ولا لشاعرٍ عنده من نعمةٍ تجزى.

وإيَّاه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سُلْطانُنا زاهِدٌ والنَّاس قد زَهِدُوا لـه فَكُـلٌّ علـى الخَيْـراتِ مُنْكَمِـشُ

---

(١) انظر «ديوانه»: ٧٠، والبيتان الأخيران فيه مستدركان من كتابنا هذا، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٢١٨.
(٢) في (ل): بالشعر.
(٣) وهم أبو شامة في اسمه، والمعروف أنه محمد بن محرز بن محمد الوهراني، قدم دمشق أيام نور الدين، وغلب على كتابته الهزل، وهو رائق في بابه، أقام بدمشق، وفيها توفي سنة (٥٧٥ هـ). وقد طبعت مناماته ومقاماته ورسائله في مصر، دار الكاتب العربي سنة ١٩٦٨ بتحقيق إبراهيم شعلان ورفيقه، وهي نشرة سيئة. وكان الدكتور صلاح الدين المنجد قد أفرد بالنشر رقعته عن مساجد دمشق، وصدرت ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٥ م، وقدم له بترجمة ضافية. انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٥ ــ ٣٨٦، و «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٨٦ ــ ٣٨٩.
(٤) انظر «منامات الوهراني»: ١٤، ولم أجد تتمة الاقتباس فيه.

أيَّامُه مثلُ شَهْرِ الصَّوْمِ طاهرةٌ   من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ[1]

قلت: رحمه الله، ما كان يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد؛ وكان كما قيل في حق عبد الله بن مُحَيْرِيز، وهو من سادات التابعين بالشَّام[2]، قال يعقوب بن سفيان الحافظ[3]: حدَّثنا ضَمْرَةَ[4] عن السَّيْبَاني[5]، قال: كان ابن الدَّيْلمي[6] من أنصر النَّاس لإخوانه، فذُكِرَ ابن مُحَيْرِيز في مجلسه، فقال رجلٌ: كان بخيلاً. فغضب ابن الدَّيْلَمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبُّون.

وأما شعر ابن مُنْقِذ فلا اعتبار به، فهو القائل في ليلة الميلاد يمدَحُ نور الدين رحمه الله تعالى:

في كلِّ عامٍ للبريَّةِ لَيْلَةٌ   فيها تَشُبُّ النارُ بالإيقادِ
لكنْ لنور الدِّين من دونِ الوَرَى   ناران نارُ قِرىً ونارُ جِهَادِ
أبداً يصرِّفُها نَدَاه وبَأْسُهُ   فالعامُ أَجْمَعُ ليلةُ الميلاد
مَلِكٌ له في كلِّ جِيْدٍ مِنَّةٌ   أبهى مِنَ الأَطْواقِ في الأَجْيادِ
أعلى الملوك يداً وأمنعهُم حِمَى   وأمدُّهم كَفّاً بِبَذْلِ تِلادِ

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٥١٦، و «ديوان أسامة»: ١٥٨ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٢) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦.

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ١٨٠ ـ ١٨٤.

(٤) هو ضمرة بن ربيعة الفلسطيني. انظر «تهذيب التهذيب»: ٤/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(٥) في الأصل و (ل): الشيباني، وهو تصحيف، والمثبت من (م)، وهو يحيى بن أبي عمرو، المتوفى سنة (١٤٨ هـ) انظر «الأنساب»: ٧/ ٢١٥.

(٦) هو عبد الله بن فيروز الديلمي، تابعي ثقة. انظر «تهذيب التهذيب»: ٥/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

١/٢٣٠ يُعطي الجزيلَ من النَّوال تبرُّعاً ... من غيرِ مسألةٍ ولا ميعادِ
لا زال في سَعْدٍ ومُلْكٍ دائمٍ ... ما دامَتِ الدُّنيا بغير نَفَادِ[١]

وقد تقدَّم في شعر ابن منير وابن القَيْسَراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكَرَم والجود ما قليلٌ منه يَرُدُّ قَوْلَ الوَهْراني وابن منقذ. على أنَّ ابن منقذ قد رَدَدْنا شعره بشعره كما تراه، وإنَّما الشعراء وأكثر النّاس كما قال الله تعالى في وصف قومٍ ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وما كلُّ وقتٍ ينفق العطاء، ويفعلُ الله ما يشاء[٢].

---

(١) لم أجد الأبيات في «ديوانه» المطبوع.

(٢) هناك قصة شائعة على ألسنة الناس، وهي أن نور الدين رأى فيما يرى النائم النبي ﷺ، يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقرين ـ وأشار إلى شخصين تجاهه ـ فاستدعىٰ نورُ الدين وزيره، فعبَّره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة، واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما اللذان رآهما في منامه، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فأقرا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلا النبي ﷺ من الحجرة الشريفة. ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضرب أعناقهما، ثم أحرقا بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة (٥٥٨ هـ) وكتب اسم نور الدين علىٰ باب البقيع.

قلت: وهذه القصة لا تثبت لدىٰ المنهج العلمي، إذ إن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوي، المتوفى سنة (٧٤١ هـ) في كتابه «التعريف بما أَنَسَتِ الهجرةُ من معالم دار الهجرة» ص ٧٣ ـ ٧٤، وبين وفاته ووفاة نور الدين مئة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر ـ وكان أبوه فراشاً من قوام المسجد الشريف ـ وقد سمعها يعقوب ممن حدَّثه من أكابر من أدرك. ولم يجزم المطري بصحتها، فقال: هكذا حدَّثني عمن حدثه.

وروى نحوها جمال الدين الإسنوي، المتوفى سنة (٧٧٢ هـ) في رسالةٍ له دون إسناد، نقلها عنه السمهودي في «وفاء الوفا» ٢/٦٤٨ ـ ٦٥٠. =

فصــــل

قال ابن الأثير: لما توفي نور الدين جلس ابنُه الملك الصَّالح إسماعيل في الملك، وحُلِف له ولم يبلغ الحُلم، وحلَفَ له الأمراء والمقدَّمُون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه النَّاس في سائر بلاد الشَّام، وصلاحُ الدين

= وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد ممن عاصر نور الدين من المؤرخين الملازمين له كابن عساكر وابن منقذ والعماد الكاتب، ولا من المتتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره، وتحليتها بكل جميل، بل إنه لم يذكرها من أرخ للمدينة المنورة ممن عاصر تلك الفترة كابن النجار في «الدرة الثمينة».

وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في «تحقيق النصرة» ١٤٦ ــ ١٤٧، وابن قاضي شهبة في «الكواكب الدرية» ٧٢ ــ ٧٣، والسمهودي في «وفاء الوفا» ٢/ ٦٥٠ ــ ٦٥١، وابن العماد في «شذرات الذهب» حوادث سنة (٥٦٩ هـ)، والبرزنجي في «نزهة الناظرين» ٨٣ ــ ٨٤.

ثم إن المطريَّ ذكر أن القصة وقعت سنة (٥٥٧ هـ)، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سني حكمه، بل إنهم لم يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين من بعده.

ولا عبرة بما ذكره الفاسي في «شفاء الغرام» ٢/ ٢٢٩ من أن نور الدين حجَّ سنة (٥٥٦ هـ) فقد وهم في ذلك، إذ إن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه.

وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة؟ فأقول: ربما أثارت تكملةُ نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرةَ قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع ما سيأتي من محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة، وذلك سنة (٥٧٨ هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يريدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير في رحلته ص ٦٠، والمقريزي في «خططه» ٢/ ٤٤٣ (طبعة دار التحرير)، فدمج الخيال بين الحدثين في حدث واحد ليكشف عن هاجسٍ أقلق بال المسلمين وقتئذٍ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونهَ في الخفاء، فكانت هذه القصة، والله أعلم.

بمصر، وخَطَبَ له بها، وضرب السِّكَّة باسمه فيها. وتولَّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدَّم.

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصَّالح إسماعيل، وقد أبدى الحُزْن والعويل، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجَيْب، حاسِرٌ حافٍ مما فجأه وفَجَعه من الرَّيْب، وأجلسوه في الإيوان الشَّمالي من الدَّسْت والتَّخْت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوحى كلُّ قَلْبٍ حزنه واستوحش، فوقف النَّاس يضطرمون ويضطربون، ويتلهفون ويتلهبون، ولما كُفِّنَ بحُلَّة الكرامة، ودُفن في روضةٍ بابها إلى باب رضوان من دار المقامة، وقضوا الجزع، وقوَّضوا الفَزَع، وغَيَّبوا الدمعة، وأحضروا الرَّبعة[1]، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدَّم، وجمال الدولة ريحان ــ وهو أكبر الخَدَم ــ والعَدْل* أبو صالح بن العَجَمي[2] أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقدة، وأن ابن المقدَّم مقدَّم العسكر، وإليه المرجع في المورد والمصدر[3].

قال: وأنشأتُ في ذلك اليوم كتاباً عن الملك الصَّالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، ترجَمتُه إسماعيل بن محمود، وفيه:

أطال الله بقاء سيدنا الملك النَّاصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، نَدَبَ الشَّامُ، بل الإسلام، حافظَ ثغوره، وملاحظ أموره، وعَدِمَ الجهادُ مقتني فضيلته، ومؤدِّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا

---

(١) الربعة: صندوق أجزاء المصحف، مولدة بغدادية، «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٣٥.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٦٩ من هذا الجزء.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٣ ــ ١٥٤.

بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعزُّ أن يرى الزَّمان نظيره، وما ههنا ما يُشْغِل السِّرَّ، ويقْسِمُ الفِكْر إلاّ أمرُ الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلاّ لمثل هذا الحادث الجَلَل، والصَّرْف الكارث المذهل، فقد ادَّخره لكفايات النَّوائب، وأعدَّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمَّله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكَّنه قوةً لعضُده. فما فُقِدَ رحمه الله تعالى إلاّ صُورةً والمعنى باق، والله تعالى حافظٌ لبيته واق، وهل غيره ــ دام سُمُوُّه ــ من مؤازر،وهل سوى السيد الأجل النَّاصر من ناصر. وقد عَرَّفناه المقترح، ليروض برأيه من الأمر ما جَمَحَ، والأهم شغل الكُفَّار، عن هذه الدِّيار، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البِدَار، ويجري على العادة الحُسنى في إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا، راغباً في اغتنام ثنائنا وشُكْرنا[1].

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتاباً بالمثال الفاضلي، فيه: ورد خبرٌ من جانب العدوِّ اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوب والوجوه، واشتدَّ به الأمر، وضاق به الصَّدْر، وانقصم بحادثه الظَّهر، وعَزَّ فيه التثبت وأعوز الصَّبْر. فإن كان ــ والعياذ بالله ــ قد تَمَّ، وخَصَّه الحكم الذي عَمَّ، فللحوادث تذخر النِّصال، وللأيام تصطنع الرِّجال، وما رَتَّبَ الملوكُ ممالكها إلاّ لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حَقَّها يوم حَصَادها، فالله الله أن تختلف القلوبُ والأيدي، فتبلُغَ الأعداء مرادها، وتَعْدَمَ الآراء رشادَها، وتنتقل النِّعَم التي تعبت الأيام إلى أن أَعْطَتْ قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها وُدّ، وسيوفاً يضمُّها

(١) المصدر السابق: ١/ ١٥٤ ــ ١٥٥.

غِمْد، ولا تختلفوا فتنكلوا ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾[1] وقوموا على أمشاط الأَرْجُل، ولا تأخذوا الأَمْرَ بأطراف الأَنْمُل، فالعداوة محدقة بكم من كلٍّ مكان، والكُفْرُ مجتمعٌ على الإيمان. ولهذا البيت منا ناصر لا يخذله، وقائم لا يسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحَقَّقَتْ، بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كُمُشْتِكِين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقُبِلَتْ، والطَّاعة في الغيبة والحضور أُدِّيت وَفُعِلَتْ، وإلا فنحنُ لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسَيْفٌ على من عاداه. وإن أسفر الخبرُ عن معافاةٍ فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب.

قال العماد: وورد كتابُ صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزياً لابن نور الدين، وفي آخره: وأما العدوُّ ــ خذله الله تعالى ــ فوراءه من الخادم من يطلبه طلبَ ليلٍ لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقِفَه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقلِّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، أصدَر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرَّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم. وأشبه يوم الخادم أمسَه في الخدمة، ووفَّى ما لزمه[2] من حقوقِ النِّعمة، وجمع كلمة الإسلام عالماً أنَّ الجماعة رحمةٌ. والله تعالى يخلِّد ملك المولى الملك الصَّالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعْماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفِّق الخادم لما ينويه من توثيق سُلْطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، وتيسير منال كلِّ أملٍ صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى[3].

٢٣١/٢

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) في (م): ما لحقه.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٥٦ ــ ١٥٩.

ومن كتابٍ آخر: الخادِمُ مستمرٌّ على بَدْأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرُّضِ لمراسمها، والرَّفْع لكلمتها، والإيالة[1] لعسكرها، والتحقق بخدمتها، في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقُّب لأن يُؤمر فيمتثل، ويُكلف فيحتمل، وأن يُرْمى به في نحر عدوه[2] فيتسدَّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى[3] ضمير عبده.

قال العماد: ولما توفِّي نور الدين اختلَّ أمري، واعتلَّ سِرِّي، وعلت حُسَّادي، وبلغ مُرادَهم أضْدادي، وكان الملكُ الصَّالح صغيراً، فصار العَدْل* ابن العجمي له وزيراً. وتصرَّف المتحالفون في الخزانة والدَّوْلة كما أرادوا، وولَّوْا وصرفوا، ونقَّصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة، محروم الدَّعوة من الإِجابة.

ومما نظمتُه في مرثية نور الدين قصيدةً، منها:

لِفَقْـــدِ الملـــكِ العـــادِ ... لِ يبكـي المُلْـكُ والعَـدْلُ
وقـــد أَظْلَمَـــتِ الآفــا ... قُ لا شَمْـــسٌ ولا ظِـــلُّ

منها[4]:

ولمَّـــا غـــابَ نـــورُ الـدِّيـ ... ـــن عَنَّـــا أَظْلَـــمَ الحَفْـــلُ
وزال الخِصـــبُ والخَيْـــرُ ... وزادَ الشَّـــــرُّ والمَحْـــــلُ
ومـــات البَـــأسُ والجـــودُ ... وعـــاش اليَـــأْسُ والبُخْـــلُ

---

(١) الإِيالة: السياسة، من آل الملكُ رعيته يؤولها أولاً وإيالاً: ساسهم، وأحسن سياستهم. انظر «اللسان» (أول) و «معجم متن اللغة»: ١/ ٢٢٥.
(٢) في (ل) و (م): عدوٌّ.
(٣) للمولى، ساقطة من(ل).
(٤) منها، ساقطة من (ل) و (م).

وعَـــزَّ النَّقْـــصُ لمَّـــا هـــا ... نَ أَهْـــلُ الفَضْـــلِ والفَضْـــلُ
وهـــل يَنْفُـــقُ ذو عِلْـــمٍ[1] ... إذا مـــا نَفَـــقَ الجَهْـــلُ
ومـــا كـــان لنـــورِ الـــدِّيـ ... ـــنِ لـــولا نَجْلُـــهُ مِثْـــلُ[2]

فصـــل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثَّغْر، وقصدهم بانياس*، ورجوا أن يتمَّ لهم الأمر، ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس. وذلك أن شمس الدين بن المقدَّم خرج وراسل الفرنج، وخوَّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم. وتكلَّموا في الهُدْنة، وقَطْعِ موادّ الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعةٍ استعجلوها، وعِدَّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة[3].

وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كُتُباً دالَّة على التوبيخ والملام. ومن جملتها كتابٌ بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون[4] يخبره فيه أنه لما أتاه كتابُ الملك الصالح بقصد الفرنج تجهَّزَ وخرج، وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهُدْنة المؤذنة بذُلِّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه الذي تُغمد له السيوف وتُجرَّد، وقام في سبيل الله قيام من يَقُطُّ عادية من تَعدَّى وتمرَّد.

---

(١) في (ل) و (م): ذو العلم.

(٢) انظر مقاطع من القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٦٧ ــ ٧٢، و «سناالبرق الشامي»: ١/ ١٥٩ ــ ١٦٠.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٥ ــ ١٥٦.

(٤) سترد قطعة من هذا الكتاب ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

وفي آخره: وكتب[1] من المنزل بفاقوس*، والفجر قد هَمَّ أن يَشُقَّ ثوب الصَّباح، لولا أن الثُّريا تعرَّضت تعرُّض أثناء الوِشاح. وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحِجَّة، بلَّغه الله فيه أمله، وقبل عمله، بالغاً أسنى المراد[2] وأفضله.

وقال ابنُ الأثير: لما توفي نور الدين قال الأمراء[3]، منهم شمس الدين بن المقدَّم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي، وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أنَّ صلاحَ الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعة الملك الصَّالح، ويجعل ذلك حُجَّة علينا، وهو أقوى منا لأنَّ له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصَّالح. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا[4].

قال: فلم يمض غيرُ قليل حتى [وصلت][5] كتب صلاح الدين إلى الملك الصَّالح، يهنئه بالملك ويعزِّيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه، ويعرِّفه أن الخُطْبة والطاعة [له][6] كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عَمِّه قُطْب الدين، وملك الدِّيار الجزرية، ولم يرسل مَنْ مع الملك الصَّالح من الأمراء[7] إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى

(١) في نسخة (ل) ثمة اضطراب في ترتيب الأوراق، أعدناها إلى حاق سياقها.

(٢) في (م): أثنى المزيد.

(٣) في مطبوع «الباهر»: قال صاحبي كمال الدين للأمراء، ومثله في «الكامل»: ٤٠٥/١١.

(٤) «الباهر»: ١٦٢.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) ما بين حاصرتين من (م).

(٧) في الأصل: الأتراك، والمثبت من (ل) و (م).

الملك الصَّالح يعتبه حيث لم يُعْلِمْه قصدَ سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه. وكتب إلى الأمراء يقول: إنَّ الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي، لَسَلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يَعْجَل عليه الموت لم يعهد إلى أحدٍ بتربية ولده والقيام بخدمته سواي، وأراكم قد تفرَّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصلُ إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمةٍ يظهر أثرها، وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه، وإهمال أمر الملك الصَّالح ومصالحه، حتى أُخذت بلاده.

فأقام الصَّالح بدمشق ومعه جماعةٌ من الأمراء لم يمكِّنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي ابن الدَّاية، فإنه كان أكبر الأمراء النُّورية، وإنما تأخَّر عن خدمة الملك الصَّالح بعد وفاة نور الدين لمرضٍ لحقه، وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم، وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده. ولما عَجَزَ عن الحركة أرسل إلى الملك الصَّالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: إن سيف الدين قد ملك إلى الفُرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصَّالح إلى حلب حتى يجمع العساكر، ويَسْتردّ ما أُخذ منه، وإلا عَبَر سيف الدين الفُرَات إلى حلب، ولا نقوى على منعه. فلم يرسلوه ولا مكَّنوه من قصد حلب[1].

٢٣٢/١

قال: وكان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشَّرقية كالمَوْصِل وغيرها يستدعي[2] العساكر منها، فسار سيف الدين في عساكره، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبرُ بموت عمّه نور الدين، فعاد إلى نَصِيبين*

---

(١) «الباهر»: ١٦٢ ــ ١٦٣.

(٢) في الأصل و (ل): استدعى، والمثبت من (م).

فملكها، وأرسل الشِّحَن* إلى [بلد][1] الخابور فاستولَوْا عليها، وسار هو إلى حرَّان* فحصرها عِدَّة أيام ثم أخذها، وملك الرُّها* والرَّقَّة* وسَرُوج* واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر*. فقال له فخر الدين عبد المسيح ــ وكان قد فارق سيواس* بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين، ظنّاً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين، على ما ذكرناه أولاً[2]، فلم يجنِ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء ــ ليس بالشَّام من يمنعك، فاعبر الفرات واملك البلاد، فأشار أمير آخر معه ــ وهو أكبر أمرائه ــ: قد مَلَكْت أكثر من والدك، والمصلحة أن تعود. فرجع إلى الموصل[3].

فصــــل

قال ابنُ الأثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جَعَلَ بقلعة المَوْصِل لما ملكها دُزْداراً* له وهو سعد الدين كُمُشْتِكِين ــ بعض خدمه الخصيان[4] ــ فلما سار سيف الدين إلى الشَّام كان في مقدِّمته على مرحلة. فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يُدْرك، فنهب بَرَكه[5] ودوابَّه. وسار إلى حلب، وتمسك بخدمة شمس الدين ابن الداية وإخوته، واستقرَّ بينهم وبيْنَه أنْ يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصَّالح. فسار إلى

(١) ما بين حاصرتين من (م) وبلد: هي بليدة معروفة على الخابور. انظر «معجم البلدان» ١/ ٤٨١.

(٢) انظر ص ١٦١ وما بعدها، وص ٢٦٣ من هذا الجزء، وحاشيتنا رقم ٢ ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ١٧٥.

(٤) انظر ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٧ من الجزء الأول.

دمشق، فأخرج إليه ابن المقدَّم عسكراً لينهبه، فعاد مُنْهزماً إلى حلب، فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أُخذ منه، وجهَّزه وسيَّره إلى دمشق ـ وعلى نفسها تجني براقش[1] ـ فلما وصلها سعد الدين دخلها، واجتمع بالملك الصَّالح والأُمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها، فلما وصلها، وصَعِدَ إلى قلعتها قبض الخادم سعدُ الدين على شمس الدين ابن الدَّاية وإخوته وعلى ابن الخَشَّاب رئيس حلب.

قال ابن الأثير: ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه، ولا جرى من ذلك الخُلْف والوَهْن شيء[2] ﴿وكانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً﴾[3].

واستبدَّ سعد الدين بتدبير أمر الملك الصَّالح، فخافه ابنُ المقدَّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا سيف الدين ليسلِّموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدةً عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها، ويقصده ابنُ عمه من وراء ظهره، فلا يمكنه الثَّبات. فراسل الملك الصَّالح، وصالحه على إقرار ما أخذه بيده، وبقي الملك الصَّالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبِّر أمره، وتمكَّن منه تمكُّناً عظيماً يقارب الحَجْر عليه[4].

وقال العماد: كان كُمُشْتِكِين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه، واستأذن في الوصول إلى الشَّام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، فخرج وسار مرحلتين وسمع النَّعْي، فأغذَّ السير والسَّعْي، ونجا بماله

---

(١) هذا مثل يضرب لمن أتاه الشر من نفسه. انظر «المستقصى»: ٢/ ١٦٥.

(٢) انظر «الباهر»: ١٧٥ ـ ١٧٦، و «الكامل»: ١١/ ٤١٥، وفيه أنهم أرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

(٤) «الباهر»: ١٧٦.

وبحاله، وندم صاحب المَوْصِل على الرِّضا بترحاله. وكانت عنده بوفاة عمه بشارة، وظهرت على صفحاته منها أمارة، فإنه لم يزل من كُمُشْتِكِين متشكِّياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مُذْكياً. وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، وإسقاط المكوس، وإعدام أقساط البوس، فنودي في المَوْصِل يوم ورود الخبر بالفُسْحة في الشُّرْب جهاراً، ليلاً ونهاراً، وزال العُرْف، وعاد النُّكْر، وأُنشد قول ابن هانىء:

ولا تسقني سِرّاً فقد أَمْكَنَ الجَهْرُ[1]

وقيل: أخذ المنادي على يده دنًّا وعليه قدح وزَمْر، وزعم أنه خرج بهذا أمْر، فلا حَرَج على من يغنِّي ويشرب، ويسكر ويطرب، وعادت الضَّرائب، وضربت العوائد.

وأما كُمُشْتِكِين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القُرى، وتمثل: عند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى[2]، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين علي وإخوته؛ إخوة مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين.

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيعَ نور الدين وقد تربَّى مَعَه، ولَزِمَه وتَبِعَه إلى أن ملك الشَّام بعد والده، ففوَّض إلى مجد الدين جميع مقاصده، من طريفه وتالده، وحكَّمه في الملك، ونظمه في السِّلْك، فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه، وكانت حصونه محصَّنة، وهو يسكن عنده[3] في

(١) هذا عجز بيت لأبي نواس، صدره: ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر. انظر «ديوانه»: ٢٨ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، نسخة مصورة في بيروت عن طبعة القاهرة.

(٢) يضرب هذا المثل للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. انظر «مجمع الأمثال»: ١/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤ و «المستقصى»: ٢/ ١٦٨.

(٣) في (م): معه.

قلعة حلب، والحاضر عنده صباحاً ومساءً إذا طلب. وشَيْزَر* مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر* وتل باشر* مع سابق الدين عثمان، وحارم* مع بدر الدين حسن، وعين تاب* وعَزَاز* وغيرهما نوَّابه فيها، وهو يصونها ويحميها.

ولما توفي جَرَتْ إخوته في القُرْب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدَّوْلة وأعضادُها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكُّوا في أنهم يكفلون ولده ويربُّونه، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه. فأقام شمس الدين علي ــ وهو أكبرهم وأوجههم ــ ودخل قلعة حلب ــ وبها واليها[1] شاذبخت[2] ــ وسكنها، وأسرَّ مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع، واتّفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصَّالح. ونفَّذ أخاه سابق الدين عثمان ــ وكان قليل الخبرة، بعيداً من التحرُّز[3] والدَّهاء ــ فاستقرَّ الأمر على أن يحملوا الملك الصَّالح إليه، ويَقْدموا به عليه، وهو يتسلَّم ممالكه، ويكون أتابكه.

/ ٢٣٣

ووصل كُمُشْتِكِين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبَّروه من المرام، وسار الصَّالح ومعه كُمُشْتِكِين، والعَدْل* ابن العَجَمي، وإسماعيل الخازن، فبغتوا إخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابنُ الخشَّاب أبو الفضل، مقدَّم الشِّيعة، فسفكوا دمه. وأقام شمس الدين بن المقدَّم بدمشق على عساكرها مقدَّماً، وفي مصالحها محكَّماً؛ وجمال الدين ريحان والي القَلْعة والشِّحن* من قبله، والأمر إليه بتفصيله وجُمَله،

---

(١) في الأصل و(ل): والياً، والمثبت من (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من هذا الجزء.

(٣) التحرز، ساقطة من (ل) و (م).

والقاضي كمال الدين الشَّهْرُزُوري الحاكم النافذ حكمه، الصَّائب سهمه، الثاقب نجمه.

وكان مسير الملك الصَّالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذي الحِجَّة. وغاظ صلاح الدين ما فُعل بأخوة مجد الدين[1].

وقال ابنُ أبي طيّ [الحلبي][2]: لما ماتَ نورُ الدين اجتمع أمراء دولته، وتعاقدوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصَّالح بن نور الدين ـ وكان يومئذٍ صبياً ـ وحلفوا له على منابذة الملك النَّاصر، وقبض أصحابه الذين بالشَّام، ومُصالحة الفرنج، وجعلوا ابن المقدَّم شمس الدين مقدَّم العساكر. وتمَّ ذلك واستقر، وركب الملك الصَّالح بدمشق، وخُطِبَ له.

وكانت الفرنج قد تحرَّكت إلى قصد دمشق، فخرج ابنُ المُقَدَّم ونزل على بانياس* في عساكر نور الدين، ورَاسل الفرنج في الهُدْنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجَّل حملها إليهم، وتمَّ أمر الصُّلْح، وعادت الفرنجُ إلى بلادها، وابن المقدَّم إلى دمشق[3].

واتَّصل خبر هذه الهُدْنة بالملك النَّاصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشَّام وعلم ضَعْفهم. فراسل ابنَ المقدَّم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عَصْرُون: ورد الخبر بصلح بين الفرنج والدمشقيين، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سِلْك هذا القصد، والعدوُّ لهما واحد، وصُرِفَ مالُ الله الذي أُعِدَّ لمغنم الطَّاعة، ومصلحة

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٦١ ـ ١٦٦.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) كان على رأس الفرنج أملريك Amalric (أموري الأول) ملك بيت المقدس. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان، الترجمة العربية: ٢/ ٦٤٥، وقد مات بعدها =

الجماعة، في هذه المعصِيّة المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأُمة، وكان مذخوراً لكشف الغُمَّة، فصار عَوْناً. وأن أسارى من طبرية وفُرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السِّلْم السبب والذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الوِرْد والصَّدر، إن أتممنا ظُنَّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوُّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهُدْنة غير بعيد، وإن فرَّقْنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سَيَّرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يُعَرِّفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمرٌ ربما عُجز عن الاستدراك، وأن العدوَّ طالبٌ لا يغفل، وجادٌّ لا يَنْكُل، وليثٌ لا يضيع الفُرْصة، مُجِدٌّ لا يميل إلى الرُّخصة. فإن كانت الجماعةُ ساخطين، فيظهر أمارات السخط والتغيير، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لا سيما ونحن نغارُ لله ونُغير، ونقصد للمسلمين ما يُجمع به صلاح الرأي وصوابُ التَّدْبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق[1] خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارِم* بالمال الذي قويت به قوَّته، وثَرَتْ به ثروته، وانبسطت به خطوتُه، فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه.

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النُّوري، وكان شمس الدين علي، أخو مجد الدين ابن الداية، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشِّحْنكية*، وكان بيده ويد إخوته جميع المعَاقل التي حول حلب. فلما بلغ علياً موت نور الدين صَعِدَ إلى القلعة، وكان مُقْعَداً، واضطرب البلد، ثم سكَّنه ابنُ الخَشَّاب، وكوتب ابن الخَشَّاب من دمشق

= بقليل كما سيأتي ص ٣٣٢ من هذا الجزء.

(١) في (م): يفتقر.

بحفظ البلد، وعوَّلَ أولاد الداية على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين، وأنفذوا خلف أبي الفَضْل بن الخشاب، فامتنع من الصُّعود إليهم، وتردَّدت بينهم الرسالة. وتحزَّب الناس بحلب: السُّنَّة مع بني الدَّاية، والشيعة مع ابن الخَشَّاب، وجَرَت أسبابٌ اقتضت أن أنزلَ حسنُ ابن الداية جماعةً من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن الخَشَّاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابنُ الخشَّاب.

واتَّصلت هذه الأخبار بمن في دمشق، فأخذوا الملك الصَّالح وساروا إلى حلب في الثَّالث والعشرين من ذي الحِجَّة، وسار مع الملك الصَّالح سعد الدين كُمُشْتِكِين، وجُرْديك[1]، وإسماعيل الخازن، وسابق الدّين عثمان ابن الدَّاية، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم. وساروا إلى حلب، وخرجَ النَّاس إلى لقائهم.

وكان حسن قد رتَّب في تلك الليلة جماعةً من الحلبيين ليصبح ويصلِّبهم، فلمَّا خرج للقاء الملك الصَّالح، ووقعت عينه عليه ترجَّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جُرْديك وأخذ بيده، وشتمه وجَذَبه، فأركبه خلفه رديفاً، وقُبض سابق الدِّين أخوه في الحال، وتُخُطِّفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم، وساروا مجدِّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها، وقبضوا على شمس الدين علي ابن الدَّاية من فراشه، وحُمل إلى بين يدي الملك الصَّالح، فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالجُفَيْنة[2]، فركله برجله ركلةً دحاه بها على وجهه، فانشقَّتْ جبهته. ثم صُفِّدوا جميعاً وحبسوا في جُبّ القلعة، وقبضوا على جميع الأجناد الذين ١/ ٢٣٤

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٥٠ من هذا الجزء.

(٢) عبارة: المعروف بالجفينة، ليست في (ل)، وكان الجفينة والياً على عزاز، انظر ص ٤١٢ من هذا الجزء.

حلفوا لأولاد الدَّاية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلتُ: وفي آخر هذه السنة توفي مُرِّي* الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الدِّيار المصرية.

وفي كتابٍ فاضلي: ورد كتابٌ من الدَّاروم* يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مُرِّي ملك الفرنج ـ لعنه الله ـ ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نارٍ تَلَظَّى ﴿لاَ يَصْلاَهَا إلاَّ الأَشْقَى﴾[1].

ثم دخلت سنة سبعين وخمس مئة

قال ابنُ أبي طيّ: ففي أوَّلها ضَمِنَ القطب ابن العجمي أبو صالح[2]، وابن أمين الدّولة لجُرْديك إن قَتَلَ ابن الخَشَّاب ردُّوا عليه جميع ما نُهِبَ له في دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصَّالح، وتحدَّث معه، وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب، ونودي عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل، وعُلِّق رأسه على أحد أبراج القلعة.

وبقي الملك الصَّالح في قلعة حلب، ومضى العماد الكاتب إلى المَوْصل، قال: وعزمتُ على خدمة سيف الدين صاحبها[3] وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حَدِّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح، فأصلح بين ابني العَمّ، وغُلق رَهْنُ إخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيَّقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم[4] بتسليم الحصون، وتقديم الرُّهون، إلى أن

(١) سورة الليل، الآية: ١٥.

(٢) في النسخ الخطية: وأبو صالح، والواو مقحمة، لأن ابن العجمي هو نفسه أبو صالح. انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٦٩ من هذا الجزء.

(٣) في «سنا البرق الشامي»: ١/١٦٦ ـ ١٦٧ أن عبد المسيح رغَّبه في خدمة سيف الدين، فأبى.

(٤) في الأصل و (ل): فألزموهم، والمثبت من (م).

غصبوا دورهم، وخربوا مَعْمورهم[1].

قال: وكان الموفَّق خالد بن القَيْسَراني* قد وصل ــ ونحن بدمشق ــ من مِصْر، فلزم داره ولم يدخل مع القوم[2].

فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أنَّ ولد نور الدين يتولاهُ بعده إخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه وقال: أنا أحقُّ برعي العهود، والسَّعي المحمود، فإنه إن استمرَّت ولاية هؤلاء تفرَّقت الكلمة المجتمعة، وضاقت المناهج المتَّسعة، وانفردت مصر عن الشَّام، وطمع أهل الكُفْر في بلاد الإسلام. وكتب إلى ابن المقدَّم ينكر ما أقدموا عليه من تَفْريق الكلمة، وكيف اجترؤوا على أعضاد الدَّوْلة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها. فكتب ابنُ المقدَّم إليه يَرْدَعُه عن هذه العزيمة، ويقبِّح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَنْ غرسك، وربَّاك وأسَّسك، وأصْفَى مَشْربك، وأضفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دَسْته أجلسك، فما يليق بحالك، ومحاسن أخلاقك وخِلالك[3] غَيْرُ فضلك وإفضالك.

فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي: إنَّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جَمَعَ شملهم وألَّف كلمتهم، وللبيتِ الأتابكي ــ أعلاه الله تعالى ــ إلا ما حفظ أصلَه وفَرْعه، ودفع ضرَّه وجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبَّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملة إنا في واد، والظَّانون بنا ظَنَّ السَّوْء في واد، ولنا من الصَّلاح مُرَاد، ولمن يبعدنا

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٦٧.

(٢) المصدر السابق، وانظر ص ٢٧٩ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: وجلالك، والمثبت من (ل) و (م).

عنه مراد، ولا يقال لمن طَلَب الصَّلاح إنك قادح، ولمن ألقى السِّلاح إنك جارح[1].

فصـــل

قال العماد: ثم عَزَمَ السُّلْطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر، فاعترضه أمران: أحدهما وصول أسطول صِقِلِّية إلى الإسكندرية وإدراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه. أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحِجَّة سنة تسع وستين، وانهزم في أوَّل المحرَّم سنة سبعين.

ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشَّام بشرح الحال، وحاصله: أنَّ أول الأسطول وصل وقت الظُّهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غَفْلَةٍ من المتوكلين بالنَّظر، لا على حين خفاءٍ من الخبر، فأَمْرُ ذلك الأسطول كان قد اشتهر، ورُوِّع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربيَّة، وهدَّد به في الجزائر الرُّومية صاحبُ قُسْطنطينية. فشوهد في الثغر من وفور عُدَّته، وكثرة عِدَّته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتدَّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البرّ. ثم أشير عليهم أن يقربوا من السُّور، فأمكن الأسطول النزول، فاستنزلوا خيولهم من الطَّرائد*، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً[2] وخمس مئة رأس[3]، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارسٍ

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٦٨ ــ ١٦٩.

(٢) في الأصل و (ل): ألفي، والمثبت من (م).

(٣) في (ل): فارس.

وراجل. وكانت عِدَّة الطرائد ستاً وثلاثين طريدةً تحمل الخيل، وكان معهم مئتا شيني* في كل شيني مئة وخمسون راجلاً. وكانت عِدَّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمَّالة برسم الأزواد للرجال أربعين مركباً، وفيها من الرَّاجل المتفرِّق، وغِلْمان الخيَّالة، وصُنَّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتمِّمُ خمسين ألف راجل.

ولما تكاملوا نازلين على البَرّ، خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملةً أوصلتهم[1] إلى السُّور، وَفُقِدَ من أهل الثَّغْر في وقت الحملة ما يناهز سبعة أنفس[2]، واستشهد محمود بن البصارو بسهم جرخ*، وجدَّفت مراكب الفرنج داخلةً إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها، وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتَّصل القتال إلى المساء، فضربوا خيامهم بالبر، وكان عِدَّتهم ثلاث مئة خيمة.

١/ ٢٣٥

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا، ونصبوا ثلاث دبابات* بكباشها*، وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضربُ بحجارة سود استصحبوها من صِقِلِّية، وتعجَّب أصحابنا من شِدَّة أثرها وعظم حجرها. وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها، وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السُّور، ولجُّوا في القتال عامة النهار المذكور.

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقُوس* يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوِّ على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين إسكندرية ودِمْياط،

---

(١) في الأصل و (ل): أوصلوهم، والمثبت من (م).

(٢) في «مفرج الكروب»: ٢/ ١٤ سبع مئة نفس.

احترازاً عليها، واحتياطاً في أمرها، وخوفاً من مخالفة العدو إليها، واستمرَّ القتال، وقُدِّمت الدَّبَّابات، وضربت المنجنيقات، وزاحمت السُّور، إلى أن صارت منه بمقدار آماج[1].

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قُبالتها من السُّور ويتركوها مُعَلَّقة بالقشور. ثم فتحوا الأبواب على غفلة، وخرجوا[2] منها على غِرَّةٍ، وركب مَنْ هناك من الأمراء[2]، وخرجوا من الأبواب، وتكاثر صائح أهل الثَّغْر من كلِّ الجهات، فأحرقوا الدَّبابات المنصوبة، وصدقوا عندها القتال، وأنزل الله على المسلمين النَّصْر، وعلى الكُفَّار الخِذْلان والقهر.

واتَّصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشلُ الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وفتر حربهم، وأُحرقت آلات قتالهم، واستحرَّ القتل والجراح في رجالهم. ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قِوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهَرَبِ والمبادرة. ثم كَرَّ المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام، فهاجموهم في الخيام، فتسلَّموها بما فيها، وفتكوا في الرَّجَّالة أعظم فتك،

(١) آماج: هي المسافة التي يمكن للقوس أن يرمي منها السهم فيصيب الهدف، وهي كلمة فارسية. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي، الترجمة العربية: ١/ ١٨٥. وفي طبعة وادي النيل من الروضتين ١/ ٢٣٥ «بمقدار أماجِ البحر وأهاج الدور» على أن «أماج» فعل ماض، وهي قراءة مضطربة زادها فساداً هذه الزيادة التي ليست في نسخي الخطية، وقد أضافها إلى النص الدكتور محمد حلمي في نشرته لهذا الكتاب: ٢/ ٥٩٩ على أنها من نسخة ليدن التي تشترك مع نسخة القاهرة في أصل واحد، وأضافها أيضاً د. جمال الدين الشيال محقق كتاب «مفرج الكروب» ٢/ ١٥ من طبعة وادي النيل، وليست في أصوله، وذكر أن هذه الزيادة ضرورية لفهم النص، فتأمل! . .

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

وتسلَّموا الخَيَّالة، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحَّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها، فولَّت بقيَّة المراكب هاربة، وجاءتها أحكامُ الله الغالبة. وبقي العدو بين قَتْلٍ وغرق، وأَسْرٍ وفَرق، واحتمى ثلاث مئة فارس في رأس تَلٍّ، فأُخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله. وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس[1].

وذكر ابن شَدَّاد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ست مئة قطعة ما بين شيني* وطرادة* وبطسة* وغير ذلك[2].

فصل

وأما نوبة الكنز[3]، فقال ابنُ شَدَّاد: الكنز[4] إنسان مقدَّم من

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٦٩ ـ ١٧٤.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤٨ ـ ٤٩.
(٣) بنو الكنز، أصلهم من ربيعة بن نزار بن مضر، كانوا ينزلون اليمامة، وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومئتين، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، وأسسوا ثمة إمارة عربية كانت أسوان مقراً لها، واعترف الفاطميون بهذه الإمارة، وفي زمن الحاكم بأمر الله كان أميرهم هبة الله بن محمد بن علي المعروف بالأهوج المطاع، وهو الذي ظفر بأبي ركوة الأموي الخارج على الحاكم، فأكرمه الحاكم ولقبه كنز الدولة، فصار لقباً لكل أمير فيهم، حتى كان آخرهم هذا. انظر «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، للمقريزي: ٤٤ ـ ٤٦، ودراسة عبد المجيد عابدين الملحقة به ص ١٢٤ ـ ١٢٥، و «الطالع السعيد»: ٣٠.
(٤) في هامش الأصل: «الكنز، بالنون بعد الكاف وبعدها الزاي، حاشية قال المؤلف: هو كنز الدولة متوَّج، كذا سماه الأسعد [بن] مماتي في كتابه الذي جمع فيه السيرة الصلاحية، والله أعلم». =

المصريين، كان قد انتزح إلى أُسوان، فأقام بها، ولم يزل يُدَبِّر أمره، ويجمع السُّودان عليه، ويُخيِّل لهم أنه يملك البلاد ويُعيدُ الدَّولة مصْرية[1] . وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تُسْتَصْغَرُ هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خَلْقٌ كثير وجمعٌ وافر من السُّودان، وقصد قُوص* وأعمالها. فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرَّد له عسكراً عظيماً، شاكين في السلاح، من الذين ذاقوا حلاوة مُلْك الديار المصرية، وخافوا على فَوْت ذلك منهم، وقدَّم عليهم[2] أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم، فلقيهم بمصافٍّ فكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل[2] شأفتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السَّابع من صفر سنة سبعين، واستقرَّت قواعد الملك[3] .

قال العماد: وفي أَوَّل سنة سبعين مستهلِّها، قام المعروف بالكنز في الصَّعيد، وجَمَعَ[4] من كان في البلاد من السُّودان والعبيد، وعدا ودعا من القريب والبعيد، وكان عنده من الأُمراء أَخٌ لحسام الدين بن أبي الهيجاء السَّمين[5]، ففتك به وبمن هناك من المقطَعين، فغارت حمية أخيه وثارت للثأر، وساعده أخو السُّلْطان سيف الدين، وعز الدين موسك ابن خاله[6] ، وعدة من أُمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طَوْد* فاحتمت[7] عليهم،

= قلت: ما بين حاصرتين من عندنا، وتوفي الأسعد بن مماتي سنة (٦٠٦ هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١٣.

(١) في الأصل: المصرية، والمثبت من (ل) و (م).

(٢ ــ٢) ما بينهما ساقط من (ل).

(٣) «النوادر السلطانية»: ٤٧ ــ ٤٨.

(٤) في الأصل، وجميع، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من هذا الجزء.

(٦) توفي سنة (٥٨٥ هـ)، وستردُ ترجمته في ٤/ ١٠٨.

(٧) في (م): فاجتمعت.

وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها، وباءت بعد عِزِّها بذُلِّها.

ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوئه وسودانه، فسُفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وأريقت دماءُ سوده، وهجم غابه على أُسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطُلَّ دمه ولم ينتطح فيه عَنْز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سُلَّم نفاق، والله لناصري[1] دينه ناصر واق[2].

وقال ابن أبي طيّ: واتّفق أيضاً أن خرج بقريةٍ من قرى الصَّعيد يقال لها طَوْد [رجلٌ][3] يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قُوص ونَهَبَها وخَرَّبها، وأخذ أموال الناس. واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ــ وكان السّلطان قد استنابه بمصر ــ فجمع له العساكر وأوقع به، وبدَّد شمله، وفضَّ جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قَصَدَ بلد طَوْد، فقتل أكثر عسكره وهرب، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصل

في توجُّه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأوَّل.

قال العماد: لما خلا باله مما تقدَّم ذكره تجهَّز لقصد الشام، فخرج إلى ٣٦/١

---

(١) في الأصل: لناصر، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٧٥ ــ ١٧٦.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

البركة[1] مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بِلْبيس* ثالث عشر ربيع الأول. وكانت رسل شمس الدِّين صاحب بُصْرى* صديق ابن جَاوْلي وشمس الدين بن المقدم عنده، تَسْتوْري في الحثِّ والبعث زَنْدَه، وتستقدمه وجُنْدَه. وسار على صَدْرَ* وأيْلة* ووصل السير بالسُّرى، حتى أناخ على بُصْرى، بصيراً بالعُلا نصيراً للهدى، فاستقبله صاحب بُصْرى وشد أَزْرَه، وسدَّد أمره. واستضاف إلى بُصْرى صَرْخَد*، وتفرَّد بالسَّبْق إلى الخدمة وتوحَّد، وسار في الخدمة معه إلى الكُسْوَة*.

وبكَّر صلاح الدين يوم الاثنين انْسِلاخ الشهر، وسار في موكب قويّ بالعَدَد والعُدَد، وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الأطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق، وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق وخَرَقها، وكأنَّ الله [تعالى][2] له خَلقها، ودخل إلى دار العقيقي* مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأبِّيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نَوَاله، وتملَّك المدينة والقلعة. ونزل بالقلعة سيف الإسلام أخو السُّلْطان صلاح الدين، وملَّك ابنَ المقدَّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طَلِبته التي أشار إليها ونَصَّ عليها؛ وأظهر أنه [قد][3] جاء لتربية الملك الصَّالح، وحِفْظ مَالَهُ من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحقُّ بصيانة حقِّه.

واجتمع به أعيانُها، وخَلَص لولائه إسرارها وإعلانُها، وأصبح وهو سُلْطانُها. وزاره القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري، فوفَّاه حقَّه من

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

الاحترام، ووفَّر له حَظَّ التبجيل والإعظام[1].

ونفّذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر، بهذا الفتح والنَّصْر، وفي بعضها: يوم وصولنا إلى بُصْرى وقَبْله وفَدَتْ وهاجرت، وتزاحمت وتكاثرت، وتوافت، الأمراء والأجناد [و][2] الأتراك، والأكراد، والعُرْبان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال. وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكلٌّ مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أنَّ البلاد ممكنة القياد، مُذْعنة إلى المراد. وأما الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ فإنّا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وأدلجنا وعيونهم متناومة، وجُزْنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صُغُر، ومررنا وعيشهم مُرّ. والله يزيدهم ذُلاًّ، ويجعل عداوة الإسلام في صدورهم غِلاًّ، وفي أعناقهم غُلاًّ.

وفي كتاب آخر: وكان رحيلُنا من بُصْرى* يوم الأربعاء الرَّابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجَّه صاحبها من بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها. ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته، والأمير سعد الدين بن أُنَر في السبت السابع والعشرين. ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب* والأجناد الدِّمشقية إلينا متوافية، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبة. ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدُّخول عَدَدٌ من الرِّجال، فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم، وعرَّفتهم كيف يكون

---

(1) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٧٦ ــ ١٧٧.
(2) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

اللِّقاء وعَلَّمتهم، ودخلنا البلد، واستقرَّت بنا دار والدنا رحمة الله عليه، قريرةً عيونُنا، مستقراً سكونُ الرعية وسكوننا، وأَذَعْنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النُّفوس، وإزالة المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدِّية قد امتدَّت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشَّرْع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها.

قال ابنُ الأثير: لما خاف مَنْ بدمشق من الأُمراء أن يقصدَهم كُمُشْتِكِين والملك الصَّالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الدَّاية، راسلوا سيف الدين غازي ليسلِّموها إليه فلم يجبهم، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدَّم، ومن أشبه أباه فما ظلم[1]. فلما أتته الرُّسل لم يتوقَّف وسار إلى الشَّام، فلما وصل دمشق سلَّمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقرَّ بها، ولم يقطع خُطْبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه، واسترد له بلاده التي أخذها ابنُ عمِّه. وجرت أمورٌ آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصَّالح على ما بيده[2].

وقال القاضي ابن شدَّاد: لما تحقَّق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهَّز للخروج إلى الشَّام، إذ هو أصل بلاد الإِسلام، فتجهَّز بجمعٍ كثير من العَسَاكر، وخلَّف بالديار المصرية مَن يستقلُّ بحِفْظِها وحراستها،

---

(١) يشير ابن الأثير لما كان من تسليم الأمير المقدم والد شمس الدين سنجار لنور الدين سنة (٥٤٤ هـ)، انظر ص ٢٣٣ من الجزء الأول. وانظر معنى المثل في حاشيتنا رقم ١ ص ٧٧ من الجزء الثالث.

(٢) «الباهر»: ١٧٦ ــ ١٧٧.

ونَظْمِ أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمعٍ من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها. واختلفت كلمة أصحاب الملك الصَّالح، واختلَّت تدبيراتهم، وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعضُ على جماعةٍ منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسبباً لتنفير قلوب النَّاس عن الصَّبي، فاقتضى الحال أن كاتَبَ ابنُ المقدَّم صلاحَ الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصَّالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويَرُبُّ حاله[1].

فدخل دمشق يوم الثلاثاء سَلْخ ربيع الآخر، وكان أول دخوله إلى دار أبيه. واجتمع النَّاس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في النَّاس مالاً طائلاً، وأظهر الفرح[2] والسرور بالدمشقيين[2] وأظهروا[3] الفرح به. وصَعِدَ القلعة، واستقرَّ قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جُمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سَلْخ جُمادى المذكور، وهي الدفعة الأولى[4]. ١/٢٣٧

وقال ابنُ أبي طيّ: بلغ السُّلْطان أن ابنَ المقدَّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب المَوْصِل، واستيلائه على البلاد الشَّرْقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه. وقيل: إن ابنَ المقدَّم كاتَبَ السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل: إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركةٍ تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، ولجواب مُمضٍّ ورد من ابن المقدَّم إليه. ولما تيقَّن

---

(١) يرب: يصلح. انظر «اللسان» (ربب).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في الأصل: فأظهروا، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) «النوادر السلطانية»: ٥٠.

ابنُ المقدم خروجَ السُّلْطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بُقعتها، نشر عَلَم العدل والإحسان، وعفَّى آثار الظُّلْم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدُّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والمؤن والضرائب المحرَّمات.

قلتُ: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدةً بعد مصافِّ عَسْقَلان، أولها:

تهنَّ يا أَطْوَلَ الملوكِ يَداً ... في بَسْطِ عَدْلٍ وسطوةٍ وندى
أجراً وذكراً مِنْ ذلك الشكرُ في الد (م) ... نيا ومن ذلك الجنانُ غدا[1]
لا تستقلَّ الذي صنعتَ فقد ... قُمْتَ بفرض الجهاد مجتهدا
وَجُسْتَ أرض العِدَى وأفنيتَ من ... أبطالهم ما يجاوزُ العَدَدا
وما رأينا غزا الفِرَنْجَ من الـ ... ـملوك في عُقْر دارِهم أَحَدا
فَسِرْ إلى الشَّام فالملائكة الـ ... أبرارُ يلقاك جَمْعُهم مَدَدا[2]
فهْو فقيرٌ إليك يأملُ أنْ ... تُصْلِحَ بالعَدْلِ منه ما فَسَدا
والله يعطيك فيه عاقبة النَّـ (م) ... ـصْرِ كما في كتابه وَعَدا
فما حباك الورى وألهمك الـ ... ـعَدْل وأعطاك ما ملكتَ سُدَى[3]

ومَدَحَ وُحَيش الأَسَدي[4] صلاحَ الدين عند أخذه دمشق بقصيدةٍ،

---

(١) هذا البيت ساقط من (ل).
(٢) في طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٣٧ تلقاك ملتقى حمدا.
(٣) ليست الأبيات في «ديوانه» المطبوع.
(٤) هو سبع بن خلف بن محمد، الأسدي الفقعسي، ولد سنة (٥٠٤ هـ)، ولقبه العماد =

أولها:

قد جاءك النَّصرُ[1] والتوفيق فاصطحبا[2] فَكُنْ لأضعافِ هذا النصر مُرْتَقِبا

لله أنتَ صلاحَ الدين من أسدٍ أدنى فريستِهِ الأيامُ إن وَثَبا

رأيتَ جِلَّق ثَغْراً لا نظيرَ له فجئتها عامراً منها الذي خَرِبا

نادتك بالذُّلِّ لما قلَّ ناصِرُها وأزْمَعَ الخَلْقُ من أوطانها هَرَبا

أحْيَيْتَها مِثْلَ ما أحييت مِصْرَ فقد أعَدْتَ من عَدْلها ما كان قد ذَهَبا

هذا الذي نَصَرَ الإسلامَ فاتَّضَحَتْ سبيلُهُ وأهانَ الكُفْرَ والصُّلُبا

ويوم شاورَ والإيمانُ قد هُزِمَتْ جيوشُه كان فيه الجَحْفَلَ اللَّجِبا

أَبَتْ له الضَّيْمَ نَفْسٌ مُرَّةٌ ويدٌ فعَّالة وفؤادٌ قَطُّ ما وَجَبا

يستكثر[3] المدح يُتْلى في مكارِمه زُهْداً ويَسْتَصْغِرُ الدُّنيا إذا وَهَبا

ويوم دِمْياطَ والإسكندريةَ قد أصارَهم مَثَلاً في الأرض قد ضُرِبا

والشَّام لو لم تُدَارِكْ أهلَه انْدَرَسَتْ آثارُهُ وعَفَتْ آياتُه حُقُبا[4]

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك

= في دمشق، وقصده بقصائد مدحه بها، فأحسن العماد جائزته. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٢ ــ ٢٤٦.

(١) في «الخريدة»: السعد.

(٢) في (م): واصطحبا.

(٣) في إحدى نسخ «الخريدة»: يستكبر.

(٤) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

النَّاصر وميل النَّاس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفقُوا وأجمعوا على مراسلته، فحمَّلوا قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان[1] رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملَّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حَوَيْتَ بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصديت له تصدّك، وأنت فقد تعدَّيْتَ طورك، وتجاوزت حَدَّك، وأنت أحد غِلْمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السُّلْطان وُرود ابن حَسَّان عليه رسولاً تلقَّاه بموكبه وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرِّسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشَّقاشِق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يُعِره السُّلْطان رحمه الله تعالى طَرْفاً ولا سمعاً، ولا رَدَّ عليه خفضاً ولا رفعاً، بل ضرب عنه صَفْحاً وتغاضياً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وجرى في ميدان أريحيته، واستنَّ في سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشَّام، لجمع كلمة الإسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، وكفِّ عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خَرْطُ القَتَاد[2]، وفتُّ الأكباد، وإيتام الأولاد. فتبسَّم السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، وأَوْمَى إلى رجاله بإقامته من بين يديه، بعد أن كاد يسطو عليه.

١/٢٣٨

ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشَّام الأسفل، ورحل متوجِّهاً إلى

(١) كان صاحب منبج، انظر ص ٢٥ من هذا الجزء.

(٢) القتاد: شجر صلب له شوكة كالإبر، وخرط الشجر: انتزاع الورق منه اجتذاباً. والمثل: دونه خرط القتاد، يضرب للأمر الشاق. انظر «القاموس المحيط»: (قتد، خرط)، و «المستقصى»: ٢/ ٨٢ ــ ٨٣.

حمص فتسلَّم البلد، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكَّل بها من يحصرها. ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى الرَّسْتَن* خرج صاحبها عز الدين جُرْديك[1]، وأمر مَنْ فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره. وسار جُرْديك حتى لقي السُّلْطان، واجتمع به بالرَّسْتَن، وأقام عنده يوماً وليلة، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سَلَّم إليه حماة، وسأله أن يكون السَّفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السّلطان إلى مُرَاده. وسار إلى حلب، وبقي أخو جُرْديك بقلعة حماة.

قال: وسار جُرْديك إلى حلب وهو ظانٌّ أنه قد فعل شيئاً، وحصَّل عند من بحلب يداً، فاجتمع بالأمراء والملك الصَّالح، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتَّهمه الأمراء بالمخامرة، وردُّوا مشورته، وأشاروا بقبضه، فامتنع الملك الصالح. ولجَّ سعد الدين كُمُشْتِكين في القبض عليه، فقبض وثُقِّل بالحديد، وأُخذ بالعذاب الشديد، وحُمل إلى الجُبِّ الذي فيه أولاد الدَّاية.

قال: ولما قُدِّم جُرْديك وشُدَّ في وسطه الحبل وأُدْليَ إلى الجُبّ، وأحسَّ به أولاد الدَّاية، قام إليه منهم حسن وشَتَمَه أقبحَ شتم، وسَبَه ألأم سَبٍّ، وحلف بالله إن أُنزل إليهم ليَقتُلنَّه. فامتنعوا من تدليته، فأُعلم سعد الدين كُمُشْتِكين، فحضر إلى الجُبِّ، وصاح على حسن وشتمه وتوعَّده، فسكن حسن وأمسك، وأنزل جُرْديك الجُب، فكان عند أولاد الدَّاية، وأسمعه حسنٌ كلَّ مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصلَ به قبض أولاد الدَّاية وجُرْديك،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٥٠ من هذا الجزء.

وكانوا تعصَّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب ، قصيدةً منها :

بنُو فلانة أعوان الضَّلالة قد قضى بذُلِّهمُ الأفلاكُ والقَدَرُ
وأصبحوا بعد عِزِّ المُلْكِ في صَفَدٍ وقَعْرِ مَظْلَمَةٍ يغشى لها البَصَرُ
وجَرَّد الدَّهْرُ في جُرْديك عَزمته(١) والدَّهْرُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ

قال: ولم يزل السُّلْطان مقيماً على الرَّسْتَن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غِلْمان جُرْديك، وأخبره بما جرى على جُرْديك من الاعتقال والقهر، فرحل السطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخي جُرْديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل. وصَعِدَ السُّلْطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها، وولاها مُبارز الدين عليَّ بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جُمادى الآخرة.

وسار السّلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جَوْشَن* فوق مشهد الدَّكَّة* ثالث جُمادى، وامتدَّت عساكره إلى الخَنَّاقية وإلى السَّعْدي. وكان من بحلب يظنون أن السُّلْطان لا يقدَمُ عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت، فخافوا من الحلبيين أن يُسلِّموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه، ويخاطبهم بلسانه أنهم الوَزَرُ والملجأ. فأمر أن يُنادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق*، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالنَّاس، فنزل الصَّالح من باب الدرجة وصَعِدَ من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب، أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجىء إليكم، كبيركم

---

(١) في (م): أخذته.

عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه، فافتتن النَّاس وصاحوا صيحةً واحدة، ورمَوْا بعمائمهم، وضجُّوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. وأقبلوا على الدُّعاء له، والترحُّم على أبيه.

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصَّالح أنه يُعيد إليهم شرقية الجامع يُصَلُّون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يُجهر بحيّ على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق، وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلُّوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطَّاهر أبي المكارم حمزة بن زُهْرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والنَّاموس وازع لمن أراد الفتنة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله تعالى. فأُجيبوا إلى ذلك.

قال ابن أبي طيّ: فأذن المؤذنون[1] في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل، وصلىٰ أبي في الشَّرْقية مُسْبلاً، وصلَّى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأُذِنَ للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعتِ الأيمان عليه. ٢٣٩/١

فصل[2]

قال ابن أبي طيّ[2]: وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج،

---

(١) في الأصل: المؤذن، والمثبت من (ل) و (م).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

عظيمة الأمطار، هائجة الأهوية. وكان السُّلْطان قد جعل أولاد الدَّاية[1] عُلالة له وسبباً يقطع به ألْسِنَة من يُنكر عليه الخروج إلى الشام وقَصْد الملك الصَّالح، ويقول: أنا إنما أتيتُ لاستخلاص أولاد الدَّاية[1] وإصلاح شأنهم.

وأرسل السُّلْطان إلى حلب رسولاً يُعَرِّض بطلب الصُّلْح، فامتنع كُمُشْتِكِين، فاشتدَّ حينئذٍ السُّلْطان في قتال البلد.

وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان، والفكرة في مخاتلته وإرسال المكروه إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشيَّة[2] في إرصاد المتالف للسلطان، وإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعِدَّة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فُتَّاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبل جَوْشَن* واختلطوا بالعسكر، فعرفهم صاحب بوقُبيس[3] لأنه كان مثاغراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم، كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه! فخافوا غائلته فوثبوا عليه، فقتلوه في موضعه، وجاء قومٌ للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض، وبدر من الحشيشيّة أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار*، فقتله، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

وقال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشيَّة كاتبوا قومص طرابلس[4]، وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحَّل السلطان عن

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٨٨ من هذا الجزء.

(٣) هو الأمير ناصح الدين خمارتكين كما سيأتي ص ٣٥٤، وأبو قبيس: حصن مقابل شيزر. «معجم البلدان»: ١/ ٨١.

(٤) هو Raymond III انظره في كشاف الأعلام.

حلب. وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم[1]، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل[2] موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزّعْفراني[3] حتى باعه نور الدين بمبلغ مئة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير.

واتفق في أول هذه السَّنة موت ملك الفرنج صاحب القُدس وطبرية وغيرهما[4]، فتكفَّل هذا القمص بأمر ولده المجذوم[5]، فعَظُم شأنه وزاد خطره. فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان: لستُ ممن يَرْهَبُ بتألُّب الفرنج وها أنا سائرٌ إليهم. ثم أنهد قطعةً من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية، فغنموا غنيمةً حَسَنةً وعادوا. فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان[6] من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده، وحصل[6] الغرض من رحيل السُّلْطان عن حلب، ووصل إلى حمص فتسلَّم القلعة، ورتَّب فيها والياً من قِبَله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة، وستأتي[7]:

---

(١) وكانت سنة (٥٥٩ هـ). انظر ص ٤١٥ وما بعدها من الجزء الأول.

(٢) في (م): قبيل.

(٣) كان من كبار أمراء نور الدين، قدمه في آخر حياته على العساكر، وأقطعه الرها وحماة وكفر طاب وحمص وسلمية وبعرين. انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٢، وص ٣٨٥، ٣٨٦ من هذا الجزء.

(٤) ذكر أبو شامة أنه توفي آخر السنة السالفة. انظر ص ٣٣٢ من هذا الجزء.

(٥) هو Boldwin IIII انظره في كشاف الأعلام.

(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

(٧) انظر ص ٣٧٠ ــ ٣٧٣ من هذا الجزء.

إيابُ ابنِ أيوب نحو الشَّآم — على كلِّ ما يرتَجيه ظُهورُ
بيوسُف مِصْرٍ وأيَّامِه — تَقَرُّ العيونُ وتَشْفى الصُّدُورُ
رأت منك حمصُ لها كافياً — فواتاك منها القويُّ العَسِيْرُ(1)

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ(2) يقول في وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهدُ به من كونها نجماً في سحاب، وعُقاباً في عِقاب، وهامةً لها الغمامة عِمامة، وأَنْمُلةً إذا خضبها الأصيلُ كان الهلالُ منها قُلامة، عاقدةً حبوةَ صالحها الدَّهْرُ على ألا يَحُلّها بقرعه، عاهدةً عصمةً صافحها الزمن على ألا يروعها بخَلْعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات(3) لا تطبع طَبْعَ حمْصَ في العقارب، وضربت حجارةً بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثَّرت فيها جُدَرِياً بضربها، ولم تصل إلى السابع إلا والبحران منذرٌ بنَقْبها. واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وسقط سَعْدُها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطّالع، وفُتحت الأبراج فكانت أبواباً، وسُيِّرت الجبال بها فكانت سراباً. فهنالك بدت نقوبٌ، يَرى قائم(4) مِنْ دُونها ما وراءها، وحُشيت فيها النَّار فلولا الشُّعاع من الشعاع أضاءها(5).

---

(1) انظر «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٢٨.
(2) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩١ من الجزء الأول.
(3) في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٣٥٠، المنجنيقات، ليست في النص، وعلق محققاه أنها تفسير للعقارب مقحم على النص!
(4) في (ل) و (م): القائم.
(5) ضمن الفاضل عجزي بيتين لقيس بن الخطيم يصف بهما طعنة، هما:
طعنت ابن القيس طعنة ثائر — لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها — يرى قائماً من خلفها ما وراءها
انظر اختلاف روايتهما في «ديوانه»: ٧ ـ ٨.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى أخيه العادل: قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذي يخرج عن العَدّ، وبعد أن نُرَتِّب أحوال حمص ـ حرسها الله تعالى ـ نتوجَّه إلى حماة [وإلى ما بعدها][1]، والله المعين على ما ننويه من الرَّشاد، وننظِّفه من طُرُقِ الجهاد.

وقال العماد: لما سمع المدبِّرون للملك الصَّالح بإقبال صلاح الدين المُؤذن بإدبارهم، سُقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة وكاتبوهم، وأرسلوا إلى صلاح [الدين][2] بالإغلاظ والإحفاظ. وكان الواصل منهم قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وقد تجنَّب في قوله الإحسان، وقال له: هذه السُّيوف التي مَلَّكتك مصر ـ وأشار إلى سيفه ـ إليها تردُّك، وعمَّا تصدَّيت له تصدُّك. فحلم عنه السلطان واحتمله، وتغافل كرَماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وَصَل لترتيب الأُمور، وتهذيب الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ إخوة مجد الدين. فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أُسِّك، فارجع حيث جئت، أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع. ونال من تقطيب القطب ينال، كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسُّم وأخفى الاحتمال.

ثم إنه استناب أخاه سيف الإسلام طُغْتِكِين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأُولى، وامتنعت

١/ ٢٤٠

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

القلعة فأقام عليها من يحصرها. ورحل إلى حماة، فأخذها مستهل جُمادى الآخرة.

ثم مضى ونزل على حلب، فحصرها ثالث الشهر، فلمَّا اشتدَّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالإسماعيليّة، وعيَّنوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات، من فُتَّاكهم كُلُّ عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خُمارتِكين صاحب بوقُبيس ــ وكان مثاغراً للإسماعيلية ــ فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم! فقتلوه، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السُّلْطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطُغْرُل أمير جاندار* واقف ثابت، ساكن ساكت، حتى وصل إليه، فشمل بالسَّيف رأسه، وما قُتل الباقون حتى قَتَلُوا عِدَّة، ولاقى من لاقاهم شِدَّة.

وعصم الله [تعالى](1) حُشاشته في تلك النَّوْبة من سكاكين الحشيشِيَّة، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس* ــ وقد كان في أسر نور الدين مُذْ كسرة حارِم*، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدى نفسه بمبلغ مئة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير ــ فتوجَّه في الإفرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسُّلْطان رجع ناكصاً على عقبيه، خوفاً مما يقع فيه(2) ويتم عليه(3).

ومن كتاب فاضليٍّ عن السُّلْطان إلى العادل: قد أعلمنا المجلس أن

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) في الأصل: به، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٧٩ ــ ١٨٢.

العدوَّ ــ خذله الله ــ كان الحلبيون قد استنجدوا بصُلْبانهم، واستطالوا[1] على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب* لطلبه ولقاه. فسار إلى حصن الأكراد* متعلقاً بحبله مفتضحاً بحيله. وهذا فتحٌ تفتح له أبواب القلوب، وظفرٌ وإن كان قد كفى الله [تعالى][2] فيه القتال المحسوب، فإنَّ العدوَّ قد سقطت حِشْمته، وانحطَّت فيه هِمَّته، وولَّى ظهراً كان صدره يصونه، ونكَّس صليباً كانت ترفعه شياطينه.

وقال العماد في «الخريدة»: ولما خَيَّم السُّلْطان بظاهر حمص قصده المهذَّب بن أسعد بقصيدةٍ، أوَّلها:

ما نامَ بَعْدَ البَيْنِ يستحلي الكَرى ... إلا ليَطْرُقَه الخيالُ إذا سَرى
كَلِفٌ بِقُرْبِكُمُ فلمَّا عاقه ... بُعْدُ المَدَى سَلَكَ الطَّريق الأخصرا
ومُوَدِّعٍ أَمَرَ[3] التفرُّقُ دَمْعَه ... ونَهَتْهُ رِقْبَةُ كاشحٍ فتَحَيَّرا

ومنها في المديح:

تُرْدِي الكتائبَ كُتْبُهُ فإذا غَدَتْ ... لم يُدْرَ أنْفَذ أسْطُراً أم عسكرا
لم يُحْسِنِ الإترابَ فوقَ سُطُورِها ... إلا لأن الجيشَ يعقِدُ عِثْيَرا[4]

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول:

والشِّعْرُ ما زَالَ عند التُّرْك متروكا

---

(١) في (ل): استصالوا.

(٢) ما بين حاصرتين من (ل).

(٣) في «خريدة القصر» و «الديوان»: أمَّ، وإخالها تحريفاً.

(٤) العِثْيَر: العجاج الساطع. «اللسان» (عثر).

فعجَّلَ جائزَتَه لتكذيب قوله وتصديق ظنِّه، فشرَّفه وجمعَ له بين الخِلْعة والضَّيْعة[1].

وعَنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصَّالح بن رُزِّيك التي أوَّلها:

أما كَفَاك تلافي في تلافيكا

يقول فيها:

يا كعبةَ الجُودِ إنَّ الفقْرَ أَقْعَدَني ... ورِقَّةَ الحالِ عن مفروضِ حَجِّيكا
من أرتجي يا كريمَ الدَّهرِ تَنْعَشُني ... جَدْواه إن خاب سَعْيي في رجائيكا
أأمْدَحُ التُّركَ أبغي الفضْلَ عِنْدَهُمُ ... والشِّعْرُ ما زالَ عند التُّرْك متروكا
أم أمدح السُّوْقَةَ النَّوكى لِرِفْدِهِمُ ... واضَيْعَتَا إن تخطَّتني أياديكا
لا تتركَنِّي وما أمَّلتُ في سَفَري ... سواك أُقْفِلُ نحو الأهل صُعْلُوكا[2]

قلتُ: وقد مضى ذِكْرُ ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمانٍ وخمسين[3]، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ستٍّ وسبعين، وثمانٍ وسبعين.

وما أحسنَ ما خرجَ ابنُ الدَّهَّان من الغَزَل إلى مدح ابن رُزِّيك في قوله من[4] قصيدةٍ أوَّلها:

/٢٤١ إذا لاحَ بَرْقٌ مِنْ جَنَابِكَ لامعُ ... أضاءَ لِوَاشٍ ما تُجِنُّ الأضالعُ[4]

[يقول فيها][5]:

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦، و «ديوانه»: ٤٧ ـ ٥٤.
(٢) انظر القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤، و «تكملة ديوانه»: ٢١٩ ـ ٢٢٣.
(٣) انظر ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ من الجزء الأول.
(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥) ما بين حاصرتين من (ل).

تمـــادى بنـــا فـــي جـــاهليَّـــة بُخْلهـــا وقد قام بالمعرُوفِ في النَّاس شارِعُ
وتحسَـــبُ ليـــلَ الشُّـــحِّ يمتـــدُّ بعـــدَمـــا بدا طالعاً شَمْسُ السَّخاءِ طلائعُ[1]

فصـــــل

ثم أرسل السُّلْطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء[2] إلى الديوان العزيز برسالةٍ ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسُّلْطان من الأيادي من جهاد الإفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلادٍ جمَّة من أطراف المغرب، وإقامة الخُطْبة العباسية بها، يقول في أوله للرسول:

فإذا قضى التسليم[3] حَقَّ اللقاء، واستدعى الإخلاص جهد الدُّعاء، فلْيُعدْ وليعدَّ حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثرُ منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعلَّه يشرح منا صدراً، وليوضح الأحوال المستسرَّة فإن الله لا يُعبد سِرّاً:

ومـــن الغـــرائـــب أن تَسِيـــر غـــرائِـــبٌ في الأرض لم يَعلَم بها المأمولُ
كالعيسِ أقتل ما يكون لها الصَّدى والمـــاءُ فـــوقَ ظهـــورِهـــا محمـــولُ

فإنا كنا نَقْتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السِّهام بنحورنا وغيرنا يعتمد[4] التصوير، ونصافح الصِّفاح

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٨٧ ــ ٢٨٨، و «ديوانه»: ٢٢٤ ــ ٢٢٥.

(٢) وهو أول من خطب للعباسيين في مصر سنة (٥٦٧ هـ)، انظر ص ١٩٠، ١٩٥ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: حق التسليم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (ل) و (م): يعبد.

بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصْدير. ولا بد أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألْسنِ[١] كما أخذنا بحظٍّ القلوب. وما كان العائقُ إلا أنا كُنَّا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق، يشاكل إيجابنا للسَّبْق. [و][٢] كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح[٣] الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكُفَّار مُتقدِّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا. فأي مدينة فُتحت، أو مَعْقِل مُلك، أو عسكرٍ للعدوِّ كُسِرَ، أو مصافٌّ للإسلام معه ضُرب لم نكن فيه[٤]. فما يجهل أحدٌ صُنْعنا، ولا يجحد عدونا أنَّا نصطلي الجمرة، ونملك الكَرَّة، ونتقدم الجماعة، ونُرتِّب المقاتلة، وندبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشَّام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أنْ يكون لغيرنا ذكرُها.

وكانت أخبارُ مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دَوْلتها عليه مِن غلبة صغيرٍ على كبير، وأن النظام بها قد فَسَد، والإسلام بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلٌّ من قام وقَعَد. والفرنج قد احتاج من يدبرها[٥] إلى أن يقاطعهم بأموالٍ كثيرة، لها مقادير خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشَّريعة وإن كان مسماة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم. وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعْبَدُ من دون الله وتعظَّم وتفخم، فتعالى الله

---

(١) في (م): الألسنة.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) في (ل) و (م): نفتتح.

(٤) لم نكن فيه، ساقطة من (ل) و (م).

(٥) في الأصل: تدبرها، وفي (ل): مهملة، والمثبت من (م).

عن شَبه العباد، وويلٌ لمن غَرَّه تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد. فسمت هِمَّتُنا دون همم أهل الأرض إلى أن[1] نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالَّته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمة، وبأموالٍ انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا. فعرضت عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين رُسلٌ باستنجاد الفرنج قطعت، و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[2] ولكلِّ أملٍ باب. وكان في تقدير الله تعالى أنّا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغَدَرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخبطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان، بأنَّا إنْ لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم[3] اليوم لم نمهل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، وأمراء الأهل[4] المعروفة، إلى بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا في القلوب وُدَّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحقّ الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكِّ إسارهم، وإقالة عِثارهم[5]. ففعل الله ما هو أهلُه، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حَبْلُه، وضاقت به سُبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها*، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صُلْبانه، ونُصبت بها أوثانه، وأُيس من أنْ

(١) في الأصل: التي، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨.

(٣) في (م): غرائم.

(٤) في طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٤١، و «الأمراء والأهل».

(٥) في (م): عشارهم.

يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يُستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السِّرِّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر. وبها راجل من السُّودان يزيد على مئة ألف، كلهم أغتام[1] أعجام ﴿إنْ هُمْ إلاّ كالأَنْعَام﴾[2] لا يعرفون ربّاً إلاّ ساكن قصره، ولا قِبْلةً إلاّ ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكرٌ من الأرمن باقُون على النَّصْرانية، موضوعةٌ عنهم الجِزْية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة. ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تَلَطَّفُ في الضلال مداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتلُه، ومن بين كُتَّاب تفعل أقلامهم أفعال الأسَل، وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِّحَل، ودولة قد كبر نملها الصَّغير، ولم يعرف غيرها[3] الكبير، ومهابة تمنع من خَطَرات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل، وكُفْرٍ سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يُتَسَتَّرُ به ويُحكم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشِّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها[4] الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قُدْرتهم لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى

٢٤٢/١

---

(١) أغتام، مفردها: أغتم وغتمي. والغتمة: عجمة في المنطق. انظر «اللسان» (غتم).
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
(٣) في الأصل: غرها، وفي هامشه «قال المؤلف: لعله يعرف غيرها» وهي المثبتة في (ل) و (م).
(٤) في هامش الأصل: تحويها (خ)، وهي المثبتة في (ل) و (م).

بِلْبيس* ودفعة إلى دِمْياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر[1]، والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرّاً في مئتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتالَ الذي يصلِّبه الصليب، والقِراع الذي ينادي به الموت من كل[2] مكانٍ قريب، ونحن نقاتل العدوَّين الباطن والظَّاهر، ونصابر الضِّدَّين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصرُ ومن به من خدم ومن ذُرِّية قد تفرَّقت شِيَعُه، وتمزَّقت بدعه، وخفَتت دعوته، وخفِيَت ضلالته، فهنالك تَمَّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخُطْبة، والرفع للواء الأسود المعظم[3]، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه [وفنائه][4]، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حِنْثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته.

ولما خلا ذرعنا، ورَحُب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار، فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً وبحراً، مركباً وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها مُذْ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذْ مَلَكها أعاديهم. فمنها ما حُكِّمت فيه يَدُ الخراب، ومنها

(١) أي المستكثر. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٥٨٨.

(٢) كل، ساقطة من (ل) و (م).

(٣) في (ل) و (م): الأعظم.

(٤) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل من «الروضتين» ١/ ٢٤٢.

ما استولت عليه يدُ الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة* كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم، فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غيرُ أهلها، ومقام الخليل عليه السَّلام، أن يقوم به من نَارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام. ففتح الله هذه القلعة وصارت مَعْقِلاً للجهاد، وموئلاً لسُفَّار البلاد، وغيرهم من عُبَّاد العباد[1].

ثم قال: وكان باليمن ما عُلِمَ من ابن مهدي الضَّال الملحد[2]، المبدع المتمرِّد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالِبُهُ النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام[3]، لأنه سبى الشرائف الصَّالحات، وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعةٍ، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة، وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها[4]، وأحلَّ الفروج المحرَّمة وأباحها. فأنْهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلَّفنا له نفقات واسعة، وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنْجح الله فيه القَصْد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يقتضُّ الإسلام عُذْرته متمادية.

ولنا في الغرب أثرٌ أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنَّ أمْرَهم قد أَمِر[5]، وملكهم قد عُمِر، وجيوشهم لا تطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك ٣/ ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٢) سلف ذكره ص ٢٧٢ من هذا الجزء.

(٣) في (ل): عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي (م): عليه السلام.

(٤) أي أهلكها. انظر «اللسان» (جوح).

(٥) أي قد تمَّ. انظر «القاموس المحيط» (أمر).

بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرْنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير: بَرْقة*، قَفْصة*، قَسْطِيلية' تَوْزَر*. كلٌّ هذه تقام فيها الخُطْبة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ـ أمير المؤمنين سلام الله عليه ـ ولا عهد للإسلام بإقامتها، وينفَّذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلاماتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماعٍ وأبصار، مقداره سبعون راكباً، كلُّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَع والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية. فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكُفَّار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشِّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطينية، وهو الطَّاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدَّهْر وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبَتْ، جَرَت لنا معه غَزَواتٌ بحرية، ومناقلات[1] ظاهرة وسِرِّية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رُسله في جمعةٍ واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجَنَاح، وإلقاء السِّلاح، والانتقال من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحةٍ إلى مناصحة، حتى إنه أنذرَ بصاحب صِقِلِّية وأساطيله التي تردَّد ذِكرُها، وعساكره التي لم يخفَ أمرُها. ٢٤٣/١

ومن هؤلاء الكُفَّار هذا صاحبُ صِقِلِّية، كان حين علم بأن صاحب الشَّام وصاحب قُسْطَنْطينية قد اجتمعا في نوبة دِمْياط فغُلبا وقُسرا، وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوَّته المستقلَّة، فعمَّر أسطولاً استوعب فيه ماله

(١) في (م): ومناولات.

وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثرُ عِدَّته، وينتخب عُدَّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مِثْلُ حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نَقَلَه، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة، والجنوية[1] كلّ هؤلاء تارةً يكونون[2] غُزاةً لا تُطاق ضراوة ضَرِّهم، ولا تُطفأ شرارة شَرِّهم، وتارةً يكونون[3] سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصرُ عنهم يدُ الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المُسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورِيَّة، وكنا في تلك السنة على نِيَّة الغَزَاة، والعساكر قد تجهَّزت، والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج بانياس*، وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فُرْصةً مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوِّ أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقِيَّة التي لولا مسيرناً ما انتظم حكمها.

ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها، وأن كل قلعةٍ قد حصل

---

(١) البنادقة: أهل مدينة البندقية، والبياشنة: من مدينة بيزا، والجنوية أهل جنوة، وكلها من المدن الإيطالية التي اشتهرت بنشاطها التجاري في تلك العصور.

(٢) في الأصل: تكون، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: يكونوا، والمثبت من (ل) و (م).

فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيَّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشَّامية، وأمراء الدولة النُّورية قد سُجن كبارُهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك الأغمار الذين خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتُهم في الأمر بالمنكر والنَّهي عن المعروف، وكل واحدٍ يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً. وعلمنا أن البيت المقدَّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتحه، وأمرَ الكُفر إنْ لم يُجرد العزم في قَلْعه، وإلا نبتت عروقه، واتَّسعت على أهل الدين خُروقه، وكانت الحُجَّة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بُعْد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدَّواب التي بها على الجهاد القُوَّة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتَلَّة، وأمورٍ مختَلَّة، وأراء فاسدة، وأمراءٍ متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فإنَّا به أَوْلى من قومٍ يأكلون الدُّنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه.

والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد[١]، وأن يطبَّق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العِهاد[٢]، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشَّام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله

---

(١) في هامش الأصل: بلغ مقابلة.

(٢) في الأصل: العباد، والمثبت من (ل) و (م).

تعالى للدولة العَبَّاسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السّمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدَّس ليس له قِرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقِرْناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شَدَّ رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيفٍ يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كلّ مؤمن تحت بُرْده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.

ومن كتاب آخر فاضلي عن السُلْطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي، قال: والذي أجراه الله [تعالى][1] على يد المملوك من الممالك التي دَوَّخها، وسُنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رَحَضَها، وحجج الزَّندقة التي دحضها. فلله عليه المِنَّة فيه إذْ أَهَّله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويدُ الله كانت عون يده، وإلا فقد مضت الليالي[2] والأيام على تلك الأمور وما تحرَّكت للفُلْك[3] في قلعها نابضة، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة. فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكُفَّار، وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوَّحت من الكُفْر خضراء دِمَنِهِ. /٢٤٤

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العَبَّاسية يقول فيه: حتى أتى الدُّنيا ابن بَجْدتها، فقضى من الأمر

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) في (ل): مضت تلك الليالي.

(٣) في الأصل: ما تحركت الفلك، والمثبت من (ل) و (م).

ما قضى، وأسخط مَنْ لله في سُخطه رضا، وجعل وجه لابسي[1] السَّواد مُبيضاً، فأدرك لهم بثأرٍ نامت عنه الهمم، ودوَّخت عليه الأمم، وشفى الصُّدور، وجاء بالحق إلى من غَرَّه بالله الغَرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارةً لن تبور.

ومن كتابٍ آخر: قد بورك للخادم في الطَّاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الأعداء شِفارها، وجمع عليها الدين وكان أدياناً، واستقامت بها القلوب على صِبْغة التكلُّف[2] وكانت ألواناً.

ومن كتابٍ آخر: لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشَّام؛ المملوك بعسكري بَرِّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشَّام وَوَعْره. فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكَّمت الآراء الفاسدة، وفُورقت المحاجُ القاصدة، وصارت الباطِنية بطانةً من دون المؤمنين، والكُفَّار محمولةً إليها جِزَى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفُهم للنَّصْر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتَطَرُّقَ الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية، ولا خفاء أنَّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسَيَّروا الصَّليب ومن كُسى مذابحهم بقمامة، وهدَّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، ونفَّذوا البطارقَة والقِسِّيسين، برسائل صُوَرٍ من يصورونه ممن يسمُّونهم[3]

---

(١) في (م): لابس. ولابسو السواد: إشارة إلى العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم.

(٢) في (م): التكليف.

(٣) في الأصل: يسومونهم، والمثبت من (ل) و (م).

القِدِّيسين، وقالوا: إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارِطُه. وإن كلاً من صاحب قُسْطنطينية، وصاحب صِقِلِّية، وملك الألمان، وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية، والبيشانية، والجَنوية[1]، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية، والإسلام يا أمير المؤمنين أعزُّ ناصراً[2]، لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خَلْقاً.

فصـــل

قال العماد: وكنت بالموصل فَسُئِلْتُ نَظْمَ مرثيةٍ في نور الدين، فنظمتُ بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الـدِّيـن فـي ظُلَـمٍ لغيبـة نـورِهِ ... والـدَّهْـرُ فـي غُمـمٍ لِفَقْـدِ أميـرِهِ

فلينـدُبِ الإسـلامُ حـامـيَ أهلـه ... والشـامُ حـافـظَ مُلْكِـهِ وثُغُـورِهِ

مـا أعظـمَ المِقْـدَار فـي أخطـاره ... إذْ كـان هـذا الخَطْـبُ فـي مَقْـدُورِه

مـا أكثـرَ المتـأسِّفيـن لفقـدِ مَـنْ ... قَـرَّتْ نـواظِـرُهُـمْ بِفَقْـدِ نظيـرِه

مـا أغـوصَ الإنسـانَ فـي نسيـانـه ... أوَ مـا كفـاه المـوتُ فـي تـذكيـرِه

مَـن للمسـاجـدِ والمـدارس بـانيـاً ... لله طَـوْعـاً عـن خُلُـوصِ ضَمِيْـرِهِ

مَـنْ يَنْصُـرُ الإسـلامَ فـي غَـزَواتـه ... فلقـد أُصيـبَ بُـركنـه وظَهِيْـرِهِ

مَـنْ للفـرنـج ومـن لأَسْـرِ ملـوكهـا ... مَـنْ للهُـدى يبغـي فكَـاك أسيـرِه

مـن للخُطُـوبِ مُـذلِّـلاً لجمـاحهـا ... مَـنْ للـزَّمـانِ مُسَهِّـلاً لـوعُـوره

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٦٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل و (ل): وللإسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر، والمثبت من (م).

مـن كـاشِـفٌ للمُعْضِـلاتِ بـرأيـه ... من مُشْرِقٌ في الـدَّاجيات[1] بنوره
مـن للكـريـم ومـن لنعـش عِشارِهِ ... مـنْ لليتيـم ومـن لِجبْـر كسيـره
مـن للبـلادِ ومـن لنصـر جيـوشِها ... مـن للجهـاد ومـن لحِفْـظِ أُمـوره
مَـنْ للفُتـوحِ محـاولاً أبكـارهـا ... بـرَواحِـه فـي غَـزْوه[2] وَبُكُـورِهِ
مَـنْ للعُـلا وعُهـودهـا مَـنْ للنَّـدَى ... ووفُــوده مَـنْ للْحِجـا ووفُـوره
مـا كنـتُ أَحْسـبُ نـورَ ديـنِ محمـدٍ ... يخبـو وليْـلُ الشِّـرْكِ فـي دَيْجـوره
أَعْـزِزْ علـيَّ بليـثِ غـابٍ للهُـدَى ... يخلـو الشَّـرى مـن زوره وزئيـرِه
أَعْــزِزْ علــيَّ بــأنْ أراه مُغيّبـاً ... عـنْ مَحْفِـلٍ متشـرِّفٍ بحضـوره
لهفـي علـى تلـك الأنـامـل إنَّهـا ... مُـذْ غُيِّبَـتْ غـاضَ النَّـدَى ببحـورِه
ولقَـدْ أتـى مَـنْ كنـتَ تُجـري رسمـه ... فَضَـعِ العـلامـة* منـك فـي منشـوره
ولَقَـدْ أتـى مـنْ كنـتَ تكشـفُ كُـرْبَـهُ ... فـارفـع ظُـلامَتَـه بنصْـر عشيـره
ولَقَـدْ أتـى مَـنْ كنـتَ تُـؤمـن سِـرْبَـهُ ... وقِّـع لـه بـالأمـن مِـنْ مَحْـذُوره
ولَقَـدْ أتـى مـنْ كنـتَ تُـؤثـر قُـرْبَـه ... فـأدِمْ لـه التَّقْـريْـبَ فـي تقـريـره
والجيـش قـد ركـب الغَـدَاة لعَـرْضِـهِ ... فـاركَـبْ لتُبْصِـرَه أوَانَ عبـوره
أنـت الَّـذي أحييْـتَ شَـرْعَ محمـدٍ ... وقضيـتَ بعـد وفـاتـه بنُشـوره
كـم قـد أقمـتَ مـن الشَّـريعـة مَعْلمـاً ... هـو مُنْـذ غبـتَ مُعَـرَّضٌ لِـدُثـوره
كـم قـد أمـرتَ بحفـر خنـدقِ مَعْقِـلٍ ... حتـى سَكَنْـتَ اللَّحْـدَ فـي محفـوره
كـم قيصـرٍ للـرُّوم رُمْـتَ بقسـره ... إرْواءَ بيـضِ الهنـد مـن تـامـوره[3]
أُوتيـتَ فتـح حُصُـونـه ومَلَكْـتَ عُقْـ ... ـرَ بـلاده وسبيْـتَ أهـلَ قُصُـوره

١/ ٢٤٥

(١) في (ل): الداجنات.
(٢) في (م): غدوه.
(٣) التامور: النفس ومهجتها. انظر «اللسان» (تمر).

أَزَهِـدْتَ فـي دار الفَنـاء وأهلهـا	ورَغبت في الخُلْدِ المقيم وحُوره
أوَمَا وعـدْتَ القُـدْسَ أنـك مُنْجِزٌ	ميعـادَهُ فـي فَتْحـه وظهـوره
فمتى تجيرُ القُدْسَ مِنْ دَنس العِدَى	وتقـدِّسُ الـرَّحمٰـنَ فـي تطهيـره
يـا حـاملـيـنَ سـريـره مهـلاً فمـنْ	عَجَـبٍ نهـوضُكـمُ بحَمْـل ثبيـره[1]
يـا عـابـريـنَ بنَعشـه أنَشَقْتُـمُ	مِـنْ صـالـح الأعمـالِ نَشْـرَ عَبيـره
نـزلـتْ مـلائكـةُ السَّمـاء لِـدَفْنـه	مستجمعيـنَ علـى شَفِيْـرِ حَفيْـرِه
ومِـنَ الجفـاء لـه مُقَـامـي بعـده	هـلاّ وفيـتُ وسـرتُ عنـد مسيـره
حَيَّـاك مُعْتَـلُّ الصَّبـا بنسيمـه	وسقَـاك مُنْهَـلُّ الحيـا بـدُرُورُه
ولبسْـتَ رضـوان المهيْمـن سـاحِبـاً	أذيـالَ سُنْـدس خَـزِّه وحَـريـره
وسكنْـتَ علِّيِّيـن فـي فِـرْدَوْسِـهِ	حِلْـفَ المَسَـرَّة ظـافـراً بـأُجـوره

قال العماد: وجاء نَجَّابٌ إلى المَوْصِل، وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكُسوة* وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الحظوة. فهاجني الطَّرَب لقصده، لسابق معرفته وقديم وُدِّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسُّلْطان على حلب.

وكان العماد في عقابيل [ألم][2]، فلمّا شُفي وعاد السُّلْطان إلى حمص قصده فيها وقد تَسلَّم قلعتها في شعبان، في الحادي والعشرين منه[3].

قال: وكنتُ نظمتُ قصيدةً في الشَّوْق إلى دمشق والتأسُّف عليها، ثم جعلت مَدْحَ السُّلْطان مخلصها، وهي طويلة، أولها[4]:

---

(١) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٧٣.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٤.

(٤) سلفت منها ثلاثة أبيات ص ٣٥٢ من هذا الجزء.

أجيرانَ جَيْرونَ* مالي مُجيرُ سوى عَطْفِكُمْ فاعدِلُوا أوْ فَجُوروا

ومالي سوى طَيْفِكُمْ زائرٌ[1] فلا تمنعوه إذا لمْ تزوروا

يَعِزُّ عليَّ بأنَّ الفؤادَ لدَيْكُمْ أسيرٌ وعنكم أَسِيرُ

وما كنتُ أعلم أنّي أعيـ ـشُ بعد الأَحِبَّةِ إني صَبُورُ

وَفَتْ أَدْمُعي غير أن الكَرَى وقلبي وصبريَ كلٌّ غَدُورُ

إلى ناس بَانَاس* لي صَبْوَةٌ لها الوجدُ داعٍ وذكرى مثيرُ

يزيد اشتياقي وينْمُو كما يزيدُ يزيدٌ* وثَوْرا* يثورُ

ومن بَرَدى* بَرْدُ قلبي المشوق فها أنا من حَرِّه مستَجيرُ

وبالمَرْجِ* مَرْجُوُّ عَيْشي الذي على ذِكْرِهِ العَذْبِ عَيْشي مريرُ

فَقَدْتُكُمُ فَفَقَدْتُ الحياة ويومَ اللِّقاء يكونُ النُّشورُ

تطاولْ لسؤليَ عند القُصَيْر* فعن نَيْلِهِ اليومَ باعي قَصِيْرُ

وكن لي بريداً بباب البريد* فأنتَ بأخبارِ شوقي خبير

متى تجد الرِّيَّ بالقريتَين* خَوامِسُ أَثَّرَ فيها الهجيرُ

ونحو الجُلَيْجِل* أُزْجي المَطِيَّ لقد جَلَّ هذا المَرَامُ الخطيرُ

تُراني أُنيخ بأدنى ضُميرٍ* مطايا بَرَاها الوَجَا والضُّمُورُ[2]

وعند القُطَيِّفَة* المشتهاة قُطوفٌ بها للأماني سُفُورُ

ومنها بُكوريَ نحو القُصَير* وَمُنْيَةُ عُمْريَ ذاك البُكُورُ

وَيا طِيبَ بُشْرايَ من جِلّقٍ إذا جاءني بالنَّجاحِ البشيرُ

ويستبشرُ الأصدقاءُ الكرامُ هنالك بي وتُوفَّى النُّذُورُ

تُرَى بالسَّلامة يوماً يكون ببابِ السَّلامة* مني عُبورُ

٢٤٦/١

---

(١) في الأصل: زائراً، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (م): الضمير، وفي هامشها: الضمور، وهي المثبتة في الأصل و (ل).

وأنَّ جــوازي ببــاب الصَّغيــر * لَعَمْـري مــن العُمْــر حــظٌّ كبيــرُ

ومــا جَنَّــةُ الخُلْــدِ إلا دمشــقُ * وفي القَلْبِ شوقٌ[1] إليها سعيرُ

ميـادينهـا الخُضْـرُ فِيْـحُ الـرِّحـاب * وسَلْسَـالهـا العَـذْبُ صـافٍ نميـرُ

وجـامعهـا الـرَّحْـبُ والقُبَّـة الْـ * ـمُنيفـةُ والفَلَـكُ المستـديـرُ

وفـي قُبَّـة النَّسْـرِ * لـي سـادَةٌ * بهـمْ للمكـارم أُفْـقٌ مُنِيْـرُ

وبـابُ الفَـراديـس * فِـرْدَوْسُهـا * وسُكَّـانهـا أحسـنُ النَّـاس حـورُ

والارزة فـالسَّهْـمُ * فـالنَّيْـرَبـانِ * فجنَّـاتُ مِـزَّتهـا * فـالكُفُـورُ

كـأنَّ الجـواسِـقَ مـأهـولـةً * بـروجٌ تَطلَّـعُ منهـا البُـدُورُ

بنيـربهـا تتبَـرَّا[2] الهمـوم * بـربـوتهـا * يتـربّـى السُّـرورُ

ومـا غَـرَّ فـي الـرَّبـوة العـاشقيـ * ـنَ بـالحُسْنِ إلاّ الـرَّبيبُ الغَـريـرُ

وعنـد المغـارة * يَـوْمَ الخميـس * أغـارَ علـى القَلْـبِ منـي مُغِيْـرُ

وعنـد المُنَيْبِـع * عَيْـنُ الحيـاة * مَـدَى الـدَّهْـرِ نـابعـةٌ مـا تَغُـورُ

بجسر ابن شَوَّاش[3] تَمَّ السُّكون * لنفسـي بنفسـيَ تلـك الجسـورُ

وما[4] أَنْسَ لا أَنْـسَ أُنْـسَ العبـور * على جسر جِسْرين * إني جَسُورُ

وكـمْ بِـتُّ أَلْهـو بِقُـرب الحبيـ * ـب في بيت لِهْيا * ونام الغَيُـورُ

فـأيـنَ اغتبـاطـيَ بـالغُـوطتيـن * وتلـك الليـالـي وتلـك العُصُـورُ

وأشجـار سَطْـرا * بَـدَتْ كـالسُّطُـو * رِ نَمَّقَهُــنَّ البليــغُ البصيــرُ

---

(١) في (م): شوقاً.

(٢) في الأصل و(ل): تبير، وفي (م): تبر، والمثبت من «الخريدة».

(٣) جسر ابن شواش: أحد متنزهات دمشق. «معجم البلدان»: ٣/ ٣٧٠ قلت: لعله ينسب إلى الحسن بن علي بن الحسن بن شواش، كان يتولى الإشراف على وقوف جامع دمشق، أصله من أرتاح، توفي سنة (٤٣٩ هـ). انظر «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» لابن منظور: ٦/ ٣٥٣.

(٤) في (م): ومن.

وأيْــنَ تــأَمَّلْــتَ فُلْــكٌ يــدورُ   وعيــنٌ تفُــور وبحــرٌ يمــورُ
وأيــن نَظَــرْتَ نسيــمٌ يــرِقُّ   وزهــرٌ يــروقُ وروضٌ نَضِيْــرُ
إلامَ القســاوة يــا قــاسِيــون*   وبيــن السَّنــا يتجلَّــى سَنيــرُ*
ومُنْــذُ ثَــوى نــورُ ديــنِ الإلــهِ لم يبــقَ للــدِّيـن والشَّـامِ نُـورُ
وللنَّــاس بــالملــكِ النَّــاصِــرِ الصَّـ (م) ــلاحِ صــلاحٌ ونَصْــرٌ[1] وخيــرُ
هــو الشَّمْــسُ أفــلاكُــه فــي البــلادِ   ومَطْلِعُــهُ سَــرْجُــهُ والسَّــريــرُ
إذا مــا سطــا أو حبــا واحتبــى   فمــا اللَّيــثُ مَــنْ حــاتــمٌ مــاثبيــرُ
بيــوسُــف مِصْــرِ وأيــامِــهِ   تَقَــرُّ العيــونُ وتَشْفــى الصُّــدورُ
ملكــتَ فــأَسْجِــحْ فمــا للبــلادِ   ســواكَ مجيــرٌ ومــولًــى نَصِيْــرُ
وفــي مِعْصَــمِ المُلــك للعــزِّ منــك   سِــوَارٌ ومنــك علــى الــدِّيــن سُــورُ
لــك اللَّــهُ فــي كــلِّ مــا تبتغيــه   بحــقٍّ ظهيــرٌ ونِعْــمَ الظَّهيــرُ
أمَــا المفســدونَ بمصــر عَصَــوْكَ   وهــذي ديــارهــمُ اليــومَ قُــورُ[2]
أمــا الأدعيــاءُ بهــا إذْ نَشَطْــتَ   لإبعــادهــم زال منــك الفُتُــورُ
ويــوم الفــرنــج إذا مــا لقــوك   عَبُــوسٌ بــرغمهــمُ قَمْطَــرِيْــرُ
نهــوضــاً إلــى القُــدْس يشفــي الغليل   بفتــح الفُتــوحِ ومــاذا عسيــرُ
سَــلِ الله تسهيــل صَعْــب الخُطُــوب فهــو علــى كــلِّ شــيءٍ قــديــرُ
إليــك هَجَــرْتُ ملــوكَ الــزمــان   فمــا لَــك والله فيهــم نظيــرُ
وفجــرك فيــه القِــرى والقُــرَان   جميعــاً وفَجْــرُ الجميــعِ الفُجُــورُ
وأنــتَ تــريــقُ دمــاءَ الفِــرَنْــجِ   وعنــدَهُــمُ لا تــراقُ الخمــورُ[3]

٤٧/١

---

(١) في (م): ونصب.
(٢) في هامش الأصل و (ل): «حاشية للمؤلف، القور: أي آكام من الخراب».
(٣) انظر مختارات من القصيدة مع اختلاف في بعض الألفاظ في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٩ ــ ٢٩.

فصــــل
في فتحِ بَعْلَبَكّ

قال العماد: ولما فرغ السُّلْطان من حمص وحَصَّنها سار إلى بعلبك، فتسلَّمها في رابع شهر رمضان.

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يُمْن، فلما شاهد كثرة عساكر السُّلْطان اضطرب في أمره وراسل مَنْ بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر؛ فطلب الأمان، وسلَّم بعلبك إلى السُّلْطان.

قال العماد: وهنأته بأبْياتٍ، منها:

بفُتُــوح عَصْــرِك يَفْخَــرُ الإِســلامُ ... وبنُــور نَصْــرِكَ تُشْــرِقُ الأيَّــامُ
وبفتــح قلعــة بَعْلَبَــكَّ تهــذَّبَــتْ ... هــذي الممــالــكُ واستقــام الشَّــامُ
وبكـى الحَسُـودُ دمـاً وثَغْـرُ الثَّغْـرِ مـن ... فَــرَحٍ بنصْــرك للهُــدَى بَسَّــامُ
فتــحٌ تَسَنَّــى فــي الصِّيــامِ كــأننــا ... شكــراً لمــا مَنَــحَ الإلٰــه صِيَــامُ
مـن ذا رأى فـي الصَّـوْمِ عيـدَ سعـادةٍ ... حَلَّــت لنــا والفِطْــرُ فيــه حَــرَامُ
أسـدى صـلاح الـدِّيـن والـدُّنيـا يـداً ... بنَــوَالهــا سُــوقُ الــرَّجـاء تُقَــامُ
فتملَّ فَتْحك واقصدِ الفتح[1] الذي ... بحصــولــه لفُتــوحــك الإِتمــامُ
دُمْ للعُــلا حتــى يــدومَ نظــامُهــا ... واسلَــمْ يَعِــزُّ بنصــرِك الإِســلامُ[2]

قال: ولزمتُ خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله. وكنتُ ليلةً عنده وهو يذكر جماعةً من شعراء الزَّمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أُسامة بن مُرْشد بن سديد الملك علي بن مُنْقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله

(١) في (م): وافتح القدس.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٥، و «مفرج الكروب»: ٢/ ٣٠.

موقوف، وإلى استحسانه مصروف. وقد استحسن قصيدةً له طائيَّة[1]، لو عاش الطائيَّان لأقرَّا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها. على أنَّ الشّعراء المحدثين ما منهم إلاّ من نظم على رويّها ووزنها، واستمد خِصْب خاطره من مُزنها، فمنهم المَعَرِّي، وابن أبي حُصَيْنَة[2]، والأَرَّجاني[3].

---

(١) انظر قصيدة أسامة في «ديوانه»: ٧٨ ــ ٨١، ١٧٤ ــ ١٧٥، ٢١١ ــ ٢١٢.

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن أحمد، السلمي المعري، أبو الفتح، المشهور بابن أبي حصينة، ولد في معرَّة النعمان سنة (٣٩٠ هـ)، وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، فامتدح أمراءها، أوفد رسولاً إلى مصر للخليفة المستنصر سنة (٤٣٧ هـ) وسنة (٤٥٠ هـ)، ومدحه سنة (٤٥١ هـ) بقصيدة، فمنحه لقب الإمارة، توفي سنة (٤٥٧ هـ) على الأرجح. نشر قسم من ديوانه مع المجلد الأول من شرحه لأبي العلاء ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٥٦ م) بتحقيق محمد أسعد طلس. ضبط الزركلي في «الأعلام»: ٢/ ١٩٧ حصينة كسفينة كما رآه مشكولاً في نسخة قديمة من ديوانه.

وقصيدته الطائية في «ديوانه»: ١/ ١٠ ــ ١٣، ومطلعها:

لأية حال حكَّموا فيك فاشتطُّوا ... وما ذاك إلا حين عمَّمك الوَخْطُ

وهي في مدح الأمير ثمال بن صالح بن مرداس السلمي، أنشده إياها بالرافقة (قريبة من الرقة) سنة (٤٣٣ هـ). انظر ترجمته في «معجم الأدباء»: ١٠/ ٩٠ ــ ١١٨، وفيه الحسين بن عبد الله. و «تاريخ ابن الوردي»: ١/ ٥٥٠ ــ ٥٥١، و «فوات الوفيات»: ١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٤، و «مجلة مجمع اللغة العربية» بدمشق: مج ٢٤/ ٥٢٦ ــ ٥٣٦.

(٣) هو أبو بكر، أحمد بن محمد بن الحسين، الملقب ناصح الدين، مولده سنه (٤٦٠ هـ)، وكان قاضي تستر وعسكر مُكرم، وله شعر رائق في نهاية الحسن، وهو عربي المحتد، توفي سنة (٥٤٤ هـ) بتستر. وأرجان ــ بتخفيف الراء وتشديدها ــ هي من كور الأهواز من بلاد خوزستان. طبع ديوانه في بيروت أوائل هذا القرن، ثم حققه د. محمد قاسم مصطفى، ونشرته وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية سنة (١٩٨١) في ثلاثة أجزاء، انظر ترجمته في «الأنساب»: ١/ ١٧٤، و «معجم البلدان»: ١/ ١٤٤، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٥١ ــ ١٥٥، و «العبر» للذهبي: ٤/ ١٢١، و «الوافي بالوفيات»: ٧/ ٣٧٣ ــ ٣٧٨، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ٥٢ ــ ٥٧، وقصيدته التي أشار إليها العماد، مطلعها: =

والصَّالح بن رُزِّيك[1]. وقد أوردت جميعها في كتاب «الخريدة»، ومطلع قصيدة المعرِّي:

لمن جِيرةٌ سِيمُوا النَّوالَ فلم يُنْطُوا[2]

فنظمتُ في السُّلْطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية، منها:

عفا الله عنكم مالكم أيها الرَّهْطُ	قَسَطْتُمْ ومن قَلْبِ المحبِّ لكم قِسْطُ
شَرَطْتُمْ لنا حِفْظَ الوِدَادِ وخُنْتُمُ	حَنَانيْكُمُ ما هكذا الوُدُّ والشَّرْطُ
جَعَلْتُمْ فؤادَ المُسْتهام بكم لكم	محطّاً فعنه ثِقْلَ هَمِّكُمُ حُطُّوا
مَلَكْتُمْ فَأَنْكَرْتُمْ قديمَ مَوَدَّتي	كأَنْ لم يكن في البينِ معرفةٌ قَطُّ
فَدَتْ مهجتي من لا يُذَمُّ لمهجتِي	إذا حاكمَتْهُ وهو في الحُكْم مُشْتَطُّ
وما كنتُ أدري قبلَ سَطْوَة طَرْفِهِ	بأنَّ ضعيفاً فاتراً مِثْلَه يَسْطُو
وأهيفَ للإشفاقِ من ضَعْفِ خَصْرِهِ	يحلُّ نطاقاً للقلوب به رَبْطُ
يلازمُ قَلبي في الهوى القَبْضُ مثلما	يلازمُ كفَّ النَّاصِر الملكِ البَسْطُ
مليكٌ حوى الملكَ العقيمَ بضبطه	كريمٌ وما للمالِ في يَدِهِ ضَبْطُ
إذا لُثِمَتْ أيدي الملوكِ فعندَه	مدَى الدَّهرِ إجلالاً له تُلْثَمُ البُسْطُ

= سرى ولثام الصبح قد كاد ينحط — خيال تسدّى القاع والحي قد شطوا

وهي في «ديوانه»: ٣/ ٨٥١ ــ ٨٥٨.

(١) سلفت أبيات منها ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ من الجزء الأول.

(٢) وعجزه: يُظَلِّلُهُمْ ما ظلَّ يُنْبِتُهُ الخطُّ.

وينطو: أي يعطو، يقال: أنطيته بمعنى أعطيته. انظر القصيدة وشرحها في «شروح سقط الزند» القسم الرابع: ١٦٤٦ ــ ١٦٩٦.

عَنا لك طَوْعاً نيلُ مصرٍ ودِجْلَةُ الـ ـعراقِ ودانَ العُرْبُ والعُجْمُ والقِبْطُ

وللنِّيـلِ شـطٌّ ينتهـي سَيْبُـه بـه ونَيْلُـكَ للـرَّاجيـن نِيْـلٌ ولا شَـطُّ ١/٤٨

عـدوُّك مثـلُ الشَّمْـعِ فـي نـار حِقْـدِهِ لـه عُنُـقٌ إصـلاحُ فـاسِـدِه القَـطُّ

وهي ثمانية وثمانون بيتاً[١].

ولسعادة الأعمى قصيدة طائيّة في السُّلْطان سيأتي ذِكْرُها[٢].

قال العماد: ولما وصلتُ إلى السُّلْطان، ورغبت منه في الإحسان، وجدته لأمري مُغْفلاً، ولشُغلي مهملاً، ثم عرفت أن حُسَّادي قالوا له: متى أعَدْتَ ديوان الكتابة إلى العماد، وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده[٣] في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعَّث سِرُّه. فلما عرفتُ هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يُعْنى، فقام بأمري، ونَوَّه بقدري، وأراح سِرِّي، وشَدَّ أَزْري.

فصل

فيما جرى للمَوَاصلة والحلبيين مع السُّلطان في هذه السنة

قال ابنُ شدَّاد: ولما أحسَّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أنَّ الرجل قد استفحل أمره، وعَظُمَ شأنه، وعَلَت كلمته، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقرَّ قدمه في المُلك وتعدَّى الأمر إليه. فجهَّز عسكراً وافراً، وجيشاً عظيماً، وقدَّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً،

---

(١) أورد منها العماد ثمانية وسبعين بيتاً في «الخريدة» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٥ ــ ٣١، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٦.

(٢) انظر ص ٣٩٣ من هذا الجزء.

(٣) في (م): عندك.

وساروا يريدون لقاء السُّلْطان، وضَرْبَ المصافِّ معه، وردَّه عن البلاد. فوصل إلى حلب والسُّلْطان بحمص، وانضمَّ إليهم[1] من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جَمْعٍ عظيم. ولما عرف السُّلْطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماة* وراسلهُم وراسلُوه، واجتهد أن يُصالحهم[2] فمَا صالحوه، ورأوا أن المصافَّ ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجرُّ إلى أمورٍ وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسرُوا بين يديه، وأَسَر جماعةً منهم، ومنَّ عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر شهر رمضان.

ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب، وهي الدفعة الثَّانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة*، وكفر طاب*، وبارين*[3].

وقال العماد: لما تسَلَّم السُّلْطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدين مسعود ـــ أخو صاحب الموصل ـــ إلى حلب نجدة. ولما عرفوا أن السّلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماة فحَصَروها، وراسلوا في الصُّلْح. فَقَدِمَ السُّلْطان في خِفٍّ من أصحابه، وجاء كُمُشْتِكِين وابن العَجَمي وغيرهما، وأجابهم السُّلْطان إلى ما طلبوا، وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصَّالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردَّ كلّ ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة. فلما رأَوْه مجيباً لكل ما يُلتمس منه وهو في عسكرٍ خفيف قالوا: ما خبره صحيح. فشرعوا في الاشتطاط، وطلبوا الرَّحْبة* وأعمالها، فقال: هي لابن عمي

---

(١) في (ل): إليه، وهو تصحيف.

(٢) في (م): يصالحوه.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٠ ـــ ٥١.

ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، وكيف أُلحق به في رضاكم المكروه. فنفَروا وجفلوا، وأصبحوا على الرَّحيل إلى جانب العاصي قريباً من شَيْزَر*، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصافّ وعَزْم الانتصاف. فعَبَّر السُّلْطان إلى سفح قرون حماة خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه. ووصل[١] العسكر المصري في عشرة من المقدَّمين منهم فرُّخْشاه وأخوه تقي الدين. والتقوا، فهزمهم السُّلْطان، ونزل في منزلتهم[٢].

قال العماد: ومما نظمتُ في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شِيركُوه قصيدةً، فقد كان له فيها غَنَاء وبلاء حسن، منها:

ولَقَدْ أَلِفتُ نِفارَها وهَوَيْتُها ... إذ ليس يُنكَرُ للظِّباء نِفارُ
يا جارةً للقلب جائرةً دَعِي ... ظُلمي وإلاّ قلتُ جارَ الجارُ
قلبي كَطَرْفِكِ ما يُفيق إفاقةً ... سكران ما دارت عليه عُقَار
صَبٌّ بصبِّ الدَّمْعِ محترِقُ الحشا ... خَطَرَتْ ببالٍ بلائه الأخطارُ
لم يَخْشَ من خَطَرِ الهوى حتى حَمى ... ذاكَ القَوامَ شَبيهُهُ الخَطَّارُ
يَذْري الدُّموع كأنَّهن عوارفٌ ... لابْنِ المملَّك شِيركُوه غِزَارُ
من آل شاذي الشَّائدين بُنَى العُلا ... أركانُهنَّ لَهَاذِمٌ وشِفَارُ
حَسُنَتْ بهم للدَّوْلَةِ الأيامُ والـ ... أعمالُ والأحوالُ والآثارُ
قد حاز مُلْكَ الشَّام يوسفُ الذي ... في مصر تَغْبِطُ عَصْرَه الأَعْصَارُ
نَصَرَ الهُدَى فتوطَّد الإسلامُ في ... أيامه وتَضَعْضَعَ الكُفَّارُ
لمَّا لقيتَ جُموعَهم منظُومَةً ... صَيَّرْتَ ذاكَ النَّظْمَ وهو نِثارُ
في حالتَيْ جُودٍ وبأسٍ لم يَزَلْ ... للتِّبْرِ والأعداءِ مِنْكَ تَبارُ

---

(١) في (م): ورحل.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٦ ــ ١٨٨.

٢٤٩/٢ تَهَبُ الألوفَ ولا تهابُ ألوفَهم ... هانَ العدوّ عليك[1] والدِّينارُ
لما جَرَى العاصي هنالك طائعاً ... بدمائهم فَخَرَتْ به الأنهارُ
وتحطَّمَتْ عند القُرونِ قُرُونُهُمْ ... بل كَلَّتِ الأنيابُ والأظفارُ
عَبَروا المَعَرَّة* مالكين مَعَرَّةً ... والعارُ يُملكُ تارةً ويُعَارُ
أوَمَا كفاهم يوم حمص وكفّهم ... في بَعْلَبَكَّ بمثلها الإنذارُ[2]

قال: وهنَّأت الملك المُظفَّر تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب بقصيدةٍ، منها:

لا تُفْنِ مِنْ فَرَق الفِراقِ الأَدْمُعَا ... فهي الشهودُ على الغَرَام المُدَّعَى
واستبقِ صَبْرَكَ ما اسْتَطَعْتَ فإنه ... عَوْنٌ[3] لقلبك إن هُما ثبتا معا
قلبٌ أصابَتْهُ العيونُ ولم يَزَلْ ... من مَسِّها بالهاجِساتِ مُرَوَّعا
ما بالُه قد صَدَّ عند صُدُودهم ... عني ولمَّا ودَّعُوني وَدَّعا
ومن التحيُّرِ[4] أنني أَبْصَرْتُهُ ... في ظَعْنهم وسألتُ عنه الأَضْلُعا
أصبحتُ إذ شَيَّعْتُهُمْ لثلاثةٍ ... صبري وغمضي والفؤاد مشيِّعا

ومنها:

أوَما اتَّقيتم حين رُعْتُم سِرْبَه ... فيه تقي الدِّين ذاك الأَرْوَعا
عمر بن شاهِنْشاه مَنْ هو عامرٌ ... أركانَ مُلْكِ الشَّام حين تَضَعْضَعا
خَضَعَ العدوُّ وذلَّ بعد تعزُّزٍ ... لكمُ وحقٌّ عدوِّكم أنْ يخضَعَا

---

(١) في (م): لديك.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٠.
(٣) في (م): عوناً.
(٤) في (م): التخير.

مِـنْ معشـرٍ غُـرٍّ يَـرَوْنَ جميـعَ مـا	لـم يبـذُلُـوه فـي السَّمـاح مضيَّعـا
فـي مصـرَ واليمـنِ اجتلينـا[1] منهـمُ	فـي عصـرنـا تبعـا ليـوسـف تُبَّعـا
الحـاويـان بملـك مصـر ومكَّـةٍ	والشَّـامِ واليمـن الحظـايـا الأَرْبعـا
لما عصى الأعداءُ بالعاصي جرى	بـدمـائهـم طَـوْعـاً سُيُـولاً دُفَّعـا

وقال ابنُ أبي طيّ: لما تسلَّم السُّلْطان بَعْلَبَكَّ وأزاح عِللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود[2] عز الدين مسعود ـ أخي سيف الدين صاحب الموصل ـ نجدةً للملك الصَّالح. وكان سببُ وروده أن جماعةَ أمراءِ حلب لما كان السُّلْطان نازلاً على حلب أجمعوا على آراءهم وكاتبوا سيف الدين، وألزموه نجدة ابن عَمِّه، وأخْبَروه أنَّ السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصدٌ إلا الموصل. وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشماً خطيب حلب، وقُطْب الدين ينَال بن حَسَّان، وغَرْس الدين قليج.

وكان سيف الدين منازلاً لسِنْجار*، وفيها أخوه عماد الدين زَنْكي[3]، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان، فأنجده السُّلْطان بقطعةٍ من جيشه فكسرهم، ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره.

فلما وصلت رسالةُ الحلبيين إلى سيف الدين صالحَ أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ نُخَبهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك. فاغتنم الحلبيون بُعْدَ السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيَّموا على حماة، وأخذوا في حصارها. واتَّصل بالسُّلْطان ذلك، فرحل من بَعْلَبَكَّ إلى حمص، وبلغ عزَّ الدين، فعاد

---

(١) في (م): اختلينا.

(٢) في (ل): وصول.

(٣) انظر ص ١٦٩ ـ ١٧٠ من هذا الجزء.

عن حماة، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شَيْزَر*.

وراسل النائب بحماة علي بن أبي الفوارس، يقول له: إنما وَصَلْتُ في إصلاح الحال ووَضْعِ أوزار القتال. وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلُمُّ شَعَثَ الفُرْقة. فكتب ابن أبي الفوارس بذلك[1] إلى السُلْطان، وحَسَّن له الصُّلح، وتلطَّف في ذلك غاية التَّلَطُّف.

وقدم أبو صالح بن العجمي وسعد الدين كُمُشْتِكِين لطلب الصُّلح، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا، وتقرَّر الأمر على أنه يردُّ إليهم جميعَ الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدَها، ويكون نائباً للملك الصَّالح. فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصُّلْح، والنُّزول عن جميع الحُصُون التي أخذها: حمص وحماة وبعلبك، طمع في جانب السلطان، وتجاوز الحدَّ في الاقتراح، وطلب الرَّحْبة* وأعمالها. فقال: هي لابن عمي، ولا سبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه، فاجتهد السُلْطان به أن يرجع فلم يفعل، وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعدُ نازلاً على حماة، وحدَّثه ما دار بينه وبين السلطان، وهوَّن عليه أبو صالح أمرَ السُلْطان، وأخبره بقِلَّة من معه.

وكان السلطان لما كُوتب في أمر الصُّلْح سار في خِفٍ من أصحابه، فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعَوَّلوا على لقائه، وانتهاز الفرصة في أمره. فكاتب باقي أصحابه واستعدَّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماة، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يَقْدَمَ عليه باقي عسكره. وراسلهم في

١/٢٥٠

---

(١) في الأصل و (ل): وذلك، والمثبت من (م).

التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال. وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلةٍ يفتعلها، تسويفاً للأوقات وتقطيعاً للزمان، حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صُدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفُرْصة، ونالوا منه الغَرَض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر [شهر][1] رمضان التقوا، ولم يكن بعد وَصل السلطان[2] من عسكره أحد. فتجمع أصحاب السلطان كُرْدُوساً* واحداً، وأخذوا يحملون يمنةً ويسرةً، ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضَرِي عسكر حلب والعسكر المَوْصلي على أصحاب السُّلْطان حين شاهدوا قِلَّتهم واجتماعهم، وكاد[3] أصحاب السلطان يولُّون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام سعادة السلطان، فإنه لو تأخَّر ساعة انكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس في الكَرِّ، والضَّرْب الهَبْر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة، فصدموا عسكر المَوْصِل صدمةً ضعضعتهم.

وكان السُّلْطان في هذه المدة قد كاتَبَ جماعةً من عسكرهم واسْتَفسَدهم إليه، وحمل إليهم الأموال، وهذا هو الذي بَطَّأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السُّلْطان على الثُّبوت ساعة. فلما اشتدَّ القتال لم تنصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوفين لمن قَرُب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا، وتبعهم

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) في (ل) و (م): للسلطان.
(٣) في الأصل و (ل): وكادوا، والمثبت من (م).

عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السُّلْطان أصحابه ألا يُوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً، ولا يُذَفِّفوا[1] على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم.

ثم سار من وقته مجدّاً حتى نزل بمرج قرا حصار*، ولم يزل هناك حتى عَيَّد عيد الفطر، فجاءته رُسُل الملك الصَّالح[2] يسألونه المهادنة، وأن يُقرّر[3] الملكُ الصَّالح[2] على ما في يده، وما هو جارٍ تحت حُكْمه من الشَّام الأسفل إلى بلد حماة، فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرَّة* وكَفْر طاب*، فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتُها، وعليها خَطُّه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصَّالحَ عدوٌّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغيِّر الدُّعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السِّكَّة باسمه.

ولما حلف السلطان والملك الصَّالح وأمراؤه عاد السلطان قاصداً دمشق. فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السُّود، وتوقيعٌ من الدِّيوان بالسَّلْطنة ببلاد مصر والشَّام.

وفي هذه الخِلَع يقول ابن سعدان الحلبي[4]:

---

(١) ذفف على الجريح: أجهز عليه. انظر «اللسان» (ذفف).

(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في (ل): يقر.

(٤) هو عيسى بن سعدان الحلبي، لم تذكره كتب التراجم، وأورد له ياقوت بعض أبياته في «معجم البلدان» (جبل السماق، باب الجنان، فامية، ليلون، دابق، الدارين). وانظر «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» الطباخ: ٣/ ٤٥٤، وص ٩٤، ١٢٧ من الجزء الثالث. وص ٤٦٨ من هذا الجزء.

يا أيها المَلْكُ الغزيرُ فَضْلُه — لقد غَدَوْتَ بالعُلا مَليّا
كفى أمير المؤمنين شَرَفاً — أنك أصبحتَ له وليّا
طارحك الودَّ على شَحْط النّوى — فكنتَ ذاك الصَّادِقَ الوفيّا
أوْلاكَ من لباسِهِ زخرفةً — لم يُوْلِها قبلك آدميّا
ناسبَتِ الرَّوْضَ سناً وبهجةً — حتى حَكَتْهُ رَوْنقاً وزِيّا

قال: ورحل السُّلْطان من حماة إلى بعرين*، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني[1]، وكان خرج إلى السُّلْطان لما وَصَل إلى الشَّام، وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حِصْن بعرين، فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم[2] حصنه.

وقال العماد: نزل السُّلْطان قراحصار*، بنيّة الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة، ولا تُشْمِتُوا بنا العُدَاة، فاستزدنا[3] عليهم كفر طاب* والمعرّة*، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرّة، وسألهم في المعتقلين، إخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتَمَّ الصُّلْح، وعَمَّ النُّجْح.

ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات، والتقليد بما أراد من الولايات. وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخِلَع، وخص ناصر الدين محمد بن شِيركُوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين، رحمه الله تعالى.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٥١ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: سلم، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل: فاستزدناه، والمثبت من (ل) و (م).

ثم تسلم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني[١]، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوَّال، وأقطع مدينة حماة خاله[٢] وصهره الأمير شهاب الدين محموداً، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين.

قال العماد: وأذكر أنَّا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكسفت الشمس وادلهمَّ النهار، وغلب على القلوب الاستشعار، وطاحت الأنوار، وخفيت الرُّسوم، وظهرت النجوم؛ وجئنا حمص، ثم بَعْلَبَكَّ، ثم البِقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة[٣]. ٢٥١/١

فصـــل

قال العماد: قد سبق ذِكْرُ ما قرَّره حُسَّادي في خاطر السلطان، وقالوا: شُغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من يراه من الأفاضل، وهذا تَصْرفُه برِفدٍ جزيل، ووجهٍ جميل. والسُّلْطان مع شِدَّة رغبته متوقف، وإلى ظهور وجه النَّجاح في أمري متشوِّف.

وكنت قد أنست مدَّة مقامي بالمعسكر بذي المجد والمفخر، ومورد الكرم والمصدر، الأمير نجم الدين بن مَصَال، وهو ذو فضلٍ وإفضال، وقَبول وإقبال، وله من السُّلْطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إليَّ لفضله، ونباهته ونبله. وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده[٤]،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٥١ من هذا الجزء.

(٢) في النسخ الخطية: لابن خاله، وهو خطأ، والمثبت من «سنا البرق الشامي»، وانظر ص ٧٠ من هذا الجزء.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٠ ــ ١٩٣.

(٤) في الأصل: عهد، والمثبت من (ل) و (م). وانظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من هذا الجزء.

متفرِّداً بسؤدَدِه ومجده. وكان من أهل السُّنَّة والجماعة، والتُّقى والورع والعفاف والطَّاعة، وله يَدٌ عند السلطان في النُّوَب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الإِحسان والبر، لا سيما عند كونه بالإِسكندرية محصوراً. وكان إحسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً. فلما ملك أَحَبَّه، واختار قُرْبَه، فلزِمْتُ له التودُّد، وإليه التردُّد، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجلِّ الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفتُ خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشِعْراً، فمن ذلك ما كتبتُه إليه:

لعلَّ نجمَ الدِّين ذا الفضل ... يُذكِّرُ الفاضلَ في شُغلي
إنَّ أجلَّ النَّاسِ قَدْراً فتًى ... بفضله يَتْعَبُ من أجلي
ومثلُهُ من يعتني بالعُلا ... ويستديمُ الحَمْدَ من مِثْلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مِدْحةٌ حين لقيته بحمص في شعبان، منها:

عايَنْتُ طَوْدَ سكينةٍ ورأيت شَمْـ ... ـسَ فضيلةٍ وَوَرَدْتُ بَحْرَ فواضِلِ
ورأيتُ سَحْبَان البلاغةِ ساحباً ... ببيانه ذَيْلَ الفَخار لوائِلِ
أبصرتُ قُسّاً في الفَصَاحة معجزاً ... فعرفتُ أني في فهاهة باقِلِ
حِلْفُ الحصافة والفصاحة والسَّما ... حةِ والحماسةِ والتُّقى والنَّائلِ
بحرٌ من الفَضْلِ الغزير خِضَمُّهُ ... طامي العُباب ومالَهُ من ساحِلِ
وجميعُ ما في الأرض سبعة أبحر ... وبحوره تُسْمى بِعَشْرِ أناملِ
في كفِّه قَلَمٌ يعجِّلُ جَرْيُه ... ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجلِ
يجري ولا جَرْيَ الحُسام إذا جَرَى ... حَدَّاه بل جَرْيَ القضاءِ النَّازلِ
نابَتْ كتابتُهُ منابَ كتيبةٍ ... كَفَلَتْ بهَزْمِ كتائبٍ وجَحَافِلِ
فَعَدُوُّهُ في عَذْوه ووليُّه ... في عَذْله أكرِمْ بِعادٍ عادِلِ

ريَّـان مـن مـاءِ التُّقـى صـادٍ إلـى كَسْبِ المحـامِـدِ وهي خَيْرُ مناهِـلِ
يـا واحـد العَصْـرِ الـذي بَـذَّ الـورى فضــلاً بغيـر مُشَـابـهٍ ومُشَـاكِـلِ
مـالـي وجـاهَ الجـاهليـن فـأغْنِنـي عنهـمْ كُفيتَهُـمُ وَجُـدْ بـالجـاه لـي
أرجـوك مُعتنيـاً لـدى السُّلْطـان بـي كَـرَمـاً فمثلُـك يَعْتنـي بـأمـاثلـي
قَـرِّر لـيَ الشُّغْـلَ المبجَّـل مُخْليـاً بـالـي مـن الهـمِّ المقيـمِ الشَّـاغِـلِ[1]

قال: فدخل الفاضل إلى السُّلْطان، وعَرَّفه أنه فيَّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سَفْرة، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التراجم، والعمادُ يفي بذلك ولك أختاره، وقد عُرف في الدولة النُّورية مقدارُه. وأخذ لي خَطَّ السلطان بما قرَّره لي من شغلي، وقد عَرَفَ أن الأجلَّ الفاضل قد أجَلَّ[2] فضلي[3].

قال: وخدمتُ أمير المؤمنين المستضيء في ذي القَعْدة مع الرّسل بهذه القصيدة:

أصحُّ عُيـونِ[4] الغانيات مَرِيْضُها وأفْتكُ ألحاظِ الحِسان غَضِيْضُها

يقول في مديحها:

ومِنْ عَجَبٍ صَلَّتْ لِقِبْلَةِ بأسِهِمْ رؤوسُ أعـادٍ مـن ظُبـاهـم مَحِيْضُهـا[5]

قال ابن أبي طيّ: وظهر في مَشْغَرا* ـ قَريةٌ من قرى دمشق ـ رجلٌ ادعى النُّبوة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التَّخاييل والتمويهات ما فُتن

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٣٧ ـ ٣٩.
(٢) في (ل): أجلى.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤.
(٤) في الأصل و(ل): عقود، والمثبت من (م).
(٥) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ٧١ ـ ٧٦.

به النَّاس، واتَّبعه عالم عظيم من الفَلَّاحين وأهل السَّواد، وعصى على أهل دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل، وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد ١/٢٥٢ عقول الفلاَّحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوي امرأةً وعلَّمها ذلك، وادَّعت أيضاً النبوَّة. .

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الأُرْتُقي صاحب البيرة*، وأوصى إلى الملك الناصر بولده شهاب الدين محمد.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين [وخمس مئة](١)

قال العماد: والسُّلْطان نازل بمرج الصُّفَّر* من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهُدْنة، فأجابهم السُّلْطان بعد أن اشترط عليهم أموراً، فالتزموها.

وكان الشَّام ذلك العام جَدْباً، فأَذِنَ السلطانُ للعساكر المصرية في الرَّحيل إلى بلادهم وإذا استغلُّوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده(٢).

وواظب السلطان على الجلوس في دار العَدْل*، وعلى الصَّيْد، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها:

سـواك لسهـم العُـلا لـن يـريشـا فنســألُ رَبَّ العُــلا أن تعيشــا
مـن النـاس بـالبِـرِّ صِـدْتَ الكِـرام وبالبأس في البَرِّ صِدْتَ الوحوشا
وكمْ سِرْتَ من مِصْرَ نحو العريش فهــدَّمْـتَ للمشـركيـنَ العُـروشـا

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٤ ــ ١٩٥.

سـرايـاك تَبعـث قُـدّامهـا من الرُّعْب نحو الأعـادي جيوشـا
[ويـوم حمـاةَ تـركـتَ العُـدَاة كما طَيَّرَتْ بالفلا الرِّيحُ ريشا][1]

قال: ومَدَحتُ مستهل ربيع الأول تقيَّ الدين بقصيدةٍ موسومة، وكان قد فَوَّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أُسبَق إليهما، وهما:

يفيـدُ العـاقِـلَ اليَقِـظَ التَّغـابـي لِيُـدْرِكَ فـي الغِنـى حَـظَّ الغبـيِّ
ولـم تُصِـبِ السِّهـامُ علـى اعتـدالٍ بهـا لـولا اعـوجـاجٌ فـي القِسِـيِّ
فَقُـلْ للـدهْـرِ يُقْصِـرُ عـن عنـادي أمـا هـو يتَّقـي بَـأْسَ التَّقـي
حَلَفْـتُ بـربِّ مكَّـةَ والمُصَلَّـى وثـاوي تُـرْبِ طَيْبَـةَ والغَـرِيِّ[2]
لأنتـم يـا بنـي أيـوبَ خيـرُ الـ ـوَرى بعـد الإمـامِ المستضـيِّ[3]

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقةً لقطب الدين قايماز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان الاحتراز.

وكان قايماز هذا مُحَكَّماً في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافَه، ورام إتلافه، حتى اسْتعاذ منه برباط[4] صَدْر الدين شيخ الشيوخ، فَسَلِمَ به[5].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ثاوي ترب طيبة هو الرسول ﷺ. وثاوي الغري هو الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. والغري من أسماء النجف.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٩.
(٤) في الأصل: رباط، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) انظر أخبار قايماز وعضد الدين وما بينهما من عداوة في «الكامل»: ١١/ ٣٦٠،=

ثم إنَّ قايماز خالف الخليفة وشقَّ العَصَا، وعَنَّ له حصار الدَّار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لمّا أُحيط بداره، إلا بفتح بابٍ في جداره، وانهزم فوصل إلى الحِلَّة* في أوائل ذي القَعْدة سنة سبعين، وهو في موسم الحج[١]، فجمع رجاله وتوجَّه إلى المَوْصِل، وخانه إخوانه، وخذله أصحابه، فتوفي في بعض قرى المَوْصِل، وتفرَّق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشَّام؛ منهم حسام الدين تميرك، وعز الدين أقبوري بن أزغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريماً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله. وكان ذا خزائن مملوَّة، وخَيْلٍ مسوَّمة، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصَّفْح. وكان أقبوري زوج أخت السُّلْطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فَرُّخْشاه ابن أخي السلطان[٢].

قلتُ: وفي بعض الكتب عن السُّلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلي: وما نحسب أنَّا مع الموالاة المشتهرة، والنُّصرة المستظهرة، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدَّولة بالغة، ولأعدائهم دامغة، ولمنازعيهم الأمر قاصمة، ولمجاذبيهم الحقَّ واقمة[٣]، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة، وكوننا ما أُعنا منها بنجدة من رجال، ولا بمادَّةٍ من مال،

= ٣٧٥، ٤٠٩، ٤٢٤، و «تلخيص مجمع الآداب» ج ٤/ق ٤/٦٧٩ ــ ٦٨٠، و «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٠ ــ ٢٥٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦٦، وسيرد خبر مقتل عضد الدين ص ٤٨١ من هذا الجزء.

(١) يعني أن قايماز لم يقم بالحلة، لأنه كان في موسم الحج، والحلة هي على طريق الحاج، وهي إحدى منازلهم، ومنها ينحدرون إلى الكوفة، وقد فات بعضهم الحج تلك السنة بسبب ذلك، انظر «الكامل» ١١/ ٤٢٦.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٦ ــ ١٩٨.

(٣) واقمة: مذلة، قاهرة، انظر «اللسان» (وقم).

ولا بإعانة بحال من الأحوال ــ يرد سؤالنا من الدولة ــ أعلاها الله ــ في ذي قُرْبى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالأخباز* عندنا واسعة، والأعواض لدينا غير متعذرة، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا آثر غير سلطانه سلطاناً، وله أعذار لا بأس أن نعيرَه فيها لساناً[1] وبياناً.

ثم ذكرها، ثم قال: وهذا الأمير جُزْءٌ منَّا فكيف يُعدُّ جزء منا عاصياً، وبألسنتنا وسيوفنا يُدْعى الخلق إلى الطَّاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحدٍ من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة. فنحن في أنفسنا نشفع، وعن جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للإسلام نبخل، ٢٥٣/١ وأنت أيها الأمير السَّائر[٢] ثالث رسولٍ ندب في أمر هذا الأمير[٢]، والله وليُّ التَّدْبير.

وقال العماد في «الخريدة»: كنت جالساً بين يدي الملك النَّاصر صلاح الدِّين بدمشق في دار العدل*، أنفِّذُ ما يأمر به من الشُّغْل، فحضَرَ سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله[٣]، فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين[٤]، [وهي][٥]:

حيَّتْك أعطافُ القُدودِ ببانها لما انثنتْ تِيْهاً على كُثْبانها

ثم ذكر القصيدة وغزلها في وصف دمشق، ثم قال:

---

(١) لساناً، ساقطة من (م).

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٠ من الجزء الثالث.

(٤) في (م): وخمسين، وهو تحريف.

(٥) ما بين حاصرتين من (م).

سُلْطانها الملك ابن أيوب الذي كَفَّاه لا تنكفُّ عن هطلانها
بمواهبٍ لو لم أكن نُوحاً لما نُجِّيتُ يومَ نَداه من طُوفانها
سمحٌ يروحُ إلى النَّدِيِّ براحةٍ قد أعْشَبَ المَعْرُوفُ بين بَنَانها
وفتًى إذا زَخَرَتْ بحارُ نَواله غَرِقَتْ بحارُ الأرضِ في خُلْجانها
تلك السُّيوف المُرْهَفاتُ بكَفِّه أمضى على الأيام من حِدْثانها
مَلِكٌ إذا جُلِيَتْ عرائسُ مُلْكِه رَصَعَتْ[1] فريدَ[2] العَدْلِ في تيجانها
فاسلمْ صلاحَ الدينِ وابْقَ لدولةٍ ذَلَّتْ لِدَولتها مُلوكُ زَمانِها
وانهضْ إلى فَتْحِ السَّواحِلِ نَهْضَةً قادَتْ لك الأعداءَ بعد حِرانها

وهي طويلةٌ[3].

قال: وقام اليوم الذي يليه، وقد جلس السُّلْطان للعدل، فأنشده ــ يعني قصيدة ــ منها:

هل بعد جِلِّقَ إلا أن ترى حَلَباً وقد تحَلَّلَ منها مُشْكِلٌ عَقِدُ
وقد أتتْك كما تختارُ طائعةً وقد عَنَا لك منها الحِصْنُ والبَلَدُ[4]

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك النَّاصر، فمدحه بقصيدة طائية، فأعطاه ألف دينار. فمنها يصف غارته على غَزَّة، وعوده من ذلك الغزو بالعِزَّة:

فتًى مُذْ غزا بالخيلِ والرَّجْل غَزَّةً نأى عن نواحيها الرِّضا ودنا السُّخْطُ
رماها بأُسْدٍ ما لهنَّ مَرابضٌ ولا أُجُمٌ إلا الذي يُنْبِتُ الخَطُّ

---

(١) في الأصل: رضعت، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) الفريد: الجوهرة النفيسة، والدر إذا نظم وفُصِّل بغيره. «القاموس المحيط» (فرد).

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٤٠٦ ــ ٤١١، و «بغية الطلب» ٩/ ٤٢٣٠.

(٤) المصدر السابق: ١/٤١٢ ــ ٤١٦.

وعـاث ضـواحيهـا ضُحَـى بكتـائـبٍ من التُّرْكِ لا نُوبٌ طَغَامٌ ولا قِبْطُ[1]

وله في السلطان قصائد أُخر.

قال: وقام البهاء السِّنْجاري[2] وأنشد الملك النَّاصر قصيدةً في دار العَدْل* بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان، منها:

يا ظَبْيَةَ الْهَرَمَيْنِ من مصرٍ، على الرَّ (م) بْـعِ السَّـلامُ وإنْ تَقـوَّضَ أوْ عَفَـا

أصْبُـو إلـى عَصْـرٍ تقـادَم عَهْـدُهُ فـأزيـدُ مِـنْ وَلَـهٍ عليـه تَلَهُّفـا

أحبـابَنـا بـالقَصْـرِ لـو قَصَّـرْتُـمُ في الهَجْرِ ما شَمِتَ الحسُودُ[3] ولا اشْتفى

ومنها:

أشكـو إلـى الـوادي فيحنُـو بـانُـه مِـن رِقَّـةِ الشَّكْـوى علـيَّ تَعَطُّفـا

وجـرى بـي الأمـلُ الطَّمـوحُ فـأمَّ بـي سلطـانَ أرضِ الله طُـرّاً يُـوسُفـا

النَّـاهـب الأرواح فـي طَلَـبِ العُـلا والواهب الآجال في حُسْنِ الوفا[4]

فصـــل

فيما تجدَّد للمواصلةِ والحلبيين

قد سبق ذِكْرُ الصُّلْح الذي جرى بين السُّلْطان والحلبيين، فلما سمع به

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤١٦ ـ ٤١٩.

(٢) هو أسعد بن يحيى، فقيه شافعي غلب عليه قول الشعر فاشتهر به، وقدِّم عند الملوك، كان جرياً ثقة، كيساً لطيفاً، فيه مزاح وخفة روح، له أشعار جيدة اشتهرت في عصره، رأى ابن خلكان ديوان شعره في خزانة التربة الأشرفية بدمشق. ولد سنة (٥٣٣ هـ) وتوفي سنة (٦٢٢ هـ) وقد ناهز التسعين. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٦٣، و«وفيات الأعيان»: ١/ ٢١٤ ـ ٢١٧، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣، و «الوافي بالوفيات»: ٩/ ٣٢ ـ ٣٤، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) في هامش الأصل: العدو (خ)، وهي رواية نسخة (ل).

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

المواصلة عتبوا عليهم ووبَّخوهم، ونسبوهم إلى العَجَلة في ذلك، وسلوك غير طريق الحَزْم، فحملوهم على النَّقْض والنَّكْث[١]، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجَّه ذلك الرسول[٢] منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة[٣] من السُّلْطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده. فلما خلا به طالبه السُّلْطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كُمِّه نسخة يمين الحلبيين لهم، وناولها إياه، فتأمَّلها وأخفى سِرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه، وردَّها إليه، وقال: لعلَّها قد تبدَّلت. فعرف الرسول أنه قد غلط، ولم يمكنه تلافي ما فرط. وقال السُّلْطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة، ومن شرط أيمانهم، أنهم لا يعتمدون أمراً إلاّ بمراجعتهم لنا واستئذانهم؟ وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض.

وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الرَّبيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر، يُعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان[٤]. ١/٢٥٤

قلت: وفي كتابٍ طويل[٥] فاضلي جليلٍ إلى بغداد عن السلطان يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السِّلاح، وخفضوا الجناح، اقتصرنا، بعد أن كانت البلاد في أيدينا، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات* إلى الكُفْر، وعرضنا علينا الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها. وسار رسولنا وحلَّف صاحب الموصل بمحضرٍ من فقهاء بلده، وأمراء مشهده، يميناً جعل

(١) في(م): النكس.
(٢) في (م): لرسول.
(٣) في الأصل: المواصلة، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٠.
(٥) في (م): كبير.

الله فيها حَكَماً، وضيَّق في نَكْثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها، أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين[1] كانت[2] بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعدُ على إزالة خطبنا، والاستنفار لِمن هو على بُعْدنا وقربنا. وقد حلف بها كُمُشْتِكِين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأُولى. فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا: هذه يمينٌ عن الأيمان خارجة، وأردتَ عمراً وأراد الله خارِجة[3].

وانصرف الرَّسول عن بابنا وقد نَزَّهنا الله أن يكون اسمُه معرَّضاً للحِنْث العظيم، والنَّكْث الذَّميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والآخذ قدير. والمواقف الشريفة النبوية ــ أعلاها الله ــ مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه.

ثم ذكر أمر الفرنج، ثم قال: والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً، ولا يَنْوُون لما استحفظوا حفظاً، وعدو كفر فما يجاورهم إلا بلادُه، ولا يقارعهم إلا أجناده.

---

(١) في (م): كتاب.

(٢) في (م): كانت جرت.

(٣) في هذه العبارة إشارة إلى قصة الخوارج الثلاثة الذين اتعدوا أن يقتلوا كلاً من الإمام علي ومعاوية وعمرو بن العاص في قصة مشهورة. فجلس عمرو بن بكر ــ وهو الذي تعهد بقتل عمرو بن العاص ــ تلك الليلة في المسجد، فلم يخرج عمرو لأنه اشتكى من بطنه، فأمر خارجة بن حذافة ــ وكان صاحب الشرطة ــ فخرج ليصلي، فشدَّ عليه الخارجي وهو يحسبه عمراً، فضربه فقتله، فأخذه الناس وانطلقوا به إلى ابن العاص يسلمون عليه بالإمرة، فقال الخارجي: من هذا؟ قالوا: عمرو. قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة. قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك. فقال عمرو: أردتني =

ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونُوا للمَمْلوك على المشركين أعواناً، وأن يُمْتَثل أمر نبينا ﷺ في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوه إذا سعى، ويلبُّوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وتطأطأت الرُّؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرةً لا ترقُّ على صَخْرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رِجْس الشِّرْك ومعرَّته. فإن قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومةُ لائم، فلا أقلَّ من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه[١] عن قَصْده، حريصين على إيصال المكروه إليه.

وقال ابنُ شَدَّاد: لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين ــ صاحب الموصل ــ على سِنْجار* يُحاصر أخاه عماد الدين بِقَصْد أخذها منه ودخوله في طاعته. وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السُّلطان صلاح الدين واعتصم بذلك. واشتدَّ سيف الدين في حصار المكان وضَرْبه بالمنجنيق حتى استُهدِم من سوره ثُلَمٌ كثيرة، وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة، فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتدُّ أمره ويقوى جأشه، فراسله في الصُّلْح، فصالحه.

ثم سار من وقته إلى نَصِيبين*، واهتمَّ بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة*، وخيَّم على جانب الفرات الشَّامي، وراسل كُمُشْتِكِين والملك الصالح حتى تستقرَّ قاعدة يصل عليها [إليهم][٢]. فوصل كُمُشْتِكِين إليه، وجرَت مراجعات كثيرة عزم فيها على العَوْد مراراً، حتى استقرَّ اجتماعه بالملك الصَّالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب،

= وأراد الله خارجة. فقدمه عمرو فقتله. انظر «تاريخ الطبري»: ١٤٩/٥.

(١) في (م): يلقونه.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

وخرج الصَّالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه، وضمَّه إليه وبكى. ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها، وسار هو حتى نزل بعين المباركة، وأقام بها مُدَّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم.

وصَعِدَ القلعة جريدةً وأكل فيها خُبْزاً ونزل، وسار راحلاً[1] إلى تل السُّلْطان*، ومعه جمع كثير وأهل ديار بكر، والسلطان رحمه الله تعالى قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخَّرون في أمورهم وتدابيرهم، وهم لا يشعرون أنّ في التأخير تدميراً[2]، حتى وصل عسكر مصر، فسار رحمه الله تعالى حتى أتى قرون حماة، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليَزَك*، ووجَّهوا من كشف الأخبار، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرَّق عسكره يسقي، فلو أراد الله نُصْرتهم لقصدوه في تلك السَّاعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا، وتعبّوا تعبئة القتال.

وأصبح القوم على مصاف، وذلك بُكْرة الخميس العاشر من شوَّال، فالتقى العسكران وتَصادما، وجرى قتالٌ عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين[3]، فإنه كان في ميمنة سيف الدين، وحمل السلطان بنفسه، فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم فخر الدين عبد المسيح، فمنَّ عليهم وأطلقهم.

---

(١) في (م): راجلاً، وهو تصحيف.

(٢) في مطبوع «النوادر السلطانية»: تدبيراً، وهو تحريف.

(٣) هو كُوكُبوري بن علي بن بكتكين، ورد ذكر أبيه في أثناء الجزء الأول، وتوفي سنة (٥٦٣ هـ) كما مر ص ٣٨ من هذا الجزء، وسترد أخبار مظفر الدين في أثناء هذا الكتاب، وسيرد ذكر مصادر ترجمته عند ذكر وفاته سنة (٦٣٠ هـ) في «المذيل على الروضتين». وفي «النوادر السلطانية»: وانكسرت ميسرة السلطان زين الدين مظفر الدين، وهو وهم.

وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده. وأمسك هو ــ رحمه الله ــ عن تتبع العسكر، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم، فإنهم كانوا قد أبقَوْا الثَّقَل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرّق الاصطبلات، ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيفِ الدين عزَّ الدين فَرُّخْشاه[1].

وقال العماد: رحلنا[2] في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبَرْنا العاصي لله طائعين، وإلى المسارِّ مسارعين، فما عرَّجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مَدَد، ونزلنا الغَسُولة[3] وجُزنا حماة، وخيمنا في مرج بوقُبيس* ١/٢٥٥ وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم[4]، وما وراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون[5] من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوَّة وشِدَّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس. فرتَّب

---

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٥١ ــ ٥٢.

(٢) في (م): دخلنا، وهو تصحيف.

(٣) الغسولة: منزل للقوافل بين حمص وقارا. هكذا ضبطت ضبط قلم في «معجم البلدان»: ٤/ ٢٠٤، وفي «القاموس المحيط» (غسل): الغِسْوَلَّة.

(٤) نقد ابن الأثير ما حكاه العماد عن عدد الجيش، قال: وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب «البرق الشامي» في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك؛ إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمس مئة، فإنني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وقلباً وجاليشية وغير ذلك، وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله، وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحق أن يتبع، ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون فيها عشرون ألف فارس؟» «الكامل»: ١١/ ٤٢٩.

(٥) في الأصل: موعدون، والمثبت من (ل) و (م).

السلطان عسكره، وقوّى بقوّة قَلبه قلْبَه[1]، وأمدَّ الله بحزب ملائكته حزبه.

ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان في الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرناط إبرنس الكَرَك*، وجوسلين خال الملك*، وقرّروا معهم أن يدخلوا من مُساعدتهم في الدَّرك. فلما عيَّدْنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السُّلْطان، فعَبرْنا العاصي عند شَيْزَر*، ورتَّبنا العسكر، وأعدنا الأثقال إلى حماة[2].

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السُّلْطان أكتافهم فشلّ مِئِيهمْ وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأَشْرَقهم بمائهم. ووكل بِسُرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابنَ أخيه فَرُّخْشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدَّاه. ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدَّمين، ثم مَنَّ عليهم بالخِلَع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثم نزل في السُّرادق السيفي فتسلَّمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورَوَاسِيَ عِزّه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجُود، وفرّقها على الحضور والشُّهود، وأبقى منها نصيباً للرُّسل والوفود. ورأى في بيت الشراب، بل في السُّرادق الخاص، طيوراً من القَمَاريّ والبلابل والهَزَار والببَّغاء في الأقفاص، فاستدعى أحد النُّدماء مُظَفَّراً الأقرع[3] فآنسه، وقال: خُذْ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين، فأَوْصِلْها إليه، وسَلِّم منا عليه، وقل له: عدْ إلى اللعب بهذه الطُّيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور[4].

---

(١) قلبه، ساقطة من (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٠ ــ ٢٠٢.

(٣) أحد ندماء سيف الدين. انظر «مفرج الكروب»: ٢/ ٤٠.

(٤) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٤ ــ ٢٠٥.

قال: ولما كُسِرَ القوم [و] ولّوا مُدبرين [ركضوا][1] إلى حلب، فلم يقفْ بعضهم على بعض، وظنُّوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض؛ فتبعَّجت خيولهم، وتموَّجت سيولهم، وما صدَّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلِّقون أبوابها، ويسكِّنون اضطرابها. وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تلِّ السلطان* إلى بُزاعة*، وجاوز في سَوْقه الاستطاعة، وفرق وفارق الجماعة[2].

وفي كتاب ابن أبي طيّ: أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرَّك إلى جانبها ليكون رِدْءاً لها ومدداً، فظنَّ باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقَّق ما كان وهماً، فسار على وجهه هارباً لا يلوي على شيء. وتبعهم السُّلْطان، فهلك منهم جماعة قَتْلاً وغرقاً، وأَسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم. ثم رجع وأمر أصحابه برفع السَّيف عن النَّاس، وتَرك التَّعرُّض لمن وُجد منهم بقتلٍ أو نَهْب.

وفرَّق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسيَّر جَواريه وحظاياه إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عُدْ إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذُّ من مُقاساة الحرب. ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط[3] والعيدان والجنوك[4] والمغنين والمغنيات.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٥.

(٣) البرابط جمع، مفردها البربط، وهو العود، معرب بربط بالفارسية ومعناه: صدر البط، لأنه يشبهه، انظر «تكلمة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية): ١/ ٢٧٢ الحاشية رقم ١٤٦، و «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٨.

(٤) الجنك: العود، انظر: «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية) ٢/ ٣١٣، «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٤٦.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مئة مغنيّة، وأنَّ السُّلْطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية. وكان أَنفذَ الأمراء الذين أسرهم إلى حماة ثم ردَّهم، وخلعَ عليهم وأرسلهم إلى حلب.

وهنأ العمادُ السُّلْطان رحمه الله تعالى بقصيدةٍ، منها:

فالحمدُ لله الذي إفْضَالُه ... حُلْوُ الجنا عالي السَّنا وضَّاحُهُ

عاد العَدُوُّ بظُلْمَةٍ من ظُلْمِهِ ... في ليل وَيْلٍ قد خَبا مِصْباحُهُ

وجنَى عليه جَهْلُه بوقوعه ... في قبضة البازي فَهِيضَ جَنَاحُهُ

حَمَلَ السِّلاَحَ إلى القتال وما درى ... أنَّ الذي يَجْني عليه سلاحُه

أضحى يريد مواصليه صُدُودَه ... وغدا يجيد رثاءه مُدَّاحُهُ

إنْ أَفْسَدَ الدِّينَ الغُلاة[1] بِحِنْثِهِمْ ... فالنَّاصِرُ الملك الصَّلاحُ صلاحُهُ

قد كان عَزْمُك للإِلٰه مُصَمِّماً ... فيهمْ فلاحَ كما رأيتَ فلاحُهُ

وكأنني بالسَّاحل الأقصى وقد ... ساحَتْ ببَحْرِ دَمِ الفِرَنْجَةِ ساحُهُ

فاعبُر إلى القوم الفُراتَ ليشربوا الـ ... ـمَوْتَ الأُجاجَ فقد طَمَى طَفَّاحُهُ

لِتَفُكَّ من أيديهمُ رَهْنَ الرُّها* ... عَجِلاً ويُدْرِكَ ليلَها إصْباحُهُ

وابغُوا لحَرَّان الخلاصَ فكم بها ... حَرَّانُ قَلْبٍ نحوكمْ مُلْتَاحُهُ

نجُّوا البلادَ من البلاءِ[2] بِعَدْلِكُمْ ... فالظُّلْمُ بادٍ في الجميع صُرَاحُهُ

واستفتحوا ما كان من مُسْتَغْلَقٍ ... فيها فربُّكُمُ لكُمْ فَتَّاحُهُ

٢٥٦/١ أنتم رجالُ الدَّهر بل فُرْسانُهُ ... وَلِذي الحُلوم الطائشاتِ رِجَاحُهُ

فُتَّاكُهُ نُسَّاكُهُ ضُرَّارُهُ ... نُفَّاعُهُ مُنَّاعُهُ مُنَّاحُهُ

وأبو المُظَفَّر يوسفُ مِطْعَامُه ... مِطْعانُهُ مِقْدامُهُ جَحْجَاحُهُ[3]

---

(١) في «الخريدة»: العصاة.

(٢) في الأصل: البلاد، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) هذا البيت ساقط من (ل). والجحجاح: السيد الكريم. «اللسان» (جحح).

وإذا انتدَى في مَحْفِلٍ فحيِيُّهُ[1] وإذا غدا في جَحْفَلٍ فَوَقَاحُهُ[2]

قال: وكان لعز الدين فَرُّخْشاه في هذه الوقعة يدٌ بيضاء، وهو محبٌّ للفضل وأهله، باعثٌ للخواطر على مدحه ببذله؛ فنظمتُ فيه قصيدةً، منها:

نَصْرٌ أنار لملكِكُمْ بُرْهانُه وعلا لذلَّة شانئيكم شانُهُ

ما أسعدَ الإسلامَ وهو مظفَّرٌ وأبو المُظَفَّر يوسفٌ سُلْطانُهُ

المُلْكُ مرفوعٌ لكم مقداره والعَدْلُ موضوعٌ بكم ميزانُهُ

والدَّهْرُ لا يأتي بغيرِ مُرَادِكُمْ فهلِ القضاءُ لأجلكم جَرَيانُهُ

وكأنما لله في أحكامه فَلَكٌ على إيثاركم دَوَرانُهُ

فخراً بني أيوبَ إن فَخَاركم بذَّ الملوك السَّابقين رهانُهُ

يكفي حسودكم اعتقالاً همّه فكأنما أشجانُه أسجانُهُ[3]

الدِّين عِزَّ الدين عَزَّ بنصركم والكُفْرُ ذلَّ بعونكم أعوانُهُ

قد كانَ جيشهمُ كبحرٍ زاخرٍ واللابِسُون جواشناً* حِيتانُهُ

فطمى لِهُلْكِهِمُ عليهم بَحْرُكُمْ بأساً وغرَّق فُلْكَهُمْ طُوفانُهُ

فَضَلَ الملوكَ الأكرمين بِفَضْله فعلا زمانَهُمُ البهيجَ زمانُهُ

في فَضْله في عَدْله في حِلْمِهِ صِدِّيقُه فارُوقه عُثْمانُهُ

هو في السَّماح وفي اللقاء عَلِيُّه هو[4] في العَفَافِ وفي التُّقى سَلْمانُهُ

من آلِ شاذي الشَّائدين لمجده ببنيه بيتاً عالياً بُنْيانُهُ

بيتٌ من العلياء سامٍ سامقٌ يُبْنى على كيوانها[5] إيوانُهُ

(١) في الأصل: فحميه، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٧ ــ ٢٢.

(٣) في (م): أسجانه أشجانه.

(٤) في (ل): وهو، وبه يختل وزن البيت.

(٥) كيوان: هو الكوكب زُحَل. «معجم متن اللغة» ٥/ ١٣٠.

يا سالبَ التِّيجان من أربابها ... ومن الثَّناءِ مصوغةٌ تِيْجانُهُ
والحمدُ مالٌ أنتمُ بُذَّالُهُ ... والمال حمدٌ أنتمُ خُزَّانُهُ

قال: ثم إن صاحب المَوْصِل أسرع عودته، وواصل لذته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلَّقوا الأبواب، وسُقِطَ في أيديهم، حين أفرطوا في تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلَّدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلَّدوا[1].

وقال ابنُ سعدان الحلبي[2] من جُملة قصيدةٍ يهنيء بها السُّلْطان بهذه الكسرة[3].

وما شكَّ قَوْمٌ حين قُمْتَ عليهمُ ... غَدَاةَ التقى الجمعانِ أنَّك غالبُ
ولو لم تَقُدْ تلك المقانبَ[4] لاغتدى ... لنفسك في نفس العدوِّ مقانِبُ

قال ابنُ أبي طيّ: وأما سيف الدين فإنه امتدَّت به الهزيمة إلى بُزَاعا*، فأقام بها حتى تلاحق به من سَلِمَ من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل. وصار باقي عسكر حلب إلى حلب، في سابع شوال، في أقبح حال وأسوئه، عُراةً حُفاةً فقراء، يتلاوَمُون على نقض الأيمان والعهود.

وخاف أهل حلب من قَصْد السُّلطان لهم، فأخذوا في الاستعداد

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٧.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل: بالكسرة، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في الأصل: المناقب، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و (م). والمقانب الأولى: الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أو زهاء الثلاث مئة، والمقانب الثانية: الذئاب الضارية. «القاموس المحيط» (قنب).

للحصار، وجاء السُّلْطان وخيَّم عليها أيَّاماً، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حَوْلها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها، فإنَّا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها. فصوَّبوا رأيه، فنزلوا على بُزاعا، فتسلَّمها بالأمان، وولاها عِزَّ الدين خُشترين الكُرْدي[1].

فصـــل
في فتح جُمْلة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السُّلْطان على حِصْن بُزاعة وتسلَّمه في الثَّاني[2] والعشرين من شوَّال، ثم فتح مَنْبِج* في التَّاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان[3]، [والسلطان][4] لا ينال به إحسان، بل كان في جَرِّ عسكر المَوْصِل إليه أقوى سبب، ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب[5]، ويواجهه بما يكره، فسلَّم القلعة بما فيها، وقُوِّم ما كان سلَّمه بثلاث مئة ألف دينار، منها عين ونقود، ومصوغ [ومطبوع][6] ومصنوع، ومنسوج، وغلاَّت، وسَامُه على أن يخدم، فأبَى وأنف، وكبرت نفسه، فتعب سرُّه، وذهب ما جمعه. ومضى إلى صاحب المَوْصِل فأقطعه الرَّقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السُّلْطان منه مرة ثانية في سنة ثمانٍ وسبعين[7]. ٢٥٧/١

---

(١) كان من عسكر أسد الدين شيركوه بمصر، انظر ص ٩٤ من هذا الجزء.

(٢) في (ل): الحادي.

(٣) سلف ذكر ينال في ص ٢٥، ٣٣، ٥١، ٣٤٦ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في (م): الأدب.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٧ ــ ٢٠٨، وص ١٢٣ من الجزء الثالث.

وقال العماد:

نُــزُولُــكَ فــي مَنْبِــجِ   علــى الظَّفَــرِ المُبْهِــجِ
ونُجْحُــكَ فــي المُــرتجــى   وفَتْحُــك للمُــرْتَــجِ
دليــلٌ علــى كــلِّ مــا   تحــاول أو تــرتجــي
أمــورك فيمــا تَــرُوْ   مُ واضحــةُ المَنْهَــجِ
وشــانيــك دامــي الشُّــؤو   نِ[1] منــك شَقــيٌّ شَجِــي
ومــن كــان فــي حِصْنِــهِ   ومِــنْ قَبْــلُ لــم يَخْــرُجِ
يقــال لــهُ ليــس ذا   بعُشِّــكَ قُــمْ فــادْرُجِ[2]
فَــرَأْيُــكَ يستنــزلُ النُّـ (م) ـجُــومَ مــن الأَبْــرُجِ
فَعَجِّــلْ عُبــورَ الفُــرات   وأَسْــرِ وَسِــرْ وادْلِــجِ
وَعُــجْ نحــو تلــك البــلاد   وعــن غَيْــرِهــا عَــرِّجِ
فحَــرَّان* والــرَّقَّتــا   نِ[3] تَــاليتَــا مَنْبِــجِ
وجَــلَّ عــن المُسْلميــنَ ليلهــمُ المُــدَّجــي

قال ابن أبي طيّ: لما ملك السُّلْطان مَنْبِج، وتسلَّم الحِصْن صَعِدَ إليه وجلس يستعرض أموال ابن حَسَّان وذخائره، فكان في جملة أمواله ثلاث مئة ألف دينار، ومن الفِضَّة والآنية الذَّهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار. فحَانَ من السُّلْطان التفاتة، فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ولدٌ يحبُّه ويؤثره اسمه يوسف كان

---

[1] الشؤون: جمع، مفردها: شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين. «اللسان» (شأن).
[2] فيه تضمين للمثل: ليس بعُشِّك فادْرُجي، يضرب لمن يدَّعي أمراً ليس من شأنه. انظر «المستقصى» ٢/ ٣٠٥، و«مجمع الأمثال» ٢/ ١٨١، و«جمهرة الأمثال» ٢/ ١٩٧.
[3] الرقتان: تثنية الرقة، قال ياقوت: أظنهم ثنوا الرقة والرافقة كما قالوا العراقان للبصرة والكوفة. «معجم البلدان» ٣/ ٥٧.

يذخر هذه الأموال له. فقال السُّلْطان: أنا يوسُف وقد أخذت ما خُبِىء لي. فتعجَّب النَّاس من ذلك.

قال: ولمَّا فرغ من مَنْبِج نزل على عَزَاز* ونصب عليها عِدَّة مجانيق، وجَدَّ في القتال، وبَذَل الأموال.

قال العماد: ثمَّ نزل السُّلْطان على حِصْن عَزَاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز. وهو حِصْنٌ منيع رفيع، فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً. وكان السُّلْطان قد أشفق على هذا الحِصْن من موافقة[1] الحلبيين للفرنج، فإنَّ الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج، وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ في أَسْرهم، فرأى السّلطان أن يحتاط على المعاقل، ويصونها صَوْنَ العقائل، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة بعد مُدَّة حصارها المذكورة[2].

وقال العماد قصيدةً، منها:

أعطاه رَبُّ العالمين دولةً	عِزَّةُ أهلِ الدِّين في إعزازها
حازَ العُلا ببأسِهِ وجُودِهِ	وهْو أحقُّ الخَلْقِ باحتيازِها
بجوده[3] أفنى كنوزاً فَنِيَ الْـ	ـملوكُ في الجدِّ على اكتنازها
مهلكُ أهلِ الشِّرْك طُرّاً رُومِها	أرمنها إفرنجها أبخازها[4]

---

(١) في هامش الأصل: بلغ مقابلة بأصله.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٩.

(٣) في الأصل و (ل): بجده، والمثبت من (م).

(٤) أبخاز: اسم ناحية من أرمينية، جبلية صعبة المسلك وعرة، كان يسكنها الكرج. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٦٤، ٤/ ٣٠٦ ــ ٤٤٦، و «تاج العروس» (بخز)، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من هذا الجزء.

تفــاخــرَ الإِســلامُ مــن سُلْطــانــه … تفــاخُــرَ الفُــرْسِ بــأبْــروَازهــا[1]
تَهَــنَّ مــن فَتْــح عَــزَازٍ نُصْــرةً … أوقعــتِ العُــداةَ فــي اعْتــزازِهــا
واليــوم ذلَّــتْ حلــبٌ فــإنَّهــا … كــانــت تَنَــالُ العِــزَّ مــن عَــزَازهــا
وحلــبٌ تنفــي كُمُشْتِكينهــا[2] … كما انتفت بغدادُ من قَيْمازِها[3]
بَــرَزْت فــي نصــر الهــدى بحجَّــةٍ … وضــوحُ نهــج الحــقِّ فــي إبــرازهــا
كــم حــامــلٍ للــرُّمْــح عــاد مبــديــاً … عَجْزَ عجوز الحيِّ عن عكَّازها
ارفَعْ حظوظي من حضيض نقصها … وعــدِّ عَــنْ همَّــازهــا لَمَّــازِهــا
والشِّعْــرُ لا بُــدّ لــهُ مــن بــاعــثٍ … كحاجة الخَيْلِ إلى مِهْمازِها[4]

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدَّة مقامنا على عَزاز، فأخذوا على غِرَّة وغفلة ما تعجَّلوه، وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم، فما أدركوا إلا فارساً واحداً، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حَرْدِه[5]. فقلت للمأمور، وذلك بِمسْمَع من السُّلْطان: تمهَّل ساعة لعله يقبل مني شفاعة، ثم قلت: هذا لا يحِلُّ، وقدرُك بلْ دينُك عن هذا يجِلّ. وما زلت أكرِّر عليه الحديث حتى تبسَّم، وعادت عاطفته ورحم، وأمر بحبسه، وسرَّني سلامة نفسه. ودخل ناصر الدِّين بن أسد الدِّين، وقال: ما هذا[6] الفشل والوَنَى، وإن سكتُّم أنتم فما أسكت أنا. ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال[6]: لِمَ

(١) في الأصل: بأبراوزها، وفي (ل): بأبرازها، والمثبت من (م)، وهو ملك من ملوك الفرس، قال السهيلي: هو كسرى الذي كتب إليه النبي ﷺ، ومعنى أبرويز عندهم: المظفر، انظر «تاج العروس»: (برز).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٨ من هذا الجزء.
(٣) انظر ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ من هذا الجزء.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٣.
(٥) الحَرْد: الغيظ والغضب. «اللسان» (حرد).
(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (ل).

لا يُقْتلُ هذا الرجل ولماذا اعتقل! فوعظه السُّلْطان واستعطفه، وسكَّن غَيْظه وتعطَّفه، وتلا عليه ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1] وأُطلق سراحه، وتمَّ في نجاته نجاحُه[2].

٢٥٨/١

فصـــل

في وثوب الحشيشيّة على السُّلْطان مرّة ثانية على عَزاز*، وكانت الأُولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القَعْدَة قفز الحشيشية على السُّلْطان ليلة الأحد وهو نازلٌ على عَزَاز، وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبةٌ من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات، وحضِّ الرجال، والحثِّ على القتال. وهو بارٌّ ببثِّ أياديه، قارٌّ على الدَّهر بكفِّ عواديه، والحشيشيّة في زِيِّ الأجناد وقُوف، والرجال عنده صفوف، إذ[3] قَفَزَ واحدٌ منهم[3] فضرب رأسه بسكّينِه، فعاقَتْه صفائح الحديد المدفونة في كمتَّه عن تمكينه، ولفحت المدية خدَّه فخدشته. فقوَّى السُّلْطان قلبه، وحاش رأس الحشيشيّ إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج[4] فأخذ حُشاشة الحشيشي وبضّعه، وقطَّعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه، فمات بعد أيام. وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس، وضمّه من تحت إبطيه، وبقيت يَدُ الحشيشي من ورائه لا يتمكن من الضَّرْب،

---

(١) سور فاطر، الآية: ١٨.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٤.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).

(٤) ولاه صلاح الدين سنة (٥٧٩ هـ) قلعة حلب، وذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٩هـ). انظر ٣/ ١٧٣ ــ ١٧٤ من هذا الكتاب.

ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب، فنادى[1]: اقتلوني معه فقد قتلني، وأذهب قوّتي وأذهلني، فطعنه ناصر الدين بن شِيركُوه بسيفه. وخرج آخر من الخيمة منهزماً، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقْدِماً، فثار عليه أهل السُّوق فقطعوه.

وأما السُّلْطان فإنه ركب وجاء إلى سُرَادقه وقد خرعه الحادث، وقرعه الكارث، وصوتُه جَهْوريّ، وزئيره قَسْوريّ، ودم خده سائل، وعِطْف روعه مائل، وطوق كَزَاغُنْده* بتلك الضَّرْبة مفكوك، ونهج سلامته مسلوك. وكان سلا سلامتَهُ، وأقام القوم قيامته، ومن بعد ذلك رعب[2] ورهب، واحترز واحتجب، وضرب حول سُرَادقه على مثال خشب الخَرْكاة* تأزيراً، ووثَّقه[3] تحجيراً، وجلس في بيت الخشب، وبرز للنَّاس كالمحتجب، وما صرَّف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صَرَفه، وإذا ركب وأبصر مَنْ لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه، فإن كان مُسْتَسْعفاً أو مُستَسعداً أسعفه وأسعده[4].

ومن كتابٍ فاضلي إلى العادل: السَّلامة شاملة، والرَّاحة بحمد الله للجسمِ الشريف النَّاصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدشٌ قَطَرَتْ منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها. والرُّكوب على رسمه، والحصار لأعزاز* على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً، ولا ما يشغل سراً.

وقال ابنُ أبي طيّ: لما فتح السُّلْطان حِصْن بُزَاعا ومَنْبِج* أيقَن مَنْ

(١) في الأصل: ونادى، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: رغب، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل: مهملة، وفي (م) ووفقه. وفي «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١١ وأوثقه، والمثبت من (ل).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١٢.

بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل [والقلاع][1]، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسُّلْطان. فكاتبُوا سِناناً صاحب الحشيشية مرَّة ثانية، ورغَّبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على إنفاذ من يَفْتك بالسلطان. فأرسل ـ لعنه الله ـ جماعةً من أصحابه، فجاؤوا بزِيِّ الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلَّهم يجدون فُرْصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغولٌ بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا ينزع[2] الزَّرَدِيَّة* عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد. وأحسَّ الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسَبح يده بالسكينة إلى خَدِّ السلطان، فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فَتَعْتَعَ السُّلْطان لذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه حتى وضعه على الأرض وركبه لينحره. وكان مَنْ حولَ السلطان قد أدركتهم دهشة أخذت بعقولهم.

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج ـ وقيل: إنه كان حاضراً ـ فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكُرْدي[3] وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته، وقتله منكلان، ومات

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (م): لا يمنع.

(٣) كذا ورد عند ابن أبي طي، ومرَّ ص ٤٠٩ من هذا الجزء عند العماد الكاتب: داود بن منكلان، وهو الأشبه بالصواب.

منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس، فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه، فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكَّن من ضربه، فصاح علي: اقتلوه واقتلوني معه. فجاء ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يُخَضْخِضُهُ فيه حتى سقط ميتاً ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود؛ خال السلطان، فتنكبَ الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصَده أصحابه، وقطعوه بالسُّيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سُرَادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخَرْكاة*، ونصب له في وسط سُرَادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه، وبَطَلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السُّلْطان.

واضطرب العسكر، وخاف النَّاس بعضهم من بعض[1]، فألجأت الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد /٢٥٩ إلى خيمته، وأخذ في قتال عَزَاز* فقاتلها مدَّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها وسألوا الأمان، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة، وصَعِدَ إليها وأصلح ما تهدَّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر.

وكانت عَزَاز أولاً للجُفينة[2] غلام نور الدين، فلما ملك السُّلْطان

---

(١) في (م): من بعضهم بعضاً.

(٢) سلف ذكره ص ٣٣١ من هذا الجزء.

مَنْبِج* أخذها منه الملك الصَّالح وقوَّاها لعله يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك.

ولما فرغ السلطان من أمر عَزَاز حقد على مَنْ بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشيّة، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحِجَّة[1]، وضربت خيمته على رأس الياروقية* فوق جبل جَوشَن* وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيَّق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد.

وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين في حارِم*، وكانت إقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائبها.

وكان سببُ خروجه إليها أن السُّلْطان لما نزل على عَزَاز خاف كُمُشْتِكِين أن ينتقل منها إلى حارِم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كُمُشْتِكِين على كونه خارجاً في حارِم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صُلْح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم. فراسل السلطان يتلطَّف معه الحال ويقول: لو فُسِحَ لي في الدُّخُول إلى حلب لسارعتُ في الخدمة، وأصلحتُ الأمر على ما يرومه السلطان. وراسل أيضاً الملك الصَّالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلتُ خارجاً وقد بلغتني أمورٌ ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصَّيرورة إليكم، فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه. فراسل الملك الصَّالحُ السلطانَ في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له؛ وطلبوا الرَّهائن منه، فنفَّذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضاء الخطيب[2] والعماد كاتب

(١) في الأصل: حادي عشر ذي الحجة، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ستَرِد ترجمته ص ٤٣١ من هذا الجزء.

الإنشاء، وأنفذوا من حلب [إلى السلطان][1] رهينةً نصرة الدين بن زَنكي[2].

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أُخذنا برأي العدل ابن العجمي وجُعِلْنا في بيت، ومنع منا غِلْماننا، ولم يُحضر لنا طعامٌ ولا مِصْباح، وبتْنا في أنكد عيش.

وفي تلك الليلة دخل كُمُشْتِكِين إلى حلب، فلما أصبحوا أُحضرتُ أنا وابنُ أبي المضاء إلى مجلس الملك الصَّالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويُضْرِبُ صفحاً عني، ويوهم الجماعة أني بأني.

وما درى الغُمْرُ بأني امرؤ ... أُميِّزُ التِّبْرَ من التُّرْبِ
قد عارك الأهوالَ حتى غدا ... بين الوَرَى كالصَّارِمِ العَضْبِ
قد راضَه الدَّهْر فلَو أمَّهُ ... بخطبِهِ ما رِيْعَ للخَطْبِ

قال: وعُرضت نسخة اليمين علينا، وصُرفنا، ولم يُلتفت إلينا[3].

فلما صارا إلى السلطان، وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلةً عليه حتى دخل كُمُشْتِكِين إلى حلب، فأطلق نُصْرَة الدين وقاتل أهل حلب.

ولم يزل منازلاً لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمس مئة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) هو الأخ الأصغر لنور الدين، وقد سلفت بعض أخباره في الجزء الأول ص ١٥٥، ٣٤٠، ٣٤٨، ٤٣٧. وانظر ص ٩١ من هذا الجزء.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢١٦.

فصـــل

في باقي حوادث هذه السنة
ودخول قَراقُوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوَّال وصل أخو السُّلْطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق[١].

وذكر ابنُ شَدَّاد أنه قَدِمَ في ذي الحِجَّة[٢].

قلت: ولما سمع السلطان بقُدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوله ﴿أَنَا يُوسُفُ وهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا﴾[٣]. وقال في آخره: ولقد أحسن عدنان المبشر، إذ طلع علينا طلوعَ الفجر قبل شمسه، وغَرَسَ في القلوب ما يسرُّنا ويسّره جنى غَرْسه.

قال ابن أبي طيّ: كان سببُ خروجه من اليمن[٤] كراهية البلاد، والشَّوْق إلى أخيه الملك النَّاصر، وأن يُرِيَ ملوكَ الشَّام وغيرها وأمراء[٥] العساكر ما أنعم الله به عليه من النِّعم والأموال.

قال: وحُكي أنَّه لما تحدَّث النَّاس بخروج شمس الدّولة من اليمن كان باليمن رجلٌ يقال له عَبَّاس، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر،

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٠٦.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٢.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٤) في (م): البلاد.
(٥) في الأصل: وأمر، والمثبت من (ل) و (م).

وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمسَ الدولة سائرٌ إلى أخيه الملك النَّاصر إلى الشَّام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإِتاوة والرشوة يبق[1] لكم. واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء[2] يحاصِرُه.

فلما وقف شمسُ الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خَطُّك وعلامتك؟ قال: كأنه هو. قال: فبأي شيء استحققت منك [هذا][3] وقد قرَّبت منزلتك، وأبقيتُ عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه، ولا يعرفه، ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره. فلم يصدِّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل صبراً بين يديه. فهاب شمسَ الدولة ملوكُ اليمن، وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة.

١/٢٦٠

ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة، وتوجَّه إلى الشام، واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزَّنجيلي على عدن[4]، وتوجَّه إلى حَضْرَمَوْت ففتحها، واستناب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون، وكان مقامه بشِبام[5]، واستمرَّ الكُرْدي بها مدَّة.

---

(١) في الأصل: وتبقى، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) حصن في جبال وصاب من عمل زبيد. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٧٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) سترد أخبارهما في ٣/ ٩٢ ـ ٩٧ من هذا الكتاب، وانظر ص ٢٧١ ـ ٢٧٦ من هذا الجزء.

(٥) شبام حضرموت: هي إحدى مدينتي حضرموت، والأخرى تريم. «معجم البلدان»: ٣/ ٣١٨، و «منتخبات في أخبار اليمن» لنشوان الحميري: ١٣، ١٤، ٥٣.

ثم إنَّ صاحب حضرموت تحرَّك وجمع، فقتل، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره. وولّى شمسُ الدولة ثغر تَعِز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولّى قلعة تَعْكُر[1] مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدّولة إلى السُّلْطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة [هو][2] سبب الظَّفر، وأعطاه السلطان سُرَادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السُّلْطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيها قُتِلَ صدِّيق بن جَوْلة[3] صاحب بُصرى* وصَرْخد* قَتله[4] ابنُ أخيه، وملك بعده بُصْرى وصَرْخد[4] شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان، وحلف له على ما يريده من إقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بُصْرى نسخة يمين كتبها قاضي بُصْرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرُّف في القول، فلم يستَقْصِ فيها وجوه التّأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوَّل عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أيام[5].

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد* بسبب كلام جرى

---

(١) في الأصل و (ل): مهملة، وفي (م): بعكر ــ بالباء الموحدة ــ وهو تصحيف، وتعكر: اسم غير قلعة باليمن. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٣٤.

(٢) ما بين حاصرتين مثبت من (ل) و (م).

(٣) الضبط من (ل).

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) في طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٦٠ بعد أن قتله.

بينه وبين كُمُشْتِكِين، فأنهَدَ إليه من حَلَب عسكراً فحاصروه أياماً، وسَلَّم الحِصْن، وصَلُحت[1] حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سَمَتْ نَفْسُ ابن أخيه تقيِّ الدِّين إلى المُلك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه[2]، فأُخبر أنَّ قلعة ازبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عُمرت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلِكَت بَرْقة*، وإذا مُلكت بَرقة مُلك ما وراءها. فأنفذ مملوكه بهاء الدِّين قَرَاقُوش، وقدَّمه على جماعةٍ من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها.

واجتمع بقراقوش رجلٌ من المغرب[3] فحدَّثه عن بلاد الجريد وفَزَّان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغَّبه في الدُّخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه، وسار في حادي عشر المحرَّم من هذه السنة، فكان يكمن النَّهار ويسير الليل مدَّة خمسة أيام، وأشرف على مدينة أَوْجَلة[4]، فلقيه ملكها[5]، وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به، ويزوِّجه بنته، ويحفظ البلاد من العرب، وله ثُلُث[6] ارتفاعها[7]، ففعل قَراقُوش ذلك، فحصل له من ثلث[6] الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرَّق على رجاله عشرين ألفاً.

---

(١) في (م): وحسنت.
(٢) انظر ص ٢٦٧ من هذا الجزء.
(٣) في (م): العرب.
(٤) مدينة جنوبي برقة نحو المغرب، فيها نخل وشجر كثير وفواكه، «معجم البلدان»: ١/ ٢٧٦.
(٥) في (ل): مالكها.
(٦ ـ ٦) ما بينهما ساقط من (م).
(٧) أي دخلها.

وكان إلى جانب أَوْجَلَة مدينة يقال لها الأزراقية[1]، فبلغ أهلها صنيع قَرَاقُوش في أَوْجَلَة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه، ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغَّبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب إلى ذلك، واستخلف على أَوْجَلَة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه، فحصل لِقَراقُوش أموال كثيرة.

واتفق أنَّ صاحب أَوْجَلَة مات، فقتل أهلُ أَوْجَلَة أصحابَ قَرَاقُوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عَنْوَةً، وقتل من أهلها سبع مئة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمةً عظيمة، واستولى على البلد.

ثم إنَّ أصحابه رغبوا في الرُّجوع إلى مصر، وخشي قَرَاقُوش أن يقيم وحدَه فرجع معهم. فلما حصل بمصر طاب له المقام وثَقُلَ عليه العَوْد، وزوَّجه تقي الدين بإحدى جواريه. وكان استناب بأَوْجَلَة، وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجالٍ، وأعود إليكم.

قال ابن الأثير: وفي ربيعِ الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدين صاحبُ الموصل جلالَ الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير[2] ــ رحمهما الله تعالى ــ ومكَّنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظُنَّها النَّاس، وبدا منه معرفةٌ بقواعد الدول وأوضاع الدواوين، وتقرير الأمور، والاطِّلاع على دقائق الحسبانات، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حَيَّرت العقول، ووضع في كتابة الإنشاء وضعاً لم يعرفوه.

وكان عمره حين ولي الوزارة خمساً وعشرين سنة، ثم قبض عليه في

---

(١) في «معجم البلدان»: ١/ ٢٧٦ أرزاقية.

(٢) انظر ترجمة والده جمال الدين ص ٤٢٠ وما بعدها من الجزء الأول.

شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمِد* ــ وكان قد زوَّجه بنته ــ فأُطلق وسار إليه، وبقي بآمِد يسيراً مريضاً، ثم فارقها، وتُوفي بدُنَيْسَر* سنة أربعٍ وسبعين، وحُمل إلى الموصل فدفن بها، ثُمّ حمل منها في موسم الحج إلى المدينة، ودُفِنَ عند والده. وكان من أحسن النَّاس صورةً ومعنًى، رحمه الله تعالى[1].

قال: ثم إن سيف الدين استناب دُزْدَاراً* بقَلْعَة الموصل[2] الأمير مجاهد الدين قايماز[3] في ذي الحِجَّة سنة إحدى وسبعين، وردَّ إليه أزمَّة الأُمور في الحَلِّ والعَقْد، والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إرْبِل* وأعمالها، ومعه فيها ولدٌ صغير لزين الدِّين علي، لقبه أيضاً زين الدِّين، فكان البلد لولد زين الدِّين اسماً لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدِّين صورة ومعنًى[4].

٢٦١/١

قلت: وفي حادي عشر رجب توفِّي حافظ الشَّام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدِّمشْقي[5]. رحمه الله تعالى، وحضر السُّلْطان صلاح الدِّين جِنازته، ودفن في مقابر باب الصَّغير[6].

وفيها[7] قدم [دمشق][8] أبو الفتوح عبد السَّلام بن يوسف بن

(١) «الباهر»: ١٧٧. قلت: وستأتي بعض أخبار ابن نيسان ص ١٤٦ من الجزء الثالث.
(٢) الموصل، ساقطة من (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من هذا الجزء.
(٤) «الباهر»: ١٧٧.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥ من الجزء الأول.
(٦) انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/١٠٥ ــ ١١١ بتحقيقي، وقد استقصيت ثمة مصادر ترجمته.
(٧) هذا الخبر بأكمله ساقط من (م).
(٨) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

محمد بن مُقلَّد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التَّنوخي الجُماهِري[1] الصُّوفي ابن الصُّوفي، ذكره العماد في «الخريدة» وقال: كان صديقي، وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدِّين وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد.

وذكر العماد من أشعاره مقطَّعات، منها في الحقائق، وأنشدها في مجلسه:

يا مالكاً مُهجتي يا مُنْتهى أمَلي ... يا حاضراً شاهداً في القَلْب والفِكَرِ

خَلَقْتني من تُرَابٍ أنتَ خالِقُهُ ... حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّوَرِ

أجريتَ في قالبي رُوحاً منوَّرَةً ... تَمُرُّ فيه كَجَري الماء في الشَّجرِ

جمَعْتَ بين صَفَا رُوحٍ منَّورَةٍ ... وهيكلٍ صُغْتَهُ من مَعْدِنٍ كَدِرِ

إنْ غِبتُ فيك فيافَخْري ويا شَرَفي ... وإنْ حضرتُ فيا سَمْعي ويا بَصَري

أو احتجبتُ فَسِرِّي منك في وَلَهٍ ... وإنْ خَطَرْتُ فقَلبي منك في خَطَرِ

تبدو فتمحُو رسُومي ثم تثبتُها ... وإنْ تَغَيَّبْتَ عنِّي عشتُ بالأثَرِ[2]

---

(١) الجُماهري: بضم الجيم وتخفيف الميم نسبة إلى جماهر بن الأشعر من القحطانية، من نسله الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، توفي عبد السلام بن يوسف سنة (٥٨١ هـ)، ووالده يوسف بن محمد كان فقيهاً محدثاً صوفياً، تفقه ببغداد على أبي منصور الرزاز، ثم انقطع برباط أبي النجيب السهروردي، وأدخله الخلوة، وصنف كتاباً في أسماء الرجال، سماه «الارتجال»، رجع في آخر عمره إلى دمشق وهو مريض بالاستسقاء، وتوفي فيها سنة (٥٥٨ هـ) ودفن بقاسيون. انظر «طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/٣٦٦ ـ ٣٦٧ وفيه: الجماهيري، وهو تصحيف، وانظر «الإشتقاق» لابن دريد: ٤١٦، و «تاج العروس» (جمهر)، و «جمهرة أنساب العرب»: ٣٩٧، و «النجوم الزاهرة»: ٦/٩٩.

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ، وترتيب الأبيات.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين [وخمس مئة][1] :

قال العماد: والسُّلْطان مقيمٌ بظاهر حلب، فعرف أهلُها أنَّ العُقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة. فدخلوا من باب التذلُّل، ولاذوا بالتوسُّل، وخاطبوا في التَّفضُّل، وطلبوا الصُّلح، فأجابهم، وعفا وعفّ، وكفى وكفّ، وأبقى للملك الصَّالح حلب وأعمالها، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها؛ وأراد له الإعزاز، فرد عليه عَزَاز[2]*.

وقال ابنُ شدَّاد: أخرجوا إليه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منه عَزَاز، فوهبها إياها[3].

قال ابن أبي طيّ: لما تَمَّ الصُّلْح، وانعقدت الأيمان، عوَّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عَزَاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته ــ وكانت صغيرة ــ فأُخرجت إليه، فأكرمها السُّلْطان إكراماً عظيماً، وقدَّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عَزَاز، وجميع ما فيها من مالٍ وسلاح وميرة وغير ذلك.

وقال غيره[4]: بعث الملك الصَّالح أُخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل فدخلت عليه، فقام قائماً، وقبَّل الأرض، وبكى على نور الدين، فسألت أن يردَّ عليهم أعزاز فقال: سمعاً وطاعة. فأعطاها إياها، وقدَّم لها من الجواهر والتُّحَف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصَّالح أنّ له من حماة [و][5] ما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الدَّاية[4].

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٧.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٢.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

قال العماد: وحلفوا له على كلٍّ ما شرطه، واعتذروا عن كل ما أسخطه، وكان الصُّلح عامّاً لهم وللمَوَاصلة وأهل ديار بكر. وكُتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف، ولم يَفِ بما عليه حالف، كان[1] الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمةً متعاقدة، حتّى يفيءَ إلى الوفاء والوفاق، ويرجع إلى مرافقة[2] الرفاق.

فلما انتظم الصُّلْح ذكر السُّلْطان ثأره عند الإسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البليّة، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرَّم، [فحصر][3] حصنهم مصياث*، ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوْسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبْقارهم، وخرَّب ديارهم، وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم، وقد انتقم منهم[4].

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع، فخرج إليهم شمس الدين [محمد][5] بن عبد الملك المعروف بابن المقدَّم، وهو متولّي بَعْلَبَكَّ ومقْطَع أعمالها، ومُدَبِّر أحوالها، والمتحكّم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مئتي أسير، وأحضرهم عند السُّلْطان وهو على حصار مصياث، فجدَّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث[6].

---

(١) في (م): قال، وهو تحريف.

(٢) في (ل): موافقة.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٧ ــ ٢١٩.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٩.

قال ابن أبي طيّ: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى، وهو بعيدٌ عنه، فَرُبَّما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سِناناً وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر* في تلك المروج؛ ووقع من أصحابه عِدّة في الإسار، منهم سيف الدين أبو بكر بن السَّلاَّر.

ووصل السُّلْطان إلى حماة وقد استكمل الظَّفَر، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر؛ وتعانق الاخوان في المخيّم بالميدان، وتحدَّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق.

١/٢٦٢

وكان قد وصل إلى السُّلْطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمَّنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجِّم المِصْري[1]، أولها:

---

(١) هو أبو الحسن علي بن مفرج نشو الدولة ــ وعند ابن خلكان: نشو الملك ــ شاعر، معري الأصل، مصري الولادة والوفاة، من طبقة ابن الذروي وابن قلاقس، ولد سنة (٥٤٩ هـ)، وتوفي سنة (٦٢٠ هـ)، وكان قد ضمن الصابون والملاهي، وارتكب في عسف الناس المناهي، فعذب بالنفي إلى عيذاب. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٦٨ ــ ١٦٩، و «وفيات الأعيان»: ١/١٩٧، وفي «الخريدة» ذكر قصيدة عينية أخرى غير هذه، كتبها عن شمس الدولة، منها:

ولما تمادت مدة البين بيننا ونازعني قلب إلى الشام نازع

وكان ابن المنجم والعماد الأصفهاني يتعاوران النظم على هذا الروي، ابن المنجم عن لسان شمس الدولة، والعماد عن لسان صلاح الدين، وسيأتي بعض هذه القصيدة ص ٦٤ ــ ٦٥ من الجزء الثالث.

الشَّوْقُ أَوْلَعُ بالقُلُوبِ وأوْجَعُ ... فَعَلامَ أَدْفَعُ منه ما لا يُدْفَعُ

منها:

وَحَمَلْتُ مِنْ وَجْدِ الأَحِبَّة مُفْرداً ... ما ليس تحملُه الأَحِبَّةُ أَجْمَعُ
لا يَستقرُّ بيَ النَّوى في موضعٍ ... إلا تقاضاني التَّرحُّلَ مَوْضِعُ
فإلى صلاح الدِّين أشكو أنني ... مِن بُعده مُضْنَى الجوانح مُوْجَعُ
جَزِعاً لِبُعْدِ الدَّار منه ولم أكن ... لولا هواه لِبُعْدِ دارٍ أَجْزَعُ
فلأركبنَّ إليه مَتْنَ عَزائمي ... ويَخُبُّ بي رَكْبُ الغَرَامِ ويُوضِعُ
حتى أشاهِدَ منه أسعدَ طَلْعَةٍ ... من أُفْقِها صُبْحُ السَّعادةِ يَطْلُعُ

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رَوِيِّها ووزنها، فقلت، فذكر قصيدةً، منها:

مولاي شمسَ الدَّوْلَةِ الملك الذي ... شَمْسُ السِّيادَةِ من سَنَاه تَطْلُعُ
مالي سِواك من الحوادث ملجأٌ ... مالي سِواك من النَّوائِب مَفْزَعُ
ولأَنْت فَخْرُ الدين فخري في العُلا ... ومَلاذُ آمالي ورُكني الأَمْنَعُ
إلا بخدمتِك المُجلَّة موقعي ... والله ما للملك عنديَ مَوْقَعُ
وبغير قُرْبِك كلُّ ما أرجوه من ... دَرْكِ المُنى متعذِّرٌ متمنِّعُ
النَّصْرُ إن أقبلتَ نحويَ مُقْبِلٌ ... واليُمْنُ إنْ أسرعتَ نحويَ مُسْرِعُ

قال: ثم سرنا إلى دمشق، ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوَّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظَّم شمس الدولة، وعزم إلى مِصْر السَّفر(١).

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

فصــــل

في ذكر جماعةٍ من الأعيان
تجدَّد لهم ما اقتضى ذكرُهُ في هذه السنة

قال العماد: في السَّادس من المحرَّم توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوْري[1]، وعمره ثمانون سنة، لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة. وكان في الأيام النُّورية بدمشق هو الحاكم المتحكِّم، وصلاح الدين إذا ذاك يتولى الشِّحْنكية* بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوخّيه الأحكام الشرعيّة، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قَبُوله إعراضَه، ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أنْ نقله الله سبحانه من نيابة الشِّحْنكية إلى المُلك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السِّلْك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فَرَطَ منه فات وقت تلافيه. فلما ملك دمشق أجْرَاه على حكمه، ولم يؤاخِذه بجُرمه، واحترم نوَّابه، وأكرم أصحابه، وفتح للشَّرْع بابه، وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه، ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه.

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشَّهْرُزُوري[2] قد هاجر إلى

---

(١) سلف من أخباره ما يدل على منزلته العالية في دولة نور الدين، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام»: ٢/ ٣٢٣ ــ ٣٢٧، و «المنتظم»: ١٠/ ٢٦٨، و «مرآة الزمان»: ٨/ ٢١٥ ــ ٢١٦، و «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤١ ــ ٢٤٤، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٧ ــ ٦٠، و «الوافي بالوفيات»: ٣/ ٣٣١ ــ ٣٣٢، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ١١٧ ــ ١٢١، و «طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ٩٩ ــ ١٠٠، وانظر ص ٣٨٨ من الجزء الأول.

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٩ هـ).

صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك إرادته بإدارة فلكه[1]، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذَّهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب*، ووفَّر حظه من الذَّهب، وملَّكه داراً بالقاهرة نفيسةً جميلة، جليَّةً جليلة، ورتَّب له وظائف، وخصَّه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشَّام، وأمْرُه جارٍ على النِّظام[2].

ولما اشتدَّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جَوْهَرَه العَرَض، أراد أن يبقي القَضاء في ذويه، فوصَّى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه، علماً منه بأن السلطان يُمضي حُكمه لأجل سوالفه، ويجعلُه عنده من عوائد عوارفه. ومات ولم يخلف مثله، ومن شاهده شاهد العَقْل والفَضْل كُلَّه، بارّاً بالأبرار، مختاراً للأخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام. وقد قوَّاه نور الدين رحمه الله تعالى وولده في أيامه، وسدَّد مرامي مرامه.

وهو الذي سن دار العدل* لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمزٌ ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق، ومدارسها، والبيمارَسْتان، فاستمرَّت عادته واستقرَّت قاعدته في دولة السلطان. وتوفي ونحن بحلب محاصرون[3].

وذكر العماد في «الخريدة» لابنه محيي الدين[4] قصيدةً في مرثيته، منها:

أَلِمُّوا بِسَفْحَيْ قاسيون فَسَلِّموا ... على جَدَثٍ بادي السَّنا وترحَّموا

---

(١) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٣ فأذنت هجرته في درك المراد بإدارة فلكه.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٦.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٢ ــ ٢٢٤.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٥٧ من هذا الجزء.

وبالرَّغم منِّي أن أناجيه بالمُنى وأسأل مَعْ بُعْد المدى من يُسَلِّمُ

/٢٦٣ لقد عَدِمَتْ منك البَرِيَّةُ والداً أَحَنُّ من الأمِّ الرَّؤوف وأَرْحَمُ

ولا سيَّما إخوانُ صِدْقٍ بجلِّقٍ هُمُ في سماء المَجْدِ والجُودِ أَنْجُمُ

نَشَرْتَ لواءَ العَدْلِ فوقَ رؤوسهم فما كان فيهم من يُضَامُ ويُظْلَمُ

لَقِيتَ من الرّحمن عفواً ورحمةً كما كنتَ تعفو ما حَيِيتَ وتَرْحَمُ[1]

قال العماد: وجلس ابنُ أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن إحسانه، وأبقى نُواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه.

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السُّلْطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الإحسان، وهو شيخ مذهب الشَّافعي رضي الله عنه، والأقوم بالفُتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدِّين والدُّنيا، والسلطان يؤثر أن يفوِّض إليه منصب القضاء، ولا يرى عَزْلَ الضِّياء، فأفضى بسرِّ مراده إلى الأجل الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى [أيضاً][2] يتعصَّب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل، وأُشير عليه بالاستعفاء، ففعل، فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الأملاك[3].

قال العماد: وأول ما اشتريتُ منه بوكالة السُّلْطان الأرضَ التي ببستان بقر الوحش التي بنيتُ فيها المواضع من الحمَّام[4] والدُّور والاصطبل والخان، وكنتُ قد احتكرتها في الأيام النورية، فملكتُها في الأيام الصَّلاحية.

---

(١) هذا البيت ساقط من (م)، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٦ ـ ٣٣٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٤) هو حمام القُصَير، وقد سلف ذكره ص ١٧ وانظر ص ٤٣٩ من هذا الجزء.

قلت: قد خربت هذه الأماكن في سنة ثلاث وأربعين وست مئة بسبب الحصار[1] واستمرّ خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصَّفي خارج باب الفرج* مارّاً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوْري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشَّافعي، وكان ينوبُ عن كمال الدين، فأمره السُّلْطان أن يجري على رسمه، ويتصرف في حُكْمه.

وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزَّكوي[2] مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راجٍ، ويطلب نجاز عِدَته مُناج، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكيّ الدين[3]، والأوحد [داود][4] قاضيين في دمشق، يحكمان، وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون متولّياً للقضاء، منفرداً بالحكم والإمضاء، سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السُّلْطان الملك المعظم فخر الدين.

(١) كانت دمشق محاصرة من قبل الخوارزمية وعساكر مصر. انظر تفاصيل هذا الحصار في «المذيل على الروضتين» في حوادث السنة المذكورة.
(٢) سلف أن زكي الدين علي بن محمد بن يحيى قد استعفى من القضاء سنة (٥٥٥ هـ). انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣، ٣٨٨ من الجزء الأول. وانظر عن القضاء في البيت الزكوي «قضاة الشافعية» للنعيمي: ٤٤، وما بعدها، المنشور في كتاب «قضاة دمشق» لابن طولون.
(٣) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٨ هـ) وهو صاحب أول خطبة في القدس بعد فتحها سنة (٥٨٣ هـ). انظر ص ٣٨٤ من الجزء الثالث وص ٢٩٠ من الجزء الرابع
(٤) ما بين حاصرتين من (م).

فلما عُدْنا إلى الشَّام تكلَّم الناس في ذهاب نور بصره، وأنّه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد[1]، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للنَّاس صرفه عما هو متوليه. واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صُرف، واستقلَّ به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان[2] الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين بن الزكي[3]، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف[2] إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاّها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال، إلى آخر عهد السلطان وبعده[4].

قلت: وفي صفر وقف السُّلْطان قرية حزم باللِّوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزّاوية الغربية[5] من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزَّاهد نَصْر المقدسي[6] رحمه الله تعالى، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النَّيْسابوري رحمه الله[7]، ورأيتُ كتاب الوقف بذلك على هذه الصُّورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله تعالى: الحمد لله وبه توفيقي.

---

(١) سيرد ذكره في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٠١ هـ).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في «سنا البرق الشامي»: إلى القاضي الأجل محيي الدين بن الزكي، وهو خطأ، وقد ورد على الصحيح في نشرة فتحية النبراوي: ١١٣ على اضطراب في العبارة.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٩ ــ ٢٣٠.
(٥) هي الزاوية الغزالية، انظرها في كشاف الأماكن.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٦٣ من هذا الجزء.
(٧) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول.

قال العماد: وفي ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر، ونحن في طريق الوصول إلى دمشق، توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق، وهو أول خطيب بالدِّيار المِصْرية للدولة العباسية. وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء، فيكثر خِلَعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرّب ولده، وجبر بتربيته يُتْمه[1].

ثم تعين ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري بعده للرسالة إلى الدِّيوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السُّلْطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشَّام، فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصُّحبة، وهو متودد[2] إليَّ بصفاء المحبة[3].

وفي آخر صفر تزوَّج السلطان بالخاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أُنَر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله تعالى[4]، فلما

---

(١) هو محمد بن المحسَّن بن الحسين بن أبي المضاء، أصله من بعلبك، ونشأ بمصر، وقرأ الأدب، وعاد إلى دمشق، فسمع بها من ابن عساكر، ورحل إلى بغداد، وسمع بها، وقرأ الفقه والأدب، ثم عاد إلى مصر، واتصل فيها بالسلطان صلاح الدين، وتوفي ولم يبلغ الأربعين. وكان فيه ترفع وتكبر، تراه في هيئته وهيبته كأنه وزير كما وصفه العماد. مدحه بعض الشعراء، منهم سبط ابن التعاويذي انظر «ديوانه»: ١٠٨، وفيه ابن أبي المها، وهو تصحيف، ١٨٥، ٤٨٥ وانظر ترجمته في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٥ ــ ٢٢٦، «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١٤٢، «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٨٩ ــ ٣٩٠، «البداية والنهاية»: ١٢/ ٢٩٧، «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٤٣، وانظر ص ١٩٠ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: مترددد، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٦.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من الجزء الأول.

توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق، رفيعة القدر، مستقلَّة بأمرها، كثيرة الصّدقات، والأعمال الصَّالحات. فأراد السُّلْطان حفظ حرمتها، وصيانتها وعصمتها، فأحضر شرف الدين بن أبي عصرون وعُدُوله، وزَّوجه إياها ٢٦٤/١ بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أُنَر[١] بإذنها، ودخل بها وبات عندها، وقرن بسعده سعدها؛ وخرج بعد يومين إلى مصر[٢].

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشَّهْرُزُوْري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أُسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن عليّ بن منقذ، وعوده إلى الشَّام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء، والكرماء الكبراء، والسَّادة القادة العظماء، وقد متَّعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشَّام، وفرسان الإسلام.

ولم يزل بنو منقذ ملاَّك شَيْزَر*، وقد جمعوا السيادة والمفخر[٣]، ولما تفرد بالمعقل منهم من تولاه، لم يرد أن يكون معه [فيه][٤] سواه، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمس مئة[٥]، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد،

---

(١) سترد ترجمته ٣/ ٢٤٥ من هذا الكتاب.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٠ ــ ٢٣١.
(٣) انظر ما كتب عن حصن شيزر، وكيف تولاه بنو منقذ ص ٣٥٢ وما بعدها من الجزء الأول.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) الصحيح أن خروجهم كان سنة (٥٣٢ هـ) بعد وفاة مرشد أبي أسامة، أما أسامة فقد خرج وحده سنة (٥٢٥ هـ) ملتحقاً بزنكي، ثم عاد إلى شيزر ليخرج منها سنة (٥٣٢ هـ) ــ كما ذكرنا ــ إلى دمشق. انظر «أسامة بن منقذ» للأستاذ حسن عباس ١/ ٨٣ ــ ٨٥، ومقدمة د. السَّامرائي لكتاب «الاعتبار» ٨ م، وما بعدها، وانظر ص ٣٥٥ من الجزء الأول.

وكلهم من الأجواد الأمجاد، وما فيهم إلا ذو فضل وبَذْل، وإحسان وعدل، وما مِنْهم إلا منْ له نظمٌ مطبوع، وشِعْرٌ مصنوع[1]، ومن له قصيدة وله مقطوع.

وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم في الأدب، وكانت جَرَتْ له نبوةٌ في أيام الدمشقيين، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين، في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظّافر، وقتل عباسٍ وزيرِهم إخوتَهُ، وإقامة المنعوت بالفائز، وما رَدَفَ[2] ذلك من الهَزَاهز[3]، فعاد مؤيد الدولة إلى الشَّام، وسار إلى حصْن كَيْفا* وتوطَّن. ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق، وذلك في سنة سبعين[4]، وقال:

حمدتُ على طول عُمْري المشيبا وإنْ كنتُ أكثرتُ فيه الذُّنوبا
لأنـي حَييتُ إلى أن لقِيـ ـتُ بعد العدوِّ صديقاً حبيبا[5]

قال: وكنتُ أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشَّبيبة، وأنشدني له مجدُ العرب العامري[6] بأصفهان في سنة خمسٍ وأربعين هذين البيتين،

---

(١) في (م): منظوم.

(٢) في الأصل: وصادف، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر تفصيل هذه الحوادث ص ٣٠٩ وما بعدها من الجزء الأول.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٢٦ ــ ٢٢٧.

(٥) البيتان ليسا في «ديوانه» المطبوع.

(٦) هو مصطفى الدولة أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري، من كبار شعراء العراق في تلك الفترة، أقام في أصفهان من سنة (٥٣٧ هـ) حتى سنة (٥٤٨ هـ). توفي بالموصل سنة (٥٧٣ هـ). انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/١٤١ ــ ١٧١، و «فوات الوفيات»: ٣/٨٧، و «الوافي بالوفيات»: ٢٢/١٠٩ ــ ١١٠.

وهما من مبتكرات معانيه، في سنٍّ قلعها:

وصاحبٍ لاأَملُّ[1] الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ ... يشقى لنفعي ويَسْعى سَعْيَ مجتهدِ
لـم أَلْقَـهُ مُـذْ تصـاحبْنـا فحيـن بـدَا ... لِنـاظـريَّ افتـرقنـا فُـرْقَـة الأَبَـدِ

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه؛ مع كثيرٍ من شعره المبتكر من جنسه[2].

قلتُ: ومن عجيبِ ما اتفق أني وجدت هذين البَيْتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات، في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة[3]. قرأت في ديوانه: وقال في الضِّرْس:

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدَّهْرَ[4] صُحْبَتَهُ ... يشقي لنفعي وأجني ضرَّه بيدي

ثم قال:

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بَصَري ... ومن تِلادي ومن مالي ومن ولـدي
أخلُـو بِبَثِّـيَ مـن خـالٍ بـوجنتـه ... مِـداده زائِـدُ التقصيـر للمَـدَد

لم أره مُذْ تصاحبنا.. البيت[5].

---

(١) في الأصل: لم أمل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٦ ــ ٢٢٨، والبيتان في «ديوان أسامة»: ١٥٣.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٩٣ من الجزء الأول.
(٤) في الأصل لم يتم البيت، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في (ل):
لم أره مذ تصاحبنا فحين بدا ... لناظريَّ افترقنا فرقة الأبد
وفي (م):
لم أره مذ تصاحبنا فمذ وقعت ... عيني عليه افترقنا فرقة الأبد

فالأشبه أنَّ ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غَيَّر فيهما كلمات(١).

وقد وجدت هذا البيت الأوّل على صورةٍ أخرى حسنة:

وصاحبٍ ناصح لي في معاملتي(١)

ويجوز أن يكون أُسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك. ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله أعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مُرْهَفاً(٢) وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين، وهو لشغفه به يفضِّله على جميع الدَّواوين. ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشَّام، وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر. فلما جاء مؤيد الدولة أبوه، أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملَّكه من أعمال المعرَّة ضيعة زعم أنها كانت قديماً(٣) تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً [وإدراراً](٤). وإذا كان بدمشق جالسهُ وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه.

وكان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذَّبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، ويستخرج(٥) رأيه في كشف مهماته، وحلِّ مشكلاته، وبلغ عمره ستّاً وتسعين سنة، فإن(٦) مولده سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمس مئة(٧).

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٣) في الأصل و (ل): قديمة، والمثبت من (م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في الأصل و (ل): استخرج، والمثبت من (م).

(٦) في (م): كان.

(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٢٨، وفيه: توفي سنة خمس وثمانين وخمس مئة، =

قلت: وقد تقدَّم من أخباره في قتل [الأسد][1] في شبيبته أيام كونه بشَيْزَر[2]، وذكرت له أيضاً ترجمة حسنة في «تاريخ دمشق».

فصــــل

في رُجوع السُّلْطان إلى مِصْر

خرج من دمشق يومَ الجمعة، رابع شهر ربيع الأول.

/٢٦٥ قال العماد: ولما استتمت للسلطان بالشَّام أمورُ ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمْحَلت بعده من جُوده[3] جَود السَّحاب، وتقدَّمه الأمراء والملوك. وخرج [بُكْرة][4] يوم[5] الجمعة، ونزل بمرج الصُّفَّر*، ثم رحل عنه قبل العَصْرِ إلى قريب الصَّنَمَيْن*، وخرجتُ معه وقلبي نزوع إلى أهلي، فما نزلتُ منزلاً إلا نَظَمْتُ أبياتاً. فقلتُ يوم المسير وقد عبرتُ بالخِيارة[6]:

أقــول لِـرَكْـبٍ بـالخيـارَة نُـزَّلِ ... أثيـروا فمـا لـي فـي المقَـام خِيـارُ

هـمُ رحلُـوا عنـك الغـداةَ ومـا دَرَوْا ... بـأنهـمُ قـد خَلَّفـوك وسـاروا

حليـفَ اشتيـاق لا تـرى مـن تحبُّـه[7] ... وفـي القَلْـب مِـنْ نـارِ الغَـرَامِ أُوارُ

= وبلغ سبعاً وتسعين سنة، وهو وهم من المختصر، وانظر ٤/ ٥٩ من هذا الكتاب.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر ص ٣٥٥ من الجزء الأول.

(٣) في الأصل و(م) جود، والمثبت من (ل). وجَوْد السحاب: أي: السحب التي تجود بالمطر. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٥٩٨.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) يوم، ساقطة من (ل) و (م).

(٦) الخيارة: قرية جنوبي الكسوة بـ ٥ كم، والكسوة هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. انظر «معجم البلدان» ٤/ ٤٦١.

(٧) في (ل) و (م): لا يرى من يحبه.

أجيروا من البَلْوى فؤادي فعندكُمْ ذِمامٌ له يا سادتي وجِوَارُ

وقلت وقد نزلنا بالفُقيع[1]:

رأيتُني بالفقيع منفرداً أضْيَعَ مِنْ فَقْعِ قاعها الضَّائعْ
بعت بمصرٍ دمشقَ عن غَررٍ مني فيا غَبْنَ صَفْقَةِ البائعْ[2]
صبْريَ والقلبُ عاصيان وما غيرُ همومي وأَدْمُعي طائعْ

وقلت بالفَوَّار*:

تحدَّر بالفَوَّار دَمْعي على الفَوْرِ فقلتُ لجيراني أجيرُوا من الجَوْرِ
وأَصْعَبُ ما لاقيتُ أنيَ قانعٌ من الطَّيْفِ مذ بنْتم بزُورٍ من الزَّوْرِ

وقلت بالزَّرقاء*:

وَلَمْ أنسَ بالزرقاء يوم وَدَاعِنا أنامِلَ تَدْمى حَيْرةً للتَّندُّمِ
أعدتُك يا زرقاءُ حمراءَ إنني بكيتُك حتى شِيْبَ ماؤك بالدَّمِ
تأخَّر قلبي عِنْدَهُمْ مُتخلِّفاً وخالَفْتُهم في عَزْمتي والتقدُّمِ
فيا ليت شِعْري هل أعودُ إليهمُ وهل لَيْتَ شِعْري نافعٌ للمتيَّمِ[3]

قال: وقلتُ وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشَّوْبك*، وفيها تخطف[4] الفرنجُ القاصدين إلى مصر:

طريقُ مِصْرَ ضيِّقُ المَسْلكِ سالكُهُ لا شكَّ في مَهْلكِ
وَحُبُّ مِصْرٍ صار حُبًّا لمن أوقعه في شَبَكِ الشَّوْبكِ
لكنَّما مِنْ دُونها كعبةٌ محْجُوجة مبرُورة المَنْسَكِ

---

(١) الضبط من الأصل.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣١ ــ ٢٣٢.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٢.

(٤) في (ل) و (م): تختطف.

بها صلاحُ الدين يُشكي[1] الذي إليـه مـن أيّـامـه يشتكـي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدةً مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب. واتفق أن السلطان[2] سيَّرَ إلى مِصْر الملك المظفر تقي الدين، وكان لا يَسْتدعي من شاديه، إلا إنشادها في ناديه، ويطرب لسماعها، ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقتُ بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي. وهي:

هَجَرْتُكُمُ لا عن مَلالٍ ولا غَدْرِ ولكن لمقدُورٍ أُتيحَ مِنَ الأَمْرِ
وأعلمُ أني مخطيءٌ في فِراقِكُمْ وعُذْريَ في ذنْبي وذنْبيَ في عُذري
أرى نُوَباً للدَّهْرِ تُحصى ولا أرى أشدَّ من الهِجْرانِ في نُوَبِ الدَّهْرِ
بعيني إلى لُقْيا سواكم غِشَاوةٌ وسمعيَ عَنْ نجْوى سواكم لَذُو وَقْرِ[3]
وقلبي وصَبْري فارقاني لِبُعْدِكُمْ فلا صَبْرَ في قلبي ولا قَلْبَ في صَدْرِي
وَإني على العَهْدِ الذي تَعهدُونَهُ وسِرِّي لكُمْ سِرِّي وجَهْرِي لكم جَهْري
تجرَّعْتُ صِرْفَ الهَمِّ من كأسِ شَوْقِكُمْ وها أنا في صَحْوي نزيفٌ من السُّكْرِ
وإنَّ زماناً ليس يَعْمُرُ مَوْطني بسُكْناكُمُ فيه فَلَيْس مِنَ العُمْرِ
وأُقسم لو لم يَقْسِمِ البَيْنُ بيننا جَوَى الهَمِّ ما أمسيتُ مُقْتَسَمَ الفِكْرِ
أسيرُ إلى مِصْرَ وقَلْبي أسيرُكُم ومِنْ عَجَبٍ أَسْري وقَلْبيَ في أَسْرِ
أخِلاَّيَ قد شَطَّ المَزَارُ فأرسلوا الـ ـخيالَ وَزُورُوا في الكَرَى وارْبَحُوا أجْري
تذكَّرْتُ أحبابي بجِلِّق بَعدَما ترحَّلْتُ والمشتاقُ يأنَسُ بالذِّكْرِ
وناديتُ صَبْري مستغيثاً فلم يُجِبْ فأسبلْتُ دَمْعي للبكاء على صَبْري
ولمَّا قَصَدنا من دمشقَ غَباغِباً* وبِتْنا من الشَّوْقِ المُمِضِّ على الجَمْرِ

٢٦٦/١

(١) أي يزيله عما يشكوه. وأشكيت من الأضداد، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٢ في بعض السنين.

(٣) في الأصل: له وقر، والمثبت من (ل) و (م).

نَـزَلْنـا بـرأسِ المـاء* عنـد وَدَاعِنـا — مـوارد مـن مـاءِ الـدُّمـوعِ التـي تجـري
نـزلنـا بصَحْـراء الفُقيـع وغُـودِرَتْ — فواقعُ من فَيْضِ المَدَامعِ في الغُدْرِ
ونهنهـتُ بـالفَّـوار* فيـضَ مـدامعـي — ففاضت وباحَتْ بالمكتَّم من سِرِّي
سَرَينا إلى الزَّرْقاء* منها ومن يُصِبْ — أُواماً[1] يَسِرْ حتى يرى الوِرْدَ أو يَسْري[2]
تـذكَّـرْتُ حَمَّـام القُصَيـرِ[3] وأهلَـه — وقـد جُـزْتُ بـالحَمَّـام فـي البَلَـدِ القَفْـرِ
وبـالقـريتَيـن القـرْيتَيـن وأيـن مـن — مغـانـي الغـوانـي منـزل الأُدْم والعُفْـرِ
ورَدْنا من الزَّيتون* حِسْمَى* وأيلةً* — ولـم نستَرِحْ حتى صَدَرْنا إلى صَدْرِ*
غَشِينا الغَوَاشي* وهي يابسةُ الثَّرى — بعيـدةُ عهْـد القُطْـرِ بـالعَهْـدِ والقَطْـرِ
وضَـنَّ علينـا بـالنَّـدى ثَمَـدُ الحصـى — ومـن يـرتجـي رِيًّـا مـن الثَّمَـدِ النَّـزْرِ
فقلتُ اشرحي بالخمسِ صَدْراً مطيَّتي — بِصَـدْرٍ وإلا جـادَكِ النِّيـلُ للعشْـرِ
رأينـا بهـا عَيْـن المـواسـاة إننـا — إلى عين موسى* نَبذلُ الزَّادَ للسَّفْرِ
ومـا جَسَـرَتْ عَيْنـي على فَيْضِ عبـرةٍ — أُكَفْكِفُهـا حتـى عَبَـرنـا علـى الجِسْـرِ
ومِلْنـا إلـى أَرْض السَّـدِيـر وجَنَّـةٍ — هنـالـك مـن طَلْـح نضيـدٍ ومـن سِـدْرِ
وجُبْنـا الفَـلا حتـى أصَبْنـا مبـاركـاً — علـى بـركـة الجُـبِّ* المبشِّـر بـالقَصْـرِ
ولمـا بـدا الفُسْطـاط بَشَّـرْتُ رِفقتـي — بمـن يتلقَّـى الـوَفْـدَ بـالـوَفْـر والبِشْـرِ
بَكَـتْ أُمُّ عمـرو مـنْ وشيـكِ تَـرَحُّلـي — فيا خَجْلَتي مِنْ أُم عمرٍو ومِنْ عمرو
تقـول إلـى مِصْـر تصيـر[4] تعجُّبـاً — وماذا الذي تبغي ومَنْ لك في مِصْرِ

---

(١) الأوام: شدة العطش. انظر «اللسان» (أوم).
(٢) أُشبعت كسرة الراء للوزن.
(٣) هو الحمام الذي بناه العماد قرب باب الفرج بدمشق، وقد سلف ذكره ص ١٧، ٤٢٨ ـ ٤٢٩ من هذا الجزء. وقد أخطأ الدكتور محمد حلمي في تعيين هذا الموضع في نشرته للروضتين ق ٢/ ٦٨١ فقال: بالغور من أعمال الأردن! وانظر ص ٧ من الجزء الأول.
(٤) في (ل) و (م): تسير.

فقلتُ ملاذي النَّاصرُ المَلِكُ الذي حَصَلْتُ بجَدْواه على المُلْكِ والنَّصْرِ

فقالتْ أقِمْ لا تَعْدَمِ الخيرَ عندنا فقلتُ وهل[1] تُغْني السَّواقي عن البحرِ

ثِقي برجُوعٍ يَضْمَنُ اللهُ نُجْحَه ولا تَقنطي[2] أنْ يُبْدل[3] العُسْرُ باليُسْرِ

عطيَّتُهُ قد ضاعَفَتْ مُنَّةَ الرَّجا ومِنَّتُه[4] قد أضعفت مُنَّةَ الشُّكْرِ[5]

قال: وكان الدُّخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بالزِيّ الأجمل والعِزِّ الأكمل.

وتلقَّى السُّلْطان أخوهُ ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صَدْر*، وعبر إلينا عند بحر القُلْزُم[6] الجِسْر، وتلقَّانا خَيْرُ مصر، وجُلِبَتْ[7] إلينا ثمراتُها، وجُليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها، وزاد اغتباطها، ودخل السُّلْطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إيرادَهُ وإصْداره[8].

وكانت قد صَعُبت عليَّ مفارقة دمشق وأهلها، لِقلَّة الوثوق بأنّي أحصل بمثلها، فنظمت[9] يوم خُروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد بن

---

(١) في الأصل: فهل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل و (ل): ولا تقتضي، والمثبت من (م).

(٣) في (م): يبذل، وهو تصحيف.

(٤) في (ل) و (م): نعمته، والمنة: بكسر الميم النعمة، وبضمها: القوة، «اللسان» (منن).

(٥) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٦ ـ ٩، و «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٢ مع اختلاف في بعض الألفاظ. وللعماد قصيدة أخرى في ذكر هذه المنازل، ستأتي ٣/ ٦٩ ـ ٧١ من هذا الكتاب، وفيها تعريف ببعض ما ورد منها هنا.

(٦) هو البحر الأحمر.

(٧) في الأصل و(ل): ووصلت، والمثبت من (م).

(٨) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٣.

(٩) في الأصل: ونظمت، والمثبت من (ل) و (م).

شِيركُوه، منها:

بمُهجتــي خَنِــثُ العِطْـ ـــفِ مستلــذُّ الــدَّلالِ
يقــول لــي بــانكســارٍ ورقَّـــــةٍ واعْتـــــلالِ
معـــاتبــاً بحـــديـــثٍ أصفـــى مـــن السَّلْسَــالِ
مَـــا مِصْـــرُ مثـل دمشـــقٍ بعـــتَ الهُـــدَى بــالضَّـلالِ
فقلــــتُ عنَّــت أمـــورٌ عجيبـــــةُ الأشكـــــالِ
أسيـــرُ فـــي طلــب العِــزِّ (م) مثــــل سيْــــرِ الهِـــلالِ
لـــم يبلـــغِ البـــدرُ لـــولا الـ ـمَسيــــرُ أوجَ الكمــــالِ
وكيــــف أتــــرك شُغْلـــي وإنَّـــــهُ رأسُ مـــــالـــي
صــلاح حــالـي صــلاح الــدِّ (م) يــن الغــزيــر[1] النَّــوَالِ
مـــالـــي أفـــارق مَلْكـــاً ملَّكْتُـــــهُ آمـــالـــي
يـــا نـــاصـــرَ الـــدِّيـــن قلبــي عليـــــه فـــــي بَلْبـــالِ

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة، وسيّدهم المولى الأجل ١/٢٦٧ الفاضل، وقد مدحه بقصيدةٍ، منها:

كيف لا يغتدي لي الدَّهْرُ عبداً وأنــا عبــدُ عَبْـدِ عَبْـدِ الــرَّحيمِ
بـــدوام الأجَـــلِّ سيِّـــدِنـــا الفـــا ضِـــل يـــا دَوْلـــةَ الأفـــاضِـــلِ دُومـــي
إن آراءه تنـــــوب لـــــدى المَلْـ ـــك منـــابَ الأرواحِ عنْـــدَ الجُســـوم
مـــالـــكُ الحَـــلِّ فـــي الممـــالـك والعَقْـ ـــد وحُكْـــمِ التَّحليـــل والتَّحْـــريـــمِ
مُعْمـــلٌ للنَّفـــاذ فـــي كـــلِّ قُطْـــرٍ قَلَمـــاً حـــاكمـــاً علـــى إقليـــمِ
يتلَقَّـــى الملـــوكُ فـــي كـــلِّ أرضٍ كُتْبَـــهُ القـــادمـــاتِ بـــالتَّعْظيـــمِ

(١) في (م): العزيز.

نـاحـلُ الجسـم ذو خطـابٍ بـهِ يَصْـ ـغُـرُ للـدَّهْـرِ[١] كـلُّ خَطْـبٍ جسيـمِ

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر وعز الدين فَرُّخْشاه ــ وهما ابنا أخي السُّلْطان، وهو شاهنْشاه بن أيوب ــ وهمام الدين بُزْغُش الشنباشي؛ والي القاهرة، ومدح فَرُّخْشاه بقصيدةٍ [حسنة][٢]، منها:

شـادنٌ كـالقضيـب لَـدْنُ المهـزَّهْ سَلَبَـتْ مُقْلتـاه قلبـي بغمـزهْ
كلّمـا رُمْـتُ وَصْلَـهُ رامَ هجـري وإذا زدتُ ذِلّـةً زاد عِـزَّهْ
للصِّبـا مـن عِـذارهِ نسـجُ حُسْـنٍ رَقَـمَ المِسْـكُ فـي الشَّقـائـق طَـرْزَهْ
وعـزيـزٌ علـيَّ أنَّ اصْطِبـاري فيـه قـد عَـزَّه الغَـرَامُ وَبـزَّهْ
مـا رأى مـا رأيـتُ مجنـونُ ليلـى فـي هـواهُ ولا كُثيِّـر عَـزّهْ
مـا ذَكـ ـنـا الفُسْطـاط إلا نسينـا مـا رأينـا بـالنَّيْـرَبيـن* والارْزَهْ
فمهـا الجِيـزة الجـوازي لهـا الميـ ـزةُ حُسْنـاً علـى ظباء المِـزَّهْ*
ونصيـري عليـه نـائـل عـز الـدِّ (م) يـن ذي الفَضْـلِ خلَّـد الله عِـزَّهْ
فـرَّغ الكَنْـزَ مـن ذخـائـر مـالٍ مـالئـاً مـن نفـائِـسِ الحَمْـدِ كَنْـزَهْ

منها:

هِمَّـةٌ مستهـامـةٌ بـالمعـالـي للـدَّنـايـا أبِيَّـةٌ مُشْمَئِـزَّهْ

قال العماد: وتوفَّرنا[٣] على الاجتماع في [المغاني][٤] لاستماع الأغاني، والتنزُّه في الجزيرة والجِيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العِزّ

---

(١) في الأصل و (م): الدهر، والمثبت من (ل).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل، وتوقنا، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

والرَّوْضة، ودار الملك والنّيل والمقياس، ومراسي السُّفن، ومجاري الفلك والقصور بالقَرَافة، وربوع الضِّيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية[1].

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين بن الشّهرُزُوري[2] أن يفرِّجنا في الأهرام، فقد كنا شُغفنا بأخبارها في الشَّام، فخرج بنا إليها، ودُرْنا تلك البرابي[3] والبراري، والرِّمال والصحاري، وأحمدنا المقارَّ والمقاري، وهالَنا أبُو الهول، وضاق في وصفه مجال القَوْل، ورأينا العجائب، ورَوْينا الغرائب، واستصْغَرْنا في جَنْب الهرميْن كلَّ ما استعظمناه، وتداولنا الحديثَ في الهرمِ ومَنْ بناه، فكلٌّ يأتي في وصفهما بما نقله، لا بما عقلَه، واجتهدوا في الصُّعود إليه فلم يُوجد من تَوَقَّله، وحارت العُقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهُّمِ حدوده، فيَا لهُ مِنْ مولودٍ للدَّهْرِ قبل الطُّوفان، انقرَضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسُمَّار الأخبار تذكر حديث أحداث عَادِه وثَمُوده، ويُدلُّ إحكامُه وعلوُّه على همة بانيه [في بأسه][4] وجوده، وإنَّ في الأرض الهرمين كما أنَّ[5] في السماء الفرقدين، وهما كالطَّودَيْن الرَّاسخيْن، وكالجبلين الشَّامخين، قد فنِيت الدُّهور وهما باقيان، وتقاصَرت القُصُور وهما راقيان، وكأنّهما لأُمِّ الأرض ثَدْيان، وعلى ترائب التُّراب نَهْدَان، ولسُلطان العالَم علَمان، وإلى مراقي الأملاك سُلَّمان، وهُما للَّيل والنهار

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٣.

(٢) انظر ص ٤٢٦ من هذا الجزء.

(٣) كلمة قبطية معربة، مفردها: بربىٰ، وهي المعبد عند قدماء المصريين. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية) ١/ ٢٦٨، و«معجم البلدان» ١/ ١٢٤.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) أن، ساقطة من (ل) و (م).

رقيبان، ولرَضْوى[1] ولشَمَام نسيبان، ومن زُحل والمريخ قريبان[1]، ولِعَوادي الخُطوب خطيبان، ولنَوْرِ الفَلَك رَوْقان[2]، ولشخص الكُرَة الترابية ساقان[3].

قلت: ثم ذكر العماد جماعةً ممن كان يقيم الضِّيافة له ولمثله من الفضلاء الأعيان، فذكر منهم النَّاصح مؤدب أولاد السُّلْطان، وله دارٌ مشرفة على النيل. وذكر منهم اللسان الصُّوفي البَلْخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دارٌ أيضاً على شاطىء النيل برسم ضِيافة من نَزَل به.

قال: ثم وقف السُّلْطان دارَه على الصُّوفية من بعده، وانتقل بعد سنين إلى النَّعيم وخُلْده[4].

٢٦٨/١

فصـــل
في بيع الكُتُب وعِمارة القلعة والمدرسة والبيمارَسْتان

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القَصر كلّ أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها[5] في القصر مرتَّبة البُيوت، مقسَّمة الرُّفوف، مفهرسة بالمعروف. فقيل للأمير بهاء الدين قَراقُوش، متولِّي القصر[6]،

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) الروق: القرن. «القاموس المحيط»: (روق).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٧ ــ ٢٣٨.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٣، ويفهم من سياقه أن اللسان الصوفي نفسه هو الذي وقف داره للصوفية لا السلطان.

(٥) في الأصل: وخزانتها، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

والحالّ والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العُثّ، وتساوى سمينُها والغَث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها، وإخراجها من بُيوت الخزانة إلى أرضها. وهو تركيٌّ لا خِبرة له بالكُتب، ولا دُرْبة له بأَسْفار الأدب. وكان مقصود دلاَّلي الكتب أن يُوكسوها، ويخرِّموها ويعكسوها. فأُخرجت ــ وهي أكثر من مئة ألف ــ من أماكنها، وغُرِّبت من مساكنها، وخربت أوكارُها[1]، وأُذهبت أنوارُها، وشُتّت شملها، وبُتّ حَبْلُها، واختلط أدبيُّها بنجُوميّها، وشرعيُّها بمنطقيِّها، وطبيُّها بهندسيِّها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلُها بمشاهيرها.

وكان فيها من الكُتب الكبار، وتواريخ الأمْصار، ومصنَّفات الأخبار، ما يشتمل كلٌّ كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلَّداً، إذا فُقِدَ منها جُزءٌ لا يُخلَف أبداً، فاختلطت واختبطَتْ، فكان الدَّلال يخرج عشرة عشرة من كلِّ فنّ كتباً مبتَّرة، فتُسام بالدُّون، وتُباع بالهُون، والدَّلال يعرف كلّ شدَّة، وما فيها من عدَّة، ويعلم أنّ عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفَّق كتاباً قد تقوَّم عليه بعشرة، باعه بعد ذلك لنفسه بمئة.

قال: فلما رأيت الأمر حَضَرْت القصر، واشتريْت كما اشتروا، ومَرَيْتُ الأَطباء[2] كما مَرَوْا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السُّلْطان ما ابتَعْتُه، وكان بمئين، أنعم عليَّ بها، وأبرأ ذمَّتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عَيَّنْتُ عليه من كتبها.

ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلَّدات كثيرة انتُقيَت له من القصر، وهو ينظر في بعضها، وبسط يدي لقبضها، وقال: كنتَ طلبت كُتباً عيَّنتها، فهل

---

(١) في (م): أفكارها.

(٢) المري: مسح ضرع الناقة لتدر، والأطباء جمع، مفردها طبي، بكسر الطاء وضمها، حلمات الضرع، «القاموس المحيط»: (مرا، طبي).

في هذه منها شيء؟ فقلت: كلها، وما أستغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمَّال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقلَّ نوال[١].

قال: وكان السلطان لما تملَّك مصر رأى أنَّ مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كلَّ واحدة بسور احتاجت إلى جُنْدٍ مفرد يحميها، وإني أرى أنْ أدير عليهما سوراً واحداً من الشَّاطىء إلى الشَّاطىء[٢].

فأمر[٣] ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة[٤] على جبل المُقطَّم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم، وانتهى به إلى أعلى مِصْر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان ثبتاً رفعه النواب، وتكمَّل فيه الحساب، ومبلغه ــ وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ــ تسعة وعشرون ألفاً وثلاث مئة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر[٥] بساحل مصر عشرة آلاف وخمس مئة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد[٦] سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاث مئة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البُرْج بالكوم

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٤ ــ ٢٣٦.
(٢) انظر تاريخ بناء سور القاهرة في «خطط المقريزي»: ٢/ ٢٠٤ ــ ٢٠٩.
(٣) في الأصل و (ل): وأمر، والمثبت من (م).
(٤) مسجد سعد الدولة كان بقلعة الجبل بجوار برج المبلات، المشرف اليوم على تربة يعقوب شاه المهمندار التي في الجنوب الشرقي لسور القلعة. انظر «النجوم الزاهرة»: ٤/ ٤١ حاشية رقم ١.
(٥) الكوم الأحمر: كان عند فم الخليج على جانبه الغربي، في نهاية شارع قصر العيني من الجهة الجنوبية، انظر «النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٠ حاشية رقم ٧.
(٦) في الأصل: مسجد، والمثبت من (ل) و (م).

الأحمر سبع آلاف ومئتا ذراع، [و][1] دائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومئتان وعشرة أذرع. وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النِّيل إلى النِّيل، على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشميّ[2] بتولي الأمير بهاء الدّين[3] قَراقُوش الأَسَدي.

وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقَّها من إحكام العمل، وقَطْعِ الخَندق وتعميقه، وحَفْر واديه وتضييق طريقه. وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل فيها بالدَّرج المنحُوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولمْ يتأتَّ له هذا كله في سنين متَقاربة لولا إعانة رَبِّه المُعين[4].

وتُوفّي السُّلْطان وقد بقي من السُّور مواضع والعمارة فيه مستمرّة، ووظائفُ نفقاتها مستدرَّة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتُّرْبة المقدسة الشَّافعيّة، ورتَّب قواعدها بفرط الألمعيَّة، وتولاها الفقيه[5] الزَّاهد نجم الدِّين الخبُوشاني، وهو الشيخُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في النسخ الخطية، و «سنا البرق الشامي» القاسمي، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، والذراع الهاشمية على قسمين: الكبرى وهي ٢٧ و٦٦ سم، والصغرى: ٥٥ و٦٠ سم. انظر كتاب «المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري» لفالتر هنتس، ترجمة الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠ ص: ٩١.

(٣) في الأصل و (ل): شهاب الدين، وفي هامش الأصل: بهاء الدين، وهو الصحيح، والمثبت من (م). وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٤) في (م): لولا إعانة الله ربه المعين.

(٥) في (م): القاضي الفقيه. قلت: لم يعرف أنه ولي القضاء. فهي زيادة مقحمة على النص.

الصَّالح الفقيهُ الوَرِع[1] النقي التقي[2].

قال: وأمر باتخاذ دارٍ في القَصْر بيمارَسْتاناً للمرضى، واستغفرَ الله تعالى بذلك واسترضى، ووقف على البيمارَسْتان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهبّ إلى مواهب فأسْداها، واهتمّ بفرائضَ ونوافل فأدَّاها[3].

فصـــل

في خروج السُّلْطان إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: ثمَّ خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأَفْضَل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دِمْياط، ورأى في الحضور بالثَّغْر المذكور ومشاهدتِه الاحتياط، وكانَ له بها سَبْيٌ كثير جلبه الأسطول، فمتَدَ[4] بظاهر البلدِ يومين، ووهَبَ لي منه جارية.

ثمَّ وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وتردَّدْنا مع السُّلْطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي[5]، وداومنا الحضور عنده، واجتلَيْنا من ١/٢٦٩

---

(١) في الأصل: الزاهد نجم الدين، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) توفي سنة (٥٨٧ هـ)، وسترد ترجمته في وفياتها ٤/٢٩٣، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٩١ من هذا الجزء من هذا الكتاب.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٣٩ ــ ٢٤١.

(٤) يقال: مَتَدَ بالمكان مُتُوداً: أقام به. ولم تتبين لناسخي الكتاب، فأثبتوها: فامتدَّ. ولا معنى لها هنا. انظر «اللسان» (متد).

(٥) سيرد خبر وفاته ص ٥٤ من الجزء الثالث.

وجهه نُورَ الإِيمان وسَعْدَه، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا الزَّمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العُمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر.

وشاهدنا ما استجدَّه السُّلْطان من السُّور الدائر، وما أبقاه من حُسْن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثُّغور وتعمير الأسطول[1].

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السُّلْطان المقام بالإِسكندرية ليصوم فيها رأى أنَّه لا يُخْلي نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الكُفَّار والجهاد في المشركين، فرأى الأسطول وقد أَخْلقت سُفُنه وتغيَّرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجَمع له من الأخشاب والصُّنَّاع أشياء كثيرة، ولما تَمَّ عَمَلُ المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السِّلاح والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرِّجال، وولَّى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً، وديواناً منفرداً[2]، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع من أخذ رجاله[3] وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يُبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقُلت في معنى تنقلُّي في البلاد:

يوماً بجيٍّ[4] ويوماً في دمشقَ وبالـ ـفُسطاط يوماً ويوماً بالعِرَاقَيْنِ
كأنَّ جسمي وقلبي الصَّبَّ ما خُلقا إلا ليُقْتسما بالشَّوْقِ والبَيْنِ[5]

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٢) في (ل) و (م): مفرداً.
(٣) في (ل): رجَّالةٍ.
(٤) جي: مدينة على بعد ميلين من أصبهان. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٢.

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يـا بـاخـلاً عنـد الـوَداعِ بـوقفـةٍ لو سامني رُوحي بها لم أَبْخلِ
مـا كـان ضَـرَّك لـوْ وقَفْـتَ لِسـائـلٍ تـركَ الفـؤادَ بـدائـه فـي المنـزل
هـلاّ وَقَفْـتَ لقلـبِ مَـنْ أحـرقتـه مقـدارَ إطفـار الحـريـقِ المُشْعَـلِ
إنْ أَسْـرِ مُـرْتحـلاً ففـي أَسْرِ الهـوى قلبـي لـديـك مُقَيّـداً لـم يَـرْحَـلِ
عَذُبَ العذابُ لدى فؤادي المبتَلى إذْ كنـتَ أنـتَ معـذِّبـي والمبتلـي

وقلت، وقد نزلنا بين مُنية غَمْر ومُنية سَمنُّود:

نَـزَلْـتُ بـأرضِ المُنْيَتيـن ومُنْيتـي لقاؤكُمُ الشّافي وَوَصْلُكمُ المجدي
سـأبْلَـى ولا تَبْلَـى سـريـرةُ ودِّكـم وتؤنسني إنْ مُتّ في وحشة اللَّحْدِ[1]

قال: وعُدْنا من الإسكندرية في شهر رمضان، فصُمنا بقيَّة الشهر بالقاهرة، والسُّلْطان متوفرٌ في ليله ونهاره، على نَشْر العدل وإنْشاره، وإفاضة الجُود وإغزاره، وسماع أحاديث الرسول ﷺ وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام الباطل وإنكاره[2].

وقال: ومِنْ مدائحي في السُّلْطان ما أنشدته إياه سادس شَوَّال.

فَـدَيْتُـكَ مـن ظـالـمٍ مُنْصِـفِ ونـاهيـكَ مـن بـاخِـلٍ مُسْرِفِ[3]

ومنها:

أيبلـغُ دهـريَ قصـدي وقـد قَصَـدْتُ بمصـر ذَرا يـوسـف

(١) المصدر السابق، وفيه ثلاثة أبيات أخرى من القصيدة.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٣ ــ ٢٤٤.
(٣) في «الخريدة»: مسعف.

ويـوسـف مِصْـرِ بغيـر التُّقَـى وبـذل[1] الصَّنائـعِ لـم يُوْصَفِ[2]
فَسِـرْ وافتَـحِ القُـدْسَ واسفـكْ بـه دمـاءً متـى تُجْـرِهـا يَنْظُـفِ
وأهْـدِ إلـى الإسبتـارِ* التَّبَـار وهُـدَّ السُّقـوفَ علـى الأُسْقُـفِ
وخَلِّـصْ مـن الكُفْـرِ تلـك البـلاد يُخلِّصُـك الله فـي المَـوْقِـفِ[3]

قال: وفيها وصل رُسُل المواصلةِ وصاحبي الحِصْن* وماردين* إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حِصْن كيفا في الأسر[4].

قال ابن أبي طيّ: وصل رسول المَوْصِل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشّهْرُزُوري بهدية وقود، فخرج[5] الموكبُ إلى لقائه، وأكرمه السُّلْطان واحترمه. وقدم بعده رسول نور الدين [قرا][6] أرسلان ورسول صاحب ماردين بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج، فأُسر رسول صاحب الحِصْن[7]، ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان[8]، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قَرَاقُوش إلى [ل ٢٤٢/أ] أَوْجَلة[9] وتلك البلاد [٢١٢ أ]

---

(١) في الأصل: ووصف، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: يعرف، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) انظر قطعة من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٥ ــ ١٧.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٤ ــ ٢٤٥، وفيه: أن رسولا الحصن وماردين وقعا في الأسر.
(٥) في (م): خروج.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م) وهو محمد بن قرا أرسلان، أخطأ فيه ابن أبي طي.
(٧) في (م): حصن كيفا.
(٨) سيرد خبر هدمه ٣/ ٣٦ من هذا الكتاب.
(٩) من هنا يبدأ خرم في الأصل يقع في ورقتين وبضعة أسطر ينتهي في صفحة [٢١٤/أ]، كتب بخط متأخر، استدركناه من نسختي (ل) و (م). وسنشير في المتن إلى رقم ورقة

٢٧٠/١ [ل/ ٢٤٢ب] فجمع أموالاً ورجع إلى مصر، ثم أراد الرُّجوع فمنعه العادل، ثم خلَّصه فَرُّخْشاه، فرجع وفتح بلاد فزَّان بأسرها[١].

قال العماد: ثم خرج السُّلطان إلى مرج فاقُوس*، مِنْ أعمال مصر الشَّرْقية، لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص، والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص. واقترح عليَّ أن أمدح عز الدين فَرُّخْشاه بقصيدةٍ موسُومة، ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحِجَّة، فقلت:

مَـوْلاَي عـزَّ الـديـن فَـرُّخْشَـهْ ... الـدَّهْـرَ مَـنْ يَـرْجُـك لا يَخْشَـهْ
تَلْقـاه سَمْـحَ الكَـفِّ دَفَّـاقهـا ... طَلْـقَ المحيَّـا كَـرَمـاً بَشَّـهْ
إنْ شئـتَ فـوتـاً بـالـرَّدى فَـالْقَـهُ ... أو شئـتَ فـوزاً بـالعُـلا فـاغْشَـهْ
يُـديـم بـالأيـدي وبـالأَيْـدِ فـي ... حَـرْبـي لُهـاه والعِـدَى بطشَـهْ[٢]
كـم مَلِـكٍ عـاداكـمُ لـم يَبِـتْ ... إلا جَعَلْتُـمْ عَـرْشَـهُ نَعْشَـهْ
خَـوَّفْتُـمُ الشِّـرْكَ فـلا قمصُـهُ* ... أَمَّنْتُـمُ يـومـاً ولا قُنْشَـهْ*
أورَثـك السُّـؤدد يـا ابـن العُـلا ... والـدُك السَّيِّـد شـاهِنْشَـهْ

وقال في «الخريدة»: كنا مخيمين بمرج فاقوس، مصمِّمين على الغَزَاة إلى غزَّة، وقد وصلت أساطيل ثَغْرَيْ دمياط والإسكندرية بسبي الكُفَّار، وقد أَوْفَتْ على ألف رأس عِدَّة من وصل في قيد الإسار، فحضر ابنُ رَوَاحة[٣]

(ل) إضافة إلى رقم الأصل في الهامش. وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٦٢ من هذا الجزء.

(١) انظر ص ٤١٨ ــ ٤١٩ من هذا الجزء.

(٢) في (م): والعدى عرشه نعشه، وهو تداخل مع البيت الذي يليه، والذي سقط من هذه النسخة.

(٣) هو الشاعر الفقيه أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة، قتل شهيداً بمرج عكا سنة (٥٨٥ هـ)، وسترد ترجمته ٤/ ٩٧ ــ ٩٨.

منشداً مهنئاً بعيد النَّحْر، سنة اثنتين وسبعين، ومُعَرِّضاً بما وَهبه الملك النَّاصر من الإماء والعبيد، بقصيدةٍ[1]، منها:

لقد خَبَرَ التَّجاربَ منهُ حَزْمٌ ... وقَلَّبَ دَهْرَهُ ظَهْراً لِبَطْنِ
فساقَ إلى الفرنج الخيلَ بَرّاً ... وأدركهمْ على بحرٍ بِسُفْنِ
لقد جَلَبَ الجواريَ بالجواري[2] ... يَمِدْن بكل قدٍّ مُرْجَحِنّ[3]
يزيدهُمُ اجتماعُ الشَّمْلِ بُؤْساً ... فمرنانٌ تنوحُ على مُرِنّ
زَهَتْ إسكندريَّةُ يوم سِيقُوا ... ودمياطٌ فما مُنِيا بِغَبْنِ
يرونَ خيالَه كالطَّيْفِ يَسْري ... فلو هَجَعوا أتاهُمْ بعد وَهْنِ
أبادَهُمُ تخوُّفُهُ فأمسى ... مُناهُمْ لو يُبَيِّتُهمْ بأمْنِ
تملَّكَ حَوْلهم شرقاً وغرباً ... فصارُوا لاقتناصٍ تحتَ رَهْنِ

[قال العماد: يشير إلى أنه مالك الشام ومصر والفرنج بينهما][4].

أقام بآل أيوبٍ رباطاً ... رأت منه الفرنج مضيق سِجْنِ
رجا أقصى الملوكِ السِّلْم منهم ... ولم يَرَ جُهْدَه في البأس يُغْني[5]

/ وفي هذه السَّنة أبطل السُّلْطان المَكْس الذي كان بمكة على الحاجِّ، [٢١٢/] وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين[6].

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شَرَع مجاهد الدين[7]، يعني

---

(١) في (ل): قصيدة، والمثبت من (م).
(٢) الجواري الأولى: الإماء، والثانية: السفن. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٥١٩.
(٣) المرجحن: المائل. «اللسان» (رجحن).
(٤) ما بين حاصرتين من (م).
(٥) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٩١ ــ ٤٩٦.
(٦) انظر ص ٩ وما بعدها من الجزء الثالث.
(٧) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من هذا الجزء.

قايماز دُزْدَار* قلعة المَوْصِل، في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط، والمدرسة والبيمارَسْتان [ل/ ٢٤٣/ أ] وكلّها متجاورات[١].

قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل، وهو متولِّيها، والحاكم في الدولة الأتابكية النُّورية. وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحِجَّة، سنة إحدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين[٢]، وأُعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصلُه من أعمال شبختان، وأُخذ منها وهو طفل. وكان عاقلاً خيِّراً، ديّناً فاضلاً، يعلم الفِقْه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنَّوادر والتَّواريخ شيئاً كثيراً، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصَّوْم، وله وِرْدٌ يصلِّيه كل ليلة، ويكثر الصدقة، وبنى عِدَّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عِدَّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار، إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة[٣].

قال العماد في «الخريدة»: نزلنا ببركة الجُبّ* لقصد فرض الجهاد، وعَرْضِ الأجناد، فكتب الأسعد بن مَمَّاتي[٤] إليَّ أبياتاً في الملك النَّاصر،

---

(١) «الباهر»: ١٧٧.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ومثله في «الباهر»: ١٩٣، وهو تحريف، صوابه سنة (٥٧٩ هـ) كما في «الباهر» أيضاً: ١٨٣، و «الكامل»: ١١/ ٤٩٩ ــ ٥٠١، وسيرد خبر القبض عليه في حوادث سنة (٥٧٩ هـ) ٣/ ٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) «الباهر»: ١٩٣ ــ ١٩٤.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٣٧ من هذا الجزء.

ويعرض بالشِّطْرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريمَ الخِيْم[1] في الخِيَم	أهيفٌ كالرِّيم ذو شَمَم
عجبي للشَّمْسِ إذ طَلَعَتْ	منه في داجٍ من الظُّلَم
كيف لا تُصْمي لواحظُه	ورُماة الطَّرْف في العَجَم
لا تصدْ قَلْبَ المحبّ لكم	لا يحلّ الصَّيدُ في الحَرَم
يا صلاحَ الدِّينِ يا ملكاً	قد براه الله للأُمَم
أضحتِ الكُفَّارُ في نِقَم	وغدا الإسلامُ في نِعَم
إنْ يَكُ الشِّطْرنج مشغلةً	لعليِّ القَدْرِ والهِمَم
فهْي في ناديك تذكرةٌ	لأمورِ الحَرْبِ والكَرَم
فلكم ضاعَفْتَ عِدَّتها	بالعطاءِ الجمِّ لا القَلَم
/ ونَصَبْتَ الحَرْبَ نصبتها	فانْثَنَتْ كفَّاك بالقِمَم
فابْقَ للأقدارِ[2] ترفعها	وأمُرِ الأَقْدارَ كالخَدَم[3]

1/ 271

/213]

وفيها توفي بالإسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الدِّيباجي من ولد الدِّيباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عَفَّان رضي الله عنهم[4]، ويعرف بابن أبي إلياس، من بيت القضاء والعلم. وكان واسعَ الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية، قيماً بالأدب، متصرِّفاً في النظم

---

(1) الخيم: الشيمة والخلق والسجية. «اللسان» (خيم).

(2) في «الخريدة» للإسلام.

(3) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: 1/ 106.

(4) لقب بالديباج لحسنه، كانت أمه فاطمة بنت الحسين الشهيد، مات في سجن المنصور سنة (145 هـ)، وكان جواداً سخياً ذا مروءة وسؤدد وحشمة. انظر «سير أعلام النبلاء»: 6/ 224 ــ 225.

والنثر، إلا أنه مقلٌّ من النظم، أوحد عصره في علم الشُّروط، وقوله [هو][1] المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في «الخريدة».

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين [ل/ ٢٤٣/ ب] [وخمس مئة][2]

والسُّلْطان مخيم بمرج فاقُوس*، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميميّة في منتصف المحرَّم، وخدمه بها هناك في المخيم، أوَّلها[3]:

ريـمٌ هضيـمٌ يـروم هَضْمـي	مِـنْ سُقْـم عَيْنَيـه عَيْـنُ سُقْمـي
إنْ رُمـتَ يـا عـاذلـي صـلاحـي	فَخَلِّنـــي والهَـــوى وزَعْمـــي
لـومُـك يُـذكـي الغَـرام قُـلْ لـي	أنـت نصيحـي أم أنـتَ خصمـي
أيَـا زمـانـي الغشـوم أَقْصِـرْ	إنَّــك لا تستطيــع غَشْمـــي[4]
عَبْـدُ الـرّحيـمِ الـرحيـمُ أضحـى	عـونـي علـى خَطْبِـك المُلِـمِّ
بـالفـاضـلِ الأفضـلِ الأجـلِّ	المُفْضِـــلِ الأشـــرفِ الأَشَـــمِّ

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

ومن هنا سنحيل فيما يقتبس أبو شامة من العماد على الجزء الثالث من «البرق الشامي» المطبوع في عمان سنة (١٩٨٧ م) بتحقيق د. مصطفى الحياري، الصادر عن مؤسسة عبد الحميد شومان. وهو ينتهي في ذكر النزول على حصن بيت الأحزان وفتحه، في حوادث سنة (٥٧٥ هـ). انظر ص ٣٨ من الجزء الثالث.

والمعروف أنه لم يصلنا بعد من البرق إلا الجزء الثالث والخامس، والمطبوع أيضاً بتحقيق د. رمضان ششن، ثم أعاد تحقيقه الدكتور فالح صالح حسن، نشرته في عمان مؤسسة عبد الحميد شومان سنة (١٩٨٧ م)، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٠ من الجزء الأول.

(٣) في (م): منها.

(٤) الغشم: الظلم، والغشوم: الظلوم. «اللسان» (غشم).

غيثُ غياثٍ وجودُ جودٍ وبَحْرُ عِلْمٍ وَطَوْدُ حِلْمِ
يراعُهُ في اليمين منهُ يستخرجُ الدُّرَّ من خِضَمِّ[1]

قال: وكان عندنا بالمخيم بالعباسة[2] في المحرَّم علم الدين الشَّاتاني[3]، وهو من أدباء المَوْصِل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر، وأهدى النَّظم والنثر، واصطعنه عزّ الدين فَرُّخْشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رِفْده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السُّلْطان بالمخيّم[4] بكلمة، مطلعها:

غدا النَّصْرُ مَعْقُوداً برايَتِك الصَّفْرا فَسِرْ وافتحِ الدُّنيا فأنتَ بها أَحْرى[5]

قلت: لم يذكر العمادُ من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة.

والشَّاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في «تاريخ دمشق»[6]. وذكره العماد في «الخريدة»، وذكر فيها من هذه القصيدة:

---

(١) انظر القصيدة بتمامها في «البرق الشامي»: ٣/ ٢٤ ـ ٢٨. ومختارات منها في «الخريدة» قسم شعراء مصر: ١/ ٥٢ ـ ٥٤.

(٢) في (ل) و (م): العباسية، والمثبت من «البرق الشامي»: ٣/ ٢٩. وفي «معجم البلدان»: ٤/ ٧٥ «العباسة. . هكذا يتلفظون بها من غير إلحاق ياء النسبة، وهي بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون، إذ بنت بهذا الموضع قصراً، فكان يقال: قصر عباسة، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فبقي عباسة.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣٥ من الجزء الأول.

(٤) بالمخيم، ليست في (م).

(٥) «البرق الشامي»: ٣/ ٢٩.

(٦) «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ج ٤/ ٢٢٦ ب ـ ٢٢٧ أ.

يمينك فيها اليُمْنُ واليُسْرُ في اليُسْرى   فَبُشرى لمن يرجو النَّدى منهما بُشرى[1]

قال العماد: وكانت الأعلام السلطانية صُفراً، لا يفارق نشرها نصراً[2].

قلت: وفيها يقول بعضُ الفضلاء:

إذا اسْوَدَّ خَطْبٌ دونَه الموتُ أحمرُ   أتَتْ بالأيادي البيضِ أعلامُهُ الصُّفْرُ
فمذ ظهرت منصوبةً جُزِمَتْ بها   ظهورُ العِدَى من رفعها انخفض الكُفْرُ
ولمْ لا يحوز الأرضَ شرقاً ومغرباً   ولله في إعلاءِ رُتْبَتِهِ سِرُّ

وقال العماد: وعاد السُّلْطان إلى القاهرة وأقام بها، ثم اهتمت بالغزاة هِمَّته إلى غَزَّة وعَسْقَلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جُمادى الأولى بعد الصَّلاة، وخَيَّم بظاهرِ بِلْبيس* في خامسه بخميسه، ثم تقدَّمنا منه إلى السَّدير، وخيمنا بالمبرَّز، ثم نُودي: خذُوا زادَ عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسُّط ديار الكُفَّار[3]. [٢١/ب]

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السِّعْر في الارتفاع، فقلت [ل/ ٢٤٤ أ] لغُلامي: قد بدَا لي ــ وقد خطر الرُّجوع من الخطر ببالي ــ فاعْرِض للبيع أَجْمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السِّعْر الغالي، وأنا صاحبُ قلم لا صاحب عَلَم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة[4] ندم. والمدى بعيد، والخَطْبُ شديد، وهذه نوبة السُّيوف

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٦٤.
(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٢٩.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٣١.
(٤) في (ل): بعاقبة، والمثبت من (م).

لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإسلام. والواجب على كل منا أن يلزم شُغْلَه[1]، ولا يتعدَّى حدَّه، ولا يتجاوز محلَّه، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قِلَّة العِدَّة. وأظهرت سرِّي للمولى الأجل الفاضل، فسرَّه إشفاقاً علي، وإحساناً إلي. وكان السلطان أيضاً يؤثر إيثاري، ويختار اختياري، فقال لي[2]: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟ فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أَوْلى. فقال: تَعود وتدعو لنا، وتسْأل اللَّهَ أنْ يبلِّغنا في النَّصْر سُؤْلنا. ١/ ٢٧٢

وكنتُ قد كتبت أبياتاً إلى المخدُوم الفاضل ونحن بالمبرَّز في العشرين من الشهر:

قيلَ في مصْرَ نائلٌ عدد الرَّمْـ	ـلِ وَوَفْرٌ كنيْلِها المَوْفُورِ
فاغترزْنا بها وسِرْنا إليها	ووقعنا كما ترى في الغُرورِ
وحظِينا بالرَّمْلِ والسَّير فيه	ومُنِعْنا من نِيلها المَيْسُورِ
وبرزنا إلى المبرّز نشكو	سَدَراً[3] من نزولنا بالسَّديرِ
قيل لي سِرْ إلى الجهاد[4] وماذا	بالغٌ في الجهاد جهدُ مسيري
ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قو	سي يُرَىٰ مُوْتَراً إلى موتورِ
أنا للكُتْب لا الكتائب إقدا	مي وللصُّحف لا الصِّفاح[5] حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمامُ الـ	ـفاضل الفائض النَّدى بأموري

(١) شغله، ليست في (ل)، وهي في (م).
(٢) لي، ليست في (م).
(٣) السدر: شبه الدوار. انظر «اللسان» (سدر).
(٤) في (م): بالجهاد.
(٥) في الأصل و(ل): لا للكتائب، لا للصِّفاح، والمثبت من (م).

فـأنـا منـه فـي مـلابـس جـاهٍ رافـلاً منـه فـي حبيـر حُبـورِ
فهْـو رَقَّـىٰ مـن الحضيض حظـوظي وسمـا بـي إلـى سـريـر السُّـرورِ[1]

وقال: وما انقطعتُ عن السُّلْطان في غزواته[2] إلا في هذه الغزوة، وقد عَصَمَ الله فيها من النَّبْوَة، وكانت غزوات السلطان بعدها مُؤيَّدة، والسَّعادات فيها مجدَّدة.

وكنتُ لما فارقت القاهرة استَوحشت، وتشوَّقْتُ إلى أصدقائي وتشوشت، وكتبت من المخيم بِبِلْبيس* إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفَرَّاش[3] ، وقد أقام بالقاهرة، وكان صاحباً لي من الأيام النُّورية، واستشرته في التأخر عن السلطان. فكتب في الجواب: رافِقْه ولا تفارقْه. فكرهت رأيه، فكتبتُ إليه:

إذا رضيتُم بمكْرُوهي فذاك رضا لا أبتغي غير ما تَبغُون لي غَرَضا
وإن رأيتـم شفـاء القَلْـبِ فـي مَرَضـي فـإننـي مُسْتطيـبٌ ذلـك المَـرَضـا
أنتـم أشـرتـم بتعـذيبـي فصـرتُ لـه مُستعْـذبـاً أَسْتَلِـذُّ الهـمَّ والمضَضَـا
أصبحـتُ ممتعضـاً مـن أجـل أنـيَ لا أرى[4] صـديقـاً لمـا ألقـاه ممتعضـا
إن رمتـمُ عِـوَضـاً بـي[5] فـي محبَّتكـم فحـاشَ لله أن أبغـي بكـم عِـوَضـا
لله عيـشٌ تَقَضَّـى عِنْـدَكُـمْ ومضـى وكـان مثـلَ سحـابٍ بَـرْقُـه وَمَضَـا

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٣٢ ـ ٣٣، وفيه أنه قال هذه الأبيات على سبيل المداعبة.
(٢) في (ل): غزاة، والمثبت من (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٠٧ من هذا الجزء.
(٤) أرى، ساقطة من (م)، وفي «البرق الشامي»: ٣/ ٣٤ أرضى، وإخاله تحريفاً.
(٥) في «البرق الشامي»: لي.

العَيْشُ دانٍ جناه الغَضّ عندكمُ … والقلبُ محترقٌ مني بجمرِ غَضَا

ما كنتُ أَعْهَد منكمْ ذا الجفاء ولا … حسبتُ أنَّ وِدَادي عندكم رُفضا

قد أظلمَ الأفقُ في عيني لغيبتكم[1] … فإنْ أَذِنْتَ[2] لشخصي في الحضور أَضَا

ولستُ أوّل صَبٍّ من[3] أحبته … لمَّا جفوا ما قَضى أوطاره وقضى

مُروا بما شئتُمُ من محنةٍ وأذَى … فقد رأيتُ امْتثالَ الأمرِ مُفْتَرضا

طوبى لكم مصرُ والدَّار التي قُضِيَتْ … فيها المآربُ والعَيْش الذي خُفِضا

بعيشكم إن خَلَوْتُمْ بانبساطِكُم … تذكَّروا ضَجِراً بالعيش مُنْقَبِضا

رضيتُمُ سفري عنكم وأعهدُكم … بسَفرتي عنكُمُ لا تُظهرون رِضا

/ هلا تكلَّفتم قولاً أُسَرُّ به … هيهات جوهركم قد عادَ لي عَرَضا [٢١٤/أ]

تفضَّلوا واشرحوا صدري بِقُربِكُمُ … أو فاشْرحُوا ليَ ذاالمعنى الَّذي غَمُضا

فكتب إليَّ في جوابها أبياتاً، منها:

لا تَنْسُبُوني إلى إيثار بُعْدِكُمُ … فلَسْتُ أرضى إذا فارقتكم عِوَضا

ولي وِدادٌ تولَّى الصِّدْقُ عُقْدَتَهُ … فما تَراه على الأيّام مُنْتَقِضا

يلقاك قلبي على سُبْلِ العتاب له … بصحَّةٍ ليس يخشى بَعْدَها مَرَضا

وصرت كالدَّهْرِ يجني أهلُه أسفاً … ويَلْتقي من عِتاب المُذْنِب المضَضَا ١/ ٢٧٣

قال: ثمّ ودّعت وعُدْت، ونهضوا وقعَدْت[4].

---

(١) في (م): بغيبتكم.

(٢) في «البرق الشامي»: أذنتم.

(٣) في (م): في.

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٣٣ ـ ٣٦.

فصـــل[1]

في نوبة كسرة الرَّمْلة

وكانت على المسلمين بالجملة، وذلك يوم الجمعة غُرَّة جمادى الآخرة أو ثانيه.

ورحل السُّلْطان بعساكره فنزل على عَسْقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأُولى، فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر، وكسب وكسر، وجمع هناك مَنْ كان معه من الأسْرى، فضرب أعناقهم، وتفرّق عسكره في الأعمال مُغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا.

وتوسَّط السُّلطان البلاد، واستقلَّ يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة، بالرَّمْلة، راحلاً ليقصد بعض المعاقل، فاعترضه نَهْرٌ عليه تلُّ الصَّافية* فازدحمت على العُبور أثقال العساكر[2] المتوافية، فما شعروا إلا بالفرنج طالبةً[3] بأطلابها*، حازبةً بأحْزابها، ذابَّةً بذئابها، عاويةً بكلابها، وقد نفر نفيرُهم، وزفر زفيرهم. وسرايا المسلمين في الضِّياع مغيرة، ولرِحَا الحرب عليهم في دورهم مديرة، فوقف الملك المُظَفَّر تقي الدين وتلقَّاهم بصدره، وباشرهم بِبيضِه وسُمْره، فاستُشهد من أصحابه عِدَّة من الكرام، انتقلُوا إلى نعيم دار المقام؛ وهلك من الفرنج أضعافها.

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في نسخة الأصل، ومن ثم نعود إليها أصلاً في التحقيق. انظر حاشيتنا رقم ٩ ص ٤٥١ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: العباد، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: طالة، والمثبت من (ل) و (م).

وكان لتقيِّ الدين ولدٌ يقال له أحمد، أول ما طرَّ شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر، اسمه شاهِنشاه، وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه وقال له: تجيء إلى المَلِك وهو يعطيك المُلك. وزوَّر له كتاباً، فسكن إلى صدقه وخرج معه، فلما تفرَّد به شَدَّ وثاقه، [وغلَّه][1] وقيَّده، وحمله إلى الدَّاوية*، وأخذ به مالاً، وجدَّد عندهم له حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكَّه السُّلْطان بمالٍ كثير، وأطلق للدَّاوية كلّ مَنْ كان لهم عنده من أسير. فَغِلَظُ القلبِ التقوي على ذلك الولد جَرَّ هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه.

قال: ولو أن لتقيِّ الدين رِدْءاً لأردى القوم، لكن النَّاس تفرَّقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم، وصوَّب العدوُّ بجملتهم حملتهم على[2] السُّلْطان، فثبت ووقف على تقدمة من تخلَّف، وسمعته يوماً يصف تلك النَّوْبة، ويشكر من جماعته الصُّحْبَة، ويقول: رأيت فارساً يحثُّ نحوي حصانه، وقد صوَّب إلى نَحْري سِنانه، فكاد يُبْلغني طعانَه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كلّ واحد إلى [كل][3] واحدٍ منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكَّنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسُوَيد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر، واتَّفق لسعادة السُّلْطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه، وقارعوا العدو دونه وضايقوه.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل: إلى، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين من (م).

فما زال السُّلْطان يسير ويقف، حتى لم يبق[1] مَنْ ظنّ أنه يتخلف، ودخل اللَّيل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزَّاد والعلف ولا قليل، وتعسَّفوا السُّلوك في تلك الرِّمال والأوعاث والأوْعار، وبقُوا أياماً ولياليَ بغير ماء ولا زادٍ حتى وصلوا إلى الدِّيار. وأذن ذلك بتلف الدَّواب وترجّل الركاب، ولُغوب الأصحاب، وفَقْد كثير ممن لم يُعرف له خبر، ولم يظهر له أثر. وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظَّهير[2]، ومن كان في صُحبتهم، فَضلَّ الطريق عنهم، وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقُرب الأعداء، فأكمنوا[3] في مغارة، وانتظروا مَنْ يدلُّهم مِن بلد الإسلام على عمارة. فدلَّ عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم، وسعى في أَسْرهم[4] وعطبهم، فأُسروا، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين، بستين سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكُفَّار.

قال: وما اشتدَّت هذه النَّوْبة بكسرة، ولا عَدم نُصرة، فإن النِّكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها، وأدركت كلُّ نفسٍ مؤمنة مُشتهاها. لكن الخروج من تلك البلاد شتَّت الشَّمْل، وأوعر السهل، وسُلك مع عدم الماء والدليل الرَّمْل.

ومما قدَّره الله تعالى من أسباب السَّلامة، والهداية إلى الاستقامة، أنَّ الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية[5]

---

(١) لم يبق، ساقطة من (م).

(٢) استشهد في مرج عكا سنة ٥٨٥ كما سيرد ٤/ ٩٠ وانظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء. وص ٢٨ من الجزء الثالث.

(٣) في (م): فاكتمنوا.

(٤) في (م): أثرهم.

(٥) كان من الكنانية طائفة بدمياط وما حولها، انظر «قلائد الجمان» للقلقشندي: ١٣٥، و «البيان والإعراب» للمقريزي: ١٠، ٤٦ ــ ٤٧.

والأدلاء، وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه، وغِلْمانه وأصحابه، وأدلائه وأثقاله، وبثَّ أَصْحابه في تلك الرِّمال، والوهاد والتِّلال، حتى أخذ خبر السُّلْطان وقصده، وأوضح بأدلائه جَدَده، وفرَّق ما كان معه من الأَزْوَاد[1] على المنْقَطين، وجمعهم في خِدْمة السُّلْطان أجمعين، فسَهُل ذلك الوَعْر، وأنِس بعد الوحشة القَفْر، وجُبر الكسر.

وكان النَّاس في مبدأ توجُّه السُّلْطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدَّثوا وقالوا: لو قعد وتخلَّف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه. ثم عُرف أنَّ السَّلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه.

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا، وأُشيع بأن السلطان نصره الله، وأنَّ الفرنج [ــ خذلهم الله ــ][2] كسروا وغلبوا. فركبت لأسمع حديث النجَّابين وكيف نصر الله المسلمين وإذا [هُم][3] يقولون: أبشروا فإن السُّلْطان وأهلَه سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقُلت لرفيقي: ما بُشِّر بسلامة السلطان إلا وقد تَمَّت كسرة، وما ثَمَّ سوى سلامته نُصرة. ١/ ٢٧٤

ولما قرب خرجنا لتلقِّيه، وشكرنا الله على ما يسَّره من ترقيه وتوقِّيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامتُه مناب النَّصْر[4]، وسيَّرْنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف،

---

(١) في الأصل: الزاد، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في النسخ الخطية: الدهر، والمثبت من «البرق الشامي» ٣/ ٤٢، و«سناه» ١/ ٢٦٠.

وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبَتُها هائلة، ووقعتها غائلة[1].

وقال القاضي ابن شدَّاد: خرج السُّلْطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرَّمْلة، وذلك في أوائل جمادى الأُولى، وكان مقدم الفرنج البرنز أرناط* ــ وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله تعالى[2] ــ وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين. ولقد حكى السلطان ــ قدَّس الله روحه ــ صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تَعَبَّوْا تعبئة الحرب، فلما قارَبَ العدوّ رأى بعضُ الجماعة أن يغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب، ليكونوا حالَ اللقاء وراء ظهورهم تلٌّ معروف بأرض الرَّمْلة[3]، فبينا اشتغَلوا بهذه التعبئة هجمهم[4] الفرنج، وقدر الله تعالى كسرهم، فانكسرُوا كسرةً عظيمة، ولم يكن لهم حِصْن قريبٌ يأوُون إليه، فطلبوا جهة الدِّيار المصرية، وضلُّوا في الطريق وتبدَّدُوا، وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى. وكان وَهْناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد[5].

قلت: وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرَّمْلَة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حِطِّين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب: وحيث كانت للملك المظفَّر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء، أنشدته قصيدةً، منها:

سقى اللَّـهُ العـراقَ وسـاكنيـه وحَيَّـاه حيَـا الغيـثِ الهَتُـونِ

(١) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٣٦ ــ ٤٢.
(٢) انظر ص ٤٠٠ من هذا الجزء.
(٣) هو تل الصافية الذي سلف ذكره ص ٤٦٢ من هذا الجزء.
(٤) في الأصل و(ل): هجم، والمثبت من (م).
(٥) «النوادر السلطانية»: ٥٣.

وجيـرانـاً أَمِنـت الجَـوْرَ منهـم ... ومـا فيهـم سِـوَى وافٍ أميـنِ
صفَـوْا والـدَّهْـرُ ذو كَـدَرٍ وقِـدْمـاً ... وفَوْا بالعهد في الزَّمن الخؤونِ
بنـو أيـوبَ زانـوا المُلْـكَ منهـم ... بحِلْيـة سُـؤْدَدٍ وتُقـىً وديـنِ
ملـوكٌ أصبحـوا خيـرَ البـرايـا ... لِخَيْـرِ رَعِيَّـةٍ فـي خيـر حيـنِ[1]
أسـانيـدُ السيـادةِ عـن عُـلاهـم ... مُعَنْعَنـةٌ مصحَّحـةُ المُتُـونِ
بنـو أيـوب مثـلُ قـريـشَ مجـداً ... وأنـت لهـا كـأنـزعهـا البطيـنِ[2]
أخفت الشِّرْكَ حتى الذُّعْرُ منهم ... يُـرى قبـل الـولادةِ فـي الجنيـنِ
ويـومَ الـرَّمْلـة المرهـوب بـأسـاً ... تـركـت الشِّـركَ منـزعـج القَطِيـنِ
وكنـتَ لعسكـرِ الإسـلامِ كَهْفـاً ... أوى منـه إلـى حِصْـنٍ حَصِيْـنِ
وقـد عَـرَفَ الفـرنـج سُطـاك لمـا ... رأوا آثـارهـا عيـنَ اليقيـنِ
وأنـت ثَبـتَّ دون الـدِّيـن تحمـي ... حِمـاهُ أَوَانَ ولَّـى كـلٌّ دونِ[3]

قال: واهتمَّ السُّلْطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وافتقاد الناس بالنُّقود، والنسايا[4] الصَّادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد، وتكثير المدد، وتعويض ما وقف[5] من الدواب،

---

(١) في الأصل و (ل): دين، والمثبت من (م).
(٢) النزع: انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبي الجبهة. والبطين الأنزع هي صفة الإمام علي كرَّم الله وجهه. «اللسان» (نزع).
(٣) في الأصل و (ل): دين، والمثبت من (م). وانظر «القصيدة» في «البرق الشامي» ٣/ ٤٦ ـ ٥٠.
(٤) في النسخ الخطية: والسنايا، والمثبت من «البرق الشامي»: ٣/ ٥٠.
(٥) في «البرق الشامي»: ٣/ ٥٠ وقت، وهو تحريف، وفي طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٧٤: نفق، وهو تحريف أيضاً. والصواب ما هو مثبت في نسختنا. وكانت عدة من الدواب قد وقفت عند العودة بالأثقال. انظر « البرق الشامي»: ٣/ ٤٦.

فسلَوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم[1].

قال ابن أبي طيّ: وقال[2] ابن سَعْدَان الحلبي[3] يمدح السُّلْطان، ويذكر ما فعله على عَسْقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة، من قصيدة:

قرَّبْت من عسقلانٍ كلّ نائبة ... باتت تقلّ بوكّافٍ من الأسَلِ

فاض النَّجيعُ عليها وهي مُمْحِلةٌ ... فأصْبَحَتْ مَرْتَعاً للخيلِ والإبلِ

قُل للفرنجيّة الخذلى رُوَيْدكم ... بالثأر أو تخرجَ الشِّعْرَى من الحَمَلِ

ترقَّبوها من الفَوَّارِ طالعةً ... خوارق الأرض تمحو رونق الأُصُلِ

كأنني بِنَواصِيهِنَّ يَقْدُمها ... كاسٍ من الجود عُرْيانٍ من البَخَلِ

حَسْبُ العِدَى يا صلاحَ الدين حسبهمُ ... أن يقرفوك بجرحٍ غير مُنْدَمِلِ

وهل يخاف لسانَ النَّحْل ملتمسٌ ... مرَّت على أصبعيه لذَّةُ العَسَلِ

فصل
في وفاة كُمُشْتِكِين[4]
وخروج السُّلْطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبِّري الملك الصَّالح،

---

(١) انظر «البرق الشامي»: ٣/٤٦ ـ ٥٠.

وفي (م) بعد هذا الخبر: «تم الجزء الأول من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، يتلوه ـ إن شاء الله تعالى ـ في الجزء الثاني قال ابن أبي طي، والحمد لله حق حمده، وصلواته على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً».

قلت: انظر وصف نسخة ميونخ ص ١٠ في مقدمة الجزء الأول.

(٢) في الأصل: وكان، والمثبت من (ل).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من هذا الجزء.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٨ من هذاالجزء.

وكان كمشتكين قد بنى خانقاه في حلب، كانت من قبل داراً لأبي الطيب =

واستولى على أمره العَدْل ابن العجمي أبو صالح[1]. وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين الخادم مقدَّم العسكر، وأمير المعشر، وهو صاحب حِصْن حارِم*، وقد حسده أمثالُه من الأمراء والخُدَّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الإسماعيلية يوم الجمعة بعد الصَّلاة في جامع حلب فقتلوه. ١/ ٢٧٥

واستقل[2] كُمُشْتِكِين بالأمر، فتكلَّم فيه حُسَّادُه وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرَك ومُشيرَك ابنَ العجمي إلا كمشتكين، فهو الذي حَسَّن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السُّلْطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارِم، وأوقعوا بها لأجله العظائم. فكتب إلى نوابه بها فنبَوْا وأبَوْا[3]، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوَّفوه بالصَّرعة، فلما طال أمره، قصر عُمره، واستبدَّ الصِّغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجَرَّد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعةٍ بذلها لهم الملك الصَّالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولّى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك[4].

وقال ابن الأثير: سار الملك الصَّالح من حلب إلى حارِم ومعه كُمُشْتِكِين، فعاقبه ليأمُرَ مَنْ بها بالتَّسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعُلِّق

= المتنبي. انظر «زبدة الحلب» لابن العديم: ٣/ ١٧.

(١) هو شهاب الدين، أبو صالح، عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي، سلفت أخباره ص ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٣٢، ٤١٤ من هذا الجزء. وقد هجاه العماد هجاء مقذعاً لعداوة كانت بينهما، انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٦٩ ــ ٣٧٢، وله ترجمة في «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٢، و «زبدة الحلب»: ٣/ ١٠، ٣٢ وما بعدها.

(٢) في (ل): واشتغل، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: ونبوا، والمثبت من (ل).

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٥٠ ــ ٥٢.

منكوساً ودُخِّن تحت أنفه فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها. ثم إنه أخذها بعد ذلك(١).

قال ابن شدَّاد: أما الملك الصَّالح فإنه تخبَّطَ أمرُه، وقبض كُمُشْتِكِين صاحبَ دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم، طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقابل عسكر الملك الصَّالح العساكر الإفرنجيّة، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج [سلَّموها](٢) إلى الملك الصَّالح في العشر الأواخر من شهر رمضان. ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارِم* طالبين بلادَهم، ثم عاد الصَّالح إلى حلب، ولم يَزَلْ أصحابه على اختلاف بميل بعضهم إلى جانب السلطان، قدَّس الله روحه(٣).

قال العماد: ووصل في هذه السنة إلى السَّاحل من البحر كندٌ كبير يقال له افلندس(٤)، أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خُلُوَّ الشَّام من ناصري الإسلام. ومن جملة شروط هُدْنة الفرنج أنهم إذا وَصَلَ لهم ملك أو كبير، ما لهم في دَفعه تدبير، أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويحالفونه ولا يخالفونه، فإذا عادَ عادت الهُدْنة كما كانت، وهانت الشدة ولانت. وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجنَّدوا الجنود، ونزلوا على حماة في العشرين من جُمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريض، ونائب السُّلْطان بدمشق يومئذٍ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون بلذَّاتهم، وكان

---

(١) «الباهر»: ١٧٨.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٣.

(٤) هو Philip Flanders. انظر عن أخباره «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٦٦٨ ــ ٦٧١.

سيف الدين علي بن أحمد المشطوب[1] بالقُرْب، فدخلها وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطَّعْن والضَّرْب، وجرت ضروبٌ من الحروب، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدُّروب، ونصر الله أهل الإسلام، بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاعين ونزلوا على حِصْن حارم، كما تقدَّم ذكره. فرحَّلهم عنه الملك الصَّالح بعد حصاره أربعة أشهر[2].

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد: خرج الكُفَّار إلى البلاد الشَّامِيَّة، فاسخين لِعَقْدٍ كان مُحْكماً، غادرين غدْراً صريحاً، مقدّرين أنْ يُجهزوا على الشَّام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلُوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جُمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم أصحابنا، وتضمَّن كتاب سيف الدِّين ـ يعني المشطوب ـ أنّ القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجلٍ ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصُّدور، ورزق عليهم النصر والظهور. ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب، مفرّقة أحزابُهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشَّريفة النَّبويَّة الأحزاب.

قال العماد: وتسامعَ الحلبيُّون بيوم رحيلنا من مصر لِقَصد الشَّام لنُصْرة الإسلام[3]، وقالوا: أوّلُ ما يصل صلاح الدِّين يتسلَّم حارِم. فراسلُوا الإفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبُوهم، وقالُوا لهم: صلاح الدِّين وَاصِل، وما لكُم بعد حصوله عندكم حاصل. فرحل الفرنج بقَطيعةٍ من المال أخذوها، وعِدَّة من الأسارى خلَّصوها.

(١) في الأصل: ابن المشطوب، والمثبت من (ل). وأخباره كثيرة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٤/٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٥٢ ـ ٥٤.
(٣) في الأصل: ونصرة، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق».

ثم تُوفِّي خالُ السُّلْطان شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارِمي، في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش، ابن خال السُّلْطان، قبله بثلاثة أيَّام وذلك أوان وقعة الرَّمْلَة[1].

ولمَّا سمع السُّلْطان بنزولُ الفرنج على حارم رحل من البِرْكة[2] يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل أَيْلَة* في عاشر الشَّهر، واستناب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنيَّة الحج في السنة القابلة. ووصل السُّلْطان إلى دمشق في الرَّابع والعشرين من شَوَّال[3].

ومما نظمه العماد في التَّشوق إلى مصر قوله:

ساكني مِصْرٍ هَناكُمْ طِيبُها ... إنَّ عَيْشي بَعْدَكُمْ لَمْ يَطِبِ
لا عَدِمْتُم راحةً من قُرْبِها ... فأنا من بَعْدِها في تَعَبِ
بَعُدَ العَهْدُ بأخبارِكُمُ ... فابْعثوا أخبارَكُمْ في الكُتُبِ
ليْت مِصْراً عرفَت أنِّي وإنْ ... غِبْتُ عنها فالْهوَى لم يَغِبِ[4]

٢٧٦/ ومن ذلك:

تَذَكَّرْتُ في جِلِّقٍ دارَكم ... بمِصْرَ ويا بُعْدَ مَا بيننا
وما أتمنَّى سِوى قُرْبِكُمْ ... وذلك والله كلُّ المُنَى
لكم بالجِنان وطيبِ المَقَامِ ... وحُسْنِ النَّعيمِ بمصر الهنا[5]

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٥٤ ـ ٥٦.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من هذا الجزء.
(٣) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٥٦ ـ ٥٧.
(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٣.
(٥) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٣.

ومن ذلك:

يا ساكني مِصْرَ قد فُقْتُمْ بفضلكمُ ... ذوي الفَضَائل من سُكّان أَمْصَارِ
لله دَرُّكُمُ من عُصْبَةٍ كَرُمَتْ ... ودَرُّ مِصْرِكُمُ الغَنَّاء مِنْ دَارِ[1]

ومن ذلك:

يا حبَّذا مِصْرٌ وبِرْ ... كَتُها وصَدْرٌ* والعَريشُ
فهناك أملاكي الَّذيـ ... نَ سَمَتْ بِعِزِّهِمُ العُرُوشُ

قال: ووصل كتابٌ من الفاضل يذكر فيه أن العدو ـ خذله الله تعالى ـ نهض [ووصل][2] إلى صَدْر، وقاتَل القلعة ولم يتمَّ له أمر، فصرف الله شَرَّه، وكفى أمره.

ووصل من الفرنج مستأمِنٌ وذكر أنَّهم يريدُون الغارة على فاقُوس*، فاستقلُّوا أنفسهم وعرَّجوا، وذكر أنَّهم مَضَوْا بنية تجديد الحشد، ومعاودة القَصْد.

قال: وأما نوبة العدو في الرَّمْلة فقد كانت عثرةً، علينا ظاهرُها، وعلى الكُفَّار باطنها، ولزمنا مانَسِّيَ[3] من اسمها، ولزمهم مابَقِّيَ من غرمها، ولا دليل أدلَّ على القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشَّام، نخوضُ بلاد الفرنج بالقَوافل الثَّقيلة، والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور[4].

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٤.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

(٣) في الأصل: ما لزم، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق».

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٦، ٦٨.

قال العماد: ولما دَخَلْنا دمشق وجَدْنا رُسُل دار الخلافة، قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذٍ صاحبُ المخزن ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر العَطَّار[1]، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الإِيراد والإِصدار، وقد توفَّر على محبَّة السُّلْطان وتربية رجائه، وتلْبية دعائه. ووصل كتابُه ورسوله بكلّ ما سَرَّ السَّرائر، ونوَّر البصائر[2].

فصـــل
في ذكر أولاد السُّلْطان

قال العماد: وفي هذه السَّنة وُلد بمِصْر للسُّلطان ابنُه أبو سليمان داود.

وكتب الفاضل إلى السُّلْطان يهنئه به ويقول: إنه وُلد لسبعٍ بقين من ذي القَعْدة، وهذا الولدُ المُبارك هو المُوفي لاثني عشر ولداً، بل لاثني عشر نجماً متوقِّداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المَوْلى يقظةً ورأى تلك الأنجم حُلُماً، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجوداً، وهو قادرٌ سبحانه أن يزيد جُدُود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً[3].

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده[4]، وجرى ذكرُ أولاده، واعْتِضادِه بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفتُ أيام

---

(١) سيرد خبر مقتله ــ وكان من الظلمة ــ ٣/ ٥٢ من هذا الكتاب، وانظر ص ٤٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: الأبصار، وفي هامشه: (خ) البصائر، وهي المثبتة في (ل) و «البرق الشامي»: ٣/ ٦٩.

(٣) «البرق الشامي»: ٣/ ٧٥ ــ ٧٦.

(٤) في «البرق الشامي»: ٣/ ٧٦ بالبيت المقدس سنة ثمانٍ وثمانين.

مواليدهم في أعوامها[1]، لأنشأتُ رسالةً على نظامها، فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم.

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، وُلد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمسٍ وستِّين وخمس مئة[2].

العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدِّين، وُلد بمصر ثامن جُمادى الأولى سنة سبعٍ وستين[3].

الظافر أبو العبَّاس خضر مظفر الدِّين، ولد بمصْر في خامس شعبان سنة ثمانٍ وستين، [وهو أخو الأفضل لأبويه][4].

الظاهر أبو منصور غازي غياث الدِّين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمانٍ وستين[5].

المعِزّ أبو يعقُوب إسحاق فتح الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين[6].

المؤيَّد أبو الفتح مسعود نجم الدِّين، وُلد بدمشق في ربيع الأوّل سنة

---

(١) في الأصل: أيامها، والمثبت من (ل).

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٢ هـ). وانظر ص ١٥٣ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل)، وفي هامش الأصل: «حاشية قال المؤلف: وقيل أبو الفتح وأبو المظفر».

قلت: توفي بحرَّان سنة (٦٢٧ هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٠٥، و «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» لابن الحنبلي: ٢٦٦.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٦) توفي سنة (٦٢٥ هـ) «شفاء القلوب»: ٢٦٥ ــ ٢٦٦.

إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه[١].

الأعزُّ أبو يوسف يعقوب شرف الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو لأم العزيز[٢].

الزَّاهر أبو سلَيْمان داود مجير الدِّين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين، وهو لأم الظَّاهر[٣].

المفضَّل أبو محمد موسى قطب الدِّين، ثم نعت بالمظفَّر، ولد بمصر سنة ثلاثٍ وسبعين. وهو لأم الأفضل[٤].

الأشرف أبو عبد الله محمَّد عز الدِّين[٥]، وُلد بالشَّام سنة خمسٍ وسبعين.

المُحسنِ أبو العباس أحمد ظهير الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل[٦] سنة سبعٍ وسبعين، وهو لأم الأشرف[٧].

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٠٦ هـ).

(٢) توفي بحلب سنة (٦٢٤ هـ) «شفاء القلوب»: ٢٧٠، «ترويح القلوب»: ٩٤.

(٣) كان صاحب قلعة البيرة على الفرات، توفي سنة (٦٣٢ هـ).
انظر ترجمته ومظانها في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٣٨٣، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨، و «شفاء القلوب»: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٤) توفي سنة (٦٣١ هـ) «السلوك» للمقريزي: ج ١/ ق١/ ٢٨٩، «شفاء القلوب»: ٢٧٠، «ترويح القلوب»: ٩٣.

(٥) في الأصل: عزيز الدين، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق الشامي»: ٣/ ٧٨، وقد ذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٠٥ هـ).

(٦) في «البرق الشامي»: ٣/ ٧٨ في ربيع الآخر.

(٧) كان من أكثر أولاد صلاح الدين عناية بالحديث، وفي مجاميع الظاهرية الحديثية سماعات كثيرة له، توفي سنة (٦٣٤ هـ). انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٤٣١ ـ ٤٣٢، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤، وفيه: وبقي أخوه

المعظَّم أبو منصور تورانشاه فخر الدِّين، ولد بمصر في ربيع الأوَّل سنة سبعٍ وسبعين أيضاً.

١/٢٧٧ قلت: ومات سنة ثمانٍ وخمسين [وست مئة][1] وهي السَّنة التي أخرب العدوُّ من التتار ــ خذلهم الله تعالى ــ فيها مدينة حلب وغيرها، والله أعلم[2].

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأوَّل سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعزّ[3].

الغالب أبو الفتح مَلِكْشاه نصير الدين، مولده بالشَّام في رجب سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعظم[4].

المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظَّم لأبويه، ولد بحرَّان* بعد وفاة السُّلطان[5].

قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع[6].

= الصالح أحمد صاحب عينتاب حياً إلى سنة إحدى وخمسين». قلت: وهذا وهم من الذهبي إذ إن الصالح أحمد هو ابن أخيه الملك الظاهر غازي. انظر «العبر» للذهبي: ٥/٢٠٧ ــ ٢٠٨ و «شفاء القلوب» ٢٦٧. وص ٩٩ من الجزء الثالث.

(١) ما بين حاصرتين من (ل).

(٢) انظر «العبر» للذهبي: ٥/ ٢٤٥، و «شفاء القلوب»: ٢٦٨ ــ ٢٩٦ وفيه: توفي سنة (٦٤٨ هـ)، وهو تحريف. وص ٩٩ من الجزء الثالث.

(٣) «شفاء القلوب»: ٢٧٠، «ترويح القلوب»: ٩٥، ولم يذكرا سنة وفاته.

(٤) في «شفاء القلوب»: ٢٧٠ وفيه العادل، وقيل: الغالب ملك شاه ناصر الدين، وقيل: هو الغالب فروخ شاه» ولم يذكر سنة وفاته وانظر«ترويح القلوب»: ٩٦.

(٥) «شفاء القلوب»: ٢٧١، وتوفي السلطان سنة (٥٨٩ هـ).

(٦) «البرق الشامي»: ٣/ ٧٦ ــ ٧٩.

وقال في آخر كتاب «الفتح القُدسي»، على ما سنذكره في آخر هذا الكتاب: إنَّ السُّلطان لما تُوفِّي خلَّف سبعةَ عشرَ ولداً وابنةً صغيرة[1].

فقد فاته هنا ذكر اثنين، وهما عماد الدِّين شاذي[2]، لأم ولد، ونُصرة الدين مروان[3]، لأم ولد، وأمَّا البنت فهي مؤنسة خاتون، تزوَّجها الملك الكامل محمَّد، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى[4]، وهو ابن عمِّها الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن دَرَجَ في حياته، كالملك المنصور حسن، وسيأتي ذكر وفاته[5]، والأمير أحمد وهو الذي رثاه العَرْقَلة بقوله:

أيّ هـــــلالٍ كُسِفـــــا ... وأيّ غُصْـــــنٍ قُصِفـــــا
كـــان ســـراجـــاً قـــد طفـــا ... علـــى الـــورى ثـــمّ انطفـــا
لـــم يَـــرْكـــب الخيـــلَ ولـــم ... يقلِّـــــدوه مُـــــرْهفـــــا
قـــل للنُّحـــاة وَيْحَكُـــمْ ... أحمـــدُكُـــمْ قـــد صُـــرِفـــا
صبـــراً صـــلاحَ الـــدِّيـــن يـــا ... ربَّ السَّمـــاحِ والـــوَفـــا[6]

---

(١) «الفتح القسي»: ٦٢٩. وانظر ٤/ ٣٧٥.

(٢) «شفاء القلوب»: ٢٧١، وفيه يسمى: عمر بن يوسف.

(٣) في (ل): نصير الدين، وسترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٥٢ هـ).

(٤) في هامش الأصل: «حاشية، في سنة ست وتسعين وخمس ومئة عندما ملكه أبوه مصر بعد قطع خطبة المنصور بن العزيز بن صلاح الدين». قلت: وانظر ص ٤٦٠ من الجزء الرابع.

(٥) انظر ص ٥٠ من الجزء الثالث. وذكر ابن شداد في «نوادره»: ٢٦ الملك الصالح إسماعيل وقد توفي في حياة والده وهو بالغ.

(٦) الأبيات في «ديوانه»: ٦٥، وهي مستدركة من كتابنا هذا.

قال العماد: وورد من الفاضل كتابٌ تاريخه منتصف ذي الحجة من سنة ثلاثٍ وسبعين ذكر فيه فصولاً متعددة، منها: للمولى أولادٌ وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد[1] للقلاع رجالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً، وقيل: القلاع أنوفٌ من حلَّها شَمَخَ بها.

ما في الرِّجال على النِّساء أمين

ومنها أبيات في ذكر السَّلام:

مملـوكُ مـولانـا ومملـوكُ ابنـه	وأخيـه وابـن أخيـه والجيـران
طـيّ الكتـاب إليـه منـه[2] إجـابـة	لسـلام مَـوْلانـا ابنـه عثمـان
والله قـد ذَكَـر السَّـلام وأنـه	يجـزي بـأحسـن منـه فـي القُـرْآنِ
وغـريبـة قـد جئـتُ فيهـا أوّلاً	ومـن اقتفـاهـا كـان بعـدي الثـانـي
فـرسـولـيَ السلطـان فـي إرسـالهـا	والنَّـاس رُسْلُهُـم إلـى السُّلْطـانِ[3]

قلت: ووصف الفاضل الملك المُؤيَّد في كتاب آخر فقال: وقد تمطَّت به السّنّ وامتدَّت، وتأهبّت السَّعادة لخطبته واعتدَّت، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدَّت.

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: إعزازه لأهل الفضل دليلٌ على فضله، وأنّ الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا إذْ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعاني كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العِلْمُ والعَلَم.

---

(١) في الأصل: يستجد، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق الشامي»: ٣/ ٨١.
(٢) في الأصل: منه إليه، والمثبت من (ل).
(٣) «البرق الشامي»: ٣/ ٨١ ـ ٨٢.

ومن كتاب آخر في المعنى: فلقد زادَتْ هذه المنقَبة في مناقبه، ونظمت عقود سُؤدد في ترائبه.

فما تَرْجَمَ الإِنسانُ عن سِرِّ فَضْلِهِ ... بأفضل من تقريبه لأُولي الفَضْلِ

قال العماد: وخرج السُّلْطان للصيد في ذي الحِجَّة نحو قارا*، فشكوت ضرسي، وعَدِمْتُ أُنسي، فرجعت مع عزّ الدين فَرُّخْشاه لحمَّى عَرَتْه فشكا منها، ألا تزور إلاّ نهاراً جهاراً، ولا تفارق بعرق، بالضدِّ من الحُمَّى التي وصفها أبو الطيب المتنبي[1]، فنظمت فيه كلمة طويلة، أوَّلها:

يمينك دَأْبُها بَذْلُ اليسارِ ... وكَفُّك صَوْبُها بِدَرُ النُّضارِ[2]

وإنك من ملوكِ الأَرْضِ طُرّاً ... بمنزلة اليمينِ مِنَ اليسارِ

وأنتَ البَحْرُ في بَثِّ العطايا ... وأنت الطَّوْدُ في نادي الوقار

ومنها في وصف الحُمَّى:

وزائرةٍ وليس بها حَيَاءٌ ... فليْسَ تزور إلاّ في النَّهارِ

ولو رَهِبَتْ لدى الإِقدام جوري ... لما رَغِبَتْ جِهاراً في جِواري

أتتْ والقلبُ في وَهَجِ اشتياقٍ ... لتظهر ما أُوارِي من أُوَاري

---

(١) إشارة إلى قصيدة المتنبي التي مطلعها:

ملومكما يجل عن الملام ... ووقع فَعاله فوق الكلام

وفيها عن الحمى:

وزائرتي كأن بها حياءً ... فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا ... فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها ... فتوسعه بأنواع السقام

إذا ما فارقتني غسلتني ... كأنا عاكفان على حرام

انظر القصيدة في «ديوان المتنبي» ٤/ ١٤٢ ـ ١٤٩ بشرح العكبري.

(٢) في الأصل و (ل): النطار، والمثبت من «البرق الشامي»: ٣/ ٨٦.

٢٧٨/١

ولو عرفت لظى سطواتِ عَزْمي	لكانت من سُطَاي على حِذَارِ
تقيمُ فحين تُبصر من أناتي	ثباتَ الطَّوْدِ تُسْرع في الفِرَارِ
تفارقني على غير اغتسالٍ	فلم أحلُل لِزَوْرَتِها إزاري
أيا شمسَ الملوكِ بقيتَ شمساً	تنيرُ على الممالك والدِّيارِ
أحمَّاك[١] استعارَتْ لَفْحَ نارٍ	لِعَزْمِكَ لم تَزَلْ ذاتَ اسْتِعارِ[٢]

فصل

قال العماد: وفي العشر الأوَّل من ذي القعدة قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء[٣] وزير الخليفة[٤] ببغداد، على أيدي الملاحدة، وكان قد توجَّه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا[٥]، غربي دِجْلة، كهلٌ في يده قِصَّة يزعم

---

(١) في الأصل: أخلاي، والمثبت من (ل).

(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٨٥ ــ ٨٦.

(٣) هو أبو الفرج، محمد بن عبد الله بن هبة الله بن مظفر بن الوزير الكبير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن المسلمة، ولد سنة (٥١٤ هـ) وكان أبوه أستاذ دار المقتفي لأمر الله، فلما مات ولي عضد الدين مكانه، وبقي كذلك إلى أن مات المقتفي، فأقره المستنجد ورفع قدره، فلما ولي المستضيء سنة (٥٦٦ هـ) استوزره، ثم عزله سنة (٥٦٧ هـ)، ثم أعيد إلى الوزارة سنة (٥٧٠ هـ)، وبقي فيها حتى مقتله، أخباره في «المنتظم»: ١٠/ ٢٧٣ ــ ٢٧٥، ٢٨٠، وفيه تفصيل حادثة مقتله، و «الكامل»: ١١/ ٤٤٦ ــ ٤٤٧، و «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥ ــ ٥٨، و «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٠ ــ ٢٢٢، و «الفخري في الآداب السلطانية»: ٢٣٢ ــ ٢٣٣، و «تلخيص مجمع الآداب»: لابن الفوطي: ج ٤/ق ١/ ٤٥٣ ــ ٤٥٤، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٧٥ ــ ٧٧، و «الوافي بالوفيات»: ٣/ ٣٣٥، وفيه أنه مات سنة (٥٧٢ هـ) وهو وهم، وانظر ص ٣٩٠ من هذا الجزء.

(٤) من هنا يبدأ خرم بنسخة (ل) ينتهي بانتهاء الجزء، ومن ثم سنعتمد فيما بقي من هذا الجزء على الأصل وحده.

(٥) محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد، «معجم البلدان»: ٤/ ٣٧٤.

أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قِصّته، فانتهز فيه فُرْصته، فقتله، وبَدَر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير[1] فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوَّج فمات[2]، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقُطع الملاحدة وأحرقوا، واستقلَّ ظهير الدين أبو بكر منصور[3] بن نصر المعروف بابن العطَّار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدناً مصافياً[4].

قلت: وابن العطّار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد، كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين[5].

قال ابن الأثير: وكنت حينئذٍ ببغداد عازماً على الحجّ، فعبر عضد الدّين دِجْلة في شبارة[6]، فلما ركب دابته والنَّاس معه ما بين راكب وراجل، تقدَّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه، فتقدم إليه الباطنيّة فقتلوه بالجانب الغربي، وقُتل الباطنية

---

(١) هو عبيد الله بن محمد، كان أستاذ الدار زمن وزارة أبيه، وللعماد الكاتب قصيدة في مدحه، توفي سنة (٥٧٦ هـ). انظر «خريدة القصر»: قسم شعراء العراق: ٢/ ١٦٢ ــ ١٦٦، و «تاريخ الإسلام» (خ) ١٤/ ٦٦أ.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسين، من بيت الحجابة والرواية، قتل ولم يبلغ الثلاثين، كان عاقلاً ديناً ذا مروءة، وله نوادر مع اللصوص في بغداد، ذكر بعضاً منها سبط ابن الجوزي. انظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٨٢، و «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٨، و «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٢.

(٣) في الأصل: ابن منصور، والمثبت من ص ٤٧٤ من هذا الجزء. وكان ابن العطار هذا مدبراً لمقتل الوزير عضد الدين. انظر «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٨.

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٨٦ ــ ٨٨.

(٥) انظر ص ٥٢ من الجزء الثالث.

(٦) ضرب من الزوارق. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي الطبعة الفرنسية: ١/ ٧١٩.

وأحرقوا، وحُمل من موضعه إلى دارٍ له بِقَطُفْتا في الجانب الغربي، فتوفي بها[1].

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السُّلْطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين، وفيها: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[2] فقد كان ــ عفا الله عنه ــ قتل ولدَيْ الوزير ابن هُبيرة[3] وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

مَـنْ يُـرِ يـومـاً يُـرَ بِـهْ والـدَّهْـرُ لا يُغْتَـرُّ بِـهْ

وهذا البيت بيت ابن المُسْلمة عريق في القتل، وجدُّه[4] هو المقتول بيد البساسِيري[5] في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر[6]، فهو من ذُرِيَّة لم تزل قاتلة مقتولة، وما زالت السيوف عليها ومنها

---

(١) «الباهر»: ١٧٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سلفت ترجمة الوزير ابن هبيرة ص ٤٤٠ من الجزء الأول.

(٤) هو علي بن الحسين بن أحمد، أبو القاسم بن المسلمة، ولد سنة (٣٩٧ هـ)، وقتل سنة (٤٥٠ هـ)، وكان الخليفة القائم قد استكتبه ثم استوزره ولقبه برئيس الرؤساء، وكان وافر العقل، أصيل الرأي، انظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ١١/ ٣٩١ ــ ٣٩٢، و «الفخري في الآداب السلطانية»: ٢١٥ ــ ٢١٦، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٥/ ٢٤٧ ــ ٢٥٣، وفيه تفصيل وافٍ عن مقتله.

(٥) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله، كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وكان مقدماً زمن القائم بأمر الله على جميع الأتراك، وخطب له على منابر العراق وخوزستان، ثم إنه خرج على القائم، وأخرجه من بغداد، وخطب فيها للمستنصر العبيدي صاحب مصر، وذلك سنة (٤٥٠ هـ) وبقي سنة، حتى قتله عسكر طغرلبك السلجوقي سنة (٤٥١ هـ)، وطيف برأسه في بغداد، انظر أخباره في «الكامل»: ٩/ ٦٤٠ ــ ٦٥٠، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٩٢ ــ ١٩٣، و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٣٨ ــ ١٤٠.

(٦) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: ذكر أبو الفضل محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه المذيل أن البساسيري حبس رئيس الرؤساء وزير الخليفة، ثم =

مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المُصِمّة كما قال دُريد:

أبى الموتُ إلا آل صِمَّة

والأبيات المولى يحفظها، وهي في «الحماسة»[1]، وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشَّهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[2].

إنَّ المساءةَ قد تسرُّ وربما ... كان السُّرورُ بما كَرِهْتَ جديرا
إنَّ الوزيرَ وزيرَ آل محمد ... أوْدَى فمن يَشْناك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سَلَمة الخَلاَّل أول وزير لبني العَبَّاس[3].

قلت: وبلغني أنَّ الفاضل كان ينشد:

وأحسنُ من نيل الوزارة للفتى ... حياةٌ تريه مَصْرَعَ الوزراءِ

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوْري[4] قد سار في الرسالة

= أخرجه وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة جلود، وهو يقرأ ﴿قُلِ اللهم مالك المُلْك﴾ الآية، ويرددها، وطيف به على جمل في هذه الحال، ثم نصبت له خشبة بباب خراسان، ثم حط عن الجمل، وخيط عليه جلد ثور سُلخ في الحال، وعلق في فكيه كلابان من حديد، واستبقي في الخشبة حياً، ولبث إلى آخر النهار يضطرب، ثم مات، والله أعلم». قلت: انظر عن الهمذاني حاشيتنا رقم ٢ ص ٩٩ من الجزء الأول.

(١) «حماسة أبي تمام» شرح المرزوقي: ٢/ ٨٢٤، وفيها:

أبى القتل إلا آل صِمَّة إنهم ... أَبَوْا غيره والقَدْرُ يجري إلى القَدْر

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

(٣) قالهما سليمان بن المهاجر البجلي. انظر «تاريخ الطبري»: ٧/ ٤٥٠، «وفيات الأعيان»: ٢/ ١٩٦، وانظر «البرق الشامي»: ٣/ ٨٩ ــ ٩٠.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٢٦ من هذا الجزء.

إلى بغداد، وتوقَّف في المَوْصِل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد[1] ابن القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك، وفيه:

يُدلَّى ابنُ عشرين في لَحْدِهِ وتسعون صاحِبُها راتِعُ

اغتُبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل، وعُمِّر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل.

ليُعْلم أن الشّيب ليس بمُسلم وأن الشباب الغضَّ ليس بمانع

وليكون العبد حذِراً من بغتات الآجال، في كلّ الأحوال، والله يطيل للمولى العمر، كما أطال له في القَدْر [ويُسمع منه ولا يُسمع فيه، ويبقيه سنداً للدين الحنيفيّ فإن بقاءه يكفيه][2].

* * *

(١) ولد سنة (٥٢٧ هـ) بالموصل، وولي القضاء فيها، وفي «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ٥٧، لقبه محيي الدين، ولعله خلط بينه وبين أخيه محيي الدين محمد، وهو مشهور.

انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤٨، و «ديوان ابن التعاويذي»: ٣٣٧ ــ ٣٣٩ ففيه قصيدة في مدحه، مطلعها:

حللت حلول الغيث في البلد المحل وإن جَلَّ ما تولي يداك عن المِثْلِ

وكان قد ورد بغداد رسولاً من قبل نور الدين سنة (٥٦٩ هـ)، وأشار ابن خلكان: ٤/ ٢٤٢ إلى ولد آخر للكمال هو جلال الدين أبو أجمد، ترجم له الإسنوي في «طبقاته»: ٢/ ١٠١ وسماه عبد الرحمن، وذكر أنه مات شاباً في حياة والده سنة (٥٦٦ هـ) وعلى هذا يكون لكمال الدين ثلاثة أولاد هم: عماد الدين أحمد، وجلال الدين عبد الرحمن، ومحيي الدين محمد.

(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٩٢، وما بين حاصرتين منه، وهي مثبتة في طبعة وادي النيل: ١/ ٢٧٨.

آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني:

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمس مئة، قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدَّم من أكابر الأمراء.

ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وست مئة، غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمنتفع به والمطلع عليه وجميع المسلمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين[1].

[نجز الجزء الثاني من كتاب الروضتين
ويليه الجزء الثالث
ويبدأ بحوادث سنة (٥٧٤ هـ)]

(١) في هامش الأصل: بلغ مقابلة بأصله.

المحتوى